- ١ -

ملاحظات حول فتح العرب لأسبانيا

لاشك أن موضوع فتح العرب لاسبانيا، موضوع مطروق ومعروف من قديم . وقد لاحظ ذلك الوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب (توفى سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م) حينما قال [١] « وحديث الفتح وما منّ الله به على الاسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير على موسى بن نصير ، وكُتب من جهاد لطارق بن زياد ، مطول قصاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظم امتشاش[٢]، وآلة معلقة فى دكان قشاش ! [٣]

والواقع انى لست الآن بصدد كتابة تاريخ لهذه الفترة ، وإنما هى مجرد ملاحظات بدت لى من خلال قراءاتى لكتب التاريخ التى أرخت لهذا الفتح العربى الكبير . وقد حصرت هذه الملاحظات فى النقاط التالية :-

---

(١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٥ — ٦ (الجزء الخاص - بالاندلس نشر ليفى بروفنسال) المقرى ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ٢١٥)

(٢) أى العظم الذى استخرج ما به من النخاع

(٣) أى الدكان الذى يجمع أصغر الاشياء ، إذ أن القشاش هو الكناس .

أولا ـ نشأة البحرية العربية وأثرها فى فتح المغرب والاندلس .

كان احتلال المسلمين الأوائل للشام طعنة نافذة فى جسم الامبراطورية البيزنطية شطرتهـــا إلى شطرين : الامبراطورية الأم فى آسيا الصغرى وماوراءها ، ثم الولايات التابعة لها مثل مصر وإفريقية .

ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الامبراطورية الا البحر المتوسط، ولهذا لعب هذا البحر دورا هاما فى محاولة إنقاذ الامبراطورية على يد البيزنطيين ، وفى محاولة تصفيتها على يد المسلمين (١) .

فكلا الفريقين ركب البحر ليعاود خصمه ، وكان النصر بعد ذلك حليف العرب ، لأن إرادة التغيير المنبثقة من روح الدين الجديد قد أشعرتهم بذاتهم التى كانوا غافلين عنها ، ودفعتهم إلى تلك الحركة التوسعيه التى شملت الشام ومصر وإفريقية وما يليها غربا كنتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الاسلامية . ولم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان ، أن وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط من شواطىء طويلة تمتد من طرسوس شمالا الى برقة وتونس جنوبا ، ويواجهون اعداءا ألداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هـــذه الشواطىء الاسلامية .

---

(١) شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول الهجرى ص ٨٢

لهذا أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربى مضاد ، فأخذوا فى إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية فى معظم المرافىء الممتدة على طول هذه الشواطىء مثل صور وعكا وطرابلس ودمياط ورشيد وتنيس والاسكندرية ثم برقة وتونس .

كذلك لجأوا إلى تحصين السواحل بالقلاع والمراقب والمناور ، كما عمدوا إلى نقل أهالى البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية، ومنحوهم فيها الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة ، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى .

فيروى البلاذرى أن معاوية نقل قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية إلى سواحل الاردن وصور وعكا ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك إلى انطاكية ، كما نقل قوما من زط البصرة إلى السواحل ؛ وانزل بعضهم انطاكية [١] .

كذلك يؤثر عن معاوية أنه اعتمد على القبائل الكلبية اليمنية فى العمليات البحرية فى الشام لما عرف عنها من طاعة وتنظيم ، ولأنها كانت

---

(١) راجع (البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٣ — ١٦٦) راجع كذلك (فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ج١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ ؛ ابراهيم العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠) وكذلك :

Fahmy : muslim sea power from the seventh to the Tenth Century A.D .p. 52 (1950)

تفوق منافسيها من القبائل القيسية في هذا المضمار (١) . كذلك اعتمد معاوية على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت انها أفضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال (٢) .

ولقد سار الامويون على نفس هذه السياسة عند تعمير سواحل افريقية ، وفي هذا المعنى يروى البكرى عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس ، أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٩ هـ - ٨٤ هـ / ٦٦٨ - ٧٠٣ م) كتب إلى أخيه عبد العزيز والى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهى تونس . وكتب الى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبنى لهم دار صنعة تكون قوة وعدة للمسلمين ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر ؛ وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغاروا منها على ساحل الروم . وقد نفذ حسان أوامر الخليفة وانشأ هذه القاعدة الحربية الاسلامية الجديدة التي عرفت بميناء تونس والتي صارت تخرج منها

(١) يلاحظ أن الامويين في الاندلس أعتمدوا كذلك على اليمنيين القضاعيين في حراسة سواحلهم الشرقية بنواحى بجانة pechina . انظر (الحميرى : الروض المعطار ص ٣٧) .

(٢) راجع (فلهلم هونيرباخ : البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، ص ١٤ — ٢٠ ، تطوان ١٩٥٤) ومن العائلات القبطية التي اشتهرت بصناعة السفن في مصر سنة ٧٠٩ م على عهد الأمويين ، نذكر عائلة بنى بج التي يبدو من اسمها كانت يونانية الاصل (نفس المرجع السابق)

أساطيل المغرب تحمل راية الاسلام فى غرب البحر المتوسط ، وهكذا أصبحت افريقية مركزا بحريا إلى جانب الشام ومصر[1] .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء أكانوا عربا أو بيزنطيين ، أن سياسة التوسع العربى التى قام بها الامويون فى شمال أفريقيا، كانت تهدف فى أساسها إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الادرياتى ودالمسيا ، أو بعبارة أخرى غزو الامبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب إلى جانب الحملات التى كانت سائدة عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق ، لكى يتم للمسلمين بذلك تطويق القسطنطينية وخنقها .

ويبدو أن أباطرة البيزنطيين قد أدركوا أهداف السياسة العربية بدليل أنهم بذلوا مجهودات لحماية هذه الاجزاء الغربية من الامبراطورية لدرجة أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثانى خليفة هرقل ، اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهى ترك عاصمته القسطنطينية سنة ٤٢ هـ سنة ٦٦٢ م والإقامة فى روما وصقلية كى يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن هذه الأجزاء الغربية من الامبراطورية فى حوض البحر المتوسط ، أو كما يقول هو نفسه لحماية الأم قبل حماية البنت ، ويعنى بذلك حماية روما أم الملك ومركزه ، فهى أعظم من القسطنطينية بطبيعة الحال . وظل هذا الامبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربى إلى أن اغتيل بيد أحد قواده فى مدينة سرقوسة شرقى صقلية سنة ٦٦٨ م .

---

(١) راجع (البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٣٨ - ٣٩ (نشر دى سلان ، الجزائر ١٩١١)، ابراهيم أحمد العدوى الامويون والبيزنطيون ص ٢٦٠)

وخلفه ابن قسطنطين الرابع الذى سار على نفس سياسة والده فى مقاومة غارات الأساطيل العربية (١) .

ولقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة الهامة ، وأشاروا اليها فى كتبهم ، ومثال ذلك قول ابن الأثير فى كلامه عن جزيرة صقلية : « وعمرها الروم من جميع الجهات ، وعمروا فيها الحصون والمعاقل ، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما صادفوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم » .

ثم يضيف فى موضع آخر : « وكان الروم قد حصنوها وأنشأوا فيها أسطولا كانوا يهاجمون به مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم (٢) » على أن هذه الاستعدادات الحربية العظيمة التى قام بها البيزنطيون فى ممتلكاتهم الغربية وفى جزيرة صقلية بوجه خاص لم تحل دون تصميم المسلمين على غزوها وغزو غيرها من جزر الحوض الغربى للبحر المتوسط : فيروى ابن الخطيب أن أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين

---

(١) راجع J . B . Bury : The Naval Policy of the Roman Empire in relation to the Western Provinces from the 7th to the 9th Century - Centenario della Nacita di mcihel Amari Vol. II p . 21 — 34 (1910).

وكذلك (أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٩٤)

(٢) راجع (ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية ص ٢٢٠) .

اليها من قبل الخليفة عثمان رضى الله عنه ثم معاوية بعده، الأمير معاوية بين حديج الكندى سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها ثم بعث اليها معاوية ، رحمه الله ، عبد الله بن قيس الفزارى ، ففتحها وغنم وأصاب فيها أصناما من ذهب وفضة مكللة بالجوهر ، فحملها إلى معاوية بن أبي سفيان فرأى أن يبعها قائمة أكثر لثمنها فبعثها إلى الهند فأنكر الناس عليه ذلك انكارا شديدا [1] .

كذلك يروى ابن عذارى رواية غريبة تفيد بأن الأندلس دخلها عبدالله بن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن الحصين، الفهريان، من جهة البحر فى زمن عثمان وأن ذلك كان سنة ٢٧ هـ . وهذه الرواية - ان صحت - فإنها تدل على قوة البحرية الاسلامية فى هذه الفترة المبكرة [2] .

على أن الذى يهمنا فى هذا الصدد ، هو أنه لما تولى التابعى المشهور موسى بن نصير إمارة إفريقية سنة ٨٥ هـ ، تبنى مشروع غزو صقلية

---

(١) راجع المحاولات التى قام بها المسلمون الأوائل فى غزو صقلية منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان فى (ابن الخطيب ، عمل الأعلام القسم الخاص بالمغرب ؛ نشر أحمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى ص ١٠٨ وما بعدها (الدار البيضاء ١٩٦٤) هذا ومن المعروف أن جزيرة صقلية سقطت فى يد المسلمين منذ حملة قاضى القيروان على عهد الأغالبة الامام أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧م)

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٥ .

وما يليها غربا من جزر الأعداء فى خوض البحر المتوسط فاهتم موسى فى بادىء الأمر بتحديد وتوسيع دار الصناعة بتونس التى أسسها حسان بن النعمان من قبل كما أمر بصناعة مائة مركب فيها [1] ثم أخذ يوجه حملات بحرية بعيدة المدى إلى صقلية وسردانية والجزر الشرقية أو جزر البليار - (ميورقة ومينورقة ويابسة).

ويفهم من كلام ابن قتيبة أن موسى وجه حملتين إلى صقلية : الأولى كانت سنة ٨٥ هـ سنة (٧٠٤ م)، وفيها أمر الناس بالتأهب لركوب البحر وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا، ثم شحن فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب ، حتى إذا ركبوا فى الفلك ولم يبق أحد الا أن يرفع ، دعا برمح فعقده لولده عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم ، وأمره ثم أمره أن يرفع من ساعته . وانما أراد موسى بما أشار من مسيره أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت غزوة الأشراف . ثم سار عبد الله بن موسى فى مراكبه فأصاب فى غزوته تلك صقلية ، فافتتح مدينة فيها فأصاب مالا يدرى ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبا ، وكان المسلمون مابين الألف إلى التسعمائة ثم انصرف قافلا سالما [2] .

أما الحملة الثانية على صقلية فكانت فى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م)، عقد

---

(١) ابن قتيبة . الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٠

(٢) ابن قتيبة . الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١٢

موسى قياداتها لصاحب شرطته عياش بن أخيل الذى أغار عـــلى مدينة سرقوسة فغنمها وجميع مابها وقفل سالما غانما . (١)

أما عن حملة موسى على جزيرة سردانية فيجعلها ابن قتيبة فى سنة ٨٩ هـ (٨٠٧ م) ثم يقول : «وقام عبد الله بن مرة بطالعة أهل مصر على موسى فى تسع وثمانين ، فعقد له موسى على بحر أفريقيـــة فأصاب سردانية وافتتح مدائنها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والحرث وغيره (٢) .

أما عن حمله موسى على الجزر الشرقية أو جزر البليار ، فروايات المؤرخين تشير إلى أنها كانت فى نفس تلك السنة (٨٩ هـ) وأنها كانت بقيادة موسى بن نصير نفسه أو ابنه عبد الله ثم عادت إفريقية محملة بالغنائم والأسرى .

ويبدو أن حاكم أو ملك جزيرة ميورقة البيزنطى كان من هؤلاء الأسرى بدليل أن المراجـــع التى تحدثت عن عودة موسى إلى المشرق أشارت إلى أن موسى اصطحب معه فى هذه الرحلة ملك ميورقة وعشرين

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢ ، ١٢٤ ، ابن عذارى . البيـــان المغرب جـ١ ص ٣٦ (طبعة بيروت)

(٢) ابن قتيبة نفس المرجع جـ٢ ص ١١٢ .

ملكا من ملوك جزائر الروم ومائة من ملوك الأندلس ... الخ. (١)

هذا ويضيف ابن قتيبة أن والى مصر عبد العزيز بن مروان، وجه حملة بحرية إلى جزيرة سردانية بقيادة عطاء بن نافع الهذلى(٢)، فأرسى فى طريقه بميناء سوسة وأخرج اليه موسى الأسواق، وكتب اليه: «إن ركوب البحر قد فات فى هذا الوقت وفى هـذا العام، فأقم ولاتغرر بنفسك فإنك فى تشرين الآخر (نوفمبر)، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر. غير أن عطاء لم يلتفت إلى نصيحة موسى، وأبحر فى مراكبه إلى الجزيرة المذكورة، وأصاب فيها مغانم كثيرة وأشياء عظيمة ثم انصرف قافلا فأصابته ريح عاصف قرب شواطىء إفريقية، وغرق عطاء وأصحابه، وقذفت الأمواج بعض المراكب، ومن نجا من البحارة، فأدخلهم دار الصناعة بتونس (٣).

وعلى الرغم من أن المراجع المعاصرة لم تحدد لنا الوضع السياسى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١١٢، ابن عذارى: البيان المغرب ج٢ ص ٣٠ ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج٢ ص ١٣٠ راجع كذلك:

R. Miguel Alcover: El Islam en Mallorca p. 3 — 4 (Palma de Mallorca 1930)

(١) فى رواية أخرى: عطاء بن رافع مولى هذيل. راجع (ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس ص ١٠٢ (نشر جاتو)، ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٠ - ١١١، دكتور سعد زغلول. تاريخ المغرب العربى ص ٢١٥-٢١٦).

(٢) راجع كذلك الحاشية السابقة.

الذى كانت عليه كل من جزيرة سردانيه وجزر البليار فى القرنين السابع والثامن الميلادى ، إلا أن أغلب المؤرخين الاوربيين يؤكدون بأنها لم تكن تابعة لحكم القوط فى أسبانيا ، وإنما كانت جزءاً من الامبراطورية البيزنطية، وأن حكام هذه الجزر استطاعوا بمرور الوقت أن يتمتعوا بشيء من الاستقلال الذاتى [١] .

ولعل هـذا الرأى يفسر لنا مدى اهتمام المسلمين بمثـل هـذه الغارات البحرية، التى كان هدفها الاساسى منذ البداية ، هو تصفية ممتلكات وقواعد الدولة البيزنطية فى حوض البحر المتوسط قبل المضى فى غزو أسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فإن النصوص السابقة تبين لنا بوضـوح أن موسى ابن نصير لم يكن قائدا بريا فحسب ، بل كان أيضا قائدا بحريا خبـيرا بشئون البحر وأجوائه وتقلباته، وأن نفوذه فى حوض البحر المتوسط كان قويا بفضل أساطيله وقواعده البحرية التى امتدت من مصر شرقا الى المحيط لاطلسى غربا ، هذا فضلاً عما كان يوجد تحت يده من الموارد اللازمة لبناء السفن ، كالحديد والأخشاب التى مازالت توجد بكثرة كموارد طبيعية فى بلاد المغرب .

ومن هذا نرى أن موسى بن نصير كان لديه من الامكانيات ما يجعله

(١) راجع Alvaro Campanery Fuertes: Bosquejo Historico de la dominacion Islamita en las Baleares p. 2 - 8)

يفكر فى غزو روما أو القسطنطينية، إما عبر صقلية وإيطاليا ، كما فعل حديثا القائد الانجليزى مونتجمرى فى الحرب العالمية الثانية ، وإما عبر أسبانيا وأوربا كما فعل قديما القائد القرطاجنى هانيبال . وقد يؤيد ذلك تلك التصريحات التى أدلى بها موسى نفسه فيما بعد ، مثل قوله « أما والله لو انقادوا الىّ» لقدتهم الى رومية ثم يفتحها الله على يدى انشاء الله . »[1] وقوله : « تالله لو ساعدتمونى ، لسرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى وافتتحها بإذن الله . »[2]

ومن الطريف أن بعض المؤرخين أمثال ابن بشكوال وابن سعيد والمقرى نسبوا إلى الخليفة عثمان بن عفان تصريحا مماثلا يقول فيه بأن فتح القسطنطينية أو رومية انما يكون من قبل الاندلس [3].

وهذا التصريح وإن كان يبدو سابقا لأوانه من الناحية الزمنية ، إلا أنه يدل على أن فكرة القضاء على الدولة البيزنطية من هـــذه الجهات الغربية كانت مختمرة فى أذهان المسلمين قبل عهد موسى بن نصير كما سبق أن أشرنا .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٨ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩

(٢) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء — القسم الخاص بالاندلس — ص ٤٩ نشر احمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥ (تحت الطبع) تاريخ عبد الملك بن حبيب — القسم الخاص بالاندلس — ص ٢٢٧ نشر محمود مكى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٠

وكيفما كان الأمر فإنه يتضح لنا مما تقدم أن موسى قد استطاع بفضل قوته البحرية ، أن يشل حركة الأسطول البيزنطى فى غرب حوض البحر المتوسط ، وأن يتجنب بذلك الخطأ الذى وقع فيه عقبه بن نافع منذ عشرين سنة بالحصول على أسطول مماثل ليحمى ظهره وجناحه مما أدى إلى مصرعه [١] . وهكذا أستطاع موسى بفضل سياسته البحرية الحكيمة أن يقدم بكل اطمئنان على فتح أسبانيا بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته من خطر البيزنطيين .

ثانيا ــ التخطيط لفتح اسبانيا :

إذا تصفحنا كتب التاريخ التى تناولت الفتوحات العربية ، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوح بهالة من الخيال والتنبؤات ، ونسبت الى المسلمين وقوادهم أعمالا خارقة للبشر ، لأن العناية الآلهية كانت معهم تتقدهم وترعاهم رغم قلتهم ، وتقودهم الى النصر دائما كما لو كان الأمر يتعلق بمعجـــزة من المعجزات [٢] .

والحقيقة إن هذه الصورة ، لاتنطبق على الواقع التاريخى ، لأن القيادة العليا

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى . ص ١٠٢

(٢) حول هذه التنبؤات راجع (ابن الاثير ح ٤ ص ٢٦٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ح ٤ ص ٤٠٣ ، تاريخ عبد الملك بن حبيب فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ ص ٢٢١ ، ابن الكردبوس فى مجلة معهد مدريد سنة ١٩٦٥ ، عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ٧٧ حاشية ٣)

المسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها، فلم تقدم على أى عمل حربى، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة، حفظا لأرواح المسلمين.

وكما كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده فى اجتماع الجابية سنة ١٨ هـ، كذلك كان فتح المسلمين لاسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضا، أقرها الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بدمشق، باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير. وفى ذلك يقول عريب بن سعد: «فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض اليه بنفسه، على خلاف فى ذلك، فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولايغرر بالمسلمين»[1].

وتنفيذا لأوامر الخليفة، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب أسبانيا لجس النبض. فاستدعى فى بادىء الأمر حليفة ومحرضه على غزو أسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبتة وقال له: «إننا لانشك فى

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب حـ ٢ ص ٦، وقد أوردت المراجع الأخرى هذه العبارة بصيغ مختلفة مثل قولها: فكتب الخليفة الى موسى أن خضها بالسرايا حتى تختبر ولاتغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال، فكتب اليه موسى: انه ليس ببحر، وانما هو خليج يبين ماوراءه، فكتب إليه الوليد: وإن كان فلابد من اختباره بالسرايا.

أنظر (أخبار مجموعة ص ٦ ؛ الحميرى: الروض المعطار ص ٨ ؛ المقرى: نفح الطيب حـ ١ ص ٢٣٧ ؛ ابن الاثير: الكامل حـ ٤ ص ١٠٩)

قولك ولا نرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لايعرفونها، وبيننا وبينها البحر، وبينك وبين ملكك روذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين، فجز اليه بنفسك وشن الغارة على بلاده، واقطع مابينك وبينه، وإذ ذاك تطيب النفس عليك، ونحن من ورائك إن شاء الله . فانصرف يوليان وحشد جيوشه، وجاز فى مركبين إلى الإندلس، وشن الغارة على الساحل الجنوبى ، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا، وشاع الخبر فى كل قطر فتحمس الناس للغزو [1] » .

ولم يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التى قام بها يوليان، بل استدعى ضابطا من ضباطه يدعى طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرعة [2]، وأمره بشن الغارة على ساحل اسبانيا الجنوبى ، فعبر طريف المضيق فى مائة فارس وأربعمائة راجل، وذلك فى رمضان سنة ٩١هـ (يوليه سنة ٧١٠م)، وهناك فى المكان المعروف باسمه حتى اليوم Tarifa، نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التى تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا ورجع سالما [3] ، فتبين لموسى أن ماقاله يوليان عن ضعف المقاومة الاسبانية كان صحيحا ، فيعد جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لغزو الاندلس،

---

(١) ابن الكردبوس ، المرجع السابق

(٢) يرد اسمه فى المصادر المسيحية على شكل Tarif Abenzarca .
راجع (Alfonso el Sabio : Primera Cronica General de Espana t. I. p. 308 (Madrid 1955)

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ .

بقيادة قائده طارق بن زياد (١) نائبه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لاسبانيا ، لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية ، بل كان فتحا منظما حسب خطة موضوعة من قبل .

ثالثا ـ عبور المسلمين الى اسبانيا :

من المسائل الهامة التى نلاحظهـــا فى كتابات المؤرخين القدامى والمحدثين، هى مسألة عبور جيوش المسلمين إلى أسبانيا . إذ يفهم من كلامهم أن الجيوش الاسلامية التى بعث بها موسى بن نصير إلى الأندلس سواء بقيادة طريف أو طارق، كانت جيوشا برية فقط، وأن موسى اعتمد فى نقلها عبر المضيق إما على مراكب الكونت يوليان (٢)، وإما على مراكب

---

(١) اختلف المؤرخون حول شخصية طارق ، فهنـــاك فريق يرى أنه فارس همذانى وأنه كان مولى لموسى بن نصير . وهناك فريق آخر ينكر ولاءه لموسى وقال إنما هو رجل من قبيلة الصدف - بكسر الدال أو فتحها - أو مولى لهم . والصدف قبيلة فى كهلان اليمنية ثم انتشر معظمها فى مصر وفى بلاد المغرب حيث توجد قرية باسمهم بالقرب من القيروان . ويفهم من ذلك أن طارق عربى الأصل وهو رأى مشكوك فيه لغموض نسب طارق وقد جرت العادة أن يهتم العرب بأنسابهم . وهناك فريق ثالث يرى أنه مغربى من قبيلة نفزه البربرية وهـــو الرأى الغالب فى نظر المؤرخين بدليل أن معظم جنوده كانوا من البربر .

راجع (المقرى : فتح الطيب حـ ١ ص ٢٢٤ ، صفى الدين البغدادى ، مراصد الاطلاع حـ ٢ ص ٨٣٥).

(٢) أخبار مجموعة ص ٦ ؛ المقرى . نفح الطيب حـ ١ ص ٢٣٨ ؛ ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس ص ٩٠ (نشر جاتو A. Gateau)

تجار الروم التى كانت تختلف إلى الأندلس [1]، وأن الكونت يوليان هو الذى تولى عملية نقلهم فى كلتا الحالتين . والواقع إن هذه الروايات تبدو غريبة من حيث الواقع التاريخى، إذ أنها لاتتفق مع سياسة الدولة الاموية بوجه عام، ولامع سياسة الخليفة الوليد بن عبد الملك بوجه خاص، التى تقوم على عدم المغامرة بأرواح المسلمين فى البحر أو البر إلا بعد إتخاذ الاحتياطات الحربية التى تكفل سلامتهم، مثل إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال البعوث والسرايا قبل القيام بهجوم حربى .

والأحداث التاريخية السابقة لهذا الغزو الاسلامى لإسبانيا تشهد بصواب هذا الرأى ، خصوصا بعد أن تبين لنـــا مدى إمكانيات موسى بن نصير وخبرته وبلائه فى حوض البحر المتوسط .

والرأى الصائب فى نظرنا هو أن موسى اعتمد فى فتح أسبانيا عـــلى أساطيله العربية التى كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربى ، إذ لايعقل أن تكون أربع سفن فقط كافيـة لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف [2] محارب عدا الخيل والعتاد . كما أنه لايعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبى — مهما خلصت نيته —

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ح ٢ ص ٨

(٢) هذا هو الرأى الغالب ، كما ورد فى كتاب (أخبار مجموعة ص ٦ ، المقرى : نفح الطيب ح ١ ص ٢٣٨ وفى روايات أخرى ١٢ ألفا . ١٠ آلاف المقرى : نفح الطيب ح ١ ص ٢١٦)

بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التى تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين .

وعلى الرغم من أن النصوص التى لدينا لا تساعدنا للأسف فى تدعيم هذا الرأى، إلا أنها مع ذلك تعطينا إشارات متفرقة تعبر عن النشاط البحرى الذى بذله كل من موسى وطارق إستعدادا لفتح أسبانيا . ومن أمثلة هذه العبارات :

« ووجه موسى بن نصير مولاه طارقا إلى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه [١] «...» وذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقا مولاه إلى طنجه وما هنالك فافتتح مدائن البربر وقلاعها ثم كتب إلى موسى إنى قد أصبت ست سفائن ، فكتب اليه موسى أن أتمها سبعا ثم سيرها إلى شاطىء البحر واستعد لشحنها [٢] « ... » ومضى طارق لسبته وجاز فى مراكبه (كذا) إلى جبل فأرسى فيه فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن [٣] « وأمر موسى طارقا بالدخول فحشد (بياض ولعله السفن) فلما دخل السفن مع أصحابه ... » [٤] « فاختلفت السفن بالرجال والخيل وضمهم

---

(١) عبد الملك بن حبيب (المرجع السابق ص ٢٢١)

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٥ ، ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٠

(٣) ابن الكرديوس . المرجع السابق ص ١٢

(٤) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨

إلى جبل على شط البحر منيع فنزله طارق والمراكب تختلف ... [١] ، فلما استقرت لموسى القواعد ولم يبق بالبلاد من ينازعه ، كتب إلى طارق يأمره بغزو الأندلس ، فامتثل طـــارق أمره ، وركب البحر إلى الجزيرة الخضراء [٢] ، هذه العبارات وأمثالها وإن كانت قد وردت متناثرة فى روايات مختلفة ، الا أنها تحمل فى طياتها نشاطا واستعدادا بحريا واعتمادا على القوى البحرية الذاتية فى سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم .

رابعا ـ معركة جبل طارق

من الملاحظات الهامة التى تأخذها على الرواية الاسلامية بصفة عامة، أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد عـــلى الساحل الاسبانى ، فقد أجمع معظمها وفى اختصار شديد على أن طارق قد حط فى الجبل المنسوب اليه دون أن يلقى مقاومة تذكر . وهذه الرواية تحتاج إلى شىء من التفكير لأن هذا الجبل يمثل موقعا استراتيجيا هاما منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فهو همزة الوصل بين عدوتى المغرب والأندلس ، والمتحكم فى مضيق المجاز ضد أى عدوان على اسبانيا من هذه الناحية الجنوبية. ولقد أدرك الفينيقيون من قديم أهمية هـــذا الموقع حينما احتلوا شواطىء عدوتى المغرب والأندلس ، فأقاموا على هذا الجبل أبراجا للمراقبين ، ولم يسمحوا لأى دولة أخرى مشاركتهم فى استغلال تلك المناطق الغربية ، وحددوا الساحل الشرقى الاسبانى كأقصى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٧

(٢) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٠٣

حد يمكن الوصول اليه ، ولم يترددوا فى إغراق كل سفينة تحـاول عبور المضيق . Non plus ultra (١)

وأطلقوا على هذا الجبل اسم Mons Calpe وهى تسمية فينيقية بمعنى الجبل المجوف ، وهم يعينون بذلك تلك المغارة الكبيرة التى فيه، والتى سماها الاسبان باسم القديس ميخائيل San Miguel ، كما يسميها الانجليز مغارة القديس جورج Saint George ، وقد أشار الحميرى إلى هذا الغار وقال إنه كان يعرف بغار « الأقدام » لوجود آثار أقدام فيه (٢) .

ولقد تداول حكم اسبانيا بعد الفينيقيين ، أبناؤهم القرطاجنيون ثم بعد ذلك الرومان ثم القوط، فحرصوا جميعا على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز، واتخذوا من جبل طارق قاعدة حربية لهذا الغرض . ولاشك أن القوط فى أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين فى الجانب المغربى المقابل لهم، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة، لأن مضيق المجاز الذى يفصل بينهما، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته حوالى ١٥ ك م، وهى مسافة لاوزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين الشاطئين المغربى والاسبانى، يضاف إلى ذلك أن الغـارات التى شنها

---

(1) Bathilde Larsonneur : Hist. de Gibraltar p. 12 & José Carlos de Luna : Hist. de Gibraltar & Ency. of Islam art : Gibraltar by Seybold .

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ١٢١

كل من بوليان وطريف على سواحل اسبانيا الجنوبية، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كي يأخذوا حذرهم من أى هجوم يقع عليهم من هذه الناحية، فلا يعقل بعد ذلك أن يغفل القوط - مهما بلغ ضعفهم - هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة بدون حراسة أو مراقبة؟! وهذا جعلنا على يقين من أن نزول المسلمين فى هذا الجبل لم يتم بمثل هذه السهولة التى تصورها كتب التاريخ ولقد صدق حدسنا حينما وقفنا أخيرا على نص يؤيد هذا الاعتقاد.

وقد ورد هذا النص فى كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، للمؤرخ التونسى أبى مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى، الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى، وفيه يصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل، والمقاومة التى أبداها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك، ثم حركة الالتفاف البارعة التى قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط فى الجبل، والانقضاض عليه فجأة وإبادته عن آخره. وفى ذلك يقول:

« فمضى طارق لسبته وجاز فى مراكبه إلى جبل فأرسى فيه، فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفا فى موضع وطىء كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه فى البر وهم لايعلمون، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم [1] ».

(١) ابن الكردبوس: المرجع السابق ص ١٢ .

هذا الوصف يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم إختلاف الوسائل والعصور ، كما أنه يدل بوضوح على عظم المقاومة التى لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم فى أرض أسبانيا لدرجة انهم اضطروا إلى تغيير خططهم العسكرية التى كانت مقررة من قبل، والنزول ليلا فى مكان آخر صخرى وعر، مستخدمين فى ذلك برازع الدواب ومجاذف السفن كى تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم .

ولاشك أن هذا الانتصار الأول الذى أحرزه طارق عند نزوله، قد مكنه من إحتلال هذا الجبل الذى حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق .

هذا وتنبغى الإشارة هنا إلى أن المؤرخ المغربى ابن عذارى ، الذى عاش بعد ذلك فى أواخر القرن السابع الهجرى ، قد أورد بعض عبارات النص السابق ، ولكن دون أن يشير إلى هذه المعركة التى خاضها طارق مع القوط فى سبيل احتلال هذا الجبل ، وفى ذلك يقول :

« وأول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق ، وذلك لما جاز المسلمون ونزلوا فى المرسى وهم عرب وبربر ، حاولوا الطلوع فى الجبل وهو حجارة حرش ، فوطأوا للدواب بالبراذع ، وطلعوا عليها ، فلما حصلوا فى الجبل بنوا سورا على أنفسهم يسمى سور العرب [١] »

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣

خامسا : حرق المراكب وخطبة طارق :

بقيت بعد ذلك تلك القصة الشائعـــة التي تقول بأن طارق بن زياد قد احرق سفنه بعد نزوله للشاطىء الأسبانى، كى يقطع على جنوده أى تفكير فى التراجع أو الارتداد، ثم خطب فيهم خطبته الشهيرة الطويلة التى يقول فى مطلعها : «أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ... الخ .

والرواية الاسلامية التى تشير إلى حادثة حرق السفن لم ترد - فيما أعلم - إلا فى ثلاثة مراجع أحدها كتاب الاكتفا لابن الكردبوس ، والثانى كتاب نزهـــة المشتاق للشريف الادريسى والثالث كتاب الروض المعطار للحميرى .

فابن الكردبوس بعد أن يصف المعركة التى خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذى سمى باسمه ، يقول فى اختصار شديد : «ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لاصحابه : قاتلوا أو موتوا ! [١] »

أما الإدريسى فإنه يقول فى شىء من التفصيل : «وإنما سمى بجبل

---

(١) إبن الكردبوسى ص ٤٦ — ٤٧

طارق لأن طارق بن عبد الله بن ونمو الزناتي، لما جاز بمن معه من البرابر، وتحصنوا بهذا الجبل، أحس فى نفسه أن العرب لاتثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التى جاز فتبرأ بذلك عما اتهم به (١).

ويكرر صاحب الروض المعطار رواية الإدريسى مع إختلاف بسيط ولكنه هام فيقول: «وإنما سمى بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه، تحصن بهذا الجبل، وقدر أن العرب لا ينزلونه، فأراد أن ينفى عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التى جاز فيها، فتبرأ بذلك مما أتهم به (٢).

ويفهم من رواية أبن الكردبوس، أن طارق أراد بحرق سفنه أن يشحذ همم المقاتلة. أما الادريس والحميرى، فإنه يفهم من كلامها أن طارقا أحس بأن العرب لاتثق به، وقدر أنهم قد لاينزلون معه إلى الجبل، وهذا يعنى أن خلافا وقع بين طارق وبين جنوده العرب الذين يعملون تحت قيادته، فعمد إلى إغراق سفنه كى يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب، فيتخلص بذلك من التهم التى يوجهونها ضده عند القائد الأعلى موسى بن نصير. وكيفما كان الامر، فان جمهرة المؤرخين المحدثين يميلون إلى انكار صحة

---

(١) راجع (القسم الخاص بوصف الاندلس من كتاب نزهة المشتاق للادريسى، نشر وترجمة كوندى Conde ص ٣٦ (مدريد ١٧٩٩)

(٢) الحميرى: الروض المعطار ص ٧٥

هذه الرواية من أساسها كحدث تاريخى . الا أننا فى الواقع لانستطيع نفيها أو إثباتها ، خصوصا وأن هناك روايات مشابهة وردت فى كتب التاريخ قديما [١] وحديثا تشير إلى وقوع أحداثا مماثلة . ولعل أقرب مثال لذلك هو تلك القصة التى يرويها أبو بكر المالكى من أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعوده إلى القيروان، بسبب المجاعة التى حاقت بهم . وفى ذلك يقول : إن أسد بن الفرات وابن قادم قد اختلفا ، وذلك أن أسد لما وصل بالناس فى صقلية ، أضر بالناس الجوع حتى أكلوا لحم الخيل ، فمشى الناس إلى ابن قادم فمضى إلى أسد وقال له : « ارجع بنا إلى افريقية ، فإن حياة رجل مسلم أحب الينا من أهل الشرك كلهم » فقال له أسد : « ماكنت لأكسر غزوة على المسلمين وفى المسلمين خير كثير . » ، فأبى عليه الناس ذلك، فأراد حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة بيّنة ، فقال

---

(١) من الأمثلة القديمة ، ارياط الحبشى الذى لما عبر البحر إلى اليمن أحرق سفنه والقى على جنده خطبة تشبه خطبة طارق فى جنوده ثم تتكرر نفس الحادثة مع القائد الفارسى وهرز الذى بعثه كسرى مع سيف بن ذى يزن الى اليمن لتحريره من الاحباش وقد أحرق سفنه أيضا وقال لجنوده كلاما مشابها لكلام طارق .

راجع (الطبرى : الامم والملوك جـ ٢ ص ١١٩ ؛ جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام طبعة دار الهلال ص ١٤٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ٧٩)

أسد : ق على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان ، ثم تدارك أسد وضربه ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة، فتم له ما أراد وعادت العزيمة إلى الأنفس ، فقاتل الروم قتالا شديدا حتى قتلهم وهزمهم [١] .

وهناك قصة مماثلة يقدمها لنا التاريخ الاسباني وبطلها هو القائد ارنان كورتس Hernan Cortes الذي فتح المكسيك سنة ١٥١٩ م ، فيروى أن هذا القائد الأسبانى أكتشف مؤامرة دبرها جماعة من قواده للهرب بالسفن إلى أسبانيا، عندئذ أمر كورتس بإنزال الجنود والأمتعة إلى الشاطىء الأمريكى ، ثم دس من خرق السفن وأغرقها ليلا كى يحول دون تنفيذ هذه المؤامرة [٢] .

وهذه الرواية تجعلنا نميل إلى الإعتقاد بأن قصة حرق المراكب - إن صحت - كانت شائعة ومعروفة فى أسبانيا لدرجة أن بعض القادة الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها فى بعض أعمالهم الحربية .

---

(١) راجع (أبو عبد الله بن أبى عبد الله المالكى : كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٩)

(٢) أنظر Perez Bustamante:Compendio de la Hist. de Espana p. 245 and Aguado Bleye : Manual de la Hist. de Espana II p. 500).

هذا ومن الطريف أن الاسبان مازالوا يستعملون مثلا شعبيا يقول :

He quemado todos mis naves

ومعناه الحرفى أحرقت جميع سفنى ، ولكنه يستعمل بمعنى بذلت كل ما فى وسعى . فهل لهذا التعبير الشعبى علاقة بحرق السفن أيضا ؟

أما من ناحية الخطبة التى ألقاها طارق على جنوده فقد، وردت فى عدة مراجع مثـــل تاريخ عبد الملك بن حبيب (١) ، وكتاب نفح الطيب للمقرى (٢) ، وكتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى(٣) ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (٤) . أما عامة المراجع الاسلامية فإنها تمر عليها بالصمت التام باستثناء عبارة إبن الكرديوس التى تلخص الخطبة فى كلمتين فقط : « قاتلوا أو موتوا (٥) » .

ولقد شك معظم المؤرخين المحدثين فى نسبة هـذه الخطبة إلى طارق ، على اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على صياغتها ، كما لا يقدر

---

(١) راجع القسم الخاص بالاندلس من هذا الكتاب، نشر محمود مكى ، فى صحيفة معهد الدراسات الأسلامية بمدريد ، ١٩٥٧، المجلد الخامس ص٢٢٢.

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٤٠٤ ، نشر محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

(٥) القسم الخاص بالأندلس فى صحيفة معهـــد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥ (تحت الطبع) .

جنوده على فهمها لأنهم جميعا ـ القائد وجنوده ـ من البربر .

على أن هذا التعليل وإن كان يبدو منطقيا ومعقولا ، إلا أنه لا يمنع من أن طارقا قد خطب جنده على عادة القواد والفاتحين فى مختلف العصور . وإن كنا نعتقد فى هذه الحالة، أن الخطبة لم تكن باللغة العربية، إنما كانت باللسان البربرى أو الغربى ـ كما يسميه المؤرخون القدامى .

ثم جاء كتاب العرب بعد ذلك، فنقلوها إلى العربية فى شىء كثير من الخيال والإضافة والتغيير على عادتهم . وقد يؤيد ذلك أن هناك خطبا كثيرة من هذا النوع قيلت فى هذه المناسبات، فابن صاحب الصلاة يشير إلى الخطب التى ألقاها الشيخ الموحدى أبو محمد عبد الواحد بن عمر فى الجنود باللسان العربى تارة وباللسان الغربى تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى [١] . ويشير ابن الخطيب الى شاعر المرينيين أبى فارس عزوز (ت ٦٩٧) الذى خلط المعرب باللسان الزناتى فى مخاطباتهم [٢] . كذلك يشير المؤرخون إلى الكتب العديدة التى ألفها المهدى بن تومرت بالعربية والبربرية، لافهام الناس تعاليمه ومذهبه، مثـــل كتب الامامة والقواعد والتوحيد [٣] .

---

(١) راجع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ص ١٠٥ نشر عن الهادى التازى، ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٤ ص ٩٧ ، تحقيق هويسى ميراندا ، تطوان ١٩٦٠) .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة لوحه ٢٧٧ ـ ٢٧٩ (نسخة الاسكوريال) .

(٣) الحلل الموشية ص ٨٠ .

ولا زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم فى بلاد المغرب . فالخطب والأخبار ما زالت تذاع بالراديو بالعربية والبربرية التى تنقسم بدورها إلى لهجات متعددة مثل الشلحة وتمازوت والزناتية .

ومن هذا نرى أنه ليس بعيداً بالمرة أن يكون طارق قد خطب جنوده البربر بلسانهم الغربى ، إذ أنه من غير المعقول أن يخاطبوا فى ساحات الوغى وفى مقـــام الجد بلغة لم يتملدوها أو يفهموها ، فكان استعمال اللسان البربرى فى هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة .

سادسا ـ وقعة شذولة :

أقام طارق بن زياد فى جبل طارق عدة أيام ، بنى خلالها سورا أحاط بجيوشه سماه سور العرب [1] . كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره فى حالة الانسحاب أو الهزيمة ، وهى مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras التى سميت أيضا بجزيرة أم حكيم ، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو، ثم تركها فى هذه البلدة فنسبت إليها . ويلاحظ أن موقع هذه الميناء قريب وسهل الاتصال بمدينة سبتة على الساحل المغربى المقابل ، بينما يصعب اتصاله بأسبانيا ذاتها لوجود مرتفعات بينها ،

(١) ذكر ابن جزى محجل رحلة ابن بطوطة (القرن الثامن الهجرى) أنه شاهد بقايا هذا السور الذى بناه طارق . راجع (رحلة ابن بطوطة حـ ٤ ص ٣٥٦ الطبعة الأوربية).

وهذا يدل على حسن اختيار طارق لهذا الموقع الاستراتيجى . كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى فى مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وفى ذلك يقول ابن خلدون : « فصيرهما عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق ، والآخر على طريف بن مالك النخعى ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن [1] » .

وعلم ملك أسبانيا القوطى رذريق Rodrigo خبر نزول المسلمين فى بلاده ، وكان وقتئذ مشغولا فى إخماد ثورة قام بها البشكنس Vascos سكان نافارا فى أقصى شمال أسبانيا . ومن المحتمل جدا ـ كما يقول سافدرا Saavedra أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبايعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين فى أسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع الملك القوطى بالعودة جنوبا بجميع قواته ومعداته وأمواله لملاقاة المسلمين .

وفى خلال ذلك الوقت كان طارق قد زحف نحو الغرب ، متخذا من المرتفعات الجنوبية الساحلية حاميا له من هذه الناحية الجنوبية ، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة يحمى بها مؤخرة جيشه ، ثم واصل زحفه حتى بلغ

(١) راجع المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨) .

بحيرة تعرف باسم لاخندا Laguna de la Janda فى كورة شذونة Sidonia .

وهكذا نجد أن طارقا قد اختار مكانا مناسبا لجيوشه فى هذه المعركة ، فقد جعل منطقة البحيرة أو المستنقعات حاجزا بينه وبين القوط من ناحية ، كما ترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحا لينسحب منه إذا إضطرته الظروف إلى ذلك من ناحية أخرى .

ثم علم طارق من جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التى حشدها له ملك أسبانيا ، فأنزعج طارق لهذا الخبر ، وقد عبر المؤرخون عن هذا الانزعاج بعبارات مختلفة مثل قول ابن قتيبه : « وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ! (١) » وفى هذا المعنى أيضا يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة : « وكتب طارق إلى موسى يستمده ويخبره بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وأن ملك الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به ! (٢) » .

واستجاب موسى لنداء طارق ووجه إليه مددا يقدر بخمسة آلاف جندى فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالى أثنى عشر ألفا .

ولقــد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التى دارت بين

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٨ .
(٢) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٧ .

المسلمين والقوط والتى توقف عليها مصير اسبانيا فى يد المسلمين ، حدثت فى كورة شذونة فى جنوب غرب أسبانيا ، وأنها دامت ثمانية أيام، من الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال سنة ٩٢ هـ / ١٩ - ٢٦ يولية سنة ٧١١ م [١] ، ويصفونها بأنها كانت معركة قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء [٢]، وأنه لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها، وأن عظامهم بقيت فى أرض المعركة دهرا طويلا لم تذهب [٣] وكان النصر فى النهاية حليف المسلمين .

على أننا نلاحظ بصدد هذه الوقعة ، أن الروايات الاسلامية والمسيحية وإن كانت قد أجمعت على وقوعها فى كورة شذونة ، إلا أنها قد اختلفت حول المكان الذى دارت فيه من هذه الكورة الواسعة :

---

(١) تحديد مدة المعركة بثمانية أيام ورد فى عدة مصادر أهمها تاريخ المؤرخ القرطبى أحمد بن موسى الرازى (ت ٣٣٤ هـ - ٩٥٥ م) الذى توجد ترجمته البرتغالية فى :

Crônica Geral de Espanha de 1344, ediçao critica de texto portugués pelo Louis Felipe Lindley Cintra Vol. II, p. 331 (Lisboa 1954).

راجع كذلك (كتاب فتح الأندلس مؤلف مجهول ص ٨ نشر المستعرق الأسبانى خواكين بجونثالث (الجزائر ١٨٨٩) ، ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط - القسم الخاص بالأندلس - الذى أعددته للنشر فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المقرى: نفح الطيب حـ ١ ص ٢٣٣ و ٢٤٣ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٦٦ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٢٦٩) أما ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة فقد أشارا إلى الموقعة دون تحديد مدتها .

(٢) ابن عبدالحكم: كتاب فتوح أفريقية والأندلس ص ٩٦ (نشر وترجمة جاتو، الجزائر ١٩٤٨).

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ١٠ (طبعة بيروت) .

(١) فهناك فريق ـ أمثال ابن خلدون ، والحميرى ، والمؤرخ الأسبانى دى رادا الطليطلى Jimenez De Rada - يرى أنها حدثت شمال كورة شذونة عند وادى لكة Guadalete ، بالقرب من شريش Jerez التى كانت قاعدة لهذه الكورة وتسمى أيضا باسمها شذونة . ولهذا سموها بمعركة وادى لكة أو معركة شريش (١) .

(٢) وهناك فريق آخر تزعمه المستشرق الأسبانى سافدرا Saavedra يرى أنها حدثت فى جنوب كورة شذونة عند إقليم البحيرة ووادى البرباط Rio Barbate ، وهو النهر الذى يخترق هذه البحيرة ويصرف مياهها غربا فى البحر المحيط . ولكى يدعم رأيه افترض أن اسم وادى لكه الذى ورد فى المصادر العربية ما هو الا تحريف لاسم وادى بكه الذى كان يطلق أيضا على وادى البرباط ، لوقوع قرية عليه ـ اندرست الآن ـ اسمها بكه فسمى باسمها . (٢)

(٣) وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ،

---

(١) راجع (الحميرى : الروض المطارس ١٦٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ١ ص٢١٧-٢١٨) وكذلك (Jimenez de Rada : De Rebus Hispaniae, cap. xx)

(٢) راجع (E. Saavedra : Estudio sobre la invasion de. los Arabes en Espana pp 68 - 69)

وبرى دوزى أن المقصود بوادى لكه هو نهر سلادو Salado الذى يقع فى شمال البرباط (R - Dozy . Recherches I, p. 307)

يرى أن هذه المعركة حدثت عند البحيرة بالقرب من المكان السابق عند نهر سلادو Rio Salado ، وعلى هذا الأساس فسر كلمة وادى لكه على أنها تعريب الكلمة Lago أو Locus ومعناها البحيرة (١).

(٤) هناك رأى رابع يرى أن الملك القوطى رذريق قتل فى مكان يسمى السواقى ، وقد افترض سافدرا أن هذا الاسم تحريف للفظ Segoyuela وهو اسم بلدة فى ولاية شلمنقة Salamanca فى شمال أسبانيا . وعلى هذا الاساس بنى نظريته القائلة بأن رذريق لم يمت فى معركة البحيرة التى انهزم فيها أمام طارق بن زياد ، بل فر شمالا إلى ولاية شلمنقة حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين فى معركة ثانية عند البلدة المذكورة آنفا Segoyuela حيث انتهى الأمر بمقتله هناك سنة ٧١٣ م (٢) . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن ثبت عدم صحتها بعد أن ظهرت نصوص جديدة لعريب بن سعد ، وابن الشباط ، ولمؤرخ مجهول الاسم فى كتاب له بعنوان فتح الاندلس ، تشير كلها بوضوح إلى أن السواقى اسم مكان فى كورة شذونة وليس فى شمال أسبانيا (٣) .

ورأينا فى الموضوع بعد كل ماتقدم ، أن هذه المعركة التى توقف

---

(١) راجع Lèvi-provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane tome I p.20 - 21 (paris 1950)

(٢) راجع (Saavedra : Op . cit . p . 99 - 100)

(٣) راجع التفاصيل فى (أحمد مختار العبادى : تاريخ الاندلس ووصفه لابن الكردبوس وابن الشباط نصان جديدان ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد (تحت الطبع)

عليها مصير أسبانيا فى يد المسلمين، كانت أكبر وأعظم من أن تحــــده بمثل هذه الاماكن المحدودة الضيقة، إذ يبدو - كما هو واضح من النصوص - أنها معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق أرض أسبانيا، وحشد فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح، لدرجة روعت طـــارق وأزعجته وجعلته يسارع فى طلب المزيد من القوات . ولاشك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة ، وهذا الهدف الخطير ، وهذه المدة الطويلة التى استغرقتها فى صراع وطراد ومتابعة ، لابد وأن تكون معركة عظيمة تليق بهذا الفتح العظيم ، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذونه أو شمالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة، فهى معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها.

ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ماورد فى كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة ، وادى لكة ، وادى بكة ، وادى البرباط ، شريش ، السواقى ، ماهى فى الواقع إلا تسميات لتلك الاماكن التى دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة فى أراضى كورة شذونة .

هذا ، وقد يشفع لنـــا فى هذا الرأى ، أن جميع المعارك التى حدثت بعد ذلك فى بقيه أنحاء أسبانيا ، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الفاصلة، بحيث لم يستغرق إستيلاء المسلمين على أسبانيا بعد ذلك، رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها أكثر من ثلاث سنوات ؛ وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد انتهت تقريبا .

سابعا : اتمام فتح أسبانيا :

لا شك أن هذا النصر العظيم الذى حققه طارق فى معركة شذونة، قد فتح أبواب الاندلس للمسلمين، واتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالا نحو

العاصمة طليطلة، وفى أثناء زحفة اعترضته قلعة استجة Ecija واستولى عليها، وفى الوقت نفسه أرسل أقساما من جيشه إلى المناطق الجانبية ، فاتجه قسم إلى قرطبه بقيادة مغيث الرومى ، مولى عبد الملك من مروان ، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، واتجه قسم آخر إلى البيرة ونواحيها واستولى عليها .

وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين فى أسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ، ولهذا اعتمد طارق عليهم فى حفظ البلاد المفتوحة ، فى الوقت الذى كان فيه الجيش الاسلامى منفرغا لعملية الغزو .

واستمر طارق فى زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة، فدخلها دون مقاومة تذكر ، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينه شبه خالية تقريبا [1] ، وهنا تشير المصادر العربية باسهاب الى الكنوز والذخائر التى غنمها المسلمون من كنائس المدينه وقصورها.

ثم خشى طارق أن يقطع عليه العدو الطريق فى هذه البلاد الجبلية الوعرة ، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذى بذلوه، وثقلوا بالغنائم التى جمعوها، فاستنجد طارق بقائده موسى ابن نصير .

وفى شهر رمضان ٩٣ هـ (يونيه ٧١٢ م) عبر موسى المضيق بجيش كبير

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧ «طبعة بيروت»

من ثمانية عشر الف مقاتل ، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية ومن بينهم عدد من التابعين ، وقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى بطالعة موسى .

وسار موسى فى طريق غربى غير الطريق الذى سلكه طارق، واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق، مثل قرمونة Carmona واشبيليه Sevilla ، وماردة Mérida ثم التقى بطارق عند نهر التاجو Tajo بالقرب من العاصمة طليطلة .

ثم تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت Pirinios فى أقصى الشمال، وأخذت المدن تتساقط فى أيديها تباعا مثل سرقسطة Zaragoza ووشقه Huesca ولاردة Lerida ، حتى بلغا شاطىء البحر الشمالى Cantabrico عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفه الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ، فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس إبنه عبد العزيز بن موسى بن نصير فى أواخر ٩٥ هـ (٧١٤م).

بقيت مسألة أخيرة يحسن أن نقف عندها قليلا، وهى ماأثارته بعض الروايات العربية من أن موسى لما علم بانتصار طارق، حقد عليه وداخله الحسد والغيرة ، وخشى أن ينسب إلى طارق شرف هذا النصر ، فصمم على الاشتراك فى القتال ، وأبت عليه نفسه ان يسلك نفس الطريق الذى سلكه طارق من قبل ، فأقسم بأن يسير فى طريق آخر أنفة وكبرياء .

وواضح أن أصحاب هذه الرواية ، قد نظروا الى مشروع هذا الغزو العظيم من زاوية شخصية ضيقة تافهة ، إذ لاشك أن كلا القـــائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أى شىء اخر .

وواضح من تحركات الجيوش الاسلامية فى الاندلس ، أن خطة الغزو كانت موضوعـة ومدبرة تدبيرا محكما ، وهى كما رأينا تشبه حركة الكماشه فى المصطلح الحربى الحديث : طارق يســـير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقـــابل له ، وتنتهى حركة الالتفاف أو التطويق هذه ، بالتقاء القائدين عند العاصمة القرطبية نفسها .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيره أيبريا Iberia فى يد المسلمين، ولم يبق منها إلا بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهى كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبرى .

أما شرق الاندلس El Levante ، فقد فتح على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى خلف أباه على ولاية الأندلس ، وكانت المقاومة فى هذه المنطقه قد تركزت فى كورة تدمير [1] وقاعدتها الحصنه أوريوله

---

(١) تدمير هو الاسم القديم لمرسية Murcia ففى ٢١٦ هـ ٨٣١ م اختطت مدينـــة مرسيه أيام الامير عبد الرحمن الاوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسيه بعد ذلك أن صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميت الـــكورة كلها باسمها. راجع العذرى : المسالك والممالك ص ١ — ٥٠ نشر عبد العزيز الأهوانى ؛
ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٦٣ جـ ٢ ص ٣١٦ نشر حسين مؤنس ؛
الحميرى : الروض المعطار ص ١٨١ نشر ليفى بروفنســال)

Orihuela . وقد سميت هذه الولايه بهذا الإسم نسبة إلى إسم صاحبها الأمير القوطى تيودومير الذى استطاع بفطنته وذكائه أن يحصل من عبد العزيز على شروط حسنة ضمنت له استقلاله بولايته فى مقابل جزية سنوية . وتسوق الرواية الاسلامية فى ذلك قصة طريفة تتلخص فى أن تدمير حينما شعر بقلة رجاله وخطورة الغزو الاسلامى ، أمر النساء بنشر شعورهن ، والوقوف مع القلة الباقيه من رجاله على أسوار حصن أوريوله والرماح فى أيديهن، فخيل للمسلمين أن حامية المدينة، كبيرة العدد فقبلوا مبدأ المفارضة ، ونزل اليهم تدمير بنفسه على هيئه رسول ، وأخذ يفارض عبد العزيز حتى استطاع أن يعقد معه صلحا على نفسه وماله وأهل بلدته . ولما تم الصلح كشف تدمير عن شخصيته ، وادخل المسلمين المدينه ،فلم يجدوا فيها إلا عددا قليلا من الرجال (١) .

على أن الذى يهمنا فى هذا الصدد هو نص هذه المعاهدة الذى وصل إلينا عن طريق المؤرخ الاندلسى الضبى (ت ١٢٠٢ م) فى كتابه بغية الملتمس (٢) . وهذا أمر مهم فى حد ذاته لأن المراجع العربية لم تحفظ لنا أمثال هذه المعاهدات القديمة التى يزخر بها التاريخ الاسلامى .

أما الركن الشمالى الغربى ، وهو الاقليم المسمى بأشتوريش Asturias ،

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٧ ، اخبار مجموعة ص ١٣ ،) .

(٢) راجع نص هذه المعاهدة فى (الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ علماء الأندلس ص ٢٥٩) .

فى منطقة جليقية أرغاليسيا Galicia ، فإن المسلمين فى الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماما على هذه النواحى لوعورة مسالكها وبرودة مناخها ، فأهملوا جانبها زهدا فيها واستهانة بشأنها . ولهذا استطاعت بعض فلول الجيش القوطى المنهزم بزعامة قائد منهم يدعى بلاى Pelayo (ت ٧٣٧ م) أن تعتصم بالجبال الشمالية فى هذه المنطقة ، وهى التى يسميها الاسبان بقمم أوربا Picos de Europa وهى عبارة عن ثلاثة جبال شامخة ، القمة الغربية منها تسمى أرنجا Onga وبها مغارة تعرف بكهف أرنجا Covadonga[1] ويسميها العرب صخرة بلاى لأنه اختبأ فيها هو واصحابه حينما حاصرهم المسلمون ، وعاشوا على عسل النحل الذى وجدوه فى عروق الصخر[2] . ولما أعيى المسلمين أمرهم ، تركوهم وانصرفوا عنهم ستخفافا بشأنهم وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجىء منهم ؟[3]

والمصادر الاسبانية تجعل من انسحاب المسلمين عن كوفادونجا نصرا عسكريا وقوميا كبيرا للاسبان ، بل وتذهب إلى أن العناية الإلهية قد تدخلت فى صالحهم ، فصارت سهام المسلمين ترتد إلى صدورهم ، كما انهارت عليهم قطعة من الجبل فقتلتهم عن آخرهم بما فى ذلك قائدهم

---

(١) أصلها Cueva de Onga

(٢) مازالت خلايا النحل منتشرة فى هذا المكان الذى أصبح من المناطق السياحية الهامة هناك - لعل الأسبان أرادوا بذلك أن يضعوا المشاهدين فى نفس هذه الصورة القديمة .

(٣) راجع روايات الرازى والمسعودى وابن حيان وابن سعيد حول هذا الموضوع فى (المقرى : نفح الطيب حـ ٦ ص ٨٢ وما بعدها) وهى كلها تعترف بالخطورة التى نجمت عن إهمال أو احتقار المسلمين الأوائل لهذا الموقع .

المسمى علقمه (١) . أما المصادر العربية فانها وان كانت تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة القاحلة الباردة ، إلا أنها لا تذكر شيئا عن القائد علقمه ولا عن الاساطير الخرافية السالفة الذكر (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فالمهم هنا أن فى هذه البؤرة الصغيرة كوفادونجا ، نبتت نواة دولة أسبانيا النصرانية ، ونبتت معها حركة المقاومة الاسبانية التى أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة ليون . ولقد احاطت هذه المملكة الاسبانية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعرفت هذه الحصون فى المصادر العربية باسم منطقة القلاع ، بينما أسمتها المصادر الاسبانية Castellas أى القلاع كذلك . وكان أمراء هذه القلاع تابعين لملوك ليون ، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشىء من الاستقلال الذاتى كى يتمكنوا من محاربة المسلمين ، كذلك كانت أنظمتهم الادارية بعيدة كل البعد عن النظام الاقطاعى السائد فى مملكة ليون نفسها ، إذ انتشر بين أهالى تلك المنطقة نظام الملكيات الصغيرة حتى يتمكن كل فرد منهم أن يدافع عن أرضه وأهله وأمواله . ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت فى القرن العاشر الميلادى بزعامة أقوى أمرائها فرنان جونثالث Fernan Gonzalez ، واستقلت عن مملكة ليون وصارت تعرف بإمارة Castilla وقد عرب المسلمون هذا اللفظ إلى قشتاله .

---

(١) Luciano Lopez : La Batalla de Covadonga e Historia del Santuario (Oviedo 1950).

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن المراجع الاسلامية وان كانت لم تذكر صراحة اسم هذا القائد علقمة اللخمى ، إلا أنها أشارت فى مناسبات أخرى الى ولده عبد الرحمن وتمام ، ضمن القواد الذين حاربوا فى جنوب فرنسا . راجع كتابه فجر الاندلس ص ٣٢١ وما بعدها .

ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة ذات الأصل الساذج البسيط ، تنمو وتتسع شيئا فشيئا على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى سيطرت على جميع انحاء اسبانيا ، بل وامتد نفوذها بعد ذلك إلى أمريكا مع حركة الكشوف الاسبانية الحديثة ، وصارت لغتهـــا القشتالية هى اللغة الاسبانية الرسمية السائدة فى أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية فيما عدا البرازيل التى تتحدث البرتغالية .

وقد يكون فى هذا الكلام شيء من الاستطراد ، ولكنه استطراد مفيد ما دام يعبر عن المعنى التاريخى الكبير الذى يستتر وراء حادثة بسيطة مثل حادثة كوفادنجا ، ومن هنا ندرك السبب الذى جعل الاسبان يهتمون بعمارة هذا الموقع ، وجعله منطقة سياحية ، ويضعون بلاى فى مصاف القديسين ، ويحجون إليه فى كل عام ، لأن العبرة هنا ليست فى التفاصيل المادية البسيطة لحادثة كوفادونجا ذاتها ، وانما فى الآثار والفوائد السياسية والقومية الكبيرة التى ترتبت عليها .

- ٢ -

الخلافة فى الغرب الاسلامى فى العصر الوسيط

موضوع الخلافة موضوع قديم واسع متشعب ، وقد كثر الكلام والجدال فيه بين العلماء القدامى والحديثين : فبعضهم يقيم هذا النظام على العقل ، لأنه لولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين ، والبعض الآخر يقيمه على الشرع دون العقل ، لأن أول اختصاص للخليفة هو حفظ الشرع . وهناك جدال حول الشروط المعتبرة فى الخليفة ، وحول سلطة الجماعة أو أهل الحل والعقد ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى لا أحب التعرض لها فى هـــذا الموضوع ، وحسبى أن أحيل القارىء إلى بعض ما كتبه علماء الأصول فى هذا الموضوع مثل الماوردى فى أحكامه السلطانية ، وابن خلدون فى مقدمته[1] ، وسعد الدين التفتازانى فى مقاصد الطالبين ، وعبد القادر الفاسى فى رسالته عن الإمامة ، والسيد رشيد رضا فى بحثه القيم عن الخلافة والذى نشره بمجلة المنار القاهرة ١٩٢٣ ، وقد ترجمه إلى الفرنسية ، المستشرق الفرنسى هنرى لاوست [2] . هـذا إلى جانب المستشرقين الذين كتبوا فى موضوع الخلافة أيضا مثـــل توماس

---

(١) ابن خلدون ; المقدمة ص ١٩١.

(٢) راجع Henri Laoust : La Califat dans la Doctrine de Rasid Rida. Beyrouth 1938.

آرنولد (١) . ووليام ميور (٢) ، وجب (٣) ، وغيرهم ، إذا لا يتسع المجال لذكر جميع أسماء من كتبوا هذا الموضوع ، فيكفى ما ذكرت منها على سبيل المثال لا الحصر .

والنقطة التى أحب أن أتناولها فى هذا الموضوع المتشعب ، هى نظام الخلافة فى الغرب الاسلامى ، وما ترتب عليها من أحداث سياسية فى العصور الوسطى .

الخلافة ، والإمامة العظمى ، وإمارة المؤمنين ، ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وعلى هذا الأساس كان تعيين الإمام أو الخليفة واجبـا حتميا على الجماعة الاسلامية .

خلافة الخوارج والشيعة فى المغرب :

كانت الدعوة فى المغرب والأندلس ، عقب الفتح الاسلامى ، قائمة لخلافة دمشق الأمويه التى ما كاد ينتهى أجلها سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) حتى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخلافات إسلامية تدين بمختلف المذاهب .

---

(١) Thomas Arnold : The Caliphate Oxford. 1929 & Ency. of Islam art. Khalifa by T. W. Arnold.

(٢) Muir ; The Caliphate Oxford 1902

(٣) Gibb ; Al Mawardi's theory on the Khalifa, Islamic Culture Vol. XI.

وكان مذهب الخوارج فى بادىء الأمر ، أكثر المذاهب انتشارا بين قبائل البربر ، لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة فى بيت معين أو جنس معين ، ويرى تركها لاختيار الأمة ، فهى التى تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفيا لشروط الخلافة ، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعى والسياسى ، فاتخذوه عنوانا للمعارضة القومية ضد أى سيادة تفرض عليهم . وكانت الصفرية والاباضية أكثر مذاهب الخوارج رواجا فى المغرب ، وأكثرها إعتدالا وتسامحا مع المخالفين ، إذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى مثل مذهب الأزارقة فى المشرق ، فالصفرية والإباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين ، ولا يرون جواز سبي النساء والذرية ، بل ولا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان (١) .

وعلى أساس هــذه المبادىء السابقة ، قامت فى المغرب دولتـان خارجيتان . أحداهما تدين بالمذهب الصفرى ، والأخرى تدين بالمذهب الإباضى .

أما الأولى فهى دولة بنى مدرار أو بنى واسول الصفرية التى قامت فى

(١) راجع (الشهرستانى : الملل والنحل ص١٦٨ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص٦١ ، محمد أبو زهرة : المذاهب الاسلامية ص ١٢٤ - ١٢٥ ، سليمان البارونى النفوسى : الأزهار الرياضية فى أئمة ملوك الاباضية جـ ٢ ص ١٤ وما بعدها) وقد ورد فى تلك المصادر أن الصفرية نسبة الى زياد بن محمد الأصفر . ولهــذا فهم يعرفون أيضا بالزيادية . أما الاباضية فنسبة الى عبد الله بن اباض المرى ، وأنهم دخلوا المغرب فى القرن الثانى للهجرة .

منطقة سجلماسة (تافيلالت الحالية) فى جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠ ﻫ (٧٥٧ م) ومؤسسها كان سودانيا أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصفرى .

واستمرت هذه الدولة زمنا طويلا ، ويلاحظ أن بعض ملوكها خطبوا للخلافة العباسية فى بغداد أمثـــال أبى القاسم الزناتى الصفرى الذى يقول ابن خلدون بأنه خطب فى عمله للمنصور ثم للمهدى من بنى العباس [١] ، كذلك يلاحظ أن عددا آخر من ملوكها ، دعوا للخلافة الشيعية الفاطمية عندما قامت فى المغرب اتقاء لخطرها [٢] ، وأخيرا جاء آخر ملوكها وهو محمد بن الفتح بن مدرار ، فاعتنق المذهب السنى المالكى وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣٤٢ﻫ وتلقب بالشاكر لله ، وضربت بذلك الدراهم والدنانير، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية . ثم انتهت هذه الدولة على يد قائد الفاطميين جوهر الصقلى سنة ٣٤٩ ﻫ (٩٦٠م) [٣] .

أما الدولة الخارجية الثانية ، فهى الدولة الرستمية الإباضية التى قامت فى المغرب الأوسط سنة ١٤٤ ق (٧٦١ م) . ومؤسس هذه الدولة رجل فارس الأصل - كما يقال - وهو عبد الرحمن بن رستم الذى بويع بالخلافة

---

(١) راجع (ابن خلدون : العبر ﺟ ٦ ص ١٣ ، السلاوى . الاستقصا ﺟ ١ ص ١٢٥) .

(٢) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام . القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ، نشر أحمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، الدار البيضاء سنة ١٩٦٤) .

(٣) راجع ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، المرجع السابق ص ١٤٨ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٥١ ، ابن خلدون : العبر ﺟ ٦ ص ١٣٢) .

وصار يلقب بالإمام هو وأبناؤه من بعده ، كما ينص على ذلك ابن صغير والبارونى فيما كتباه عن أئمة الرستميين (١) .

وكانت عاصمة هـــذه الدولة مدينة تاهرت التى بناها عبد الرحمن ابن رستم سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) . وتقع تقريبا فى مكان تياريت الحالية Tiaret فى ولاية وهران Oran غربى الجزائر . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وهاجر اليها التجار والعلماء والطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامى حتى صارت تسمى بالعراق الصغير تشبيها لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الاجناس والملل والنحل (٢) .

ولقد عمل عبد الرحمن بن رستم على تدعيم دولته ، فعقد تحالفا مع الدولة الأموية فى الاندلس ، وكذلك مع الدولة الخارجية الاخرى فى سجلماسة وهى الدولة المدرارية الصفرية ، ونتج عن هذا التحالف الاخير تلك المصاهرة التى تمت بزواج المنتصر بن اليسع بن مدرار على أروى(٣) بنت عبد الرحمن .

---

(١) راجع (Motylinski : chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert, actes du xiv congrés des orientalistes, 3 partie 1907)

راجع كذلك (سليمان البارونى النفوسى : الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية حـ ٢ ص ١٤ ـــ ٤٥ ، أبن خلدون حـ ١ ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ١ ص ٢٧٨)

(٢) راجع (سليمان البارونى : المرجع السابق ، محمد بن تاويت : بزوغ الثقافة العربية بالمغرب ، مجلة تمودا ، تطوان ١٩٥٦)

(٣) يلاحظ أن والدة الخليفة عثمان بن عفان كانت تسمى بهذا الاسم أيضا . (الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٥٩)

ولقد انجب المنتصر من أروى ولدا سماه ميمونا، وهو الذى خلفه فى الحكم بعد ذلك (١) .

ولما توفى عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، ترك الأمر شورى فى سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذى مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون جانبا معارضا ، ولهذا سموا بالنكّار أو النكّارية .

واستمرت هذه الدولة الرستمية تحكم المغرب الأوسط زمنا إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م)

على أن سقوط هذه الدوله لم يكن معناه القضاء على مذهب الاباضية فى المغرب ، بدليل ثورة أبى يزيد الخارجى التى قامت فى جبال أوراس فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وكادت أن تقضى على الدولة الفاطمية فى المغرب . وقد تلقب هذا الزعيم الزناتى الخارجى بلقب شيخ المؤمنين ، واعترف بخلافة عبد الرحمن الناصر فى قرطبة، كى ينال تأييده ، غير أن الفاطميين تمكنوا من إخماد ثورته وقتله بعد كفاح مرير طويل سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٧ م) (٢) .

على أن دعوة الاباضية استمرت ، رغم ذلك ، قائمة فى المغرب ،

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الخاص بالمغرب ص ١٤٣

(٢) راجع (ابن عذارى حـ ١ ص ٣٠٧ ، رحلة التجانى ص ٣٢٦ وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ١٩٥٧)

بدليل أنهم ما زالوا يعيشون إلى اليوم فى جنوب طرابلس بمنطقة مزاب وجبل نفوسة فى ليبيا .

وإلى جوار هاتين الدولتين السابقتين . قامت فى المغرب الأقصى دولة علوية حسنية سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) ، وهى دولة الأشراف الأدارسة ، ومؤسسها هو أبو العلاء إدريس بن عبد الله الأكمل بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى فر إلى المغرب بعد هزيمة العلويين فى موقعة فخ بأحواز مكة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) .

وهناك فى المغرب الأقصى أقام إدريس الأكبر دولته ، وبنى عاصمته مدينة فاس التى أتمها ابنه إدريس الأصغر من بعده .

ويفهم من كلام المؤرخين أن الأدارسة فى المغرب كانوا يلقبون بلقب الإمام(١)، وأن هذه الامامة إنتقلت إليهم بوصاية محمد النفس الزكية لأخيه أدريس الأكبر ، على أساس أن محمد النفس الزكية انعقدت له الإمامة قبل بنى العباس ، وأنه لهــذا السبب كان مالك بن أنس وأبو حنيفة يرجحان أمامته على بنى العباس ، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبى جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة من قبل . كذلك يؤثر عن مالك أنه كان يفتى أهل المدينة خلال ثورة النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ بأنه « ليس على مكره يمين أو طلاق » وهو يقصد بذلك أن من بايع أبا جعفر المنصور مكرها ، فهو فى حــل من بيعته ، وله أن يبايع محمدا النفس الزكية . وقد لحق مالك أذى كبير من جراء ذلك، إذ ضربه العباسيون

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

بالسياط ، ومنعوه من الخوض فى هذا الحديث (١) ، ولا شك أن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه مكانة فى دولة الأدارسة بالمغرب ، بدليل ما رواه ابن خلدون من أن الامام إدريس الأكبر قال فى هذا الصدد : نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه - يعنى الموطأ - وأمر بذلك فى جميع عمالته (٢) .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين كذلك - أن هذه الدولة العلوية الإدريسية ، كانت أيضا موطنا المعتزلة ، وأن قبيلة أوربة التى ساندت الإمام إدريس ، كانت تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل والد الإمام إدريس ، كان يعتبر فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (٣)

ولقد امتد حكم الإدارسة بالمغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران فى المغرب الأوسط . وتوجد فى خزانة الرباط وثيقة هامة ، وهى قطعة من رسالة الامام أدريس الأول إلى أهل مصر ، يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت النبوى الذى ينتمى إليه ، ويصف التضحيات الغالية التى بذلوها فى سبيل حقهم الشرعى الموروث عن الرسول ، ويطالبهم بتأييده ومساندته (٤).

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ ٩ ص٢٠٦ .

(٢) راجع (عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية حـ ١ ص ٨) .

(٣) راجع (اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٨ ، نشر دى خويه ، لندن ١٨٦٠ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١١٨ ، نشر دى سلان ، الجزائر ١٩١١).

(٤) هذه الرسالة حررت بنصها الكامل فى الجزء الثانى من سيرة إمام اليمن المؤيد بالله محمد بن القاسم فى رسالة له وجهها الى أهل المغرب سنة ١٠٤٨ هـ . وهو مخطوط بمكتبة الامبروزيانا بميلانو تحت رقم ١١٥ ورقة ٧١ - ٧٥ . وتوجد صورة لها بخزانة الرباط .

ورسالة الإمام أدريس أو المولى أدريس - كما يسمونه المغاربة - إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الأدارسة ، لم يفكروا فى فصل المغرب عن بقية العالم الاسلامى كما يزعم البعض، بل كانوا يريدون توحيد العالم الاسلامى تحت قيادتهم ، مستندين فى ذلك إلى أصلهم الشريف وشرعيتهم فى الحكم .

ويتضح من الأحداث التاريخية التالية ، أن الخلافة العباسية ، قد خشيت على نفسها من اتساع أهداف الدولة الإدريسية ، فأقامت دولة الأغالبة فى أفريقية (أى القطر التونسى) سنه ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . لتكون حدا فاصلا بين بلادها وبلاد الأدارسة .

ولكن على الرغم من هـــذا الحاجز الذي أقامه العباسيون فى وجه المغرب ، حاول الأدارسة من جانبهم ، استمالة الأغالبة ، وكسب صداقتهم. فى هذا الصدد يقول لسان الدين بن فى الخطيب القسم الثالث من كتابه أعمال الأعلام :

« وكتب إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، القائم بالمغرب ، إلى إبراهيم بن الأغلب ، يستكفيه عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من رسول الله (صلعم) . فأجابه عن كتابه وأودعه ، ولم تجر بينهما حرب » (١) :

ويضيف ابن الخطيب فى موضع آخر من كتابه السالف الذكر :

« ذكر أن الخليفة المأمون ، وجه الى زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب ،

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام - القسم الخاص بالمغرب - ص ١٤ - ١٥ .

كتابا يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر فى مصر ، فلم يرض بذلك زيادة الله ، وأمر بادخال رسول المأمون عليه ليلة وهو ثمل ، ونار عظيمة بين يديه فى كوانين ، وقد احمرت عيناه ، فهال الرسول منظره ، وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه . يأمرنى بالدعاء لعبد خزاعة ؟ هذا ما لا يكون أبدا ، ثم مد يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار ، ودفعه الرسول وصرفه . وكانت فى الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بنى إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه أبدا » (١) .

وواضح من هذا النص ومن النصوص التى قبله ، أن الادارسة قد اتصلوا بأهل مصر كما اتصلوا بأهل تونس ، لدرجة أن بعض ملوك الأغالبة قد هدد فعلا بمبايعتهم والانضمام إليهم .

ثم قامت خلافة العبيديين أو الفاطميين فى المغرب سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٠ م) . ولا شك أن دعوة العلويين الادارسة ، رغم كونها لا تدين بالمذهب الاسماعيلى الشيعى ، إلا أنها مهدت السبيل لدعاة الفاطميين فى المغرب ، وهيأت الاذهان بقبول دعوتهم لآل البيت . واستطاعت الدولة الفاطمية بفضل تأييد بعض القبائل المغربية ، أن تقضى على نفوذ الأغالبة والرستميين والمدراريين بل والادارسة أيضا ، وأن تحقق وحدة مغربية قاعدتها مدينة المهدية فى أفريقية (٢) .

---

(١) ابن الخطيب : المرجع السابق ص ١٧ .

(٢) راجع مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الأسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧) .

والخلافة أو الامامة الفاطمية ، خلافة دينية وراثية تقوم على أساس المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وتستند إلى أساسين هامين : الأساس الأول هو العلم اللدُنىّ أو الإلهى الموروث عن النبى (صلعم) ، عن طريق على بن أبى طالب ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين .

فالإمام عند الفاطميين على هذا الأساس ليس شخصا عاديا بل فوق الناس جميعا : فهو المشرع وهو المنفـــذ ، ولا يُسأل عما يفعل ، لأنه معصوم من الخطأ نتيجة لما ورثه من علوم لدنية عن النبى . وهناك نوعان من العلوم : علم الظاهر وعلم الباطن أى ظاهر القرآن وباطنه ، وقد علم النبى ، عليا بن أبى طالب هذين النوعين من العلوم ، فأطلعه على خفايا الكون والسر المكنون من هذه العلوم ، وكل إمام ورّث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده ، ولهذا كان الإمام معلما أكبر .

ومن هذه النظرة الشيعية للامام نفهم السر فى سبب تقديس الناس له ، والركوع عند مروره ، وتقبيل الأرض بين يديه .

ولعل شعر ابن هانىء الأندلسى ، أكبر شاهد على ذلك ، مثل قوله فى مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى .

هذا ابنُ وحىِ الله تأخذُ هديها عنه الملائكُ بكــــرةً وأصيلا
وعلمتَ من مكنون سرِّ الله ما لم يؤتَ فى الملكوت ميكائيلا(١)

---

(١) راجع (ديوان ابن هانىء الأندلسى ، تحقيق أكرم البستانى ، بيروت ١٩٥٢) .

أما الأساس الثانى للامامة الفاطمية ، فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد . والمعروف فى ذلك أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضية أى أنها ترفض أمامة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وترى ، كما يرى الشيعة عموما ، أن عليا يستحق الخلافة بعد النبى لا عن طريق الكفاية وحدها ، بل عن طريق النص عليه بالإسم . فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، وإنما هى ركن الدين والإسلام ، ولا يمكن للنبى أن يتركها للأمة ، بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوما من الخطأ ، وأن عليا هو الذى عينه النبى إماما بعده .

ويستشهدون فى ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع وفى مكان يسمى بالغدير حيث قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . وقوله : « على منى بمنزلة هارون من موسى » ... الخ .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب علىّ بالوصى ، بينما لقب من جاء بعده بالأئمة ، ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتبة الإمامة وتلى مرتبة النبوة . ثم انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة ، فقالوا . إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين . فالأب ينص على ابنه فى حياته ، ولا يقوم النص فى الإمامة على أساس تولية الابن الأكبر ، فالامام يستطيع أن ينص على أى ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله .

ولقد حاول الفاطميون فرض مذهبهم الشيعى الاسماعيلى على رعاياهم بقوة السيف ، كما حاولوا صبغ الوحدة المغربية بتلك الصبغة المذهبية المتطرفة . غير أن المغرب لم يقبل بهـــذه السيطرة المذهبية الشيعية التى لا تلائم مزاجه وطبيعته ، فخرج عن طاعة الفاطميين ، وأخـــذ يتطلع إلى خلافة سنية جديدة قامت فى الأندلس فى ذلك الوقت ، وهى الخلافة الأموية .

الخلافة الاموية بالاندلس

قامت الخلافة فى الأندلس متأخرة زمن عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وذلك نتيجة للظروف السياسية التى أحاطت بالأندلس فى ذلك الوقت . أما قبل ذلك التاريخ ، فقد مرت الأندلس فى دورين أساسيين : -

الدور الاول : تمتد من سنة ٩٢ - ١٣٨ هـ (٧١١-٧٥٦م) أى منذ الفتح الاسلامى للاندلس إلى قيام الدولة الأموية بها وفيه كانت الأندلس أمارة غير مستقلة وغير وراثية ، تتبع الخلافة الاموية بدمشق ويحكمها والى يعرف بالامير يتبع أمير أفريقية من الناحية الادارية ، بمعنى أن أمـــير القيروان هو الذى كان يعين ولاة الأندلس فى غالب الأحيـــان .

الدور الثانى : تمتد من سنة ١٣٨ - ٣١٦ هـ (٧٥٦ - ٩٢٩م) أى منذ مجىء عبد الرحمن الاول (الداخل) الأندلس وينتهى باعلان عبد الرحمن الثالث نفسه أميرا المؤمنين وتلقبه بالناصر لدين الله .

وفى هذا الدور كانت الاندلس أمارة وراثية مستقلة سياسيا عن خلافة المشرق العباسية .

أما من الناحية الروحية فيفهم من كلام بعض المؤرخين أمثـال ابن الكردبوس (١) وابن أبى دينــار (٢) أن جميع امراء بنى أمية الذين حكموا الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر قد دعوا فى خطبهم الدينية لخلفاء بنى العباس ببغداد رغم العداء السياسى الذى كان قائما بين هاتين الدولتين ، فقالا فى هذا الصدد : وكان ـ أى الناصر ـ من تقدمه من آبائه يخطبون لبنى العبـاس . »

غير أن هذه الرواية فى الواقع لم يقم عليها دليل أو إجماع تاريخى خصوصا وأن إبن أبى دينار السالف الذكر عاد ثانية وناقض عبارته الأولى بقوله : ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد ، وبقى ملكا ثلاثا وثلاثين سنة ، وتداولها بنوه من بعده ولم يخطب أحد منهم لبنى العباس ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن الذى تلقب بالناصر لدين

---

(١) راجع عبد الملك بن الكردبوس . كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء القسم الخاص بالاندلس نشر أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ص ٦٠ - ٦١، المجلد١٣، ١٩٦٥ (تحت الطبع)

(٢) انظر محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص٩٧ ص٤٢ — ٤٣ (تونس ٢٨٦ هـ)

الله وتسمى بأمير المؤمنين [١] .

أما ثقاة مؤرخى الاندلس ، أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقرى فقد حددوا مدة الدعاء لبنى العباس فى الاندلس بفترة قصيرة فقط فى بداية عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك .

فابن حزم فى كتابه « نقط العروس » يقول ان الدعوة للعباسيين استمرت مدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الاول [٢] . كذلك يقول ابن الأبار فى كتابه « الحلة السيراء » وأقام عبد الرحمن (الاول) أشهرا دون السنة يدعو لأبى جعفر المنصور . . . متقيلا فى ذلك يوسف الفهرى فى الدعوة للعباسيين [٣] .

أما المقرى ، فقد أورد لنا رواية طريفة لعلها نقلا عن ابن حيان يبين فيها الظروف والملابسات التى تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين فيقول : « وفر من الشام الامير عبد الملك بن عمر بن مروان الاموى خوفا من المسودة (أى العباسيين)، فمر بمصر ومضى الى الاندلس وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فاكرمه ونوه به وولاه أشبيلية لانه كان قعدد بنى أمية . ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبى جعفر المنصور العباسى ، أشار عليه بقطع إسمه من الخطبه ، وذكره

---

(١) ابن أبى دينار . المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ ، ٩٧

(٢) ابن حزم . كتاب نقط العروس ص ٧٥ نشر شوقى ضيف

(٣) ابن الابار . الحلة السيراء ح ١ ص ٣٥ — ٣٦ نشر حسين مؤنس

بسوء صنيع بنى العباس ببنى أمية، فتوقف عبد الرحمن فى ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين أمتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة للمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر . (١)

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن مايتعلق بدعاء بنى أمية فى قرطبة للعباسيين أمر مبالغ فيه ، وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عهد عبد الرحمن الاول ثم قطعت بعد ذلك نهائيا .

على أنه يلاحظ أن أمراء بنى أمية الذين حكموا قبل الناصر ، وإن كانوا قد قطعوا الدعاء لبنى العباس ، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفه، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف (٢) وهناك فرق كبير بين لقب خليفه وابن خليفة بطبيعة الحال .

ولا شك أن السبب فى ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لاتتجزأ ولا تتعدد ، وأن الخروج عنها عصيان ، وأن الخليفة الشرعى هو حامى حمى الحرمين الشريفين، أى المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية (٣) .

---

(١) المقرى نفح الطيب جـ٤ ص٥٩

(٢) المقرى . نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٨

(٣) راجع (مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٨)

هذا هو الأصل النظرى للخلافة السنية ، غير أن مصلحة العمل ومقتضيات السياسة وتغيرات الظروف فيما بعد، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظرى ووضعه محل الاجتهاد . ومن ثم أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافه مادامت هناك مصلحة تقضى بذلك (١) ، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم فى وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين، وقد يؤيد ذلك مارواه صاحب كتاب الحلل الموشية ، من أن الاندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الامير عبد الرحمن بن محمد (الثالث) على حمل هذين الاسمين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله ، وصاروا يخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسميا وفى ذلك يقول . «وكان بعض أولى الفضل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم قبل أن يلبسه دهره ، وخاطبه به كثير من خاصته فى كتبهم وأشعارهم ، فكثر ذلك عليه ووافاه من كل ثنية، وجاءه من كل ناحية ، حتى اضطره إلى حمله ، وحاجره بأن يكون اشعا لنفسه فى رفضه ، وهو قوى على مخالفة آبائه فى اقتصارهم على سواه ، واستشهدوا عليه بما فهّمه الله سليمان فى الحكمة دون والده عليهما

---

(١) يقول رشيد رضا فى هذا الصدد : « أصل الشرع أن يكون رئيس الحكومة وهو الامام واحدا وهذا أمر إجماعى عند جميع الأمم كالمسلمين . لقوله (صلعم) إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » . . . ثم تطور الأمر بعد إتساع رقعة الاسلام فأجاز الائمة التعدد. راجع (رشيد رضا الخلافة أو الامامة العظمى) (مطبعة المنار ، ١٩٢٣)

الصلاة والسلام (١) .

واضح مما تقدم أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت تكيفا جديدا تبعا للواقع وللضرورة السياسية ، والنظريات دائما تتبع الواقع وتتأثر به .

وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة ، أعلن عبد الرحمن بن محمد (الثالث) نفسه خليفة للمسلمين . ولاشك أنه كان مدفوعا فى ذلك بمصالح مختلفة فى الخارج والداخل أهمها : ـ

(١) قيام خلافة شيعية فتية معادية فى المغرب، وهى الخلافة الفاطمية التى كانت ترنو الى الأندلس بعين لاتخلو من طمع وغدر .

(٢) ضعف الخلافة العباسية فى المشرق أيام المقتدر ، واستبداد القواد الأتراك بها ، وعجزها عن حماية العالم الاسلامى .

(٣) ضعف مكانة الأمير الأموى فى قرطبة نتيجة للثورات والفتن الداخلية التى شغلت عهود ثلاثة من الأمراء قبله ، بحيث أصبحت الحاجة ماسة الى رفع مكانته ومنزلته السياسية والدينية ، لاسيما وأن تلك الثورات الداخلية قد قضى عليها فى بداية عهد عبد الرحمن الثالث .

(٤) الاستجابة لرغبة الأندلسيين فى أن يكون خليفة للمسلمين .

يروى ابن عذارى أنه « فى سنة ٣١٦ هـ ، قرر عبد الرحمن بن محمد

---

(١) كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول ص ١٩
(نشر علوش ، الرباط ١٩٣٦)

أن تكون الدعوة له فى مخاطباته والمخاطبات عنه فى جميع مايجرى ذكره فيه، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم ، فعهد إلى احمد بن بقى القاضى صاحب الصلاة بقرطبة ، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذى الحجة بذلك (١) » . وفى اليوم التالى ٢ ذى الحجة سنة ٣١٦ ﻫ أصدر الخليفة الجديد منشورا عاما إلى عماله فى الكور والمدن الاندلسية يقول لهم فيه : ... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لايستحقه منه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله » (٢) .

كذلك أمر الناصر لدين الله باثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين » فى أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه، ونفذ الأمر بذلك (٣)

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة الى خلافة، واستمر لقب خليفة فى ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ﻫ (١٠٣١ - م) .

ويلاحظ أن نظام الخلافة الأموية فى الأندلس ، كان نظام ملك يقوم على أساس التوريث ، ويستند الى السياسة أولا ثم الى الدين ثانيا ، فهى

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ﺣ ٢ ص ٢٩٧

(٢) (الحلل الوشية ص ٢٠ ، ابن عذارى . البيان المغرب ﺣ ٢ ص٢٩٨) راجع كذلك Levi Provençaly Garcia Gomez :Una Cronica anonima de Àbd al -Rahman III Al-Nasir p. 79 (Madrid 1958)

(٣) الحلل الموشية ص ٢٠

تختلف تماما عن خلافة الإسلام الاولى أيام الخلفاء الراشدين، التى كانت تقوم على الشورى والانتخاب . على أننا مع ذلك إذا قارنا خلافة الاندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها كخلافة العباسيين أو الفاطميين ، فاننا نجد أن الخلافة الاندلسية كانت اكثر ديموقراطية منها . فالخليفة العباسى كان يحكم بتفويض من الله وقد صرح بذلك أبو جعفر المنصور حينما قال : «إنما أنا سلطان الله فى أرضه»، وهذه العبارة تشبه تماما نظرية الحق الالهى فى الحكم . Divine Right of Rule التى كانت سائده بين الفرس قديما والتى سادت أوربا فى العصور الحديثه .

كذلك كان الخليفة الفاطمى يرى نفسه إماما معصوما من الخطأ ولا يسأل عما يفعل ، لانه وارث العلوم اللدينة بما فيها من سر مكنون وغامض مصون من خفايا الكون .

وهذه القداسة لانجدها فى الخلافة الاموية الاندلسية ، فالخليفة إنسان عادى ، قد يخطىء أو يصيب ، والناس أحرار فى نقده وان استطاعوا عزله عزلوه . ومن أمثلة هذه الروح الديموقراطية التى إمتازت به الخلافة الاموية بالاندلس، أن عبد الرحمن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء وصرف عليها جزءا كبيرا من وقته ومن مال الدولة ، قامت ضده معارضة شديدة تزعمها قاضى قرطبة المنذر بن بن سعيد البلوطى ، فقد أخذ هذا القاضى يعرض بالخليفة فى المساجد أيام الجمعه[1] ، وقد أثارت هذه المعارضة غضب

[١] يروى فى هذا الصدد أن الناصر شكا ذلك لولده الحكم وقال : والله لقد تعمدنى منذر

الخليفة الناصر فأقسم بألا يصلى خلفه صلاة الجمعة أبداء ولكنه لم يستطع إيذاءه أو عزله .

ومثل هذه المعارضة تفسر ظاهرة فريدة فى نوعها فى ذلك الوقت، إذ أنه من المعروف أن أموال الشعب كانت فى العصور القديمة والوسطى ملكا لرئيس الدولة .

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الاندلسية تخالف نشأة الخلافة فى الممالك الاسلامية الاخرى، من حيث أنها لم تستند على مايسمى «بالحق الطبيعى الموروث» الذى يأتى عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة ، أو عن طريق الميراث عن العباس بن عبد المطلب عم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم فى الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الاعمام!

أما فى الاندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد ، كل ماهنالك أن عبد الرحمن الناصر رأى أن يكون خليفة لانه أحق من غيره بها ولا سيما

= بخطبته ، وما عنى بها غيرى ، فأسرف على وأفرط فى تقريعى وتفزيعى . ولم يحسن السياسة فى وعظى فزعزع قلبى ، وكاد بعصاه يقرعنى . ثم أقسم الناصر أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء .

راجع تفاصيل ذلك فى (المقرى . نفح الطيب ح ٢ ص ١٠٦)

الفاطميين ، وعرض الامر على الأمة فقبل الناس ذلك وبايعوه ، فهى أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم .

ومن حسن الحظ أن وثيقة الاعلان التى وزعها الناصر على عمالة فى هذا الشأن محفوظة لدينا فى كتب بعض المؤرخين أمثال ابن عذارى، وصاحب الحلل الموشية، وفى تاريخ لمؤلف مجهول[1]، وقد أوردنا جزءا منها آنفا ، ويلاحظ فيها البساطة فى العرض والطلب ،

ويبدو أن الخليفة الناصر أراد أن يتمم أبهة الخلافة الجديدة ويزيد فى هيبتها فبنى قصرا خلافيا أسماه الزهراء . وما زالت آثار هذه المدينة باقية الى اليوم على نحو ثمانية كيلو مترات شمالى غرب قرطبه . وهى تشهد برقى هذا العصر وبعظمة الخلافة الاموية .

أما من حيث المظهر العام للخليفة فانه كان يشبه تماما ما كان يحدث فى خلافة بغداد أو القاهرة ، فالخليفة الاموى له حاشيته من خدم وحراس، وله بلاط يستقبل رجال الدولة وسفراء الدول الاجنبية ويضم العلماء والشعراء وأهل الفن . وكثيرا ما تحاك فيه الدسائس والمؤامرات بين رجال الدولة وأحيانا تشترك فيها نساء القصر ، وقد أعطانا المؤرخون أمثال ابن حيان[2] وابن خلدون[3] وصفا تفصيليا للحفلات التى كانت تقام

---

(١) راجع الصفحات القليلة السابقة .

(٢) ابو مروان ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ص ٩٤ نشر عبد الرحمن حجى (بيروت ١٩٦٥) .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٤٥

فى قصر قرطبة أو قصر الزهراء ، بمناسبة استقبال ملوك أسبانيا ، أو ملوك وزعماء العدوة المغربية وهى كلها تعبر عما كان يمتاز به عصر الخلافة الأموية من قوة وتقدم ورخاء .

الصراع بين خلافتى المغرب والاندلس :

لاشك أن قيام خلافتين متجاورتين ، وعلى أسس مذهبية مختلفة ، كان من شأنه أن يحدث صداما بينها ، وهذا ماحدث فعلا بالنسبة لخلافة الفاطميين الشيعية بالمغرب ، وخلافة الأمويين السنية بالأندلس ، فالفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، فكروا فى غزو الاندلس ، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة أخرى ، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية . . وكان هؤلاء الرجال فى العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كى يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب .

ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الاندلس ، تذكر الرحالة أبا القاسم ابن حوقل النصيبى (ت سنة ٣٦٧هـ - ٩٧٧م) الذى يبدو أنه تستر بالتجارة عند دخوله الاندلس ، اذ يسميه ياقوت بالتاجر الموصلى[١].

وقد اهتم ابن حوقل فى تقريره الذى رفعه إلى الفاطميين ، بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الاشارة إلى ضعف أهلها عن الدفاع عنها ، ليحمل مولاه على غزو تلك البلاد . ومثال ذلك قوله :

---

(١) معجم البلدان جـ١ ص٣٤٨

« وليس لجيوشهم حلاوة فى العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيرى بها انسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه فى الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغنى عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل فى الركاب على قولهم ... ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الانجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها فى نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها » [1] .

ولاشك أن ابن حوقل كان متحاملا على الاندلسيين فى كلامه ؛ ومبالغا فى اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية [2] .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية فى اجتذاب أنصار لها فى الأندلس كان محدودا ، وذلك لما كان للمذهب السنى هناك من قوة متأصلة فى نفوس الأندلسيين ، وإن كان ذلك لايمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا فى ضم بعض الشخصيات الاندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسى عمر بن حفصون الذى ثار بجنوب اسبانيا ضد الحكم الاموى أواخر القرن الثالث الهجرى ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدى الفاطمى

---

(١) راجع ابن حوقل : صورة الارض ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ طبعة بيروت ، محمود مكي التشيع فى الاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد، المجلد الثانى ١٩٥٤)

(٢) قام ابن سعيد بالرد على ابن حوقل وأتهمه بالظلم والتعصب . راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٧)

(٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) ودعا له فى مساجد بلاده . وقد أمده المهدى بالذخيرة والأسلحة [١] ، كما أرسل له داعيين أقاما عنده ، وأخذ يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين ، وإقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصا للدعوة الفاطمية ، وإنما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين فى قرطبة بدليل أنه فى أواخر أيامه ، استغنى عن الداعيين ، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمى [٢] .

وهناك أيضا القائد على بن حمدون الجذامى ، المعروف بابن الأندلسى الذى ورد إلى المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدى ثم بابنه القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة ، وهى التى سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب فى جنوب المغرب الأوسط .

ولما قامت فتنة أبى يزيد الخارجى فى جبال أوراس ، كتب الخليفة القائم على ابن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر فى الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبى يزيد تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤ هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) لجعفر بن على بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك دولة مزدهرة ، وقصده العلماء والشعراء ، مثل الشاعر الغرناطى ابن هانىء الأندلسى الذى مدحه بقوله :

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٧) .

(٢) محمود مكي : المرجع السابق ، وكذلك

(Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne II , p. 125)

المدنفان من البرية كلها   جسمى وطرف بابلى أحـور
والمشرقات النـيرات ثلاثة   الشمس والقمر المنير وجعفر [١] .

وهذا الشاعر ، ابن هانىء الاندلسى (ت ٣٦٢ هـ) ، يعتبر أيضا من الشخصيات الأندلسية الهامة التى فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) ، ويعتبر شعره فى مدح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الاسماعيلية [٢] .

ولقد زاد من خطورة الدولة الفاطمية ، أنها كانت تمتلك قوة بحرية منظمة فى المغرب وصقلية ، ورثتها عن الأغالبة ، ثم عملت على تنميتها وتقويتها منذ قيام دولتها ، وبنى الخليفة المهدى على الساحل التونسى بين سوسة وصفاقس مدينة المهدية التى أشاد المؤرخون بدار صنعتها التى نقرت فى الجبل ، وبقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها ، حتى إنه يقال إن المهدى لما فرغ من بنائها قال : « آمنت اليوم على الفاطميات » ، وهذا دليل على حصانتها [٣] .

ولعل القصيدة التى أوردها الشاعر على بن محمد الإيادى التونسى ، فى وصف الاسطول الفاطمى على عهد الخليفة محمد القائم ، تعطينا فكرة عن قوة الاسطول فى ذلك العهد ، وفيها يقول :

---

(١) راجع (ابن خلـكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣١١، مفاخر البربر ص ٧ ، سيرة الاستاذ جوذر ص ١٧٥)

(٢) راجع ديوان محمد ابن هانىء ؛ تحقيق وشرح كرم البستانى ، بيروت ١٩٥٢)

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبـار الأئمة الفاطميين الخلفا ص ٩٣ — ٩٧ ، ابن عذارى جـ ١ ص ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٠ — ٢١ . راجع كذلك Ency. of Islam, art. Mahdiyya by G. Marçais

أعجب بأسطول الامام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب
شرعوا جوانبها مجاذف اتعبت شادى الرياح لها ولما تتعب
والبحر يجمع بينها فكأنه ليل يقرب عقربا من عقرب
وعلى جوانبها أسود خلافة تختال فى عدد السلاح المذهب (١)

على أن الحكومة الاموية فى الأندلس ، لم تقف مكتوفة الأيدى أمام أطماع الفاطميين فى المغرب والأندلس ، اذ كان لها هى الاخرى عيون ووسطاء منبثون فى أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء فى مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربى فى طنجه ، ووهران Oran ، وتنس Tenés ، وبونه (عنابه الحاليه شرقى الجزائر) ، وبجاية ، ومرسى الدجاج . وكانت هذه الجاليات ، قوية التمسك بالعقيدة السنية ، شديدة الكراهية للمذهب الشيعى (٢) .

وحسبى أن أضرب مثلا لهذه المقاومة المالكية الداخلية ، بالنص الذى أورده المالكى فى كتابه رياض النفوس ، تعقيبا على احتلال الإمام عبيد الله المهدى لافريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيها مالكيا يدعى جبله ، ترك رباطه بقصر الطوب ، وأقام فى مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس ،

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب حـ ٥ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ أبن الابار : الحلة السيراء حـ ١ ص ٢٨٥) .

(٢) البكرى : المرجع السابق ص ٥٥ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ويروى ابن عذارى (حـ ١ ص ١٨٤) أن فى سنة ٢٩٠ هـ اسست مدينة وهران على يدى محمد بن أبى عون بن عبدوس وجماعة من الأندلسيين .

ورجعت الى هاهنا ! » . فقال : « كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذى قد حل بساحتنا ، لأنه أشد علينا من الروم ! » .

فهذا النص يدل بوضوح على مدى الإنقسام الدينى الذى أحدثه حلول الفاطميين فى المغرب (١) .

وكان يحكم الأندلس فى ذلك الوقت ، رجل قوى الشخصية ، بلغت الأندلس فى عهده ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذى حكم الأندلس مدة نصف قرن (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ - ٩١٢ - ٩٦١ م) .

وقد اضطر هذا الرجل أن يقوم بخطوات إيجابية لمحـــاربة النفوذ الفاطمى ، نلخصها فيما يلى :

أولا : اعلان نفسه خليفة

أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م . وكان الدافع الأساسى لهـذه الخـلافة السنية الجديدة ، هو - كما ذكرنا آنفا - مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية فى المغرب . وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعديا على حق من حقوق أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفى ذلك يقول الخليفة المعز الفاطمى فى خطاب له وجهه إلى الأندلس :

---

(١) ورد هذا النص فى الجزء الثانى من كتاب رياض النفوس الذى لم ينشر بعد ، ومن المعروف أن الجزء الأول منه نشره حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) وقد نقلنا هـــذا النص عن معجم دوزى المعروف باسم :

(R. Dozy ; Supplement aux Dictionnaires Arabes, I.p.269)

« وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آبائه ، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله . ونحن نقول : « اننا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحـــل ذلك دوننا وادعاه ، مع بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنـــا وآبائه ، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة فى الاسلام والجاهلية ... الخ » (١) .

وواضح من هذه الرسالة وغيرهـا من المراسلات التى تبودلت بـين الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما .

ثانيا : تقوية الاسطول الاندلسى

اهتم الناصر منذ بداية حكمه ، باعداد أسطول بحرى كامل الاعدد والتنسيق وبذل فى ذلك جهودا جبارة لدرجة أن عمال دور الصناعة - كما يقول دوزى - لم يجدوا وقتا للراحة . وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن والعتاد الحربى والجنود . ولقد أصدر الناصر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسى عمر بن حفصون الذى كان قد اعترف بخلافة الفاطميين، وفى ذلك يقول عذارى : « وفى سنة ٣٠١ هـ ، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العدوة ، فأحرق جميعها . » (٢)

---

(١) راجع القاضى النعمان بن حيون : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٤ ، حسن ابراهيم ، وطه شرف : المعز لدين الله ص ٣١١ ومابعدها)

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

ثالثا : تحصين الثغور الاندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب

عمل الناصر على تحصين سواحله وثغوره ولا سيما فى المنطقة الجنوبية التى كانت عرضه لاى غزو مفاجىء يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده . ويروى المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة ٣٠٢ ﻫ (٩١٤ م) حيث أشرف على الاعمال الدفاعية فى طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras ولا يزال القصر الذى بناه فى طريف باقية أثاره إلى اليوم (١) أما الجزيرة الخضراء فيروى الحميرى أن الناصر بنى فيها دار صناعة للاساطيل ، أتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لان مرساها هو أيسر المراسى وأقربها من بر العدوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبته (٢). ونظرا لاهمية موقع هذا الثغر وخطورته ، فقد حرص الامويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، فى يد أمير من الاسرة الاموية . (٣)

رابعا . احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق .

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربى المواجهة لساحل بلاده ، فيروى البكرى أنه فى سنه ٣١٤ ﻫ (٩٢٧ م)
استولى الناصر على مدينة مليلة Melilla ، وبنى سورها ، وجعلها معقلا للزعيم المكناسى موسى بن أبى العافية حاكم هذه المناطق الشمالية ، الذى انضم اليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض أسراهم إلى قرطبة لعرضهم فى شوارعها . وفى ذلك يقول المؤرخ المعاصر أحمد بن موسى الرازى:

---

(١) (Terrasse: Histoire du Maroc, I. P.156)

(٢) راجع [الحميرى : الروض المعطار ص ٧٣ - ٧٤]

(٣) نفح الطيب ﺟ ١ ص ١٥٧

والملك الناصر دين الله ... فيما يحوط الدين غير ساه
بني لموسى عدة مدينه ... صنيعة شاهقة حصينه
ذلت لها تاهرت والأفارقة ... ولم يطف بنيانها العمالقه

وفي ربيع الاول سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)(٢) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة سبته Ceuta على يد قائده فرج بن عفير، وعمل على تحصينها لأهمية موقعها. وقد وصف ذلك ابن عذارى بقوله :

وشكها بالرجال، واتقنها بالبنيان، وبنى سورها بالكذان، وألزم فيها من رضيه من قواده واجناده، وصارت مفتاحا للغرب والعدوة من الاندلس، وبابا اليها، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الاندلس من العدوة المغربية، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الاول من العام المؤرخ .(٣).

هذا وقد كان يشير البكري إلى أنه كان يعيش بسبته جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة قلسانة Calsena هاجروا اليها واستوطنوها أيام المحل (الجدب) الذي حل بالاندلس (١٣١-١٣٦ هـ)، وأنهم كانوا يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسنيين (أي الادارسة) حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر. (٤)

---

(١) راجع البكري كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص ٨٩

(٢) يؤرخ ابن خلدون سقوط سبته في يد الناصر، بسنة ٣١٧ هـ وهذا يتنافى مع تاريخ البكري [نفس المرجع ص ١٠٤] وابن عذاري البيان المغرب حـ ٣ ص ٣٠٧ الذي هو مبين في المتن.

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٣٠٧ .

(٤) البكري نفس المرجع ص ١٠٤ وحول سنوات المحل بالاندلس راجع ابن عذاري حـ ٢ ص ٥٥ .

وكان من الطبيعى بعد احتلال سبتة ، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها ، وقد أشار ابن عذارى إلى التحصينات التى أقامها عاهل الأندلس فى هذه المدينة (١) .

كذلك يروى البكرى أن عبد الرحمن الناصر ، حاول فى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) ، احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان فى المغرب الاوسط ، وهو جزيرة أرشقول ، التى تسمى اليوم رشجون Rachgoun أمام مصب نهر تافنا بالجزائر . وهى جزيرة عالية منيعة ، تحصن بها أحد أمراء الادارسة ، واسمه الحسن بن عيسى بن أبى العيش . فحاصرها الأسطول الأندلسى مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندئذ اضطر الأسطول الأندلسى أن ينصرف عنهم عائدا إلى المرية (٢) .

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر فى احتلال هذه القاعدة الجزائرية ، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى مثل سبتة وطنجة ومليله ، أن يسيطر على الملاحة فى مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل فى سياسة المغرب لاثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمى .

خامسا : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل فى المغرب

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التى كانت قائمة وقتذاك فى شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الادارسة التى كان نفوذها بعد الغزو

---

(١) ابن عذارى حـ ١ ص ٣١٦

(٢) راجع (البكرى : نفس المرجع ص ٧٧ - ٧٨)

الفاطمى قد انحصر فى المناطق الجبلية الشمالية بنواحى البصره ، وأصيلا ، وقلعة النسر أو حجر النسر بين قبائل غمارة . ومثل إمارة نكور أو بنى صالح ، وهى إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها فى ذلك الوقت الأمير صالح ابن سعيد . وتنتسب هذه الأسرة إلى قائد عربى يمنى من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميرى ، كان قد استقر فى هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح . ثم خلفه أبناؤه من بعده فى حكم هـــذه المنطقة . ولقد لعبت امارة نكور دوراً كبيرا فى نشر الاسلام واللغة العربية بين أهل الريف من برير غمارة وصنهاجه ، كما أنها فى الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ، ولقيت من وراء ذلك عناء كبيرا خفف من حدته تأييد الأمويين فى الأندلس لها (١) .

ولم يقتصر الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولاسيما قبيلة زناته التى عمل على تحريضها ودفعها الى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين . وقد شرح لنا صاحب كتاب مفاخر البربر هذه السياسة بقوله : —

« وتخطاهم عبد الرحمن الى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر ،

---

(١) عاشت نكور بعد ذلك مدة طويلة الى أن افتتحها عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين وخربها سنة ٤٧٣ هـ . ومدينة نكور وان كانت قد اندرست ، إلا أنه لايزال يوجد بعض أعمالها ومواليها مثل ثغر المزمة الذى حرفه الاسبان الى Alhucemas ثم عرب المسلمون هذا اللفظ الى الحسيمة الحالية . راجع (البكرى ص ٩٠ — ٩١ ، ٩٦ ؛ ابن عذارى حـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، أحمد المكناسى : المدن المندرسة فى شمال المغرب ٤ — ٥) .

يستألفهم، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، مُمدًّا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله، متمردا بوجوه رسله وخواصه، إلى أن تميز أكثر برادى زناتة فى حزبه، وارتسموا بطاعته، ولاسيما عند امتياز اضدادهم صنهاجة فى حزب أعدائه بنى عبيد الله، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تقصيها، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة[1]».

سادسا: تأييد ثورة أبى يزيد الخارجى

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التى قامت فى تونس والجزائر بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى ضد الدولة الفاطمية. وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم، وجزءا من عهد ولده اسماعيل المنصور[2] (٣٣٤ - ٣٤١ هـ)، ولم يتردد خليفة قرطبة فى تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية، وفى مقابل ذلك اعترف ابو يزيد الخارجى بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر فى البلاد التى خضعت له فيروى ابن عذارى أنه فى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤)، أرسل

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٤، وكذلك

· (Levi Provençal : la palitica africana de Abd al Rahman III , Al Andalus Vol XI fasc. 2,1946.)

(٢) راجع (ابن عذارى ج ٢ ص ٢١٨ - ٢٣١، وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد؛ المجلد الخامس ١٩٥٧).

أبو يزيد إلى الناصر وفدا يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما، وهزيمته لجند القائم الشيعى، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايتـــه . وفى السنة التالية (٣٣٤ هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبى العرب التميمى . وفى السنة التى تلتها (٣٣٥ هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولد أيوب . فأكرمه الناصر، وأنزله فى قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطرا كبيرا على الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيرا بالفشل وبقتل صاحبها سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) [1].

سابعا : التحالف مع أعداء الدول الفاطمية من ملوك اوربا والمشرق

لم يتردد الناصر فى ابرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعاديه للفاطميين، فتحالف مع ملك ايطاليا هوج دى بروفانس Hugues de Provence الذى كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة . كذلك تحالف مع قسطنطين السابع أمبراطور الدولة البيزنطية الذى كان يرغب فى استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنا تشيد المصادر الاندلسية بالاحتفالات الفخمه والحفاوة البالغة التى استقبل بها الناصر رسل الروم فى سنتى ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م)، ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م) [1] أما المصادر الاسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربى مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار

---

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٢ وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، (المرجع السابق)

الفاطميين : هؤلاء من المغرب ، وأولئك من الشرق ، وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

« وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة ، وأهدى اليه هدايا وأرسل اليه رسلا من قبله فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الاندلس »(١)

والواقع أننا لانستطيع الحكم على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك لاسيما وأن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار المحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والامبراطور تيوفيل ٢٢٥ ﻫ (٨٤٠ م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية ولكن دون الارتباط معهم في عمل حربي مشترك (٢)

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الاخشيديين ملوك مصر ، فأرسل اليهم عشرة الاف دينارا لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالما أندلسيا اسمه أبو اسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطي وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو

---

(١) راجع النعمان : المجالس والمسايرات جـ١ ص ٢٢٦ . حسن ابراهيم وطه شرف المعز لدين الله ص ٤٠]

(٢) راجع (Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane, II P. 144—145

على نفسه بالموت قبل مجىء دولتهم وقد توفى فعلا فى سنة ٣٥٥ هـ أى قبل الغزو الفاطمى لمصر بنحو ثلاث سنوات (١)

على أن النزاع بين الفاطميين والامويين لم يقتصر على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق فى التسلح ، واحتلال المواقع الهامة واثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتدبير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى إشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الاثير وصفا لبداية هذا الاشتباك بقوله :-

وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الاموى ، صاحب الاندلس ، مركبا كبيرا لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فالقى فى البحر مركبا فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمى فقطع عليه أهل المركب الاندلسى ، وأخذوا ما فيه ، وأخذوا الكتب التى إلى المعز ، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولا واستعمل عليه الحسن بن على صاحب صقلية ، وسيره إلى الاندلس فوصلوا الى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع مافيه من المراكب ، وأخذوا ذلك المركب ، وكان قد ... من الاسكندرية ، وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات وصعد من فى الاسطول الى البر فقتلوا ونهبوا ، ورجعوا سالمين إلى المهدية (٢)

واضح من هذا النص السابق ، أن السبب الاساسى للاشتباك المسلح بين الدولتين ، هو تلك الرسائل التى كان قد بعث بها والى الفاطميين

---

(١) محمود مكى : التشيع فى الاندلس (المرجع السابق) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤٨

(٢) راجع (ميشيل أمارى . المكتبة العربية الصقلية ص ٣١٢)

بصقلية الى الخليفة المعز بالمهدية . وقد رجح دوزى أن تكون هـذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمى على الأندلس ، وأن قائد السفينة الاندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد فى الاستيلاء عليها (١).

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء ، أن أمر عماله باطـلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الاندلس ، كما أمر مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصرى بالابحار فورا والإغارة على سواحل الفاطميين فى افريقية . (٢) إلا أنه يبدو أن القائد غالب لم يوفق كثيرا فى هذه الغارة ، إذ يقول ابن الإثير فى هذا الصدد :

« فنزلوا ونهبوا ، ثم قصدتهم عساكر المعز ، فعادوا إلى مراكبهم ، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم ، (٣) على أن القائد غالب لم يتردد فى معـاودة الكرة فى السنة التالية (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) ، فهاجم بأسطول من سبعين سفينة ، مدينة الخرز - حاليا La Calle - ، وكانت كما يقول البكرى ، قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية (٤) ، فأضرم النار فيها ، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقى بنزرت . (٥)

هذا ، ويعطينا ابن عـذارى وصفا طريفـا يصور لنـا بروز إحدى هذه الحملات الموجهة ضد الفاطميين ، من العاصمة قرطبة ، ومدى الحماس

---

(١) انظر Dozy : Hist. des Musulmans D'Espagne II, p. 165

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٣٠

(٣) أمارى : نفس المرجع السابق ص ٣١٢

(٤) البكرى : نفس المرجع ص ٥٥

(٥) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٣٨

والهرج الذى انتاب الأهالى والجنود خلال هــذا الاحتفال الشعبى ، ومثال ذلك قوله :ـ

« وفى سنة ٣٤٧ هـ ، فى أول المحرم ، أمر النــاصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازيا فى الأسطول الى بلد الشيعى معد ابن اسماعيل (المعز) صاحب أفريقيه. فبرز ابن يعلى الى محلة الربض لغزاته هذه ، يوم الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فخما خــرج اليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم وولدانهم ، خلق لايحصيهم الا خالقهم ، فانتشروا بأكناف الربض على عادتهم ، فأخذ السفلة منهم والغوغاء ، يتقاذفون بالحجارة حاكين صفى القتال ، فدخل فى عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان ، حشروا الضراب حتى حمى وطيسه، وقد تكنف صفيهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا ساعة، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم ، فمالوا على مغلوبهم وأنبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال، وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن ... وشرح ذلك يطول (١)

واستمرت الغـارات والاشتباكات البحرية متبـادلة بين الطرفين دون توقف تقريبا فيما تلا ذلك من سنين ، كما استمر الأمويون فى إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعــدهم العسكرية وجالياتهم الاندلسية على السـاحل المغربى .

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٢)

واضطر الخليفة المعز الفاطمى فى سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) أن يبعث قائده جوهر الصقلى أو الصقلبى الى المغرب الاقصى لاخضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الاموى بالمغرب ونجح جوهر فى إخضاع البربر [١] ولكنه لم يستطع القضاء على القواعد الأموية الساحلية التى حرص الأمويون على التمسك بها والدفاع عنها ، وفى ذلك يقول ابن عذارى :

« وفى سنة ٣٤٨ هـ ، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر فى جماعة من وجوه الموالى والعرفاء ورجال الجند ، يأمرهم جميعا بالخروج إلى مدينة سبتة من أرض العدوة مع بدر الفتى الكبير صاحب السيف ، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر ، قائد معد الشيعى صاحب القيروان بأرض العدوة ، فنفذوا لأمره ومكثوا لذلك إلى أن أمنت الحادثة ، فانصرفوا مع القائد بدر ، آخر ذى الحجة من السنة [٢]

ثم توفى الخليفة الناصر ، وخلفه ابنه الحكم الثانى المستنصر بالله (٣٥٠ ٣٦٦ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م) الذى سار على سياسة والده العدائية نحو الفاطميين . فيروى ابن عذارى أنه فى سنة ٣٥٣ هـ تحرك الحكم بنفسه من قرطبه الى ثغر المرية توقعا لما يصدر من صاحب أفريقية المحاد لأهل الأندلس ، ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة ، ومطالعة رابطة القبطة ـ حاليا Gabo De Gata ومشارفة حال الرعايا بتلك الجهة. [٣]

---

(١) مفاخر البربر ، مؤلف مجهول ص ٦

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٣٣

(٣) ابن عذارى نفس المرجع ج ٢ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣

ومن هذا كله . يبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس، كما شعروا أن بقائهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتلقلباتهم ، وأمام غارات الامويين ودسائسهم ، ولعل هذا هو السبب الحقيقى الذى جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر. (١)

وفى عام ٣٥٨ ﻫ (٩٦٩ م)، تمكن القائد جوهر من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو يعتبر فريدا فى نوعه ، إذ لم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا فى أيام الفراعنة ، حينما غزاها الليبيون أيام الاسرتين ٢٢ ، ٢٣. ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر فى مصر سنة ٣٦٢ ﻫ تاركا حكم المغرب فى يد حلفائه بنى زيرى زعماء صنهاجه .

واستمرت السيادة الفاطمية والأموية فى المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناته وضرب بعضها ببعض . وأخيرا تمكنت صنهاجة ، أو بمعنى آخر الدوله الزيرية ، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقى من المغرب ، أما القسم الغربى من نهر ملوية إلى طنجة ، فقد سيطرت عليه زنانة وحلفاؤها الامويون .

وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائها فى المغرب ، وبالتالى خفت وطأة الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس (٢).

---

(١) راجع كتاب سيرة الاستاذ جوذر ص ١٠٧ ، ١٢٣ حيث ترد بعض الرسائل التى كتبها الخليفة المعز الى مولاه جوذر والتى يشير فيها الى المتاعب التى يلاقيها الأئمة الفاطميون فى حكمهم للمغرب .

(٢) انظر (A.Julien: Histoire de. L'Afrique du Nord p' 68)

على أن ابتعاد الخلافتين عن بعضها ، لم يحل دون استمرار العداء بينها ولا أدل على ذلك من الخطاب الذى أرسله الخليفة العزيز بالله الفاطمى الى خليفة الاندلس الحكم المستنصر يهجوه فيه ، وقد رد عليه الخليفة الأموى بعبارة موجزة حاسمة ، « قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك »[١] وفى هذا إشارة إلى الطعن فى نسبه

كذلك يروى ابن حجر العسقلانى أن رجلا أندلسيا حاول اغتيال قاضى قضاة مصر الحسين بن على الفاطمى أثناء تأديته الصلاة فى أحد مساجد القاهرة سنة ٣٩١ هـ وأنه منذ ذلك الوقت أضطر القضاة إلى إتخاذ حرس خاص أثناء الصلاة .[٢]

هذا ولم يتردد الأمويون فى إظهار نواياهم وأطماعهم فى الاستيلاء على ملك الفاطميين فى مصر والشام . ونجد ذلك واضحا فى شعر حاجبهم المنصور بن أبى عامر على عهد الخليفة هشام المؤيد مثل قوله :

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشآما[٣]

ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، قد كاد أن يتحقق فعلا بعد وفاته بقليل . إذ يروى المؤرخون أنه فى عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ،

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٥٥

(٢) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر (فى اخر كتاب الكندى الولاة والقضاة ص ٥٩٦)

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٨٢

قامت فى إقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، قام بها أحد أفراد البيت الأموى ، ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبى ركوة . وكان قد خرج من الأندلس مظهرا التصوف ، واشتغل بتعليم الصبيان ، ولما قوى أمره دعا على المنابر باسم الخليفة الأندلسى هشام المؤيد ، وكان يلعن الحاكم بأمر الله وآباءه ، واستولى على برقة ، وانتصر على الجيوش التى وجهها اليه الحاكم ، واستطاع فى سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٧ م) ، أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم أخيرا وأسر ، وعرضه الحاكم فى شوارع القاهرة عرضا مزريا ، إذ جعل وراءه قردا يصفعه على على رأسه ثم قتله وصلبه . (١)

على أنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية، وإن كانت قد فشلت فى القضاء عن دولة الفاطميين فى مصر . الا أنها قد تركت آثارا سنية معادية للفواطم فى مناطق نفوذهم بالمغرب الادنى . ويظهر ذلك جليا فى سياسة المعز بن باديس الصنهاجى . ملك الدولة الزيرية ، حينما فتك بالشيعة فى ولايته سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) . ويقال فى تعليل ذلك إن المعز وقع تحت تأثير استاذ سنى المذهب كان قد تولى تربيته منذ صغره (٢) .

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص٣٠٥

(٢) أنظر (A. Julién : Op. cit. p. 69)

ويروى ابن الاثير ، أن المعز بن باديس كان ماشيـــا مع القيروان والناس يدعون له ، فاجتاز بجماعة هناك ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز « رضى الله عن أبى بكر وعمر » فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى بالقيروان ، وهو مكان يجتمع به الشيعة فقتلوا فيهم ثم انتشرت المذابح فى أنحاء الدولة الزيرية . وكانت الشيعة تسمى فى المغرب بالمشارقة نسبة الى عبد الله الشيعى الداعى الذى يعرف أيضا بالمشرقى لأنه جاء من المشرق . (١)

ولم يقتصر أمير أفريقية على اضطهاد الشيعة بل أخذ يحمل الناس على إعتناق المذهب المالكى وترك ما دونه من المداهب الأخرى حتى يتم له بذلك الانفصال الروحى أو المذهبى عن الدولة الفاطمية فى مصر (٢)

وهكذا نرى مما تقدم ، أن النزاع بين هاتين الخلافتين ، كان نزاعا مذهبيا عنيفا يتعذر حله ، ولا يرجى صلاحه ، ولهذا استمر قائما بينهما الى أواخر أيامها .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ١٠٠ — ١٠٥ وانظر المعنى الخاص للفظ تهرق فى المغرب تعليق حسين مؤنس على رياض النفوس للمالكى جـ ١ ص ٤٠٩ حاشية ٣

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٠٣ - ٢٠٤ (القسم الخاص بأسبانيا)

هذا ومن المعروف أن الدولة الزيرية قد انفصلت نهائيا عن الدولة الفاطمية وقطعت الخطبة للخليفة المنتصر بالله الفاطمى ودعت لخليفة بغداد القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م)

راجع مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس (المرجع السابق ص ١٢٨)

نهاية الخلافة الاموية بالاندلس

استمرت الخلافة الأموية فى الاندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، إلى أن جاء الحاجب المنصور بن أبى عامر وأبناؤه من بعده، فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الاموى هشام المؤيد . واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعى فكان مثلهم فى ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية فى بغداد ومثل أسرة بدر الجمالى التى سيطرت على الخلافة الفاطمية فى القاهرة .

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالاندلس ، لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر (١) فيما لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل .

ذلك أنه طمع فيما بقى للخليفه الأموى من سلطة روحية وأراد أن يستأثر لنفسه بالسلطة الشرعية فى الدولة أى بالخلافة نفسها، وكان الخليفة هشام رجلا طيبا لايرد طلبا فيتقدم اليه عبد الرحمن بان يعهد اليه بولاية العهد . فوافق هشام وكتب عهدا بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطانى عبد الرحمن . وقد هز هذا

---

(١) يعرف فى المراجع العربية باسم شجنول أى Sanchuelo سانشويلو ، وهو تصغير للفظ سانشو وهو اسم جده لأمه Sancho Garces II Abarca . وكان المنصور بن أبى عامر قد تزوج ابنته التى اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبده ، وانجب منها المنصور عبد الرحمن هذا الذى أطلقت عليه أمه اسم سانشويلو أى سانشو الصغير ذكرى لابيها وكان هذا الشاب أحمقا طائشا كما تدل على ذلك سيرته .

الحادث الدولة الاموية هزا عنيفا ، وعز على المضريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين (١) وأن تبتعد الخلافة عن قريش فانبعثت العصبية العربية، وانتهز الامويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامرى فى الشمال وقاموا بحركة قوية فخلعوا هشاما عن العرش، وولوا رجـــلا من احفاد الناصر ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر واقبوه المهدى بالله .

ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن ، رجع من الشمال وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار فى قلة من أصحابه، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدى وجماعته . وبموته انتهت دولة بنى عامر سنة ٣٩٩ هـ . ويلاحظ أن نهاية هذه الدوله يدل على تعلق الناس بالخلافة ، وحرصهم على أن تكون من قريش (٢)

والفترة الباقية من العصر الاموى بالاندلس ، مليئة بالفتن والاضطرابات تصارعت فيها العناصر المختلفة فى الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبه . ويكفى للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها فى هذه الفترة الاخيرة أن عدد الخلفاء الامويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الاموية فى الاندلس .

وفى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المروانية عن

---

(١) كان العامريون من أسرة عربية تنتمى الى قبيلة معافر اليمنية ، وأنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا الاندلس صحبة طارق بن زياد .

(٢) راجع (عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس ص ١٠٤)

قرطبه وفى ذلك يقول ابن الخطيب : ومشى البريد فى الاسواق والارباض بأن لايبقى أحد بقرطبة من بنى أمية، ولايكنفهم أحد[١]. ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الامر شورى بأيدى الوزراء وصفوة الزعماء أو ماأسماه بالجماعة.

وهكذا تحول الحكم فى قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة[٢]

تعدد الخلافة فى عصر دول الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، واستقل كل أمير بناحيته، وأعلن نفسه ملكا عليها فدخلت البلاد بذلك فى عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف، أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس[٣]

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس :

الحزب الاول : ويمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين إستقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا فى البوتقة الأسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين، بغض النظر عن أصلهم العربى أو المغربى أو الصقلبى أو الاسبانى المسيحى وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة.

---

(١) ، (٢) راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام — القسم الخاص باسبانيا — ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ، هذا ويشير ابن سعيد المغربى إلى أن بعض هؤلاء الملوك خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة وأن بعضا آخر خطب للخلفاء العباسيين المجمع على امامتهم راجع (المقرى : نفح الطيب ح ١ ص ١٩٨)

وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون[١] فى إشبيلية وبنو جهور فى قرطبة وبنو هود الجذاميون فى الثغر الأعلى سرقسطة ، وبنو صمادح أو بنو تجيب فى المرية ، وبنوا برزال فى قرمونة ، وبنو خزرون فى أركش ، وبنو نوح فى موررور Moron وعبد العزيز بن أبى عامر فى بلنسية[٢] . . الخ

أما الحزب الثانى فيمثله المغـــاربة أو البربر الحديثو العهد بالاندلس ولا سيما الصنهاجة الذين استقروا بها فى أيام المنصور بن أبى عامر . ومن زعماء هذا الحزب بنوزيرى الصنهاجيون فى غرناطة وهم فرع من بنى زيرى حكام الدولة الزيرية فى إفريقية على عهد الفاطميين ، وكذلك بنو حمود الادارسة الحسنيون العلويون ، وهم من سلالة الامـير أبى حفص عمر بن إدريس الثانى الذى كان يحكم بلاد غمارة فى شمال المغرب على شـــاطىء البحر المتوسط . وفى خلال الفتنة التى عمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الامير أبى حفص عمر وهو « على بن حمود » وكان واليا على طنجة وسبتة ، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة وقتل صاحبها الخليفة الأموى سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن « الملقب بالمستعين » وذلك سنة ٤٠٧ هـ وأسس دولة الحموديين التى كانت

(١) يقول بن خلـــكان إن ملوك بنى عباد ينتسبون الى النعمان بن المـــنذر اللخمى اخر ملوك الحيرة وأول من هاجر الى الاندلس من أجدادهم هو نعيم وإبنه عطاف وكانت فى الاصل من اهل بلدة العريش المصرية ثم انتقلا إلى الاندلس حيث إستوطنا أشبيليه .
راجع (ابن خلـــكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ١١٢ وما بعدها طبعة محى الدين عبد الحميد
(٢) راجع (Henri Pérès : La poesie andalouse en arabe) classique aux XI siécle p. 9 (Paris 1953).

قاعدتها مالقة [١] ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر فى المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربرى ومثال ذلك ما يرويه ابن الخطيب من أن على بن حمود السالف الذكر كان بربرى اللسان وأنه حينما قتل سليمان المستعين قال : لايقتل الزلطان إلا الزلطان . [٢]

أما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الاندلس Levante وهؤلاء الصقالبة كانوا فى الاصـــل رقيقا أو عبيدا من سبى الشعوب السلافية الذين بيعوا إلى عرب الاندلس ، ولذا أطلق العرب عليهم إسم الصقالبة ثم توسع الاندلسيون فى استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الاوروبية بما فى ذلك شمال أسبانيا المسيحى . وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالا من الجنسين إلى قرطبه حيث ربى الذكور منهم تربية عسكرية اسلامية واستخدموا فى أعمال القصر والحرس والجيش ثم تدرجوا فى الرقى حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الاموية ، كما برز منهم الادباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

---

(١) راجع (محمد الفاسى . الشريف الادريسى . المدونات ، المجلد الاول ١٩٥٢) كذلك راجع (Louis Seco' de Lucena : Los Hammudies Sénores de Malagá y Algeeiras p.11-21)

(٢) أى السلطان راجع (ابن الخطيب . الاحاطة بأخبار غرناطة لوحه ٣٦٥ (نسخة الاسكوريال) . اعمال الاعلام ص ١٤٨ ـــ ١٤٩ القسم الخاص باسبانيا نشر ليفى بروفنسال)

وفى أثناء اضمحلال الخلافة الاموية ، شارك هؤلاء الصقالبة فى المؤامرا
التى قامت فى قرطبة وسائر البلاد وتزعمهم خيران العامرى رئيس حز
الصقالبة فى العاصمة . وبعد سقوط الدولة الاموية ، تكونت من هذا الحز
الدويلات الاسلامية الصغيرة التى قامت فى شرق الأندلس، والتى كانت تجمعها راب
تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصو
بن أبى عامر وأبنائه . ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا فى هذه المنط
نذكر مجاهد العامرى الذى استقل بدانية ثم استولى على الجزر الشرقي
(البليار) وغزا جزيرة سردانيا وسواحل ايطاليا وسيطرت أساطيله ع
غربى حوض البحر المتوسط (١)

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكه بسيا
شرعى روحى ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره .

فبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول ، جاءوا بشخص فق
يسمى « خلف الحصرى » ، كان يعمل حصريا فى مصنع للحلفا ، وكان شد
الشبه بالخليفة الأموى هشام المؤيد المشكوك فى موته ، فأقاموه خليفة :
أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمنا إلى أن أظهر مو
المعتضد بن عباد ونعاه إلى رعيته سنة ٤٥٥ هـ واستظهر بعهد عهده له الخلي
هشام المزعوم بأنه الامير بعده على جزيرة الأندلس . (٢)

(١) أحمد مختار العبادى: الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد س٩٥٣
وكذلك ركايكيا سارنلى : مجاهد العامرى (القاهرة ١٩٦١)
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس) ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ عبد الوا
الراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلم
ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١١٣ .

أما الحزب المغربى فى الأندلس ، فقد تزعمته خلافة بنى حمود مستندة إلى أصلها العلوى الشريف . ولاشك أن تاريخ الادارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودى يعرف بصاحب البربر ، وهو يقابل صاحب الجماعة فى الحزب الاول . على أن نفوذ بنى حمود فى الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت ، إلا أنه كان قاصرا على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أى فى الجزء الجنوبى من الأندلس المجاور لممتلكاتهم فى شمال المغرب ، ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم ، وصار كل واحد فيهم يدعى الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب خلافى مثل المهدى والعالى والمستعلى والسامى والمتأيد . (١)

ولم يلبث نفوذ بنى حمود أن انتهى فى الأندلس بأن استولى بنو زيرى ملوك غرناطة على مالقة ، كما استولى بنو عباد على الجزيرة الخضراء فانتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلى فى العدوة المغربية .

أما الفريق الثالث وهو الحزب الصقلبى ، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة فى مملكته ، ونذكر على سبيل المثال أبا الجيش مجاهد العامرى الصقلبى الذى أقام فى مملكته بدانية والجزر الشرقية ، خليفة قرشيا من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطى ، ولقبه بالمنتصر بالله ، وأثبت إسمه فى سكته وأعلامه سنة ٤٠٥ هـ . ولكنه

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٦٣ - ٦٨ ، ابن الخطيب اعمال الأعلام ص ١٤٩ وكذلك (Louis Seco de Lucena : Op. cit. p. 14 & Henri Peres : Op. cit p. 10)

سرعان ماعزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تآمر ضده أثناء غيابه في غزو جزيرة سردانيا . وقد لجأ المعيطى الى مدينـــة بجاية بالمغرب الاوسط حيث اشتغل معلما لصبيان البربر إلى أن مات سنة ٤٣٢ هـ (١)

وهكذا نجد أن الخلافة فى الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وهذا يعتبر مظهرا من مظاهر الفوضى وعاملا من عوامل الفتنة فى تلك الفترة . وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين كانوا قد أجازوا تعدد الخلافة للضرورة والمصلحـــة وهى إتساع رقعة الاسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه ، إلا أنهم اشترطوا فى ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعا للتصادم والتشاحن ، والحماية المسلمين من شرور الفتنه ، ولـكننا نرى أن الأندلس فى هذه الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعى لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين فى صقع متضايق الأقطار ، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب ، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبى محمد بن حزم فى هذا الصدد : واجتمع عندنا بالأندلس فى صقع واحد خلفاء أربعة كل واحـــد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها ، أربعة رجـال فى مسـافة

راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام ص ٢٠٢ — ٢٥٣ احمد مختار العبادى الصقالبة فى اسبانيا (مدريد ١٩٥٣) راجع كذلك .

(F. Codera : Mochehid Conquistador de Cerdéña, Centenario della Nascita di Michele Amari, Vol. II p. 115—133, Palermo 1910).

ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وامارة المؤمنين وهم : خلف الحصرى بأشبيليه على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد له خصيان ونسوان ، فخطب له على منابر الاندلس وسفكت الدماء من أجله . ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء ، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة وادريس بن يحي بن على بببشتر»[1].

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عمدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين فى حياتهم وفى القابهم ونعرتهم الخلافية وفى ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيروانى .

مما يزهدنى فى أرض الاندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد[2]

هذا وقد بلغ من أمر تقليد هؤلاء الملوك لخلفاء الشرق أن بنى حمود الادراسة فى مالقة، كانوا إذا حضرهم شاعر أو زائر كان عليه أن يتكلم معهم من وراء حجاب أوستر ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقوله الخليفة .

---

(١) راجع ابن الخطيب . اعمال الاعلام ص ١٤٢ — ١٤٣ كذلك يروى عبد الواحد المراكشى . (المعجب ص ٦٣ — ٦٨) مثل هذه العبارة الساخرة بقوله .

وصار الامر فى غاية الاخلوقة (الاضحوكة) والفضيحة . أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين فى رقعة من الارض مقدارها ثلاثون فرسخا فى مثلها .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ١٩٨ ابن الخطيب : المرجع السابق ص ٤ ١ .

فيروى فى هذا الصدد أنه لما حضر الشاعر ابن مقانا الاشبونى أمام الخليفه إدريس بن يحى الحمودى وأنشده قصيدته النونية التى مطلعها :

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن على ابن حمود أمير المؤمنين

إلى أن قال : أنظرونا نقتبس من نوركم

إنه من نور رب العالمين

عندئذ رفع الخليفة الحمودى الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر (١)

وهذا الحادث يرينا مدى الروح الديموقراطية التى ظلت تسود حكام الغرب الاسلامى رغم هذه القداسة المصطنعة التى حاولوا تقليد المشرق فيها .

المرابطون والخلافة العباسية :

وبينما كانت الأندلس تعانى من هذا التفكك السياسى والاجتماعى تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بالمغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية فى ظل دولة المرابطين وزعيمها إبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى الصنهاجى (٢) :

---

(١) راجع [المقرى نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ابن الابار الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨

(٢) عن نشأة هذه الدولة راجع مقالنا [الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين . مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٧]

ولا شك أن تاريخ بلاد العدوتين المغربية والأندلسية ، الذى هو وليد جغرافيتها ، يجعلنا ندرك تماما بأن هذه القوة المرابطية الفتية الطموحة ماكانت لتقف وجها لوجه أمام الأندلس مكتوفة الأيدى عند هذا الحد الشمالى للمغرب ، لأن منطق الأحداث التاريخية ، من قبل ومن بعد ، كان يفرض عليها الانتشار والتوسع فى العدوة الأندلسية المقابلة ، خصوصا بعد أن امتلك المرابطون ثغور المجاز المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلة . وقد يؤيد هذا الكلام تلك القصة التى أوردها صاحب المعجب عن تخاوف الأندلسيين من هذا الغزو المرابطى منذ أن بدأت طلائعه تخرج من صحراء شنجيط (موريتانيا الحالية) وتتدفق نحو المغرب الأقصى [1] . إلا أنه يبدو أن الظروف السياسية قد خدمت المرابطين فى هذه الناحية ، فجعلت الأندلس تحت ضغط الغزو المسيحى من الشمال هى السباقة فى طلب المعونة من المغرب قبل أن تفرض عليها فرضا . وقد روى فى هذا الصدد أن المعتمد بن عباد حينما عزم على الاستنجاد بالمرابطين قال جملته المشهورة التى عبرت عن شعور المسلمين فى ذلك العصر : « رعى الجمال عندى خير من رعى الخنازير » ، وهذا التصريح الجميل يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تماما بأن ملكه ضائع سواء على يد المرابطين فى الجنوب أو الاسبان فى الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الاسلامية بطبيعة الحال .

---

(١) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٠ - ١٠١ ، أحمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب الحلل الموشية مجلة تطوان العدد الخامس ١٩٦٠)

ثم عبر المرابطون الأندلس وانتصروا على ملك أسبانيا الفونسو السادس في وقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦ م) . ثم أعقبوا هذا الانتصار بالاستيلاء على الأندلس ، وخلع ملوك الطوائف بعد أن ثبت تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو ، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) - ، يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش . وعلى الرغم من ضخامة هذه المملكة المغربية فان المرابطين لم يحاولوا تلقيب أنفسهم بلقب خليفة أو أمير المؤمنين بل اكتفوا بلقب أمير المسلمين ودعوا للخليفة العباسي ببغداد [1] وفي هذا الصدد يقول صاحب الحلل الموشيه : ولما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته ، إجتمعت اليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وقالت له : أنت خليفة الله في أرضه وحقك أكبر من أن تدعى بالامير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين . فقال لهم : حاش الله أن نتسمى بهذا الاسم، انما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولانهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم فقالوا

---

(٢) لم يمنع ذلك من أن بعض المؤرخين والشعراء، قد لقبوا يوسف بن تاشفين بلقب أمير المؤمنين ، ومثال ذلك أحمد بن يوسف القرمان في كتابه أخبار الدول وآثار الاول (ص٢٥٤ طبعة بغداد) ،والشاعر الاندلسي الاعمى التطيلي في قوله :

نضاه أمير المؤمنين مهندا لكل دم منه وإن عز سافك

راجع (محمد بن شريفه : أسرة بني عشرة مجلة تطوان من ص١٩٦ العدد العاشر سنة ١٩٦٥ ، كذلك يذهب عبد الحي الكتاني في كتابه التراتيب الادارية (ج ١ ص١٠) إلى أنه كان يحتفظ في مكتبته الخاصة بدراهم ليوسف تاشفين رسم عليها وصفه بأمير المؤمنين. غير أن كل هذه الأقوال تتعارض مع ما ورد في كتب التاريخ والسكة كما هو مبين في المتن، ولعلها تحريف أو سهو من النساخ .

له لابد من اسم تمتاز به فأجاب الى أمير المسلمين وناصر الدين وخطب له بذلك فى المنابر وخوطب به من العدوتين (١).

وفى هذا المعنى أيضا يقول السلاوى الناصرى : وانما احتـــاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفه العباسى مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولايته مستنـدة إلى الشرع . . . وانمـا تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة حتى لايشاركه فى لقبه ، لان لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش (٢) .

وبعض المؤرخين مثل ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس يرون أن يوسف بن تاشفين، قد اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصاره فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ ﻫ (١٠٨٦ م) وهذا الرأى مشكوك فى صحتـه والدليل على ذلك هو الظهير الرسمى الذى أصدره يوسف بن تاشفين الى رعيتـه لتلقيبه بأمير المسلمين وناصر الدين ، وهذا الظهير ينص عـــلى تاريخ صدوره وهو نصف المحرم سنة ٤٦٦ ﻫ أى قبل موقعة الزلاقة بثلاثة عشر عاما. وقد ورد هذا الظهير فى كتاب الحلل الموشية السالف الذكر (٣).

كذلك يروى بعض المؤرخين أن دعاء الرابطين للخليفة العباسى قد تم بعد موقعة الزلاقة أيضا وهذا يبدو غير صحيح كذلك لان النقود المرابطية تثبت لنا أنهم دعوا للخلفاء العباسيين ونقشوا اسمهم على السكة منذ سنة

---

(١) الحلل الموشية ص ١٧ - ١٨ ، كذلك راجع نص الظهير الرسمى الذى صدر بشأن تلقيبه بهذه الاسماء ، فى نفس هذا المرجع ص ١٨ - ١٩ .

(٢) السلاوى : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى ﺟ ٢ ص ٥٣.

(٣) الحلل الموشية ص ١٨ - ١٩ عبد الله جنون: كتاب النبوغ المغربى فى الادب العربى ﺟ ٢ ص ٨٤ .

٤٥٠ هـ أى منذ بداية دولتهم فى عهد الامير أبى بكر بن عمر . غير أنه يلاحظ أن اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية كان يكتب فى هذه الصيغة « عبد الله أمير المؤمنين[١] » وقد رجح البعض أن المقصود بهذا الاسم هو عبد الله بن ياسين مؤسس الدعوة المرابطية ولكن هذا الرأى غير صحيح كذلك لان عبد الله بن ياسين لم يتخذ لنفسه لقبا خلافيا ولم يتجاوز سلطته كفقيه ، والرأى الصائب هو ما رواه العالم الأثرى الألمانى فان برشم Van Berchem من أن الخلفاء العباسيين كانوا يكنون عن أنفسهم بلقب عبد الله فى النقوش أو النقود ، ولم يذكروا أسماءهم المجردة ، وقد فعل المرابطون بالمثل فاكتفوا باستعمال صيغة عبد الله وهى كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة عباسى ، ثم أضافوا إلى جانبها لقب أمير المؤمنين[٢] » .

هذا وينبغى أن نشير إلى أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم فى ملابسهم وأعلامهم . وهذا اللون الأسود كما هو معروف هو شعار العباسيين الذين أصبحت لهم السيادة الروحية على تلك البلاد الغربية بعد انقطاع طويل .

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة لوحه ٣٩٣ (نسخة الاسكوريال) حيث يقول وكان درهمه فضة وديناره تبر محض فى إحدى صفحتيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وفى الدائر « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وفى الصفحة الأخرى الامام عبد الله أمير المؤمنين » وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته .

(٢) راجع Max Van Berchem: Titres Califien d'Occident), fournal asiatique, IX, 1907) .

راجع كذلك (حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

بقت مسألة أخيرة تسترعى الانتباه والاهتمام وهى معرفة اسم الخليفة العباسى الذى أرسل الى يوسف بن تاشفين تقليده واعترافه بشرعية حكمه على تلك النواحى الغربية ، وكذلك اسم الرسول الذى حمل الرسالة الخلافية إلى العاهل المغربى . وقد نص ابن خلدون على أن يوسف بن تاشفين خاطب الخليفة العباسى المستظهر بالله ، وأوفد عليه ببيعته ، عبدالله بن العربى وولده القاضى أبا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك ، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب[1] .

وعلى الرغم من هذا النص الصريح الذى يحدد اسم الخليفة العباسى ، والرسول المغربى ، فإن بعض المؤرخين قد كتب اسم الخليفة على أنه المقتدى أو المستنصر بالله [2] ، كذلك نلاحظ أن المؤرخين والكتاب الذين ترجموا لحياة القاضى أبى بكر بن العربى ، قد تكلموا عن رحلته وأشياخه ومؤلفاته وأشعاره فى شىء من التفصيل ، إلا أنهم لم يبرزوا الدور السياسى الهام الذى قام به هو ووالده خلال هذه الرحلة[3] . بل ويذهب عبد الحى

---

(١) راجع (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٩) .

(٢) أنظر (حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٢٣ - ٣٤٣) :

(٣) حول هذا العالم المحدث القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى المالكى ، راجع (المقرى : نفح الطيب ح ٢ ص٢٢٣ - ٢٥٠ ، أزهار الرياض فى أخبار عياض ح ٣ ص ٦٢ - ٦٥ ، ص ٨٨ - ٩٥ ، ابن بشكوال : كتاب الصلة ترجمة رقم ١١٨١ ، الحسن النباهى : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٠٥ - ١٠٧ ، ابن أبى زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ح ١ =

الكتانى إلى إنكار هذا الدور السياسي من أساسه ، ونقض رواية ابن خلدون بقوله :

«وما ذكره ابن خلدون فى هذا الصدد منقوض، فإن ابن العربى ووالده ذهبا للمشرق فرارا من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد بدليل أن عبدالله بقى بالمشرق متجولا إلى أن مات هناك اجماعا [١] ، وولده أبو بكر بقى بعده ، ورجع لبلده لا لمراكش ، وفى مدة إنتقالهما وجولاتهما بالمشرق ، اعتقلت أملاكهما عليهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع فى ردها علية الحافظ أبو على الصدفى» [٢] .

=ص١٤١-١٤٢ ، الزركلى: كتاب الاعلام جـ ٧ ص ١٠٦ ، أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم، مقدمة الناشر محب الدين الخطيب) هذا وقد عاصر ابن العربى قيام دولة الموحدين ، وبايع الخليفة عبد المؤمن فى مدينة مراكش على رأس وفد من أعيان أشبيلية ، وفى أثناء عودته توفى بالقرب من مدينة فاس سنة ٥٤٣ هـ ودفن هناك خارج الباب المحروق ولا يزال مقامه هناك بجوار مقام الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب . هذا ومن المعروف أن هناك عالما أندلسيا آخر بهذا الاسم أيضا وهو الفيلسوف المتصوف محي الدين بن عربى : (١١٦٥ - ١٢٤٠م) الذى ولد فى مرسيه وأقام فى أشبيلية ورحل إلى المشرق حيث مات فى دمشق ومن مؤلفاته الفتوحات المكية .

(١) هو أبو محمد عبدالله بن عمر الاندلسى الاشبيلى ويعرف بابن العربى، وهو والد القاضى أبى بكر ، وقد توفى بمدينة الاسكندرية سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩)

(٢) راجع (عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٢ - ١٣ .

والواقع إن ما ظهر بعد ذلك من وثائق ونصوص حول هذا الموضوع ، يتفق مع ما جاء فى كلام ابن خلدون ويناقض رأى عبد الحى الكتانى . فمن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطية من كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » لهذا العالم المشهور أبى بكر بن العربى المعافرى المالكى قاضى قضاة أشبيلية على عهد المرابطين (٤٦٨ - ٥٤٢ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨ م) . فى هذا الكتاب تحدث ابن العربى عن رحلته التى قام بها إلى المشرق صحبة والده سنة ٤٨٥ هـ وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز السبعة عشر ، كما أورد فى كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية : -

أولا : أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين .

ثانيا : أن الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو الخليفة أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ = ١٠٩٤ - ١١١٨ م) الذى استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربى ووالده تقليده وعهده للامير يوسف بن تاشفين موقعا عليه بعلامته « القاهر بالله » .

ثالثا . نص خطاب الوزير العباسى أبى منصور محمد بن جهير إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى هذا المعنى أيضا .

رابعا : نص الفتيا التى طلبها ابن العربى ووالده من الفيلسوف أبى حامد الغزالى الطوسى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) حـول المشاكل التى تتعلق بشرعية حكم الامير يوسف بن تاشفين ، وإجابة الغزالى عليها ، ثم نص الخطاب الذى بعث به الغزالى إلى يوسف بن تاشفين وقد أشارت الفتيا إلى الموقف العدائى الذى وقفه ملوك الطوائف فى الأندلس تجاه يوسف تاشفين ورفضهم الجهاد معه لأنه ليس إماما من قريش أو نائبا عن إمام ، واتهامهم له بالاحتيال لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه . وقد نص الغزالى فى إجابته على أن تأخر منشور التقليد الخلافى عن يوسف بن تاشفين . لاعتراض العوائق المانعة من وصوله ، لا يمنع من أن يكون ابن تاشفين نائبا عن الامام بحكم قرينة الحال ، وأن على الإمام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة منعا لوقوع الفتن .

هذه هى خلاصة بعض الحقائق التى تضمنتها الوثائق السالفة الذكر ، ونظرا لأهميتها رأينا أن ننشرها كضميمة فى آخر هذا الكتاب .

خلافة الموحدين :

وخلفت دولة المرابطين فى حكم المغرب والأندلس ، دولة مغربية أخرى هى دولة الموحدين . وقد قامت هـذه الدولة على أساس دعوة دينية اصلاحية ، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى . وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغه إحدى بطون مصموده الساكنة فى بلاد السوس بجبال أطلس .

رحل ابن تومرت فى شبابه إلى المشرق ، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر ، طلبا للعلم ، ولمس حالة الضعف التى كان يعانيها المجتمع الاسلامى فى ظل الخلافتين الهرمتين : العباسية والفاطمية ، ونجاح الصليبيين فى تأسيس إمارات لهم فى الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، عندئذ لم يطق صبرا على ذلك ، وأنبرى يهاجم الأوضاع السائدة بكل شدة وعنف : يروى ابن القطان فى هذا الصدد :

« ونزل المهدى مدينة الاسكندرية ، فرأى بها مناكر فغيرها ، وأغلظ فى أمرها ، فقامت عليه العامة والغوغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى ، فلما فقده الطرطوشى بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فتصد إليه وهو فى مسجد الأخضر على ساحل البحر ، فتراى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب ، فودعه وانصرف [١] » .

ثم يستمر ابن القطان فى وصفه لرحلة ابن تومرت من الاسكندرية إلى المغرب بحرا وبرا ، كذلك نجد وصفا أكثر تفصيلا لهذه الرحلة فى كتاب أخبار المهدى ابن تومرت لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق [٢]

---

(١) راجع (ابن القطان : جزء من كتاب نظم الجمان ، نشر محمود مكى ص ٣٨ - ٣٩) .

(٢) نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال تحت عنوان :
Lévi Provencal . Documents inédits d' histoire Almohade (Paris 1928)

وهو من تلاميذ ابن تومرت ، ونخرج من هذا الوصف وذاك ، أن ابن تومرت كان طوال رحلته سواء فى تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، كان يعمل على محاربة البدع ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأنه كثيرا ما استخدم عصاه ، واصطدم بالأهالى وخرج هاربا ساخطا من بلد إلى آخر .

ولاشك أن ابن تومرت ، قد أيقن بعد هذه الرحلة الطويلة فى المشرق والمغرب ، أن علاج هذه الحالة يقتضى إنشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الاسلامى كله ، وتتولى علاجه وإصلاحه .

ومن ثم شرع ابن تومرت فى نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المصامدة فى أقصى المغرب ، ولقب نفسه بالمهدى والشيخ وأمغار - ومعناها الشيخ بالبربرية - ، كما اتخذ قاعدته فى بادىء الأمر فى جبل ايجليز عند مدخل مدينة مراكش ، وكان يسمى أيضا بالجبلين . ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة حصينه منيعة فى قلب جبال أطلس الكبير وهى قلعة تينملل (١) التى أشاد المؤرخون والجغرافيون بحصانتها.

وكان حكام المغرب والأندلس فى ذلك الوقت هم المرابطون ، وهم جماعة سلفيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، يتمسكون بمذهب مالك

---

(١) تكتب أيضا على شكل تانملات، وتينمل وتنمال راجع (الادريسى: وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص٣٤، ٤١، نشر هنرى بيريس (الجزائر ١٩٥٧).

ابن أنس ، ويكرهون المتكلمين وعلم الـكلام ، وينفرون من الرأى والتأويل والخوض فى مسائل التوحيد. ويرون الاقتداء بالسلف فى قبول النصوص على علاتها ، واقرار المتشابهات كما جاءت والايمان بها كما هى .

فالمهدى بن تومرت هاجم المرابطين وفقهاء المالكية من هذه الناحية ، وقال بضرورة تأويل النصوص ، ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، وأتهم المرابطين بالتجسيم والشرك لأنهم يقرون الصفات الى الله تعالى وهى شبهة اشراك غيره معه ، بينما سمى أصحابه بالموحدين تعريضا بالمرابطين فى أخذهم بالعدول عن التأويل ، وهو يعنى بذلك أن أصحابه هم الذين يفهمون معنى التوحيد الخالص ومعنى تنزيه الذات الإلهية من الصفات المشبهه (١) .

والواقع أن ابن تومرت قد تأثر فى هذه الناحية باراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . ومذهب الاعتزال معروف من قديم فى المغرب ، وقد أشار اليعقوبى والبكرى والإدريسى إلى أن قبيلة أوربة التى ساندت المولى إدريس ، كانت تدين بالاعتزال ، وأن مملكة الادارسه كانت موطنا للاعتزال ، وأن عبد الله والد المولى إدريس ، كان يعتبر فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (٢) .

---

(١) راجع مقالنا (الموحدون والوحدة الاسلامية فى مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية ؛ العددان ١ ، ٢ مارس - ابريل ١٩٦٢)

(٢) راجع (اليعقوبى : كتاب البلدان ص٢٨ ؛ البكرى : المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ص ١١٨)

فابن تومرت من هذه الناحية لم يأت بشيء جديد على المغرب، وانما هو نوع من التجديد.

كذلك مزج ابن تومرت دعوته بفكرة المهدوية والعصمة، ولقب نفسه بالمهدى المنتظر والامام المعصوم وعقيدة المهدوية كانت معروفة فى المغرب من قديم، واستغلها الفاطميون من قبل، ونجحوا فى تأسيس دولتهم بالمغرب.

وكان لهذه العقيدة المهدوية إقبال ورواج فى بلاد المغرب أكثر منها فى بلاد المشرق، وذلك بسبب ماأذاعه البعض من أحاديث نبوية، لم تثبت صحتها تنبىء بظهور المهدى المنتظر فى أرض المغرب وأنه يقوم برد الدين الصحيح.

كذلك مزج ابن تومرت دعوته ببعض ماقال به الظاهرية، والمذهب الظاهرى كان أيضا معروفا بالمغرب على يد الفقيه الاندلسى أبى محمد ابن حزم الظاهرى فى القرن الخامس الهجرى. وتنقسم دعوة بن حزم الى قسمين :

القسم الاول وهو الجانب الفقهى، وفيه يرى ابن حزم عدم التقيد بآراء مذهب من المذاهب السنية المعروفة وهو ما يسمى بالتقليد أى ماتمسك به الآباء من المذاهب.

فابن حزم حارب التقليد، وقال بأن كل انسان حر فى أن يحكم فكره فيما يراه مناسبا، بشرط أن يستند فى ذلك الى حجج القرآن والسنة واستمرار العمل، أى ما أجمع عليه الصحابة والتابعون. وعلى هذا

الأساس هاجم ابن حزم فقهاء المالكية الذين كانوا قد تعاونوا مع السلطان وكونوا دكتاتورية مالكية فى الأندلس .

أما الجانب الثانى من دعوة ابن حزم ، فيتناول مسألة العقيدة . ويرى فيه ابن حزم ضرورة التفسير الحرفى الظاهر للقرآن والسنة ، وعلى هذا الأساس أنكر التأويل ، وهاجم المعتزلة القائلين به .

فالمهدى ابن تومرت ، رأى أن يستغل هذا المذهب الظاهرى لصالحه ، وأن يأخذ منه مايراه مناسبا لدعوته ، فترك الجانب الاعتقادى الظاهرى ، لأنه يتعارض مع مذهب الاعتزال الذى يدين به ، وأخذ الجانب الفقهى الظاهرى الذى يحارب التقليد والاحتكار المذهبى . وكان غرضه من ذلك هو محاربة فقهاء المالكية الذين قوى نفوذهم على عهد المرابطين [١] .

ومن الطريف أن المهدى بن تومرت ، قد وضع كتابا أسماه موطأ المهدى ، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التى وردت فى موطأ مالك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار [٢] وهذا يدل على أن ابن

---

[١] راجع Goldziher : Le livre de Mohammed Ibn Toumart, Mehdi des Almohades pp. 50-70 (Alger 1903)

[٢] نشر موطأ المهدى بن تومرت فى مطبعة فونتانا الشرقية بالجزائر سنة ١٩٠٧ ، وتوجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمى ٨٤٠ ج ، ١٢٢٢ ج

تومرت لم يكن يهدف الى مهاجمة المذهب المالكي فى حد ذاته ، وإنما اراد مهاجمة نفوذ فقهاء المالكية .

وخلاصة القول ، ان المهدى بن تومرت ، أراد أن يضمن لدعوته النجاح ، فجعلها مزيجــا من هذه التيارات والأفكار الثقافيـة والفقهية والاعتقادية المختلفة التى كانت معروفة فى المغرب ، ولكنها كانت فى معظمها ممنوعة من الظهور ومحرمة على الناس [١] . فاحياؤه لها مجتمعة فى دعوة اصلاحية جديدة يعتبر حركة من حركات التجديد فى الإسلام .

وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيمانا ومعرفة وإتحادا ، ولأنهم دون غيرهم الموحدون المؤمنون فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة ، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين. يقول صاحب كتاب المعجب :

وأقر المهدى على الجيش عبد المؤمن بن على ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين [٢] » .

ولكن كان لا بد أن تستند خلافتهم أيضا إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوى أو الأصل العربي . لهذا قالوا بانتماء كل من المهدى وعبد المؤمن الى الرسول عن طريق الادارسة ، وإتخذوا اللون الأخضر

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠١ .
(٢) عبدالواحد المراكشى : المرجع السابق ص ١٩٢ .

شعاراً لهم كى يظهروا ميلهم الى الدعوة العلوية ، كما تشبهوا بالرسول فى تصرفاته وأعماله . وإذا تصفحنا مثلا كتاب البيذق السالف الذكر نجد شجرة طويلة لنسب كل من المهدى وخليفته عبد المؤمن وكلها ترتفع الى الرسول [١] .

أما من جهة الأصل العربى ، فيروى ابن الأثير أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه فى أول لقاء لهما ، أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بنى سليم فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى (صلعم) حين قال : إن الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل من أى قيس فقال من بنى سليم ، وواضح أن سليم وقيس ينتميان الى مضر التى منها قريش .

كذلك يروى المؤرخون ، أن عبد المؤمن بن على ، كان يقول لمن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التى ينتمى اليها ، وهى من بطون زناتة بنواحى تلمسان : « أنا لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان ... والكومية علينا حق الولادة بينهم ، والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال [٢] . وقد حرص مؤرخو هذا العصر وشعراؤه على اثبات هذا الأصل العربى فى كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسى بدلا من الكومى [٣] .

---

[١] ابو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص ٣١ وما بعدها .

[٢] عبد الواحد المراكشى : المرجع السابق ص ١٩٧ .

[٣] ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٦٦ (القسم الخاص بالاندلس).

كذلك استغل الموحدون هذا الأصل العربى فى اصطناع القبائل العربية المقيمة فى افريقية ، للاشتراك معهم فى جهاد المسيحيين فى أسبانيا (١) . فنجد شعراء الموحدين يدعونهم بابناء العم ، ويذكرونهم بصلة النسب ووشائج القربى التى تجمع الموحدين مع العرب فى قيس عيلان (٢). وكان لهذه الدعاية أثرها فى هجرات هذه القبائل العربية الى المغرب الأقصى مما ساعد على تعريب هذه البلاد وصبغها بالطابع العربى .

وكيفما كان الامر ، فانه يبدو أن هذه الدعوة الموحدية الجديدة قد بهرت عقول المغاربة ، بدليل هذه السرعة العجيبة التى انتشرت فيها ، والنجاح العظيم الذى احرزته على المرابطين فى وقت قصير . كذلك كان لهذا النجاح صدى كبير بين المشارقة أيضا بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة . ومثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة اليمنى الذى عاش بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلا للاحداث الجارية فى عصره فلم يجد فيها اعظم من شخصية بن تومرت الذى ارتفع فى رأيه الى أعلا درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى إلى أن أمسكت يده
من الكواكب بالانفاس والـكظم

---

[١] ابن صاحب الصلاة : المن بالامامه ص ١٧٢ .

[٢] راجع على سبيل المثال (ابن صاحب الصلاة: كتاب المن بالأمامة على المستضعفين ص ٤١١-٤١٣ ، نشر عبد الهادى التازى)

وكان أول هذا الدين من رجل

سعى الى أن دعوه سيد الأمم [1]

وليس من شك فى أن الموحدين قد عبأوا كل دعاتهم وانصارهم وكتابهم للقيام بالدعاية اللازمة للخلافة الموحدية فى العالم الاسلامى . ففى كتاب البيذق نجد باباً عن أصحاب المهدى المقيمين فى مصر ، وقد بلغ عددهم واحدا وخمسين رجلا ذكر المؤلف اسماءهم واحدا واحدا ، ثم قال بأنهم كانوا للمهدى بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لاوامره ، مؤمنين بدعوته [2] . وهذا الكلام يدل على أن المهدى كانت له جمعية من أنصاره ودعاته تعمل على نشر دعوته فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأسلامى .

وفى كتاب نظم الجمان لابن القطان ، نجد صورة مقارنة بين الخلافتين الفاطمية بمساوئها ، والموحدية بمحاسنها ، يخرج منها المؤلف بنتيجة واحدة وهى أن الخلافة الموحدية هى أجدر الخلافات بحكم العالم الأسلامى [3] .

أما الرحالة الأندلسى المشهور ابن جبير الذى عاصر قيام دولة الموحدين وطاف بانحاء المشرق الاسلامى فى تلك الفترة ، فقد وصف الحالة فى تلك البلاد وقال بأن المصريين كانوا يترقبون مجىء الموحدين،

---

(١) راجع Hartwig Derenbourg : Omara du Yemen, sa vie et son oeuvre, tome, I p. 354 (Paris 1909)

(٢) البيذق : نفس المرجع ص ٣٠-٣٢

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٩

ويؤولون بعض الظواهر الطبيعية على انها تعبير عن قرب مجيئهم لدرجة أن بعض فقهائهم قد أعد خطبا مناسبة لإلقائها بين يدى الخليفة الموحدى عند قدومه [١] .

هذا ويقدم لنا ابن فرحون فى كتابه الديباج المذهب ، دليلا آخر عن الفكرة التى كانت سائدة بين الناس حول قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الاسلامى . فيقول فى ترجمة أبى الوليد القرطبى ، إنه قدم الى مصر هاربا من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يحج فدخل اليمن ، ثم خاف ان يظهر على اليمن ، فأراد أن يتوجه الى الهند ولكنه مات بزبيد[٢] ، واستمرت فكرة الوحدة الاسلاميه مسيطرة على عقول خلفاء الموحدين ولاسيما فى عهد الخليفة يعقوب المنصور الذى ينسب اليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته فى الرحلة الى المشرق وتطهيره من عيوبه [٣]

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوى فى بعض اشعاره فمن قوله يمدح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٥٥ - ٥٧ (بيروت ١٩٥٩)

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب ، ص ٣٢٢ (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

(٣) عبد الواحد المراكشى ، نفس المرجع ص ٢٨٤

ستملك أرض مصر والعراقا

وبجرى نحوك الامم استباقا (١)

وقوله فى مدح الخليفه يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم

أوفى الحظوظ فأبدت منظرا عجبا

أعلى المراتب من بعد النبوءة قد

حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً فى ممالكه

حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق الى أقصى الحجاز الى

اقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذى كانت الدنيا تؤمله

وكل عصر له مازال مرتقبا (٢)

فى خلال هذا الوقت وفى عهد الخليفتين يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور ، قامت فى مصر والشام دولة صلاح الدين الايوبى على انقاض الدولة الفاطمية ، ويستفاد من بعض وصايا صلاح الدين الى سفرائه ، أن الموحدين قد استاؤوا من قيام دولته ، وماترتب على ذلك من ظهور شعار العباسيين من جديد فى تلك البلاد (٣) . وهذا الكلام صحيح فى جوهره ؛

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٤

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص١٥٤ - ١٥٥ ، نشر هويثى ميراندا .

(٣) أبوشامه : كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ٢ ص١٧٠-١٧٢ ، محمد رضا الشبيبى : أدب المغاربة والأندلسيين فى أصوله المصرية ونصوصه العربية ص ٣٦ - ٤٠ (مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)

لأن الموحدين ـ كما ذكرنا من قبل ـ لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد .

ويبدو أن صلاح الدين ـ رغم تبعيته للخلافة العباسية ـ قد حاول توثيق علاقته بالموحدين ، فأرسل سفيرا من قبله ، وهو الأمير عبد الرحمن ابن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن أغراض هذه السفارة احيطت بسرية تامة وغموض كبير ، فيروى ابن عذارى في كتابه البيان المغرب .

وفي شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ وصـــل إلى المنصور أمير المؤمنين ، مخاطبات السيد أبي زيد من افريقية والسيد أبي الحسن من بجاية، بوصوله ابن منقذ إلى تلك البلاد ، وما قابلوه من المبرة وتوطئة المهاد ، والتعريف منهم بكتمانه لسبب وصوله ... فروجع السادات بالشكر على ما قابلوه به من الإكرام ، وأن لا يبحث عنه بشيء من الاستفهام ... ثم استقر الرسول بمدينة فاس ، فأقام بهـــا إلى أن انقضت حركة المنصور في الاندلس . فاستدعى الرسول المذكور ، فوصل إليه ، وقعد بين يديه : وخلا به على اختصاص وانفراد . فتلقى الجواب من المنصور مجملا ، واحيل على ما يوضحه له الوزراء مفسرا ومكملا ، وخرج الرسول من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به (١) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك (كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص ١٠٧ ؛ نشر سعد زغلول، (مطبوعات جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨) .

أخذ المؤرخون بعد ذلك يعلقون على هذه السفارة بمختلف الآراء والتكهنات : فصاحب كتاب الاستبصار ـ الذى يظن أنه كان من كتاب المنصور ـ يعتقد أن هذه الزيارة لم تكن إلا لإعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ؛ على حين يذهب غيره من المؤرخين إلى أن الغرض من هذه السفارة هو رغبة صلاح الدين فى تدخل الاساطيل الموحديه لوقف الامدادات الصليبيه إلى الشرق . ثم يعود المؤرخون إلى الاختلاف فيما بينهم ، فبعضهم مثل السلاوى الناصرى يقول إن الخليفة المنصور قد أرسل فعلا جزءا من أساطيله إلى الشرق للمشاركة فى العمليات الحربية هناك (١) ، بينما يقول البعض الآخر ـ وهم الغالبية ـ إن المنصور قد رفض أن يجيب صلاح الدين إلى طلبه لأنه ـ أى صلاح الدين ـ لم يعترف بخلافة المنصور ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين فى الخطاب الذى أرسله إليه مع رسوله عبد الرحمن بن منقذ (٢) . وهذه المسألة قد تكون لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية معناه الاعتراف أيضا بصدق العقيدة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية .

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص١٦٣ ؛ عبد الله جنون مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٦١

(٢) أنظر سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٣

عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب ص ٦٩ (الدار البيضاء سنة ١٩٦١)

وإذا أضيف إلى هذا أن الموحدين كانوا من أصل بربرى ويريدون اكتساب الأصل العربى والنسب النبوى ، صار الأمر أشكالا نفسيا أيضا وقد تبدو هـــذه العقدة النفسية واضحة فى المحنة التى نزلت بالفيلسوف أبى الوليد ابن رشد أيام المنصور الموحدى حينما قال فى شرح كتاب الحيوان لأرسطو ، إنه رأى الزرافة عند ملك البربر، ويقال إنه عاد وقال عند ملك البرين ليخرج من هذه الورطة [١] . كذلك تبدو هذه الحالة النفسية أيضا فى صيغة الدعاء لخلفاء الموحدين فى خطبة الجمعة : «اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك المحيى سنة رسولك الخليفـــة الإمام أبى يوسف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين» [٢] فهذا الحرص على تكرار لفظ أمير المؤمنين دون ذكر أسماء الخلفاء قـــد يكون له صلة بهذه الحالة النفسية .

ومهما يكن من شىء ، فان هذا الخلاف السياسى الذى وقع بين عاهلى المشرق والمغرب ، لم يحل دون تعاون شعوبها فى السراء والضراء كما هو الحال فى كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة ، قد ساهموا فى الحروب الصليبية إلى جانب اخوانهم المشارقة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن فى فلسطين .

ويشير الرحالة المعاصر ابن جبير إلى الضريبة الاضافية التى فرضها الإفرنج فى الشام على تجار المغاربة دونا عن سائر تجار المسلمين « لأن

(١) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٠٥ - ٣٠٧)
(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٥١

طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكى أحد الحصون فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الأفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم . » ثم يشير ابن جبير فى مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء فى الشرق العربى بفداء الأسرى من المغاربة : فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، إنما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم » . [١]

ومن الطريف أن بعض الروايات الاسلامية ، أشارت إلى أن الخليفة يعقوب المنصور لم يمت بأرض المغرب وإنما مات فى فلسطين بعد أن ترك خلكه وبلاده ورحل إلى الأراضى المقدسة لجهاد الصليبيين بل ويذهب ابن خلكان إلى أنه رأى فى البقاع قبرا بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين ، وأن الناس هناك يؤكدون على أنه قبر يعقوب ملك المغرب ويتباركون به [٢] . ولا شك أن هذه الروايات لا تدخل إلا فى نطاق الأساطير الشعبية ، وقد كذبها جمهرة من المؤرخين وعلى رأسهم الشريف الغرناطى الذى قال بأنهــا تخرص وأباطيل [٣] ، بل أن ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفــة ، عاد وقال إن المنصور قد مات

---

(١) (راجع رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، طبعة بيروت)

(٢) (راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٢) ولعل هذه المقبرة كانت للمغاربة الذين استشهدوا فى فلسطين ثم أطلق عليها أسم يعقوب المنصور كرمز تذكارى لها باعتباره المجاهد الاكبر وسلطان هؤلاء المجاهدين .

(٣) الشريف الغرناطى : رفع الحجب المستورة حـ ٢ ص ١٥٥ .

ودفن بالمغـــرب وهذا هو الثابت المعروف. ولا يسعنا فى تفسير هذه الروايات إلا على أنها تعبير عن انطباعات شعبية لما كان يدور فى خلد المسلمين من أمانى وآمال نحو اخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا شرقا وغربا ، ونحو التقاء المغرب بالمشرق من جديد .

خلافة الحفصيين بتونس

وبعد زوال دولة الموحدين بالمغـــرب والاندلس ، ظلت دعوتهم مستمرة فى المغـــرب على أيدى أقربائهم الحفصيين حكام أفريقيه أو البلاد التونسية .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون الى الشيخ أبى حفص يحي بن عمر إنتى الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة إحدى بطون مصمودة التى قامت على اكتافها دولة الموحدين . وكان هذا الشيخ الحفصى من كبار القائمين بدعوة المهدى بن تومرت ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين فى المغرب والأندلس .

وصلة الحفصيين بالبلاد التونسية ترجع الى أيام ابنه محمد عبد الواحد ابن أبى حفص الهنتاتى الذى كان صهرا للخليفة المنصور الموحدى ، والذى ولاه بعد ذلك الخليفة الناصر بن المنصور على تلك البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ (سنة ١٢٠٦ م.)

وكانت افريقية منذ بدايـــة عصر الموحدين مركزا للعناصر المعارضة لدولتهم ونخص بالذكر بنى غانية المسوفيين المرابطين حكام جزر البليار

الذين كثيرا ماانحدوا مع العناصر المقيمة فى إفريقية مثل الأغـزاز والأعراب الذين جاءوا من مصر واستقلوا بحكم عدد من المدن التونسية.

وقد اضطر خلفاء الموحدين الأوائل الى محاربتهم وطردهم من هذه البلاد ؛ إلا أنهم كانوا يعودون اليهـا ثانيـة كلما سنحت لهم الفرصـة . واخيرا رأى الخليفة الموحدى الناصر ، أن سلطان الموحدين لن يستقيم فى إفريقية إلا إذا أقام عليها واليـا دائمـا من قرابته يكون مسموع الكلمة بين الموحدين ، وله مطلق التصرف فى إدارتها كى يستطيع القيام باعبائها . واختار لهذا الغرض ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتى السالف الذكر . وقـد روى المؤرخون هذا المعنى حوارا لطيفـا بين الخليفـة والوالى يعبر عن بـدأ ارتباط الحفصيين بهذه الولاية ، فيقولون إن الخليفة الناصر قال للشيخ عبد الواحد: ياأبامحمـد أنت تعلم ماتجشمنـاه من المشـاق والصوائر فى استنقـاذ هذا القطر ، ولا آمن عليه من عـدو متوثب ، ولايقـوم بحمايته إلا أنـا أو أنت . فامض الى حفظ ممالكنا المغربية واقوم أنا ، أو أقم أنت وأرجع أنا ، فأذعن الشيخ عبد الواحد للاقامة فى إفريقية واشترط شروطه التى تخول له شبه استقلال بهذه الولاية ، وهى أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع الميورقى ابن غانيـة عنهـا ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لايتعقب أمره فى ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية [1].

---

(1) راجع (السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص١٩٣ ؛ رحلة التجانى ص٣٦٢

ولما هزم الموحدون أمام الجيوش الصليبية المتحالفة فى موقعه العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢ م) وأنهـــار نفوذهم فى المغرب والأندلس بعد هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا الحفصي[١] استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بنى عبد المؤمن فى مراكش سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م[٢]) ، ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير حتى انه زجر الشاعر الذى مدحه بأمير المؤمنين ، ولم يقبل قوله ٠

الأصل بالأمير المؤمنين فأنت بها أحق العالمين[٣]

على أن هذه الامارة لم تلبث أن تحولت إلى خلافة فى عهد ولده أبى عبد الله محمـــد[٤] الذى تسمى بالمستنصر بالله أمير المومنين .

---

(١) حكم الأمير أبو زكريا يحى الاول من سنة ٦٢٥ - ٦٤٧ هـ (١٢٢٨ - ١٢٤٩ م)

(٢) راجع الاحداث الخاصة بهذا الانفصال فى (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص٢٩٧، ٢٧٥)

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبـــار أفريقيـة وتونس ص ١١٨ ؛ محمد الباجى المسعودى . الخلاصة النقية فى أمراء أفريقيـة ص ٦١ ٠

(٤) حكم من سنة ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ (١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) ٠ وقد أشار كل من الزركشى ص ٢٧ ، ٣٨ ، وابن أبى دينار ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، أن ملوك الحفصيين كانوا يضعون تاجا على رؤوسهم فى المراكب ، ويركبون بغلة عالية .

وهناك خلاف حول تاريخ اعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس ، فالزركشى يقول :

وفى يوم الاثنين ٢٤ ذى الحجة من سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٣ م) ، رأى المولى المستنصر أن الاقتصار على لفظ الامير قصورا ، فتسمى بأمير المؤمنين ، وأمر أن يذكر فى الخطبة ويطبع بالذهب ، وفى ذلك اليوم تلقب بالمستنصر بالله (١) أما محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار ، فقد جعل تاريخ هذه الخلافة فى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) عقب سقوط خلافة بغداد فى أيدى المغول ، ومبايعة شريف مكة لسلطان تونس بالخلافة (٢) .

ويبدو أن رأى الزركشى هو الاصح نظرا لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة أهل المغرب والاندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .

وكيفما كان الامر ، فلقد استند الحفصيون فى إعلان خلافتهم الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة فى هذا الصدد ، كالاصل العربى ، والنسب النبوى ، الى جانب قرابتهم للموحدين . فزعموا أنهم من سلالة

---

(١) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦
(٦) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٢٠

الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب (١) ، وعمر كما نعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنته حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الاصل القرشى ، وهذا النسب النبوى ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا فى أنفسهم الشرعية الكافية لان يرثوا خلافة الموحدين المنهارة .

ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الاصل ، وأظهاره فى كل مناسبة . ونجد ذلك واضحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم ، التى أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاروقية (٢) أو كقول ابن خلدون فى قصيدة يمدحهم بها .

قوم أبو حفص أب لهم وما
أدراك ! والفاروق جد أول (٣)

---

(١) ابن أبي دينار : المرجع السابق ص ١١٦ ؛
محمد الباجى المسعودى : المرجع السابق ص ٥٦ ؛
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛
ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٧٥ .
(٢) أنظر
(Brunschvig : La Berbêrie Oriental sous les Hafsides, II, P.18)
(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٣٥

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدى المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وعقب ذلك أرسل شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصى المستنصر بالله ، واعتبروه وريثا للخلافة العباسية المنهارة . ولاشك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساسا شرعيا وهو الإشراف على الحجاز « أصل العرب والملة ومقر الحرمين الشريفين [١] . وفى ذلك يقول المستشرق فان برشم : « ان الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين فى الوقت الذى اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئا من هيبة الخلافة العباسية [٢]. ولم يقتصر نفوذ الحفصيين على الأراضى الحجازية ، بل نجد أن الدعاء للخليفة الحفصى قد عم مساجد المغرب والأندلس فترة من الزمان ، فالأندلس بعد كارثة العقاب ، قد سقط معظمها فى يد الاسبان ولم يبق للمسلمين منها سوى منطقة غرناطة الجبلية فى الركن الجنوبى الشرقى لأسبانيا ، حيث قامت هناك مملكة بنى نصر أو بنى الأحمر. وقد رأى سلطانها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) أن يعمل على تدعيم دولته الناشئة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٧ (فى اللقب بأمير المؤمنين)

(٢) راجع (G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV p. 437-438 & Wiet : Précis de l' Histoire d' Egypte, t. II, p. 250. & Ency of salam art. Hafsides)

بمبايعة السلطان الحفصى أقوى ملك فى المغرب فى ذلك الوقت (١).

وكما فعل بنو الأحمر فى غرناطة ، فعل كذلك بنو زيان فى تلمسان بالمغرب الأوسط ، وبنو مرين (أو بنو عبد الحق) فى المغرب الأقصى .

وهاتان الدولتان قامتا على أنقاض دولة الموحدين فى المغرب ، وكانتا فى حاجة أيضا إلى تأييد جارها الحفصى ولو بصفة مؤقته ، وفى هذا الصدد يقول السلاوى الناصرى : « ولما نبغ بنو مرين بالمغرب ، وغلبوا على الكثير من ضواحيه ، كانوا يدعون إلى أبى زكريا الحفصى تأليفا لأهل المغرب ، واستجلابا لمرضاتهم ، وإتيانا لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم .. » ، ثم يضيف بعد ذلك أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى هو أول من قطع الدعوة للحفصيين (٢) » وهكذا ظهرت فى المغرب من جديد وبالقرب من حدود مصر الغربية خلافة قوية وهى الخلافة الحفصية التى أمتد سلطانها الروحى على الحجاز شرقا وعلى المغرب والاندلس غربا ، وصارت عاصمتها تونس مركزا سياسيا وثقافيا هاما جذب السفراء والعلماء من مختلف أنحاء العالم .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١١٩ هذا ويلاحظ أن سلطان غرناطة المذكور قد دعا قبل ذلك للخلافة الموحدية فى مراكش ، ثم دعا أخيرا للخلافة الحفصيه بتونس راجع (ابن الخطيب : كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية)

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص ٢٨ - ٢٩

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف هذه الخـــلافة الجديدة ، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائما إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية وإقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمـــر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والاخشيديين والفاطميين قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء بعد ذلك الأيوبيون والمماليك والعثمانيون ، فساروا على نفس هـــذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب « خدام الحرمين »(١) .

وكان يحكم مصر أيام الخليفه الحفصى المستنصر بالله (٦٤٧-٦٧٥هـ = ١٢٤٩-١٢٧٧م) ، السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ = ١٢٦٠-١٢٧٧م) ، وهـذا السلطان يعتـــبر من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر ، إذ استطاع أن ينتصر على المغول عند الحدود العراقية ، وعلى الصليبيين فى الشام حتى صارت سيرته مضربا للأمثال كما هو واضح فى الملحمة الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية .

ورأى السلطـان بيـبرس أن سياسة الدولة الحفصيـة تتعـارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ولهذا عمـد الى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) ، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة فى احتفال كبير بالقاهرة ولقبه بالمستنصر بالله

---

(١) راجع مقالنا عن نظام الخلافة فى المغرب فى ـ مجلة جمعية نبراس الفـكر بتطوان عدد سنة ١٩٦١ .

أمير المؤمنين . وعلى الرغم من ان المراجع العربية تنص على ان هذا اللقب هو لقب أخيه الخليفة المستنصر (١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) بانى المدرسة المستنصرية ببغـــداد [١] إلا أننا نلاحظ أيضا ان هذا اللقب هو نفس اللقب الحفصى بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين ، مجـرد مصادفة أو توارد خواطر ، ولـكنه يبدو أنه نوع من باب التحدى أو المنافسة .

وكيفما كان الأمر فإن الخليفة الجـــديد بعد أن تمت مبايعته ، قام بدوره وقلد السلطـان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، ومايغـزوه من بلاد الأعداء .

وهكذا اكتسب بيبرس بهذا العمل نفوذا أدبيا وروحيا فى الأوساط الاسلامية ، ولـكن المهم هنا هو أن إحيـاء بيبرس للخـلافة العباسية لم يكن عملا روحيا محضا لأنه نظر الى النتائج المادية المترتبة على هذا العمل، وهى انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر وذلك تمشيا مع السياسة التقليدية التى حرصت عليها مصر فى كل وقت [٢]. ولتنفيـذ هذه السياسة عمليا ، قام بيبرس أولا بعدة إصلاحات بالحـرم النبـوى الشريف وأرسل الـكسوة الى الكعبة ، كما أرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب . . . الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحـــج وأظهر خشوعا وكرما لاينتهى . ولـكنه لم ينس مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفة العباسى على

---

(١) راجع (أبوشامه الذيل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقـريزى . السلوك جـ١ ص٥١)

(٢) Gaston Wiet: Précis de l' Histoire d'Egypte II p. 250 &
„ „ : Hisoire de la Nation Egyptienne IV p. 437

منابر الحجاز بدلا من الخليفة الحفصى (١) كما أقام الأمير شمس الدين مروان شبه مندوب له إلى جانب شريف مكة (٢).

ويبدو أن التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس ، قد دفع بعض الأمراء الطموحين الى المفاضلة بين هاتين الخلافتين لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروى ابن خلدون مثلا أنه فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) ثار والى طنجه المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصى صاحب افريقية ، ثم خطب للخليفة العباسى فى القاهرة ، ثم خطب لنفسه ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٦٥هـ (٣) .

وبعد مضى وقت قصير ، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها محدودا فى المنطقة التى تعيش فيها . فالخلافة الحفصية بعد انقضاء القرن السابع الهجرى ، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها فى المغرب والاندلس ، ثم لم تلبث أن دبت فيها الحروب الأهلية واستقلت بجاية عن تونس ، وانتهز بنومرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون فى شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات (٤) وعلى الرغم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٤٤

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٧٩ ، ٥٨١-٥٨٢

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص ١٩٦ ، السلاوى الاستقصا جـ ١ ص ١٧

(٤) فى السنوات ١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥٧م ، راجع :

(Robert Brunschvig : La Berberie oriental sous les Hafsides, Tome I, p. 178)

من أن سلاطين بنى مرين قد لقبوا أنفسهم بلقب أمير المسلمين ، إلا أن بعضهم قد اتخذ القابا خلافية من باب التشريف ، ومثال ذلك السلطان المرينى أبو عنان فارس الذى يصفه ابن بطوطة بالامام الاكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبى عنان (١). كذلك يروى أن الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب حينما ذهب فى سفارة الى هذا السلطان المرينى ابى عنان انشده قصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر

علاك مالاح فى الدجى قمر (٢)

وكذلك قوله بعد ذلك فى مدح السلطان أبى زيان المرينى :

يا ابن الخلائف يا سمى محمد ۞ يامن علاه ليس يحصر حاصر

ألقت اليك يد الخلافة أمرها ۞ إذ كنت أنت لها الولى الناصر (٣)

وقد علق المؤرخ المعاصر ابن خلدون على هذا الوضع فى أيامه بقوله « ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعته زناتة (يقصد بنى مرين وبنى زيان) ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة فى عدم انتحال اللقب بأمير المؤمنين أدبا مع رتبة الخلافة التى كانوا على طاعتها لبنى عبد المؤمن أولا ، ولبنى أبى حفص من بعدهم ، ثم نزع المتأخرون منهم الى اللقب بأمير المؤمنين

(١) راجع (رحلة ابن بطوطه جـ٤ ص ٣٣٢-٣٣٣ ، نشر وترجمة : Defremery et Sanguinetti باريس ١٩٢٢

(٢) راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ١ ص ٢٠٦-٢٠٧)

(٣) راجع (ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٣٥٤)

وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا فى منازع الملك وتتميا لمذاهبه وسماته .[١]

وما يقال عن سلاطين بنى برين ، يقال ايضا عن ملوك بنى الأحمر سلاطين غرناطة الذين خوطبوا بألقاب الخلافة من باب التشريف ، وإن كان اللقب الرسمى الذى اتخذوه هو « أمير المسلمين » [٢] ونلاحظ ذلك فى قصائد شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك الذى لايزال ديوانه منشورا بأحرف من ذهب على جدران قصر الحمراء .

وأقتدى بهم فى ذلك ملوك بنى زيـــان بتلمسان ، فلقبوا أنفسهم بلقب أمير المسلمين . وفى خــــزانة الرباط (المكتبة الكتانية) مصحف انتسخه بيده السلطان ابو زيان محمد الثانى سنة ٨٠١ هـ ووقع فى آخره وصفه بأمير المسلمين . ولعل كتاب نظم الدر والعقيان فى بيان شرف مـــلوك بنى زيان[٣] للحافظ محمد بن عبد الجليل التنسى ، لخير دليل على محاولة انتساب هؤلاء الملوك للأصل النبوى الشريف رغم كونهم من زناتة ، ويعرفون أيضا ببنى يغمراسن ومعناها بالزناتية رئيس القوم .

أما الخــــلافة العباسية بالقاهرة ، فانها هى الأخرى لم تكسب باحيائها إلا كسبا زائفا ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت سجناء تقريبا فى ابراج قلعة الجبـــل وكان عملهم قاصرا على حضور حفلات السلطان وتزيين مجالسه للوفود والسفراء .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٠

(٢) انظر (المقرى : نفح الطيب ج١ ص٢٠١)

(٣) ترجم هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية بعنوان :

(Barges : Histoire be Beni Zeiyan Rois de Tlemecen (Paris 1852) راجع كذلك عبد الحى الكتانى: التراتيب الادارية ج١ص١١)

ومن الغريب أن كثيرا من الدول الاسلامية الاخرى ، لم تعترف أصلا بخلافة القاهرة أو خلافة تونس ، وظلت على ولائها لخلافة بغداد حتى بعد زوالها وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله ، فالهند مثلا ظلت تدعو للخليفة العباسى المقتول وتنقش اسمه على السكة مدة قرن من الزمان كما لو كان حيا يرزق [١] ، وكذلك كان الحال فى اليمن ، إذ يروى الخزرجى الذى كان حيا سنة ٧٩٨ هـ أن الدعاء للخليفة العباسى المستعصم بالله ، كان مستمرا فى اليمن على أيامه أى فى أواخر القرن الثامن الهجرى [٢] .

هذا ويبدو أن المصريين أنفسهم كانوا يشكون فى صحة نسب الخلفاء العباسيين الذين أقامهم سلاطين المماليك فى القاهرة ، ومن يتصفح كتب المؤرخين المعاصرين ، يجد عبارات تدل على هذا الشك فى صحة نسبهم ، مثل قولهم الخليفة الأسود ، أو الزرابيني أو ذكر مبايعة شخص بالخلافة ، أو الخليفة المدعو فلان [٣] . كذلك نجد فى النسخة الخطية لكتاب « الذيل على الروضتين

---

(١) مثال ذلك السلطان غياث الدين بلبان ، سلطان دولة المماليك فى دلهى بالهند ، الذى ظل ينقش اسم الخليفة المستعصم على نقوده ويذكر اسمه فى الخطبة على المنابر طوال عهده (١٢٦٥ - ١٢٨٧م)

راجع (T. Arnold : The caliphate p. 87)

(٢) راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ج١ ص٦٩

(٣) راجع (دكتور محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول سنة ١٩٣٦)

لأبى شامة (١)، وهو مؤرخ معاصر لإحياء الخلافة بالقاهرة ، يذكر بجوار اسم بعض الخلفاء عبارة أمير المنافقين بدلا من أمير المؤمنين . وقد ظن ناشر هذا الكتاب أن المؤلف أو الناسخ قد أخطأ فى كتابة هذه العبارة وصححها فى المتن الى « أمير المؤمنين (٢)» ، مع أنها قد يكون لها مدلول تاريخى هام كما هو واضح .

يتضح مما تقدم أن كلا من خلافة القاهرة أو خلافة تونس ، لم تسد الفراغ الروحى الذى تركته خلافة بغداد ، فلهذا بقى نفوذهما ضعيفا ومحدودا الى أن قضى عليهما معا الأتراك العثمانيون فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى (٣)) ، وصار السلطان العثمانى بعد ذلك يجمع فى يديه السلطتين الزمنية والروحية ، فكان ذلك إيذانا ببداية عصر جديد .

---

(١) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء بمكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٥٥٣ر . وقد نشر هذا الكتاب الأستاذ عزت العطار الحسينى الدمشقى بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧)

(٢) قارن بين النسخة الخطية لوحه ٢٣٥ والكتاب المطبوع ص ٢١٣ .

(٣) خلافة القاهرة انتهت فى سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ) بينما انتهت خلافة تونس سنة ١٥٧٤ م ، (٩٨١ هـ) .

- ٣ -

الوزارة والحجابة

فى المغرب والاندلس

الوزارة فى المشرق :

بعد الخلافة تأتى الوزارة من حيث الأهمية الادارية فى الدولة : ونظام الوزارة فارسى قديم وليس من مستحدثات الاسلام . ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو فارسى من كلمة Wi - chir [1] ، أى الرئيس الذى يحكم ، أم هو عربى من الوِزْر وهو الثقل والعبء ، أو من الوزَر وهو الملجأ أو المعتصم ، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ يلجأ اليه الخليفة فى الأمور الهامة [2] .

ومهما يكن من شىء ، فقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم[3] ، وعرفه

---

(١) راجع :
(Concise Encyclopaedia of Arabic civilization, art. Vizier p.555)

(٢) راجع حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١١٢ ، طبعة ١٩٦٢) .

(٣) قال تعالى « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى » .

(سورة طه ٢٠ : ٢٩ - ٣١)

العرب أيام الرسول [١] ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بنى أمية [٢] ، من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين ، أو أصحاب رأى فيما يحتاجون إليه من أمور . فهؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بعمل الوزير ، إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادرا .

ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ومتأثرة بتقاليدهم ونظمهم ، فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة ، من أهمها الاشراف على الشئون المالية ، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات ، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بايرادات الدولة ومواردها الاقتصادية فى مختلف الأقاليم والأمصار . وقد حفظت لنا المراجع الاسلامية عددا من قوائم الخراج التى كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية ، مثل قائمة الجهشيارى [٣] (ت ٣٣١ هـ) فى كتابه الوزراء والكتاب ، وهى تمثل الخراج فى عصر الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) ، وقائمة ابن خلدون فى مقدمته ، وهى منسوبة إلى عصر المأمون [٤] (١٨٩ -

---

(١) يقال إن العرب الذين اختلطوا مع الروم والفرس قبل الاسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبى ، كذلك كان حال عمر مع أبى بكر .

(٢) كان الكاتب يقوم مقام الوزير فى الدولة الأمويه .

(٣) راجع (الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٢٨١ ، محمد ضياء الدين الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٢٢ ومابعدها) .

(٤) راجع (مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩ ، محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ٢٧١ ، جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٢ ص ٣٦) ومحمد ضياء الدين الريس ص ٤٢٨ .

١٢٨ ﻫ) ، وقائمة ابن خرداذبة فى كتابه المسالك والممالك ، وهى تمثل خراج الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى[1] ، وقائمة قدامة بن جعفر (٣٣٧ ﻫ) فى كتابه الخراج وصنعة الكتابة ، وهى تمثل الخراج الكلى للدولة العباسية[2] .

فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج فى الدولة (الدخل) ، كما كان هو المشرف أيضا على ديوان النفقات (المنصرف) ، وهى النفقات المنصرفة على قصر الخلافة . وقدرة الوزير تظهر حينما يرى العجز فى الميزانية بين الدخل والمنصرف ، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافى الأمر وسد العجز . وإلى جانب هذه النواحى المالية والاقتصادية ، كان الوزير أيضا هو المختص بفن الانشاء ، وذلك - كما يقول الماوردى - كى يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه . لهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة ، لانه هو الذى يتولى بنفسه الاشراف على ديوان الرسائل الذى سمى فيما بعد بديوان الانشاء ، وأيضا على ديوان الخاتم الذى تختم فيه رسائل الدولة . كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء ، وأن يكون دارسا كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم ... الخ . هذا وكان للوزير العباسى لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية ،

---

(١) ، (٢) لشر دى غوية De Goeje نبذا من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ليدن ١٨٨٩ م)
راجع كذلك (محمد ضياء الدين الريس : المرجع السابق ص ٤٣٥)

كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة .

وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين ، أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية ، طابع جديد لم يوجد من قبل [١] ، وفى هذا يقول ابن خلدون : -

« فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته فى الدولة ، وعنت لهـا الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان ، لمـــا تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند ، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه . ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع ، ودفع إليه ، فصار اسم الوزير جامعـــا لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكى ، بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التى هى القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك . » [٢]

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية ،

---

(١) راجـــع (Goitten (S.D.) : The origen of the vizirate and its true character;in Islamic Culture, Vol XVI 1942).

(٢) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

كأسرة البرامكة ، وبنى سهل ، وبنى طاهر ، وبنى الفرات ، وبنى الجراح ، وبنى خاقان ، وبنى وهب ... الخ (١) .

وحينما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة ، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ ، أصبحت وزارة تفويض (٢) ، أى بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة ، بينما بقى هو كالمحجور عليه .

ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بنى بويه الفرسى ، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير ، وطمعوا فى ألقاب الامارة والسلطنة ، فاتخذوا لقب أمير الامراء ، ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة ، فغيروا هذا اللقب ، واتخذوا لقب سلطان ، وصار بيدهم ، كما حدث للبويهيين من قبل ، الأمور السياسية والحربية معا . أما لقب وزير ، فقد ظل باقيا ، إلا أن مكانته انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته ، وصار عمله محدودا ككاتب للخليفة أو كاتم لاسراره .

وما يقال عن وزارة العباسيين ، يقال أيضا عن وزارة الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، من حيث أنها بدأت هى الأخرى ، منذ خلافة العزيز بالله ،

---

(١) راجع (حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٢٦)

(٢) راجع الفرق بين إختصاصات وزارتى التنفيذ والتفويض فى كتاب (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٦ وما بعدها)

بوزارة تنفيذ ، ثم أصبحت وزارة تفويض حينما ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين ، وسيطر على الدولة أمير الجيوش بدر الجمالى وأولاده من بعده (١) . فنظام إمرة الجيوش فى أيام الفاطميين ، كان يشبه نظام إمرة الأمـــراء فى عهد العباسيين .

هذا عن نظام الوزارة باختصار فى المشرق الاسلامى .

الوزارة فى المغرب :

أما فى بلاد المغرب ، فنلاحظ أن الدول الاسلامية الأولى التى قامت هناك ، لم يظهر فيها لقب وزير ، باستثناء دولة الأغالبة التى اتخذ بعض أمرائها وزراء فى دولتهم ، مثل الأغلب بن عبد الله المعروف بغلبون الذى كان وزيرا لأخيه الأمير زيادة الله الأول بن الأغلب (٢) ، ومثل نصر بن حمزة وزير أبى العباس محمد بن الأغلب (٣) ، وعبد الله بن الصائغ الذى كان وزيرا وصاحب البريد فى عهد زيادة الله الثالث الأغلى (٤) . إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفا ، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقبا تشريفيا . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن الأغالبة - رغم استقلالهم - كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد ، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالا لها من قديم فى هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم .

---

(١) راجع (عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر جـ١ ص٧٨)
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٢٤ ، ١٢٥
(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٤٢
(٤) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٨٣

أما الادارسة فى فاس ، والرستميون فى تاهرت ، والمدراريون فى سجلماسة ، والفاطميون إبان حكمهم فى المغرب ، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن عاونهم فى الحكم ، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير . فالفاطميون مثلا لم يتخذوا الوزراء إلا فى القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز(٣٦٥ -٣٨٦هـ) ، وفى ذلك يقول المقريزى : « وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية ، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله »[١] . هذا ، وقد ذكر استاذنا الدكتور حسن ابراهيم حسن [٢] ، دون أن يشير إلى المصدر الذى نقل عنه ، أن الخليفه المعز لدين الله ، اتخذ جوهر الصقلى وزيرا له سنة ٣٤٧ هـ. بالمغرب . وأغلب الظن أن كتاب الخطط للقريزى ، هو مصدر هذه الرواية ، إذ يقول : « وجوهر هذا مملوك رومى ، رباه المعز لدين الله ، وكناه بأبى الحسين ، وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وصار فى رتبة الوزارة ، فصيره قائد جيوشه » . [٣] وهذه العبارة السالفة ، قد تعنى أيضا أن جوهر الصقلى ؛ قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار فى مرتبة الوزير ، ولكنه لم يحمل لقب وزير ، بل كان قائدا لجيوش الدولة . وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة :

« ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان ، وكان للقائمين بها رسوخ

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٤ (طبعة النيل)

(٢) راجع (حسن ابراهيم حسن وطه شرف : المعز لدين الله ص ١٤٦-١٤٧)

(٣) راجع (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٥ (طبعة النيل) ، اتعاظ الحنفا ص ١٢٥)

فى البداوة ، فأغفلوا امر هذه الخطط أولا [١] » .

على أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة [٢] الوزارة فى المغرب ، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم . وقــد أعطانا ابن عذارى قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدى بقوله :

« واستحجب أبا الفضل جعفر بن على ، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن اسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسى [٣] » .

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجــاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا فى الاعمال الحربية برا وبحرا ولاسيما فى صقلية . وهم فى هذا يشبهون حجاب [٤] الاغالبه الدين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين .

ولقد برز من حجاب الفاطميين ، أبو أحمد جعفر بن عبيد الذى غزا جنوب ايطاليا عن طريق صقلية فى سنة ٣١٣ هـ (٩٢٤ م) [٥] وكذلك

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٠

(٢) الخطة (بضم الخاء) تعنى النظام Institution ، والجمع خطط .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٩

(٤) من حجاب الاغالبه نذكر محمد بن قرهب ، والحسن بن أحمد بن نافد على عهد ابراهيم الثانى الاغلبى . راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ـ القسم الخاص بالمغرب ـ ص ١١٠ ، ص ١١٩)

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٦٧

الحاجب أبو الفضل جعفر بن علي بن حمدون، الذى استمر فى منصبه فى عهد الخليفة محمد القائم (١) بن المهدى، وشارك فى إخماد ثورات الخوارج وغيرها من العمليات العسكرية الأخرى. ويروى المقريزى أن المعز لدين الله، لما عزم على الرحيل إلى مصر استدعى جعفر بن على، وعرض عليه أن يكون نائبه فى المغرب، غير أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطا تجعله شبه مستقل عن مصر. وقد غضب المعز لذلك وقال له: «ياجعفر، عزلتنى عن ملكى، واستبددت بالأعمال والأموال دونى! ثم فقد أخطأت حظك»، ثم استدعى يوسف بلكين بن زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة، وأسند اليه ولاية المغرب بعد أن حد كثيرا من اختصاصاته. (٢)

الوزارة فى الأندلس :

أما فى الأندلس، فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية، ويشهد بذلك ابن عذارى الذى أورد فى ترجمة كل أمير أموى، عدد وزرائه وأحيانا يذكر أسماءهم أيضا (٣). وكان منصب الوزير فى بادىء الأمر، يشبه فى مدلوله ماكان سائدا فى بقية أنحاء العالم الاسلامى، ثم جاء الأمير

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٩٥

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦، اتعاظ الحنفا ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) راجع تراجم أمراء وخلفاء الأندلس فى الجزء الثانى من كتاب البيان المغرب لابن عذارى.

عبد الرحمن الثانى (٢٠٧ - ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ، الذى أعاد ترتيب الجهاز الحكومى فى الأندلس ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة التى كانت الوزارة واحدة منها ، فخصها بعنايته وقسمها إلى عـــدة وزارات مختلفة . وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون ، وابن سعيد ، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية فى الدولة ، فقال ابن حيان : ـ

« والأمـــير عبد الرحمن ، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم فى الرأى ، والمشورة لهم فى النوازل . وأفرد لهم بيتا رفيعا داخل قصره مخصوصا بهم ، يقصدون اليه ، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم . فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا ، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأى فيما يبرمه من أحكامه ، وإذا قعدوا فى بيتهم (أى بيت الوزارة) ، أخرج رقاعة ورسائله إليهم بأمره ونهيه ، فينظرون فيما يصدر اليهم من عزائمه ... وجرى على ذلك من تلاهم » .[1]

ويشير ابن عذارى إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثانى كانوا تسعة ، وأن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار [2]

ولم يحدد ابن عذارى المدة المستحقة لهذا الراتب ، وإن كان يبدو

---

(١) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس لوحة ١٩٦ ، الجزء الخامس بعصر الحكم الربضى وولده عبد الرحمن الثانى ، نشر محمود مكى (تحت الطبع) . ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص (٦١ - ٦٢)

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢١

أنه عن كل شهر فى الغالب(١)، وهذا يعتبر قليلا إذا قورن براتب الوزير فى بغداد أو القاهرة أو فى قرطبة فيما بعد(٢) ، كما يعتبر فى الوقت نفسه مناسبا إن قورن مثلا براتب وزير الحفصيين فى تونس(٣).

أما ابن خلدون ، فقد أمدنا ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير فى الخطة بقوله :-

« وأما دولة بنى أمية بالاندلس ، فأبقوا (٤) اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، (٥) وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج

---

(١) راجع (Lévi - Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, tome III p.18.

(٢) من أمثلة ذلك الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز الفاطمى بالقاهرة ، ويحي بن هبيرة وزير المقتفى العباسى فى بغداد ، واحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير عبدالرحمن الناصر فى قرطبه ، الذى بلغ راتب كل منهما حوالى مائة ألف دينار السنة وهو رقم مبالغ فيه . راجع (Levi-provençal : Op.cit. III p.21 حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية صـ ١٣٨) .

(٣) راجع (ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية ـ صـ ٢٠ لشر حسن حسنى عبد الوهاب)

(٤) وردت هذه الكلمة فى الأصل : فأنفوا ، ولعلها فأبقوا ، على أساس أن منصب الوزير كان موجودا فى الدولة الأموية منذ قيامها ، ثم أدخلت عليه تعديلات اقتضت تقسيمه على عدد من الوزراء

(٥) يفهم من عبارة ابن خلدون ، أن حسبان المال أى الاشراف على =

المتظلمين وزيرا ، وللنظار فى أحوال أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم (١) » .

هذا ، ويضيف ابن سعيد المغربى ، أن مناصب الوزارة فى الأندلس . كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم فى البيوت والعائلات المعلومة (٢) .

من هذه النصوص السابقة ، نفهم انه كان يوجد بالاندلس على عهد

= الشئون المالية من دخل وخراج فى الدولة كان من اختصاص وزير من وزراء الدولة الاموية ، غير أن ابن سعيد المغربى جعلها فى يد شخص آخر يسمى بصاحب الاشغال الخراجية . وكيفما كان الامر ، فلقد أمدتنا كتب المسالك فى كلامها عن الاندلس ، بمعلومات هامة عن جباية الاندلس فى عهد الامويين ، ومثال ذلك أن جباية الاندلس من الكور والقرى فى أيام عبد الرحمن الاوسط . كانت الف الف دينار فى السنة . وكانت قبل ذلك لاتزيد على ستمائة الف دينار . أما فى عهد عبد الرحمن الناصر فقد بلغت الجباية خمسة آلاف الف دينار وأربعمائة الف وثمانين الفا من السوق ، والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار . وقد قسم الناصر هذه الجباية على ثلاثة أثلاث: ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر. راجع (المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ١٤١ ص ١٩٦ ابن عذارى حـ ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢)

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٩ - ٢٤٠

(٢) المقرى : نفح الطيب حـ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ومثال ذلك بنو حدير ، وبنو أبى عبدة، وبنو شهيد، وبنو فطيس، وكلهم من موالى الأمويين المشرقيين أو الاندلسيين راجع (ابن الابار : الحلة السيراء حـ ١ ص ١٢٠ حاشية ٣) .

الدولة الاموية ، وزارة متعددة المناصب ، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذى يتصل بالخليفة . وهذا التعدد فى مناصب الوزراء ، لانجده فى نظام الوزارة بالشرق العربى ، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد وقلما وجد وزيران . أما فى الاندلس . فكل ناحية من نواحى الادارة العامة لها وزير مختص بها ، ثم هناك الرئاسه العامة وهى الحجابة ، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فى قصر الخليفة . فالوزارة فى الاندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة ، وهى فى هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف فى المشرق فى العصر الوسيط .

ومن الطريف أن ابن حيان حينما يتكلم عن وزراء الأمير عبد الرحمن الاوسط ، يذكر من بينهم وزيرا سكندريا ذهب إلى الاندلس فى صباه وظل يترقى إلى أن صار وزيرا ، فيقول : « ومن وزرائه عبد الواحد ابن يزيد الاسكندرانى الذى حضر إلى الاندلس وهو فتى ، وكان يشدو شيئا من الغناء على مذهب الفتيان ، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يريبك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بصنعك . » ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فظل يترقى فى منازل الخدمة حتى رقى إلى الوزارة والقيادة [١] » .

هذا ويلاحظ أن ابن حيان ، قد ذكر فى موضع آخر من كتابه [٢] اسم هذا الوزير السكندرى ضمن قواد الامير عبد الرحمن الثانى ، وهذا يثبت

---

(١) ابن حيان : المرجع السابق لوحه ١٩٧ ، ولعله يريد بغناء الفتيان هنا هو ماكان شائعا من غناء بين فتيان قرطبة .

(٢) ابن حيان : المرجع السابق ورقة ١٩٧ .

ماقاله آنفا من أنه قد رقى إلى الوزارة والقيادة.

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، أطلق لقب «ذو الوزارتين» على بعض الوزراء والحجاب فى الأندلس. وقد سبق أن استخدم هذا اللقب فى المشرق أيضا على عهد العباسيين، ومثال ذلك الخليفة المـــأمون الذى منحه لوزيره الفضل بن سهل. والمراد بتلك التسمية هنا، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معا، ولهذا يقال له أيضا: صاحب السيف وصاحب القلم؛ وقد يجمعان معا فيقال «ذو الوزارتين» أو «ذو الرياستين» [1].

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب فى الأندلس، قد اختلف فى مدلوله عن المشرق، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، قد أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩)، نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التى أتحفه بها هذا الوزير الثرى، عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذى الوزارتين.

وقد وصف المقرى هذه الحادثة نقلا عن ابن حيان وابن خلدون بقوله:

وكان الناصر قد استحجب موسى بن محمد بن حدير. واستوزر عبدالملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد. وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الأصناف، وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين، قال ابن خلدون:

---

(١) محمد الخضرى: محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ٢٥٠)

وهي مما يدل على ضخامة الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، لثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهى هدية عظيمة الشأن ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، واتفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا . وأقروا أن نفسا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها ، فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هـــذا حظوة واختصاصا وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق فسماه « ذا الوزارتين » لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه فى البيت ، وتقديم اسمه فى دفتر الارتزاق أول التسمية . فعظم مقداره فى الدولة جدا . » (١)

واضح من هذا النص السابق أن لقب « ذى الوزارتين » الذى لقب به ابن شهيد لم يكن معناه صاحب السيف والقلم ، بل كان لقبـــا تشريفيا مثل لقب « ذو السيفين » الذى منحه الخليفة الحكم المستنصر لقائده غالب بن

(١) راجع (المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ . وقد ورد فى نفس هذا المرجع تفصيل لهذه الهدية نقلا عن ابن خلدون وابن الفرضى وهى كالآتى : خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفه خمسة وأربعين ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتا بدرة ، واثنا عشر رطلا من العود الذى يختم عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلا من العود المتخير .

عبد الرحمن . بعد أن قلده سيفين عقب انتصاره على الادارسة فى المغرب سنة ٣٦٤ هـ (١)

ولما ضعفت الخلافة الأموية فى الاندلس ، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئا فشيئا حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة ، وصار اختصاصه يشمل الشئون المدنية والعسكرية . وتنبغى الاشارة هنا إلى ماسبق أن بيناه آنفا ، وهو أن الحاجب فى الاندلس ، لم يكن ذلك الرجل الذى يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة ، كما كان الحال فى الشرق ، وإنما قصد به رئيس الوزارة أو ما يسمى بالوزير فى المشرق (٢) .

واقد برز من هؤلاء الحجاب الاقوياء فى الأندلس : جعفر بن عثمان المصحفى ثم المنصور بن ابى عامر وأبناؤه من بعده . وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقرات لابن عذارى يصف بها مدى التفرد الذى بلغه المنصور بن أبى عامر بقوله :

وفى سنة ٣٧١ هـ تسمى ابن أبى عامر بالمنصور ، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك ، فكانت الكتب تنفذ عنه . من الحاجب

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ١٢ ، راجع كذلك
(Lévi - Provençal Histoire de L'Espagne Musulmane tome III , p.21 - 22).

(٢) يلاحظ أن بعض الحجاب الاقوياء أمثال المنصور أبى عامر قد حجب الخليفة هشام عن رعيته ، ولكن هذا كان إلى جانب صفته الأساسية كرئيس للوزراء .

المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان . وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية ، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده ، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته ، فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم ... فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب ، وشاركه في تلك المذاهب ، ولم يجعل فرقا بينهم وبينه الا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه ، حتى تناهت حاله في الجلالة . وبلغ غاية العز والقدرة[1] » .

ويبدو أن لقب وزير في ذلك الوقت ، قد أخذت مكانته تضعف نتيجة لازدياد سلطة الحاجب في الدولة . وقد يدل على ذلك ماوراه ابن خلدون وصاحب القرطاس ، من أن زعيم قبيلة مغراوه الزناتية ، زيري ابن عطية ، احتقر لقب الوزير الذى انعم عليه به المنصور بن أبي عامر ، لدرجة أنه صاح غاضبا في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير : وزير من يالكع ! لا والله إلا أمير بن أمير . واعجبا لابن أبي عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ! ، والله لوكان بالاندلس رجل ، ماتركه على حاله[2] » .

ولما سقطت الدولة الاموية ، وقامت على انقاضها دويلات ملوك الطوائف ، ترفع هؤلاء الملوك عن استعمال لقب وزير ، واتخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي ، أول من استقل بمنطقة بطليوس ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٢ص٤١٧ - ٤١٨
(٢) راجع (ابن خلدون : العبر حـ٣ ص٤٠، ابن ابي زرع : روض القرطاس حـ١ ص ١٦١-١٦٢؛ السلاوى : الاستقصا حـ١ ص٢١١)

وباديس بن حبوس ملك غرناطة ، واحمد بن قاسم أمير ولاية البونت Alpuente من أعمال بلنسيه (١) . كذلك زاد استعمال الالقاب التشريفية المزدوجة فى أيام ملوك الطوائف مثل : ذو الوزارتين ، ذو الرياستين ، ذو السيادتين ، ذو المجدين ، بالاضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة . وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم ، وصارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى (٢) .

الوزارة على عهد المرابطين :

ولما جاء المرابطون ، أعادوا لهذه الخطة مكانتها القديمة ، واحتل الوزير فى أيامهم مكانا بارزا فى الدولة . ويلاحظ أن كتابات المعاصرين ـ أمثال ابن عبدون والطرطوشى ـ قد أشادت بالمركز الممتاز الذى كان يحتله الوزير فى نظم المرابطين ، على اعتبار أنه الشخص المقرب من السلطان ، والذى يحضر مجالسه ، فهو ـ على حد قول الطرطوشى ـ « بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، وفى الامثال نعم الظهير الوزير (٣) » .

ومن المعروف أن دولة المرابطين ، كانت دولة اسلامية مجاهدة ، يقوم

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص٥٦ والترجمة الفرنسية ص٧١ .

(٢) أنظر (Levi-provençal : Histoire de L' Espagne musulmane tome III p. 20 - 21; Inscriptions arabes d'Espagne p. 66 et note 2)

(٣) أبوبكر الطرطوشى : سراج الملوك ص ٧٠ ، ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ص ١٤ ـ ١٥ نشر ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ؛ حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص٣٦٢

نظام الحكم فيها على أسس عسكرية ، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الاعلى ، ومعاونوه هم قواد الجيش . لهذا كان من الطبيعى أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكرى كذلك . ولكن لما كان الامر يتطلب من الوزير أيضا ، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ، وهو ما يقابل عندنا فى مصر كاتب ديوان الانشاء فى العصر الوسيط ، فقد وجد فى دولة المرابطين صنفان من الوزراء :

١) وزراء عسكريون من قادة الجيش ، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجه التى قامت على أكتافها دولة المرابطين .

٢) وزراء كتاب وهم من الفقهاء .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن كلمة فقيه فى الاصطلاح العلمى الاسلامى ، هو العالم بالأحكام الشرعية الا انه لم يلبث أن تطور استعمال هذا اللقب فى المشرق ، وصار يطلق على دارس الفقه عموما من الطلبة . ومثال ذلك قول الذهبى متحدثا عن المدرسة المستنصرية ببغداد : « وعدد فقهائها مائتان وثمانيه وأربعون فقيها من المذاهب الاربعة ، وأربعة مدرسون [١] » . فأطلق لقب الفقهاء على الطلاب فحسب ، وبمثل ذلك اطلق ابن السبكى لقب الفقيه والفقهاء على الطلاب [٢] . أما فى المغرب والاندلس ، فلم تكن كلمة

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٥ ، محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ص ٢٣٠

(٢) ابن السبكى : معيد النعم ص ١٠٨ ؛ محمد عبد الرحيم غنيمه : المرجع السابق .

فقيه قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب . وإنما توسعوا فى استعمالها ، وأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامة ، وفى ذلك يقول ابن سعيد : « وسمة الفقه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١) . »

بهذا المعنى العام لكلمة فقيه ، كان وزراء المرابطين الكتابيون وقضاتهم، وقد نص صاحب كتاب الحلل الموشية على أن يوسف بن تاشفين ، اتخذ وزيرا عسكريا وهو ابن عمه وصهره سير ابن أبى بكر (٢) الذى قضى على ملوك الطوائف بالأندلس ، كما اتخذ وزيرا كاتبا وهو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور ، الذى كان - على حد قوله - « علم بلاغة به يهدى ، وإمام شرف قدمه العلم والندى ، وناصر مجد هو الغاية والمدى »(٣) . ثم يضيف صاحب الحلل الموشية ، أن هذا الوزير الأخير ، هو الذى كتب باسم يوسف بن تاشفين نص ولاية العهد لابنه الأمير أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين (٤) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ٢٠٦ ويلاحظ على سبيل المثال أن ملك غرناطة محمد الثانى بن الأحمر كان يلقب بالفقيه .

(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٣ ، ٥٩

(٣) ، (٤) الحلل الموشية ص ٦٣ - ٦٤ وقد ورد نص عقد البيعة فى نفس المرجع والصفحة .

ولما ولى أمير المسلمين على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ = ١١٠٦ - ١١٤٣ م) ، استوزر القائد ينتان أو ينتيان بن عمر الذى كان قائدا لفرقة الحشم ، ثم بعد ذلك فى أواخر عهده ، استوزر ولده إسحاق بن ينتيان بن عمر الذى كان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، يتوقد ذكاء ونبلا وفهما، فأعجب به أمير المسلمين اعجابا كثيرا ، وجعل له أيضا النظر فى المظالم والشكايات ، فانتفع به الناس . وقد تولى هذا الوزير فى أواخر أيام دولة المرابطين ، قيادة الحملة التى استسلمت للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على[1] سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) .

كذلك اتخذ السلطان على بن يوسف ، وزراء ومستشارين من الفقهاء وكبار العلماء ، ونخص بالذكر منهم الوزير الفقيه مالك بن وهيب الاشبيلى الذى شارك فى جميع العلوم ، ونظم الشعر ، وكتب مؤلفات فى الفلسفة والتاريخ ، نذكر منها كتابه الذى سماه « قراضة الذهب فى ذكر لئام العرب » ، ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والاسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب .

ولقد كان لهذا الوزير موقفا تاريخيا مشهورا خلال المناظرة التى قامت فى حضرة السلطان على بن يوسف ، بين فقهاء المرابطين والفقيه محمد بن تومرت ، الذى كان ثائرا على الأوضاع الاجتماعية فى الدولة المرابطية . فيروى المؤرخون أن مالك بن وهيب لما سمع كلام ابن تومرت ، استشعر حدة نفسه ، وذكاء خاطره ، واتساع عبارته . فأشار على أمير المسلمين

---

(١) راجع (كتاب الحلل الموشية لمؤلف مجهول ، ص ٩٨ ، ٨٣) وكذلك :
(J. Hopkins : Medieval Muslim Government in Barbary. P.7)

بقتله أو اعتقاله قبل أن يستفحل خطره ، لأنه رجل مفسد ولايسمع كلامه أحد إلا مال إليه . غير أن على بن يوسف ترقف فى قتله أو اعتقاله ، وأبى ذلك عليه دينه لعدم ثبوت التهمة عليه [1] . وقد صح ما توقعه مالك بن وهيب ، إذ أنه على يد هذا الفقيه السوسى ابن تومرت ه قامت دولة الموحدين التى قضت على دولة المرابطين فى المغرب والأندلس .

الوزارة فى عهد الموحدين :

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين فى وجوه كبيرة ، إذ أنها قامت هى الأخرى على أسس دينية اصلاحية ، واصطبغت نظمها بالصبغـــة العسكرية ، وكان جهاد الصليبيين فى الأندلس من أهم أهدافها .

وفى بداية عهد هذه الدولة ، اعتمد المهدى ابن تومرت فى ادارة حكومته على عدد من كبار اتباعه ، كانوا بمثابة وزرائه ، وعرفوا باسم العشرة أو أهل الجماعة وقد أورد صاحب كتاب الانساب [2] بعض اختصاصات هؤلاء العشرة مع ذكر أسمائهم بقوله :

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤ - ١٨٥ ، المقرى : نفح الطيب حـ٥ ص ٢٧ .

(٢) نشر المستشرق الفرنسى قطعة من هذا الكتاب مع نصوص أخرى أهمها أخبار المهدى بن تومرت وتاريخ الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، مع ترجمة فرنسية لها تحت عنوان :

(Lévi - provençal : Documents inédits D,histoire Almohade (Paris 1928)

ومن ذلك أهل الجماعة ، رضى الله عنهم : أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن على ، كان الإمام المهدى يسميه صاحب الوقت ، واختصه بفرس أخضر ، وسليمان آحضرى وكان يكتب الرسائل عن إذن الإمام المهدى ، وابو ابراهيم اسماعيل بن يسلالى المزرجى ، وكان يقضى بين الناس عن إذن الإمام ، وأبو عمران موسى بن تمارى الجدميوى ، وكان أمين الجماعة ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وكان يؤم فى الفريضة عن إذن الإمام ، وابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى (١) واختصه الإمام المهدى بالدرقة ودعا له بالبركة ، وأيوب الجدميوى وهو الذى تولى قسمة الاقطاع بين الموحدين فى أول الامر (٢) .

وفى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على (٥٢٤ - ٥٥٨هـ = ١١٣٠ - ١١٦٣م) تغير هذا النظام ، وصار للدولة وظائفها الادارية المعروفة كالوزارة والكتابة والقضاء ، ولكن بقيت مع ذلك مشيخة الموحدين للرأى والمشورة عند السلطان ، وقد عرفوا بأشياخ الرأى أو أشياخ البساط ، ولم يكن

---

(١) كان اسمه البربرى الاصلى فصكة بن ومزال ثم سماه ابن تومرت بأبى حفص عمر وهو المشهور بعمر اينتى ، وبأزناج ، واليه ينتسب الحفصيون فى تونس ، وينسبه البعض إلى الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب .

راجع (المراكشى : المعجب ص ٢٢٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٧٥)

(٢) ابو بكر الصنهاجى (البيذق) : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين صـ ٣٣ .

فيما يبدونه من آراء مايجد من إرادة الخليفة ، إذ يقول العمرى فى ذلك :
« وكان لعبد المؤمن وأبنائه أشياخ من أعيانهم لاعدة لهم ولاجند ، كعدة الامراء بمصر ، بل المرء منهم بنفسه فقط ، وإنما هم أعيان الجماعة ممن يحضر عند سلطانهم للرأى والمشورة ، ولكل طائفة مزوار وهو كبير لهم يتولى النظر فى أحوالهم »(١)

وكان منصب الوزير من المناصب الهامة فى الدولة الموحدية ، وقد شغله عدد من أبناء الخلفاء واخوتهم من بنى عبد المؤمن الذين كانوا يسمون بالسادة أو الاسياد ، كما شغله عدد من أصهارهم وقوادهم وكتابهم كما كان الحال أيام المرابطين من قبل. وكان الوزراء من السادة أى الأمراء يتخذون لأنفسهم فى غالب الاحيان ، وزراء بين أيديهم تمييزا لانفسهم عن سائر الوزراء . وعلى الرغم من أن المصادر التى لدينا لاتسعفنا فى تحديد اختصاصات الوزير على عهد الموحدين ، إلا أنه يفهم منها أنه كان وزير تنفيذ فى غالب الاحيان ، وأنه كان يقوم بعمل الكاتب ، وبعمل الحاجب - بمدلوله الأصلى - أى كرئيس للتشريفات الذى يحجب الخليفة عن الخاصة والعامة ويأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر اسمه ونسبه وبلده (٢) . كذلك كان الوزير ، مع ذلك النظر فى الحساب والاشغال

---

(١) ابن فضل الله العمرى مسالك الابصار ، القسم الخاص بوصف افريقية والاندلس ص ١٨

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٥٧

المالية (١) ، وان كان البعض يجعل هذه الشئون المالية فى يد شخص آخر يعرف بصاحب الأشغال (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الوزير على عهد الموحدين لم يكن صاحب النفوذ الحقيق فى الدولة ، بل كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . أما أصحاب النفوذ الفعلى فى الدولة فهم السادة أو الأمراء من بنى عبد المؤمن الذين كان يعين منهم الولاة فى المغرب والأندلس ، ويختار منهم نائب السلطان الذى ينوب عن الخليفة أثناء غيابه عن العاصمة مراكش . (٣)

هذا ويروى ابن خلدون أن خلفاء الموحدين لم يتخذوا لأنفسهم حجابا لاختصاص الوزراء بهذه المهمة ، ولهذا فان اسم الحاجب لم يكن معروفا فى دولتهم (٤) إلا أننا مع ذلك نجد فى الكتب المعاصرة مايفيد من وجود حجاب لخلفاء الموحدين منذ أيام امامهم المهدى بن تومرت . ومثال ذلك ابو محمد واسنار الذى اختصه المهدى لخدمته لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابه ، والخروج بين يديه . وكان رجلا أسود من مدينة أغمات (٥)

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) أنظر

(Brunschvig: La Berberie oriental sous les Hafsides ,II,p.84)

(٣) أنظر

(Hopkins ; Medieval muslim government in barbary p. 11)

(٤) ابن خلدون المقدمة ص ٢٤١

(٥) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٣٨ - ٢٣٩

أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالى الخصيان أمثال كافور ، وعنبر ، وفضيل ، وريحان ، ومبشر وفارح (١) . وأغلب الظن أنهم كانوا من فتيان أو مماليك الخليفة ، وأن مهمتهم كانت قاصرة على خدمته وملازمته فى جلوسه وفى غدواته وروحاته .

ومن أهم وزراء عبد المؤمن نذكر أبـــا جعفر بن عطية القضاعى المراكشى ، وأصله القديم من طرطوشة فى شمال شرقى اسبانيا . وقد جمع هذا الوزير بين الكتابة والوزارة فى بادىء الامر ، ثم انفرد بالوزارة بعد أن استكتب عبد المؤمن رجلا من أهل بجاية يقـــال له أبو القاسم القالمى .

وكان ابن عطية فى الأصل كاتبا لاسحاق بن على بن يوسف فى دولة المرابطين ، فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند ، وكان يحسن الرمى ، فانخرط فى حملة للموحدين كانت متجهة الى رباط ماسة فى بلاد السوس جنوبا لإخماد ثورة هناك قام بها رجل ادعى الهداية اقتداء بالمهدى بن تومرت ، واسمه محمد بن هود الماسى ، ولما أخمدت تلك الثورة وقتل صاحبها سنة ٥٤٨ هـ ، طلب الشيخ عمر الهنتاتى قائد الجيش الموحدى ، من يكتب عنه بأخبار هذا النصر الى عبد المؤمن ، فعرف بابن عطية ، فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه الى الموحدين رسالة فى شرح الحال ،

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ابن عذارى البيان المغرب حـ ٤ ص ١٤١

استحسنها عبد المؤمن [١] ، فعينه كاتبا لدولته ، ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره . وكان هذا الوزير متزوجا أميرة لمتونية تعرف ببنت الصحراوية وهى حفيدة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين . وكان أخوها يحي بن أبى بكر بن يوسف ، ويعرف أيضا بابن الصحراوية من فرسان المرابطين المشهورين وله بلاء شديد فى مقاومة الموحدين ، ثم انقاد لهم أخيرا حين لم يجد بدا من الانقياد ، فعظمت مكانته عندهم ، وولوه قائدا على من وحد (بتشديد الحاء) من المرابطين . [٢]

ويبدو أن هذه الصلة السياسية والعائلية التى تربط ابن عطيه بالمرابطين كانت أساس نكبته التى انتهت بقتله سنة ٥٥٣ هـ . إذ استغلها أعداؤه واتهموه بالتعاون مع أعداء الدولة من المرابطين ولاسيا بنى غانية حكام ميورقة [٣] وقالوا فى ذلك شعرا يحرضون فيه الخليفة على قتله ، مثل :

قل للامام أدام الله مـــدته   قولا تبين لذى لب حقـــائقه

---

(١) راجع نص هذه الرسالة فى (السلاوى : الاستقصا حـ ٢ ص ١٠٠ وما بعدها) • كذلك نشر ليفى بروفنسال عدة رسائل من انشاء هذا الوزير الاديب فى مجموع الرسائل الموحدية (صـ ٢٢ - ٢٦ وصـ ٧١ - ٩٣) وانظر كذلك ما روى عنه من أشعار ونوادر فى (السلاوى حـ ٢ صـ ١١٧ - ١٢٠ ، محمد المنوفى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين صـ ١٦٦)

(٢) عبد الواحد المراكشى . المعجب صـ ١٩٨ - ٢٠٠

(٣) (راجع ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ صـ ٢٦ - ٢٧ ، صـ ٣٥ - ٣٦
(Huici Miranda : Historia politica del Imperio Almohade . tomo I , p.182) .

إن الزراجين (١) قوم قد وترتهم ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميـــل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى اطفاء نورهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه
الله يعلم أنى ناصح لكم ... والحق أبلج لاتخفى طرائقه
هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادقه (٢)

كذلك يروى صاحب المعجب أنه نقل عن الفارس يحي بن الصحراوية إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها ، وأقوال كان يقولها ، أحنقته عليه وهم باعتقاله ، فرأى الوزير ابن عطية أن يحذر صهره ، فقال لامرأته أخت يحي المذكور : «قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوناه غدا ، فليعتل ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل» ، فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر ألما به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأسر الى بعضهم ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذى أسر اليه فنقل ذلك كله بجملته الى عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب فى قتل الوزير أبى جعفر بن عطيه (٣) .

وواضح من كل ماتقدم ، أن نكبة الوزير كانت ترتبط بمسألة أمن الدوله وسلامتها ، بدليل أن الخليفة لم يقتصر على قتل أبى جعفر فقط ، بل قتل أيضا أخاه أبا عقيل عطية بن عطية ، كما سجن يحي

(١) اطلق الموحدون على المرابطين عدة تسميات مثل الزراجنه والمجسمة
(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٣٦.
(٣) عبد الواحد المراكشى المعجب ص ١٩٨ - ٢٠٠

بن الصحراوية الى أن مات فى سجنه ، وهذا يذكرنا بنكبة البرامكة وزراء العباسيين .

واستوزر عبد المؤمن بعد ذلك عبد السلام بن محمد الكومى نسبة الى كومية قبيلة عبد المؤمن (١).

وقد كانت لهذا الوزير مصاهرة مع الاسرة الحاكمة حيث أن والد عبد المؤمن تزوج أم الوزير عبد السلام ، وكانت له معها بنت أسمها « بنده »(٢) أو فنده ، لهذا كان هـذا الوزير يدعى بالمقرب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه (٣) . ويبدو أنه قد اعتمد على هذه القرابة فى تصرفاته كوزير ، إذ أخذ عليه الاستبداد بعمله والاستئثار بالسلطة ، فضلا عما اتهم به من الغلول فى غنائم قابس ، وشكايات أهل الأندلس من العمال الذين وجههم هذا الوزير اليهم ، الأمر الذى جعل عبد المؤمن يأمر باعتقاله وسجنه أثناء حملته التى دخل فيها تلمسان سنة ٥٥٥ هـ .

---

(١) كومية احدى بطون بنى فاتن من البربر البتر، وقد تعربت منذ فجر الاسلام، وكانت تسكن الجبال الممتدة بين تلمسان والبحر المتوسط .
راجع (ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ١٧٦ ، السلاوى : الاستقصا جـ١ ص ٦٤)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٨٠ وقد تزوج هذه الأميرة الشيخ الموحدى ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى، جد الملوك الحفصيين، إلا أنها لم تحسن عشرته فطلقها برأى اخيها الخليفة عبد المؤمن وعوضه خيراً منها (نفس المرجع ص ١٨١)

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٨ ، ابن أبى زرع : الروض القرطاس جـ٢ ص ١٧٣ .

ثم احتال فى قتله بأن دس له سما مسهلا افقـــده قواه ، حتى لم يبق فيه إلا عيناه ، على حد تعبير ابن صاحب الصلاة [١]

واخيرا وزر لعبد المؤمن ابنه السيد الأعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن الذى ظل فى منصبه حتى وفـاة والده [٢].

وفى عهد الخليفة ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ = ١١٦٣ - ١١٨٤ م) ، استمر منصب الوزارة فى يد شقيقه [٣] أبى حفص عمر مدة يسيرة حتى استقرت الاحوال لاخيـــه ، فتنحى عنها لأبى العلاء إدريس بن ابراهيم بن جامع الذى كان يعمـــل فى الوزارة تحت ادارته (بين يديه) منذ أيام عبد المؤمن [٤].

وكان والد هذا الوزير ، ابراهيم بن جامع ، من أصـل أندلسى ، نشأ بساحل مدينة شريش فى بلدة روطه على البحر المحيط ، ثم انتقل الى العدوة المغربية واتصل بابن تومرت وصار من جملة اصحابه (أهل الدار) ،

---

[١] ابن صاحب الصلاة المرجع السابق ص ١٨٠ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ٤ ص ٤٣-٤٤ .

[٢] عبد الواحد المراكشى : نفس المرجع ص ١٩٨.

[٣] كان أبو حفص عمر وابو يعقوب من أم واحدة وهى زينب بنت موسى الضرير أحد أعيان تينملل .(المعجب ص٢٣٧)

[٤] ابن صاحب الصلاة المرجع السابق ص ٢٢٤ ، ٢٨٥، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص ٥٦ .

وكان من أبنائه إدريس المذكور الذى وزر للخليفة يوسف بن عبد المؤمن[١]، وأبومحمد عبد الله بن جامع الذى ولى فى ذلك العهـــد على مدينة سبتة بالاضافة الى ولاية الاسطول فى جميع أنحـاء الدولة[٢].

وباشر هذا الوزير عمله بمعرفة أخوته وبنيه ، وكذلك عاونه شيخ الطلبه أبو محمد المالقى الذى كان عنده فى مسلاخ - أى رتبة - وزير ، على حد قول ابن صاحب الصلاة[٣] وقد ورد ذكر الوزير ابن جامع ومعاونيه فى مناسبات عديدة فى كتاب المن بالامامة[٤] ، وهى كلها تعطينا صورة من بعض مهام الوزير فى ذلك العهد ومثال ذلك قوله :-

« وركب الخليفة أبو يعقوب يوسف على جـواده العتيق ، ووزيره أبو العلا ادريس بن جامع راجلا لصق ركابه ماشيا يحدثه ، ويأمر الخليفة بالاوامر فينفذ ادريس المذكور فيها ثم يرجع إليه . (٥) ، وقوله حينما مرض الخليفة المذكور :

وكان يدخل اليه وزيره أبوالعلاء أدريس بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة ؛ والاخبار المسلية السارة المتجاملة ، ويحضر معه الاطباء الاولياء أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل وغيرهما[٦] .

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ حاشية ٢
(٢) راجع عبد الواحد المراكشى : المرجع السابق ص ٣١٠-٣١١
(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤١٠
(٤) راجع فهرس المن بالامامة تحت اسم ابن جامع ادريس
(٥) ابن صاحب الصلاة المن بالامامة ص ٢٨٩
(٦) نفس المرجع ص ٤١٠

وقوله عندما شفى الخليفة من مرضه :

« وجلس رضى الله عنه ، ودخل عليه اشياخ الموحدين واشياخ طلبة الحضر ، والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع وأخوه ابو محمد عبد الله [1] قائمان بترتيب الدخول بالناس ، وسلموا عليه ودعوا له وهنوه على عافيته وشفايته » [2] .

وقوله يصف أول خروج الخليفة بعد شفائه فى موكب رسمى :

« والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع ، مدير لهذه الحال الشريفة ، لايصدر شيء إلا عن رأيه ، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه .... ثم استوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الاشقر الاغر ، وهى أول ركبة خرج فيها من حين مرضه ، والوزير أبو العلاء راجلا على قدميه بين يديه لصق ركابه ، على حجابه ، مهما أراد أحد من الرافعين أوالمتشكين أومن أهل الحاجات وذوى اللبانات كلاما أو إشارة ، خرج اليهم مستفهما كلامه موصلا إعلامه [3]

والى جانب هذه الأعمال المختصة بحجابة الخليفة ، كان الوزير فى بعض الأحيان ، يكلف ببعض الأعمال الأخرى التى قد تقتضى سفره

---

(١) سبقت الاشارة الى أن أبا محمد عبد الله هذا قد ولاه الخليفة أبو يعقوب قيادة الاسطول وولاية مدينة سبته وأعمالها،ويرجح المراكشى أنه قتله بعد ذلك راجع (المعجب : ص ٣١١)

(٢) المن بالامامة ص ٤٢٠

(٣) نفس المرجع ص ٤٣٠-٤٣١

بعيدا عن العاصمة مراكش ، ومثال ذلك الوزير ابو جعفر بن عطية السالف الذكر حينما بعثه عبد المؤمن الى الأندلس لمباشرة الأمور واصلاح الأحوال هناك (١). وكذلك الوزير أبو العلاء أدريس بن جامع الذى كلفه أبو يعقوب يوسف بالاشراف على بعض أعمال البناء والتعمير فى اشبيلية ، فكان هذا الوزير وابنه يحي ملازمين الخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء (٢).

وظل ادريس بن جامع واخوته وبنوه محل تجلة واحترام طيلة خمس عشرة سنة . وفى سنة ٥٧٣هـ على قول ابن عذارى (٣) أو فى سنة ٥٧٧ هـ كما يقول عبد الواحد المراكشى (٤) ، سخط عليهم الخليفة أبو يعقوب يوسف ، فقبض عليهم وأستصفى أموالهم ، ثم أبعدهم الى ماردة فى الاندلس (٥)

ثم وزر لابى يعقوب يوسف ابنه وولى عهده ابو يوسف يعقوب (المنصور) الذى اتخذ بين يديه أى تحت إدارته الوزير أبا بكر بن يوسف

---

(١) السلاوى : الاستقصا حـ ٢ ص ١١٧

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٦٨

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٤ص١١٢

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص٢٤٤

(٥) ظل بنو جامع فى منفاهم بمدينة ماردة ستةأعوام مغربين مهجورين الىأن مات أبويعقوب فى غزوة شنترين سنة ٥٨٠هـ ، ثم لما استخلف أبويوسف يعقوب المنصور عفا عنهم وعن سواهم. راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٣٨ حاشيه ٢ ، وابن عذارى المغرب حـ٤ ص ١١٢)

الكومى (١) ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل السيد الوزير ابو حفص بن عبد المؤمن من قبل حينما اتخذ بين يديه الوزير ادريس بن جامع فى خلافة والده عبد المؤمن ، وفى بداية خلافة أخيــه أبى يعقوب يوسف . ولعل الغرض من ذلك هو وضع الأمراء أقرباء الخليفة فى مكانة تسمو عن الوزراء (٢)

ولقد اكتسب يعقوب المنصور من هذا العمل الوزارى الذى تــولى اعباءه ، خبرة جليلة ، نفعته فى أيام خلافته بعد ذلك ، إذ يقــول المعجب فى هذا الصدد :

وولى الوزارة أيام أبيه ، فبحث عن الأمور بحثا شافيا ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجــع إليه الأمور مطالعة أفادته فى معرفة جزئيات الأمور ، فدبرها بحسب ذلك ... وكان لا يكاد يظن شيئا إلا وقع كما ظن ، مجربــا للأمور ، عارفا بأصول الشر والخير وفروعها (٣)

وفى خلافة يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥ = ١١٨٤-١١٩٩م) ، شغل منصب الوزارة عدد من اخوته مثل السيدين أبى عبد الله ، وابراهيم (٤) ، كما شغلها أيضا جماعة من أشياخ الموحدين وأعيانهم ومعظمهم من زعماء

---

(١) ابن عذارى نفس المرجع ص ١٤٠

(٢) Hopkins: Medieval Muslim Gogernment in Barbary p.9

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص٢٦٢ ، السلاوى: الاستقصا ج٢ص١٧٠ ؛

(٤) ابن عذارى . نفس المرجع ص١٤١ ؛ الحلل الموشية ص١٣٢-١٣٣

قبيلة هنتانة احدى بطون مصمودة التي قامت على اكتافها دولة الموحدين.

ومن هؤلاء نذكر أبا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني ، الذى استشهد في موقعة الأرك Alarcos المشهورة التى أحرز فيها المنصور نصرا حاسما على الأسبان سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) (١) ويقول صاحب المعجب إن أمر الوزارة قد اضطرب قليلا (٢) بعد وفاة هذا الوزير القائد ، ثم وقع اختيار الخليفة المنصور لشغل هذا المنصب ، على ابن عم للشهيد اسمه أبو عبد الله ويلقب بالفيل ، فوزر أياما يسيرة ثم ترك الوزارة مختارا وهرب الى نواحى اشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد، فأرسلوا اليه من رده ، وأعفوه من الوزارة. ثم وزر للمنصور أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان الهنتاني ، فلم يزل وزيرا الى أن مات المنصور (٣)

والى جانب هؤلاء الوزراء ، هناك أندلسى أديب طبيب شاعر خدم فى بلاد الموحدين ، وشارك فى بعض أعمالهم المعمارية الى جانب عمله كطبيب لهم ، وهو الوزير الاجل أبو بكر محمد بن الوزير أبى مروان عبد الملك بن الوزير أبى العلاء بن زهر الايادى(٤) (توفى سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م) وواضح من أسمه أنه من سلالة وزراء أطباء ، وكانت لهم شهرة

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٢ ، ٢٨٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢

(٣) عبدالواحدالمراكشى: المعجب ص ٢٦٣، ابن عذارى البيان المغرب ج٤ ص١٤١

(٤) عبد الواحد المراكشى: المرجع السابق ص٨٨

وزعامة فى عالم الطب والجراحة حتى صار اسم «ابن زهر» علما معروفا فى الأوساط العلمية الأوربية Avenzoar (١)

قال السلاوى : وهذا الوزير ابو بكر ابن زهر ، هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، وزر للمنصور ولأبيه من قبله ، وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع الى الأندلس. وكان حاذقا بصناعة الطب والجراحات وهو من أطباء الخليفة المنصور وله كتاب فى طب العين (٢) كما أن ماكتبه من أزجال وموشحات يعتبر نموذجا لهذين الفنين(٣) وعلى الرغم من المراجع المعاصرة لاتدرج اسم أبى بكر بن زهر فى عداد الوزراء العاملين فى الدولة ، إلا أنها تجمع على تلقيبه بالوزير. فهل كان هذا اللقب لقبا تشريفيا ورثه عن أبيه وجده تقديرا لخدماتهم الطبية ؟ قد تكون الاجابة بنعم لو أن الأطباء الآخرين الذين خدموا معه فى بلاط الموحدين أمثال بن رشد الحفيد ، وابن طفيل ، وابى مروان بن قاسم ، قد حملوا لقب وزير ، ولكننا نجد اسماءهم خالية منه .

---

(١) كان أعظم هؤلاء الاطباء من بنى زهر هو مروان عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر والد أبى بكر الذى توفى بمراكش سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) ثم نقل جثمانه الى بلده أشبيلية حيث دفن فى مقبرة بنى زهر . وقد اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس . وله عدة مؤلفات طبية مثل كتاب الاقتصاد وكتاب التيسير الذى أهداه الى ابن رشد وكان له تأثير كبير فى الطب الاوربى. (راجع جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ص ٤٧١)

(٢) السلاوى : الاستقصا ج٢ ص ١٧٩-١٨٠

(٣) بالنثيا : المرجع السابق ص ١٢٩ ، ١٥٧

وأغلب الظن أن ابن زهر قد نال هذا اللقب نتيجة قيامه بأعمال شبيهة بأعمال الوزراء العاملين فى الدولة . فلقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن كلا من الخليفتين أبى يعقوب يوسف(١) ويعقوب المنصور(٢) ، قد عهد الى ابن زهر بالاشراف على بناء جامع اشبيلية ومثال ذلك قوله :

وتعطل بناء الصومعة الى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (أى المنصور) فى عام ٥٨٤ هـ . وقد أمر بأعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء ما اختل فى الجامع فشرع فيها ... ودام ذلك أعواما يعمل فى الصومعة أحيانا ، ويسافر عن اشبيلية فيتعطل فى المدد التى كان يعاود فيها البناء . (٣)

هذا الاشراف الفنى الذى قام به زهر على مبانى الموحدين ، يذكرنا تماما بالوزير ادريس بن جامع حينما قام بعمل مشابه فى اشبيليه ذكرناه آنفا . لهذا فانه من المحتمل جدا أن يكون الموحدون قد منحوا أبا بكر بن لقب وزير نظير مشاركته لولاة اشبيلية فى هذه الأعمال الادارية الداخلية . ويؤيد ذلك وجود حالات متشابهة رواها ابن عذارى عند قوله :

(١) المن بالامامة صـ ٤٧٣
(٢) المن بالامامة صـ ٤٨٢
(٣) المن بالامامة صـ ٤٨٢

وفى سنة ٥٦١ نظر (ابو يعقوب يوسف) فى حديث اشبيلية ، إذ كانت تحتاج إلى والى ، فاختار لوا الشيخ أبا عبد الله بن أبى ابراهيم ، وعقد له رايتين فى مجلسه الكريم ، وعين له وزيرا يسوس احواله وينظر أعماله وأشغاله وهو ابو زكرياء بن سنان (١)

على أن وزارة ابى بكر بن زهر لم تقتصر مهامها على اشبيلية وحدها ، إذ كان كثيراً ما يتردد على العاصمة مراكش ، ويشارك فى مجالس الخليفة المنصور وبأمر منه ، فيروى أبو الفضل التيفاشى أنه جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ، والرئيس الوزير أبى بكر بن زهر بضم الزاى ، وكان الأول قرطبيا ، والثانى اشبيليا ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبه : « ماأدرى ماتقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها و وإن مات مطرب بقرطبه فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (٢) .

كذلك يروى المقرى ، أن ابن زهر قال أثناء مقامه بمراكش أبياتا من الشعر يعبر فيها عن شوقه الى ولد له صغير تركه باشبيلية ، فلما سمعها يعقوب المنصور ، أرسل المهندسين الى اشبيلية ـ من غير علم من ابن زهر ـ وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ماأمرهم به فى أقرب مدة ، وفرشها

---

(١) ابن عذاوى : البيان المغرب جـ٤ صـ ٩٧
(٢) السلاوى : الاستقصا جـ٢ صـ ١٧٩

بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال بن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتـال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه اشبه شيء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وان ذلك أحلام ، فقيل له : ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله فاذا ولده الذى يتشوق اليه يلعب فى البيت ، فحصـل له من السرور مالا مزيد عليه ولايعبر عنه [1].

وولى بعد وفاة المنصور ابنه محمد الناصر لدين الله (٥٩٥ - ٦١١ هـ = ١١٩٩ - ١٢١٤ م) ، فاستبقى وزير أبيه أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، ثم عزله بعد مدة يسيرة وولاه بعد ذلك على مدينة تلمسان [2] ثم ولى الخليفة فى الوزارة أخاه ابراهيم بن يعقوب المنصور الذى اتصل به المراكشى صاحب كتاب المعجب ، ومدحه بقوله : « وهو خير أبناء أبى يوسف يعقوب وأجدرهم بالأمر (أى بالخلافة) لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ... وكان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية » [3] .

---

(١) السلاوى : نفس المرجع ص ١٨٠ ومن هذه الابيات التى قالها ابن زهر يتشوق الى ولده :

ولى واحد مثل فرخ القطا * صغير تخلف قلبى لديه
نشوقنى وتشوقته * فيبكى على وأبكى عليه
لقد تعب الشوق ما بيننا * فمنه إلى ومنى إليه

(٢) ابن عذارى ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٠٨ ، ٣١٠

وبقى الأمير ابراهيم فى الوزارة حتى سنة ٦٠٥ هـ حينما ولاه أخوه الخليفة على اشبيلية ، وعين مكانه فى الوزارة أبا عبد الله محمد بن موسى الضرير . وكان لهذا الوزير صلة نسب مع بنى عبد المؤمن ، إذ أن عمته زينب بنت موسى الضرير كانت زوجة لعبد المؤمن بن على ، وأنجبت منه أبا يعقوب يوسف جد الناصر (١) .

ويروى صاحب المعجب أن هذا الوزير كان من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وأنه كان دائما يحض الناصر على فعل الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته ، والاحسان إلى الرعية والاجناد فرأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعة الرزق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه (٢) .

واستمر هذا الوزير مدة ثم عزله الناصر لأسباب لانعرفها ، وولى مكانه أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع (٣) .

وهذا الوزير الجديد من عائلة معروفة فى تاريخ الموحدين ، وقد سبق أن أشرنا إلى جده ابراهيم الذى كان من أصحاب المهدى بن تومرت ،

---

(١) عبد الواحد المراكشى : نفس المرجع ص ٢٣٧ ، ٣١٠

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠

(٣) يسميه ابن ابى ذرع (روض القرطاس ص ١٥١) بالوزير الأكبر ويجعل معه وزيرا مساعداً اسمه ابن مثنا . وفى الحلل الموشيه (ص ١٣٤) واستوزر رجلا خاملا يعرف بابن مثنى .

ثم إلى والده عبد الله الذى كان قائدا للأساطيل الموحدية وواليـــا على سبتة ، ثم إلى عمه أبى العلاء ادريس الذى كان وزيرا لكل من عبد المؤمن وأبى يعقوب يوسف بعده .

واستطاع هذا الوزير ابو سعيد عثمان أن يسيطر على الخليفة الناصر وينال ثقته ، إلا أن عددا من المؤرخين اتهموه بالدس والخديعة وكره زعماء الموحدين والأندلسيين ، وجعلوه سبب الكارثة التى أودت بجيوش المسلمين فى وقعة العقاب المشئومة Las Navas de Tolosa فى صفر سنة ٦٠٩ هـ (يوليو ١٢١٢ م) فيقول صاحب القرطاس والسلاوى مثلا « وكان الوزير ابو سعيد قد تمكن من الناصر ، فأقصى شيوخ الموحدين وذوى الحنكة والرأى منهم عن بساطه ، وانفرد هو به ، فكان يشير على الناصر فى غزوته هذه بـــآراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكرة على المسلمين [١] » .

والواقع ان أسباب تلك الهزيمة لاترجع إلى فساد هذا الوزير ، بل إلى فساد الادارة كلها فى الدولة واضطراب الشئون المالية فيها . وقد لاحظ ذلك صاحب المعجب عند قوله :

« وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين : وذلك أنهم كانوا على عهد أبى يوسف يعقوب يأخذون العطاء ، فى كل أربعة أشهر ،

---

(١) السلاوى الاستقصا حـ ٢ صـ ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن زرع : روض القرطاس ١٥١ ، أشباخ . تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين صـ ١١٥

لايخل ذلك من أمرهم . وأبطأ فى مدة عبدالله هذا عنهم العطاء ، وخصوصا فى هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء . (١)

وقد يؤيد ذلك أيضا ، حركة التطهير الشاملة التى أجراها الناصر قبيل هذه الموقعة ضد الفساد وسوء الادارة فى جميع أنحـــاء مملكته . وقد نكب فى هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها (٢) وتحدر الاشارة هنا ، إنصافا للوزير بن جامع ، أن الذى قام بعملية التطهير ، ونكب أشياخ الموحدين ، شخص آخر كان الخليفة الناصر قد فوض اليه مهمة الاشغال العملية أى الأمور المالية وهو صاحب الأشغال ابو محمد بن ابى على بن مثنى ، الذى ضرب به المثل فى ذلك فقالوا « مدها قل لابن المثنى يردها » . (٣)

هذا وينبغى أن نضيف إلى هذا العامل الداخلى ، عاملا خارجيا كانت له خطورته فى تقرير مصير هذه المعركة . ذلك أن الاوضاع السياسية فى العالم المسيحى عامة وفى اسبانيا خاصة ، قد تغيرت فى عصر الناصر عما كانت عليه فى عصر والده المنصور . فالممالك الاسبانية النصرانية فى أيام المنصور كانت متعادية ومتفرقه الكلمة ، وهـذا مكن المنصور من أن ينفرد بأعدائه متفرقين ، وينتصر عليهم واحدا بعد الآخر . وكان لهذه

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٢٢ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٤١

الانتصارات ، ولاسيما انتصار الارك ـ رد فعل شديد فى الأوساط الأوربية المسيحية دفع ثمنه غاليا فيما بعد ولده الناصر . ذلك لأن ملوك أسبانيا وأحبارها قد استغلوا هذا الشعور المسيحى العام ضد الموحدين ، فى توجيه حركة الاسترداد الاسبانية Reconquista إلى وجهة صليبية عالمية بعد أن كانت قاصرة على القوى الاسبانية المحلية فى معظمها . وقد كلل مسعاهم بالنجاح عندما نادى البابا إنوسنت الثالث Innocent III بتوجيه حملة صليبية ضد عرب اسبانيا فى الغرب على غرار الحملات الصليبية فى الشرق ، كما أخذ يعمل فى الوقت نفسه على تسوية الخلافات القائمة بين ملوك اسبانيا لتوحيد جبهتهم أمام أعدائهم . ولم تلبث جموع هذه القوى سليبية ، وأكثرها من الايطاليين والفرنسيين ، أن أخذت تنثال على بانيا ، انثيال الجراد فى الكثرة والإفساد ـ على حد قول الناصر فى احدى رسائله [١] ـ ثم انضمت الى قوات الممالك النصرانية الاسبانية المتحدة ، وتقدم الجميع نحو المسلمين وكلهم عزم على محو وصمة هزيمة الأرك ، بالانتصار على الموحدين يضاف الى ذلك أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدما كبيرا فى غرب أوربا فى ذلك العهد .

وهكذا نجد أن هذه المعركة التى خاضها الناصر فى وديان تولوسا عند قصر العقاب [٢] ، كانت تختلف عن المعارك التى خاضها أسلافه من قبل

---

(١) راجع نص هذه الرسالة الهامة فى (ابن عذارى المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٣)

(٢) يطلق اسم نافاس Navas فى اللغة الاسبانية على الوديان الفسيحة أو =

فى طبيعتها وأهدافها ، وهذا كان له دخل كبير فى نتيجتها المحزنة .

ولم يعش الخليفة محمد الناصر بعد هذه الكارثة سوى مدة قصيرة ، وتوفى فى شعبان سنة ٦١٠ هـ وقد علق ابن الخطيب على وفاته بقوله : ولم يعد بعده الى الأندلس أحد من ملوك الموحدين إلى أن انقرضت أيامهم [١]

أما الوزير أبو سعيد عثمان بن جامع ، فانه قد عاد بعد هذه الكارثة الى سابق منصبه ، واستمرت وزارته بعد وفاة الناصر فى خلافة ولده أبى يعقوب يوسف الثانى الملقب بالمستنصر بالله. فقام بتدبير الامر مع مشيخة الموحدين إلى أن عزل من الوزارة فى سنة ٦١٥هـ ، وولى بعده

ـــ الاراضى الوطيئة ، والمقصود هنا الوديان التى تنساب بين جبال الشارات، وقد وقعت هذه الموقعة فى أحد الوديان القريبة من بلدة تولوسا ، ولهذا عرفت فى المصادر الاسبانية بأسم لاس نافاس دى تولوسا Las Navas de Tolosa أما التسمية العربية فهى العقاب (بضم العين) نسبة الى حصن أو قصر قديم يرتفع ينسب الى الأمويين وقد أشار ابن عذارى الى أن المنصور بن أبى عامر فى القرن الرابع الهجرى ، بعث فى طلب القائد المغربى جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى وكان مقيما فى المغرب ، فعبر المضيق بجيشه إلى الأندلس ونزل قصر العقاب بعد أن أعد له مايصلح فيه . راجع (البيان المغرب جـ٢ ص ٤١٦) . هذا وما زالت بقايا هذا الحصن باقية الى الآن ، كما لايزال الأسم الاسبانى لاس نافاس دى تولوسا يطلق على قرية هناك فى ولاية جيان Jaen تخليدا لذكرى هذه الموقعة. انظر: (Henri Terrasse : Histoire du Maroc I, p 341)

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧٠

وزير أسمه زكريا بن يحي بن أبى ابراهيم الهزرجى ، وكان أيضا من ذوى القرابة للاسرة الملكية ، إذ أن والدته كانت من بنات يعقوب المنصور.(١) غير أن دولة الموحدين فى الواقع كانت بعد هذه الكارثة قد ذهب ريحها وتهدم صرحها : ففى الاندلس ، أخذت معاقل المسلمين تتساقط فى يد الاسبان فى كل جهة ، وفى المغرب ظهرت قوة زناتية فتية كانت تسكن صحراء فجيج(٢) فى منطقة وجدة بشرق المغرب الأقصى على حدود الجزائر ، وهم بنو مرين الذين اقتحموا المغرب فى عهد هذا الخليفه وأغاروا على مختلف نواحيه فى تازا وفاس وبلاد الريف ، وهزموا الجيوش الموحدية التى تعرضت لهم. وتركوا جنودها عراة يخفون أجسادهم بأوراق نبات هناك يعرف بالمشعلة ، فسميت تلك السنة (٦١٣ هـ) بسنة المشعلة . (٣) حدث كل هذا بينما كان الخليفة المنتصر الموحدى ، قابعا فى قصره ، لاهيا بترويض أبقاره التى كان يستوردها من اسبانيا ، وكأنه يذكرنا بمصارعى الثيران فيها . ولم تلبث حياته أن انتهت بين ثيرانه ، إذ طعنته بقرة شرود فى صدره فقتلته فى حينه سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٤ م). وكانت وفاة المستنصر الفجائية دون أن يخلف عقبا ، سببا فى

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٢٤

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص ٢٠٢ ، وكان موطنهم الأصلى فى جنوب الزاب فى صحراء الجزائر . وهم يدعون أن نسبهم يجتمع فى قيس عيلان لاكتساب الأصل العربى القرشى.) ابن ابى دينار: المونس فى أخبار أفريقية وتونس ص ١٢٩)

(٣) السلاوى الاستقصا جـ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤

إثارة المنازعات بين بنى عبد المؤمن حول العرش ، واستبداد الأشياخ والوزراء بنواحيهم مما أدى الى اضطرام فتن وحروب أهلية عجلت بسقوط دولة الموحدين .

ولقد قامت على انقاض هذه الامبراطورية الموحدية أربع دول مستقلة هي :-

١- الدولة الحفصية فى تونس سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م)

٢- دولة بنى عبد الواد فى تلمسان ولواحيها بالمغرب الاوسط سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥ م)

٣- دولة بنى مرين أو أو بنى عبد الحق فى فاس وهى الدولة التى استقلت بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائيا سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م)

٤- مملكة غرناطة وهى آخر مابقى للمسلمين من ممتلكات فى أسبانيا وقد استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م).

الوزارة على عهد الحفصيين :

للموحدين دولتان : المؤمنية فى مراكش ، نسبة الى عبد المؤمن بن على ، والحفصية فى تونس نسبة الى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ قبيلة هنتانه المصمودية ، وأحد القائمين بدولة المهدى بن تومرت والخليفة عبد المؤمن من بعده . فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين كما هو واضح من أصلها .

وعلاقة الحفصيين بافريقية ترجع الى سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) حينما فوض الخليفة الموحدى محمد الناصر أمرأفريقية الى وزيره وصهره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى، ومنحه جميع السلطات التى تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية. وهذا الحدث يعتبر فى الواقع إيذانا بانفصال افريقية عن الدول الموحدية فى مراكش. ثم حدث الانفصال الرسمى النهائى على يد أبى زكريا بن عبد الواحد الحفصى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م).

والسبب الحقيقى الذى شجع هذا الأمير على الاستقلال بولايته هو انهيار دولة بنى عبد المؤمن فى المغرب والأندلس عقب الهـــزيمة التى حاقت بجيوشها فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م. اما السبب المباشر لهذا الاستقلال فهو الاعلان(١) الذى أصدره الخليفة الموحدى ادريس المأمون فى مراكش سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩). والذى رفض فيه تعاليم المهدى بن تومرت، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة كما قتل المعارضين لسياسته من أشياخ الموحدين، ومعظمهم من هنتاته، قبيلة الحفصيين. عندئذ ثار الأمير أبو زكريا الحفصى على المأمون، ورفض مبايعته، واتخذ من هذا الاعلان ذريعة للخروج عن طاعة بنى عبد المؤمن والاستقلال بولايته، كما اعتبر نفسه أحق بميراث المهدى بن تومرت منهم.

ولهذا حرص الحفصيون منذ بداية دولتهم على التمسك بتعاليم أمامهم المهدى، وذكر اسمه فى الخطبة والسكة، كما طبقـــوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وإذا استثنينا بعض التعديلات التى اقتضتها ظروف الزمان والمكان، فان ماورد فى تاريخ الدولة الحفصية

---

(١) راجع نص هذا الاعلان فى (ابن عذارى: البيان المغرب جـ٤ ص ٢٦٧، ٢٧٥)

من أنظمة وتقاليد ، يعتبر استمرارا للدولة المؤمنية لأن كلاهما من الموحدين.

وبدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة فى عهد أبى زكريا يحيى الأول ثم تحولت إلى خـــلافة فى عهد ولده أبى عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين ، واستمرت هذه الدولة مدة طويلة إلى أن سقطت فى يد العثمانيين نهائيا سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٤ م) ، وكان نظام الملك فيها وراثيا ، وغالبا مايكون بالعهد من السلطان السابق ، وأحيانا يكون بالغلبة والقهر من أحد القرابة .

أمـــا عن حدود هذه الدولة ، فقد كانت تشتمل على الأراضى التى تقابلها اليوم طرابلس الغرب فى ليبيا ، والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذى يشمل ولايات بونه أو عنابه (بلد العناب) وقسنطينة ، وبجاية وتدلس التى تسمى حاليا دلس Dellys غربا ، وما بعد ورقلة فى الصحراء الجزائرية جنوبا (١) .

وكانت مدينة تونس هى عاصمة المملكة الحفصية ، بينما كانت بجاية وأحيانا قسنطينة هى قاعدة المنطقة الغربية منها أى الجزائر الحفصية التى

---

(١) يقول العمرى فى مسالك الابصار ص ٢ : وأول مدنها مما يلى برقه ، وتدلس هى آخر مدنها فيما يلى الغرب الأوسط . وحدها من الجنوب إلى الصحراء الفاصلة بينها وبين بلاد جناوة (غينيا) المسكونة بأمم السودان، ومن الشرق آخر حدود طرابلس وهى داخلة فى المحدود ، ومن الشمال البحر الشامى . ومن الغرب آخر حدود تدلس المجاور لجزائر بنى مزغنة . راجع كذلك (عبد الرحمن محمد الجيلالى: تاريخ الجزائر العام حـ ٢ ص ١١ ، مبارك بن محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث حـ ٢ ص ٣١٠).

كثيرا ما استقل ولاتها عن تونس واتخذوا الوزراء والحجاب والكتاب مثل سلاطين تونس

وكان يعاون السلطان فى الحكم ، أقاربه وأشياخ الموحدين الذين كانوا ينتمون إلى القبائل الموحدية التى قامت على أكتافها دولة الموحدين من قبل ، مثل هرغه التى ينتمى اليها ابن تومرت ، وهنتاتة قبيلة الحفصيين ، وأهل تينمال ، وجنفيسة وهسكورة ، وهم جميعــا من المصامدة وموطنهم الأصلى جبال أطلس ، ثم قبيلة كومية التى ينتمى اليها عبد المؤمن بن على الكومى ، وكان موطنها الاصلى منطقة ندرومة الحالية بالجزائر .

وكان لكل قبيلة مزوار أو أمزوار ، وهى كلمة بربرية معناها الابن البكر ، ثم صارت تستعمل فى معانى كثيرة مثل كبير القبيلة ، وحاجب السلطان ، ورئيس الجند ، ونقيب الاشراف ، ومؤقت المؤذنين (١) والمعنى المقصود هنا هو شيخ القبيلة . وهؤلاء الأشياخ كانوا يكونون مجالس العشرة والخمسين التى كانت تحيط بالسلطان وتكون مشورته ، وكان يرأسهم واحد منهم يسمى شيخ الموحدين أو الشيخ المعظم لسمو مكانته وارتفاع

---

(١) راجع (محمد بن جعفر الكتانى :سلوة الأنفاس جـ ١ ص ٩٣) وكذلك:
(R. Dozy : Supplement aux Dictonnaires Arabes, I, p. 613)
هذا ومازالت كلمة مزوار تستعمل إلى الآن بين البربر فى المغرب ، وتطلق على الشيخ الصالح الذى يتبارك برأيه فى المسائل الزراعية والسياسية أيضا .
أنظر كذلك :
(Nopkins : Medieval Muslim Government in Barbary p. 95).

شأنه ، وهو وزير الرأى والمشورة عند السلطان (١) ، ولهذا كان يختاره السلطان بنفسه ، ومن بين قرابته فى أغلب الأحيان ، وكثيرا مايعهد اليه بمهام خطيرة فى الدولة مثل وزارة الجند أو الحرب أو خطة الحجابة أو هما معا . هكذا نجد أن شيخ الموحدين كان بمثابة رئيس الوزراء فى الدولة . ونذكر على سبيل المثال شيخ الدولة أبا سعيد عثمان بن محمد الهنتاتى المعروف بالعود الرطب (٢) (ت ٦٧٣ هـ) ، وعائلة بنى أبى هلال الهنتاتية فى عهد الخليفة المستنصر الحفصى ، وشيخ الدولة محمد المزدورى الذى أخذ البيعة للسلطان الحفصى أبى يحيى زكريا المعروف باللحيانى لطول لحيته (٣) (٧١١ - ٧١٧ هـ) .

وإلى جانب طبقات الموحدين ، كانت هناك الجاليات الأندلسية التى هاجرت إلى تونس عقب سقوط بلادها فى يد الاسبان . ونذكر من أعلامها ابن الأبار ، وابن الجنان ، وابن محرز ، وابن سيد الناس ، وابن عميره ، وحازم القرطاجنى وغيرهم . وقد أحسن الحفصيون استقبال المهاجرين الأندلسيين ، واستعانوا بهم فى إدارة دولتهم التى كانت ماتزال ناشئة وفى حاجة إلى رجال من ذوى الخبرة والاختصاص فى مختلف

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ص ١٤ ، ١٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٩

(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢٦

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٢٦ ، محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ص ٦٩ (تونس ١٣٢٣ هـ)

الميادين . وقد أشار ابن خلدون إلى أن هجرة الأندلسيين الى البلاد التونسية كانت أكثر من هجراتهم نحو البلدان الاسلامية الأخرى . وعلل ذلك باستفحال الدولة الحفصية . أما الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فيعلل ذلك أيضا بالعلاقة التى كانت موجودة من قبل بين الاندلسيين وبين أمراء الحفصيين الذين سبق لبعضهم أن باشروا الحكم فى الاندلس فى عهد الموحدين .

وكيفما كان الامر ، فان هجرة الأندلسيين إلى الدولة الحفصية كان من أكبر العوامل التى ساعدت على تقدمها وازدهارها ، ، إذ أنهم أدخلوا فيها أساليب زراعية جديدة ، وأسهموا بقسط وافر فى تدعيم الحياة الإدارية فشاركوا فى مناصب القضاء والوزارة والحجابة ، كما شاركوا فى نشر الحركة العلمية والأدبية مما أعطى هذه البلاد لونا من الحضارة والتقاليد الأندلسية (١) . ويكفى أن نحيل هنا على كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، لنرى مدى إسهام الأندلسيين فى نشر الثقافة والحضارة فى مدينة بجاية وحدها وقس على ذلك فى بقية المدن الأخرى (٢) .

ومن المناصب الهامة التى شارك الأندلسيون فى إدارتها إلى جانب الموحدين ، هى خطة الوزارة . يروى العمرى نقلا عن ابن سعيد المغربى ،

---

(١) راجع (محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومى ص ١٤٩ - ١٥٤ ، وما بها من مراجع)

(٢) راجع (ابو العباس احمد الغبرينى : عنوان الدراية ، الجزائر ١٣٢٨ هـ ، وكذلك محمد بن شريفة : المرجع السابق)

أن وزراء السلطان الحفصى كانوا ثلاثة وهم : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو المعروف بصاحب الأشغال ، ووزير الفضل وهو كاتب السر (١) .

أما وزير الجند أو الحرب فكان فى غالب الأحيان هو شيخ الموحدين فهو بمثابة رئيس الوزراء . ولهذا كان يلقب بألقاب تدل على منزلته مثل شيخ أو رئيس الدولة أو صاحب الدولة أو رئيس الدولة ، كما كان ينوب عن السلطان عند غيابه عن عاصمته : ويجلس بين يديه فى مجالسه مع أشياخ الرأى والمشورة ، وله النظر فى الولايات وقيادة الجيوش فى الحروب (٢) .

أما وزير المال أو الأموال وهو المسمى أيضا بصاحب الاشغال ، فهو - كما يقول ابن خلدون - المختص بالحسبان ، وبالنظر المطلق فى الدخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص الأموال ، ويعاقب على التفريط (٣)

وقد ولى وزارة المالية فى بادىء الأمر واحد من شيوخ الموحدين ، ثم شغلها بعد ذلك أناس من ذوى الاختصاص فى الشئون المالية ، من خارج طبقة الموحدين .

وبعض هؤلاء الوزراء كانوا من الأفارقة أهالى البلاد الأصليين ،

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ١٣

(٢) العمرى نفس المرجع ص ٩ ، ١٤ ، ٣٠ ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤١

(٣) ابن خلدون نفس المرجع والصفحة

أمثال أبي العباس أحمد اللليانى (١) على عهد الخليفة المستنصر ، أو من الموالى أمثال المملوك مدافع على عهد الواثق بالله بن المستنصر ، إلا أن أغلبهم كان من الأندلسيين أمثال أبي عثمان سعيد بن أبي الحسين الذى ينتمى لأسرة بنى سعيد المشهورة فى التاريخ أصحاب قلعة يحصب الأندلسية بجوار غرناطة (La alcala' la Real) ، وقد تولى وزارة المالية فى عهد المستنصر وأوائل عهد ابنه الواثق بالله (٢) ، وأبي بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ المعروف بن خلدون على عهد الخليفة أبي اسحاق ابن الواثق ، ومثل محمد بن يعقوب ، وأبي القاسم بن طاهر وغيرهم ممن شغل هذا المنصب فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجرى (٣) . وكل هذا يدل على أن وزارة المال لم تكن شرطا قاصرا على الموحدين الأولين كما يقول الزركشى (٤) وابن خلدون (٥) . وانما كانت تمنح لذوى المعرفة والدراية بالشئون المالية .

---

(١) اللليانى نسبة إلى قرية ساحلية من أعمال المهدية تعرف بلليانة ، بضم اللام الأولى وكسر الثانية .

راجع أخباره وأشعاره فى (رحلة التجانى ص ٣٧١ وما بعدها)

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٢٤٥

(٣) أنظر

(R. Brunschvig : La Berbérie Oriental sous les Hafsildes I, p. 38 , 72, II p. 57)

(٤) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢٢ ، ٣٩

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١

ومن سوء الحظ أن وزير المالية أو صاحب الاشغال فى هذه الدولة الحفصية ، كان عرضة دائما للقتل أو السجن والتعذيب ومصادرة الأموال. فاللليانى قتله المستنصر سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١ م)[١] ، وسعيد بن أبى الحسين قتله الواثق بالله وصادر أمواله سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٨م)[٢] ، وأبو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبى عمارة سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وقد شرح حفيده ابن خلدون خبر مصرعه بقوله : « واستقل أبو اسحاق بملك افريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمدا الى الاشغال فى الدولة على سنن عظماء الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم ، وحسابهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة. ولما غلب ابن أبى عمارة على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمد ، وصادره على الأموال، ثم قتله خنقا فى محبسه[٣] ويبدو أن التنافس الذى كان سائدا بين المهاجرين الأندلسيين وبين بعض أشياخ تونس من الموحدين ، كان له دخل فى هذه النكبات[٤].

ولقد استمر هذا المنصب يشغله صاحب الأشغال الى أن حدث تغيير فى تلك التسمية على عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز أو عزوز (٧٩٦-٨٣٧ = ١٣٩٤-١٤٢٣م) ، إذ صار يطلق عليه اسم المنفذ

---

(١) راجع (رحلة التجانى ص ٢٧١)
(٢) انظر (Brunschvig : Op. cit I, p. 72)
(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ١٢ .
(٤) ابن الابار : الحلة السيراء جـ١ ص٠٤ نشر حسين مؤنس

أى صاحب الجباية والتنفيذ فى الدولة . وكان يختار من بين كبار رجال الموحدين ويتمتع بنفوذ كبير فى المملكة [١] .

أما وزير الفضل أو كاتب السر ، فهو المختص بديوان الانشاء أى الذى يتولى المكاتبات والأوامر السلطانية ، وكذلك كتابة العلامة ، وهى جملة أو عبارة التوقيع التى تضاف الى هذه المكاتبات ثم ترفع الى السلطان ليضع خاتمه : عليها كذلك كان هذا الوزير يشرف على أرباب العلم وسائر فنون الفضل ولهـــذا سمى بوزير الفضل . وكان يشترط فيه أن يحسن الانشاء ، ويجيد الترسيل باللغة العربية الفصحى ، وأن يؤتمن على كتمان الأسرار ، ولهذا سمى أيضا بكاتب السر [٢] . ولم يشترط الحفصيون النسب فى صاحب هذه الخطة أى أن يكون من قرابتهم أو من طبقة الموحدين كعادتهم فى معظم الولايات والمناصب الرئيسية ، وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الكتابة والترسيل لم تكن من منتحـــل القـوم بسبب رطانة ألسنتهم ، وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة [٣] ولهـذا نجد أن هذه الخطة شغلها عدد كبير من الأندلسيين الذين كانوا يجيدون هذا الفن من الكتابة .

هذا ويرى ابن سعيد والزركشى ، أن علامة الحفصيين التى اختـارها خليفتهم الأول المستنصر بالله ، كانت « الحمد لله والشكر لله » ، ثم رأى شيخ

---

(١) راجع (Brunschvig : Op. Cit . II , p. 58)

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١

(٣) المرجع السابق .

الموحدين فى عهده أبو سعيد عثمان الحنتانى المعروف بالعود الرطب ، أن الاوامر السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لاينبغى الكتابة بمثلها عن الخليفة لعلو قدره ، ولهذا قسم العلامة الى علامتين : كبرى وصغرى . فالاوامر الكبيرة الصادرة عن الخليفة تكتب بالعلامة أو العبارة السالفة الذكر . أما الأمور الصغيرة التى يكبر قدر الخليفة عنها فتصدر بعلامة أخرى عن أمر نائب الخليفـــة . وكان صاحب العلامة الكبرى هو وزير الفضل ويوقعها السلطان نفسه ، وتكتب بعد البسملة بالقلم الغليظ فى أعلا الصفحة أما العلامة الصغرى فتكتب فى أسفل المنشور وتصدر عن وزير الجند الذى كان فى العادة هو شيخ الموحدين أو نائب الخليفة . وللتمييز بينهما كانت كتب السلطان تصدر فى ورق أصفر ، بينما كان مايكتب عن وزير الجند يصدر ورق غير الأصفر . ومن عادة المغاربة كلهم أن لاتطول كتبهم ولا يبعد بين أسطرهم كما جرت به العادة فى مصر والشام وايران . (١)

ولقد أورد أبو الوليد بن الاحمر فى كتابه مستودع العلامة أسماء كتاب العلامة على عهد الحفصيين الى مابعد سنة ٨٥٥ هـ (٢) .

ومن أبرز الكتاب الاندلسيين الذين تولوا هذه الخطـــة على عهـد المستنصر الحفصى ، نذكر أبا عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى البلنسى المعروف بابن الابار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) وتذكر المراجع أنه كان يكتب

(١) العمرى : مسالك الابصار ص ١٧ - ١٨ ، أبو الوليـــد بن الاحمر : مستودع العلامة ومستبدع العلامة ص ١٠ - ١١ نشر محمـــد التركى ومحمد بن تاويت .

(٢) راجع كتاب مستودع العلامة السالف الذكر ص ٢٨ - ٣٦ .

العلامة بخط الغرب ، ولكن السلطان رغب فى أن تكون بالخط المشرق فلذا أمر بأن يكتفى ابن الابار بانشاء المكاتبات ، ويدع العلامة للوزير أحمد بن ابراهيم الغسانى ، فغضب ابن الابار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما يكتبه من رسائل ، فعوتب فى ذلك وروجع ، فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثلا ببيت المتنبي :

أطلب العز فى لظى وذر الذل (م) ولو كان فى جنان الخلود

ونمى الخبر إلى السلطان ، فعزله عن عمله . وأحس ابن الابار بخطأ تصرفه ، فكتب كتابا بمثابة اعتذار للسلطان أسماه « إعتاب الكتاب » ، ويتضمن حكايات كتاب سبق اليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وعفا عنه السلطان بعد ذلك إلا أنه يبدو أن ابن الابار ظل على كبريائه ومهاجمة خصومه ولا سيما الوزير احمد ابن ابراهيم الغسانى فأوغروا صدر المستنصر عليه وأوهموه بأنه يتآمر ضده ، فأمر بقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل قعصا بالرماح سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) (١)

وإلى جانب هذه الأعمال ، كان يعهد إلى وزير الفضل فى كثير من الأحيان ، الاشراف على مكتبة القصر الملكى ، والنظر فيما تحتاج اليه من كتب (٢) . وقد ذكر الكاتب المعاصر ابو محمد عبد الله التجانى فى

---

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ج ٩ ص ٣٩ - ٤٥ نشر حسين مؤنس ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢٧ الوليد بن الأحمر : مستودع العلامة ومستبدع العلامة ص ١١ .

(٢) العمرى : مسالك الابصار ص ٢٥

رحلته أن أول من إبتدأ فى جمع هذه الخزانة أو المكتبة هو أبو زكريا يحيى الأول ، وأنه عهد الى صاحب خطة العلامة الكبرى الحسن بن معمر الهوارى الطرابلسى النظر فى خزانة الكتب بالقصبة ، ثم ان الخليفة المستنصر بالله تغير عليه فنفاه الى المهدية سنة ٦٦٧ ﻫ ، ولكنه عفا عنه السنة التالية ورجع ابن معمر الى تونس . ولما مات المستنصر وبويع لولده الواثق ، استدعى الحسن ابن معمر وأمره بالنظر فى خزانة الكتب وذلك فى سنة ٦٧٥ ﻫ . ويروى أنه لما سئل الحسن عن هذه الخزانة ، ذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفرا حين كانت لنظره أولا ، وأنه لما أعيد اليها واختبرها فى هذه المرة ، فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر ا ، فسئل عن موجب ذلك ، فقال : المطر وأيدى البشر (١) . ويبدو أن ضياع هذه الخزانة الضخمة يرجع إلى الحفصيين أنفسهم ، بدليل مايرويه الزركشى وابن أبى دينار من أن السلطان أبا يحيى زكريا بن أحمد بن اللحيانى (٧١١ - ٧١٧ ﻫ) لما رأى اضطراب ملكه ، وظهر له خروج الأمر من يده ، باع جميع النفائس التى كانت بالقصبة ومن جملتها الكتب التى اقتناها أبو زكريا الأكبر ، وخرج من تونس الى طرابلس واستوطنها عام ٧١٧ ﻫ (٢) .

من كل ماتقدم نرى أن الوزارة الحفصية كانت تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم ، وأن السلطان كان يهيمن عليهـا ويجتمع

---

(١) راجع رحلة التيجانى ص ٢٧٤ - ٢٧٦

(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٥١ ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٢٧ ، العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٥ حاشية ١ .

بوزرائها فى كل يوم تقريبا وقد أوضح ابن سعيد هـذا اللقاء الذى كان يتم بين السلطان ووزرائه بقوله :

« وعادته فى مدينه مملكته - يعنى تونس - أنه يخرج كل يوم باكرا إلى موضع يعرف بالمدرسة ، ويبعث خادما صغيرا يستدعى وزير الجند من موضعه المعين له ، فيدخل عليه رافعا صوته بسلام عليكم ، من بعد أن يومىء برأسه . ولايقوم له السلطان ، ويجلس بين يديه ، ويسأله السلطان ، عما يتعلق بأمور الجند والحروب ، ثم يأمره باستدعاء من يريده من أشياخ الجند والعرب أو من له تعلق بوزير الجند، ثم يأمره باستدعاء وزير المال ، وهو المعروف بصاحب الأشغال ، فيأتى معه ويسلمان جميعا من بعد على السلطان ، وإن كان قد تقدم سلام وزير الجند ، ولكنه عادة الدخول عليه ، فيتقدم وزير المال إلى بين يدى السلطان ، ويتأخر وزير الجند الى مكان لايسمع فيه حديثهما ، ثم يخرج وزير المـــال ، ويستدعى من يتعلق به ، ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير . ثم يقوم السلطان من المدرسة الى موضع مخصوص ، ويستدعى وزير الفضل ، يعنى كاتب السر ، ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج اليه خزانة الكتب ، وعما يتجدد فى الحضرة وفى البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون الفضل والقضاة ويأمره باستدعاء من يخصه من الكتاب ، ويملى عليهم وزير الفضل ما أمر بكتابته ويعلم عليه وزير الفضل بخطه »(١) .

---

(١) راجع (العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٤ - ٢٦)

الحجابة فى الدولة الحفصية

أما خطة الحجابة فى هذه الدولة ، فقد مرت فى أدوار مختلفة من ضعف إلى قوة ثم ضعف واضمحلال . ويذهب المستشرق الفرنسى روبرت برونشفيج فى كتابه القيم عن الحفصيين ، إلى أن هذه الخطة لم تظهر فى الدولة الحفصية إلا فى أيام السلطان أبى اسحاق ابراهيم الأول (٦٧٨ — ٦٨٣ هـ) الذى عاش فى الأندلس فترة قبل اعتلائه العرش ، فتأثر بهذه الخطة التى كانت شائعة هناك ، واتخذ فى خلافته حاجبا أندلسيا وهو أبو القاسم بن الشيخ [1] تلميذ الكاتب الأندلسى المعروف ابن عميرة . إلا أنه يبدو أن هذه الخطة كانت قائمة فى تونس قبل ذلك التاريخ ، إذ يروى ابن عبد الملك المراكشى أن أبا القاسم بن الشيخ كان حاجبا للخليفة المستنصر الحفصى جد أبى اسحاق المذكور [2].

وكيفما كان الأمر ، فان خطة الحجابة فى بداية الدولة الحفصية ، لم يكن لصاحبها نفوذ سياسى كبير ، إذ كان عمله قاصرا على إدارة قصر السلطان أو كما يقول ابن خلدون : كان بمثابة قهرمان خاص بداره ، ينظر فى أحواله ويجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى

---

(١) راجع
(Robert Brunschvig : La Berberie orientale sous les Hafsides, II, p. 45)

(٢) ابن عبد الملك المراكشى الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة السفر الأول ورقة ٧٤ مخطوط بالقرويين فى فاس رقم ٦٢٦ ل نشر منه احسان عباس السفرين الرابع والخامس ويقوم بنشر هذا السفر الأول محمد بن شريفه .

المطابخ والاصطبلات وغيرها ، وربما اضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة ، وربما جعلوه لغيره (١).

ويستمر ابن خلدون فى شرح تطور هذه الخطة فى الدولة الحفصية فيقول :

« واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأى والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ، ثم جـــاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثانى عشر منهم - أبى حفص عمر الثانى - ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان ابو العباس على نفسه ، وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التى كانت سلما اليه وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد . » (٢)

ونستنتج من كلام ابن خلدون ومن الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، أن الحجابة قد ارتفع شأنها بعد أن كانت قاصرة على نظارة قصر السلطان فصار صاحبها رئيسا للوزراء ، وحل محل وزير الجند وشيخ الموحدين من حيث الاختصاص ، أو بمعنى آخر صار شيخ الموحدين يلقب بالحاجب أيضا . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة استبداد الحجاب بالخلفاء وهذا يذكرنا بالحاجب المنصور ابن أبى عامر فى الأندلس ، وكان صنوه فى تونس

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) المرجع السابق

هو الحاجب ابو محمد بن تفراجين (١) الذى استبد بكل من أبى حفص عمر الثانى بن أبى بكر (٧٤٧-٧٥٠ه) وأبى اسحاق ابراهيم الثالث (٧٥١-٧٧٠ه) ، وسلم عليه سلام الملوك ، كما تزوج ابنته السلطان أبواسحاق المذكور سنة ٧٦٦ ه بصداق قدره ١٢ ألف دينار و٣٠ خادما وتوفى ابن تفراجين بعد ذلك فى تلك السنة (٢) . وبعد وقت قصير خلفه حاجب آخر وهو أحمد اليالقى الذى استبد بالسلطان خالد بن إسحاق (٧٧٠-٧٧٢ه) ، ولم يترك له شيئا (٣) . ثم جاء بعده السلطان أبو العباس احمد الثانى (٧٧٢-٧٩٦ه) فباشر الحكم بنفسه وقضى على كل نفوذ لهذه الخطة التى كانت مصدر الاستبداد والتغلب (٤) .

---

(١) هو شيخ الموحدين ابو محمد بن عبدالله بن تفراجين ، وبيت بنى تفراجين من بيوت الموحدين منذ بداية الدولة الموحدية . راجع أخبارهم فى (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٤٨ - ٣٥٣ وفى نفح الطيب ج ٤ ص ٩٥ رسالة لابن الخطيب إلى محمد هذا كما توجد رسائل رسمية متبادلة بين هذا الحاجب ابن تفراجين وبين سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله (سنة ٧٦٣ ه - ١٣٦٢ م) أوردها ابن الخطيب فى كتابه ريحانة الكتاب ونشرها المشرق الاسبانى جاسبار راميرو فى كتابه :

(Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Grnada y Fez p. 343 - 347)

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٣٢ - ١٣٤ ، محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ص ٧٢ - ٧٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٧٣ ومابعدها .

(٣) ابن أبى دينار : المصدر السابق ص ١٣٤

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١ - ٢٤٢

هذا والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن خلدون الذى أمدنا بهذه المعلومات القيمة قد تولى هو الآخر خطة الحجابة المطلقة لأمير بجاية أبى عبد الله محمد سنة ٧٦٦ ھ (١٣٦٤م) .

وقد شرح هو نفسه حدود عمله الجديد بقوله « وكتب لى الأمير أبو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة ، ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب ، الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه فى ذلك أحد » (١)

وظل ابن خلدون حاجبا لهذه الإمارة الحفصية الجزائرية مدة عام تقريبا ، ثم اضطر إلى الفرار منها إلى مدينة بسكرة قاعدة الزاب بالجزائر وذلك عقب مقتل خليفة الأمير محمد واستيلاء ابن عمه أبى العباس على بجاية سنة ٧٦٧ ھ (٢) ويضيف ابن خلدون أن ملك تلمسان أبو حمو موسى الثانى ، كتب اليه يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته (٣) لما كان يعلمه من نفوذه فى بجاية رما .وهذا عن القبائل ، وأرسل اليه بالفعل مرسوم الحجابة ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول هذه الخطة ، وأرسل اليه أخاه الأصغر يحيى نيابة عنه (٤) .

---

(١) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا صـ ٩٧

(٢) ابن خلدون : التعريف صـ ٩٩

(٣) راجع نص هذه الرسالة فى كتاب التعريف بابن خلدون ص ١٠٢ - ١٠٣

(٤) كان أبو زكريا يحيى بن خلدون يصغر أخاه عبد الرحمن بعام واحد ،

وفى أواخر ايام الدولة الحفصية انفصلت الحجابة نهائيـاً عن رئاسة الوزراء وصار الحاجب - كما يقول الحسن الوزان المعروف باسم ليون الافريقى - «القرن ١٦ م » فى المرتبة السادسة فى الدولة الموحدية الحفصية واقتصرت مهمته على الاشراف على فرش قاعة السلطان بالاسطة والوسائد، وتنظيم جلوس الحاضرين فى الاماكن المخصصة لهم(١).

الوزارة والحجابة فى دولة بنى عبد الواد

تنتمى هذه الدولة الى قبيلة بنى الواد احدى بطون زنانة التى كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط . ولما فتح الموحدون هذه البلاد ، كان بنو عبد الواد عونا لهم على ذلك ، فنالوا ثقة الموحدين ، وحصلوا منهم على اقطاعات وفيرة بأحواز تلمسان ، فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت .

ولما انهـارت دولة الموحدين ، استقل يغمراسن بن زيان ملك بنى عبد الواد بهذه المنطقة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) مؤسسا بذلك دولة بنى عبد الواد التى عرفت أيضا بدولة بنى يغمراسن باعتباره أول ملوكها ،

﴿﴾ وقد كتب كتابا فى تاريخ بنى حمو أو بنى عبد الواد أو بنى يغمراسن ملوك تلمسان وعنوانه « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، نشره وترجمه الى الفرنسية الفردبل Alfred Bel ، الجزائر ١٩٠٣ » . وقد قتله السلطـان أبو تاشفين فى رمضان سنة ٧٨٠ هـ .

(١) راجع

(Brunschvig ; Op. Cit II.p.56: Leon L Africain : Description de l'Afrique) (alger 1906) p· 144 - 146,

وبدولة بنى زيان أو الزيانية نسبة الى اسم والده[١].

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة ، إذ أنها كانت تضيق وتتسع حسب قوة جيرانها من بنى حفص شرقا ، وبنى مرين غربا ، إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طولا من البحر المتوسط شمالا الى صحراء الجزائر جنوبا ، وعرضا من جبال سعيدة ووادى مينة شرقا الى وادى ملوية ومدينة وجدة غربا [٢].

وكثيرا ماكانت هذه الدولة فى أيام قوتها تغير على جيرانها ، وتتوغل فى أراضيهم شرقا وغربا ، إلا أنها فى نفس الوقت كانت تعانى هى الأخرى من غاراتهم ولاسيما بنى مرين الذين تمكنوا من احتلال عاصمتهم تلمسان (بكر التاء واللام وسكون الميم) مرات عديدة .

ولقد كانت الصحراء جنوبا هى معقل بنى عبد الواد ومأواهم الذى يحتمون به حينما تتعرض بلادهم لغزو جيرانهم المرينيين ، فيظلون بها الى أن تزول حدة هذا الغزو بانسحاب السلطان المرينى أو بموته ، وعندئذ يعودون الى قاعدتهم تلمسان ويستردون ملكهم مرة أخرى .

ولم يخفف من متاعب هذه الدولة الزيانية سوى تأييد ملوك غرناطة لها لما كانوا يخشونه من أطماع بنى مرين فى ملك الأندلس كما فعل المرابطون والموحدون من قبل . ومن ثم عمل بنو الأحمر على تأييد بنى زيان بشتى الوسائل كى يظلوا شوكة فى جنب الدولة المرينية فيشغلونها عنهم .

---

(١) يقال إن أول من أطلق على هذه الدولة اسم الزيانية بدلا من العبد الوادية هو السلطان أبو حمو الثانى.

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٤٩ الجيلالى : تاريخ الجزائر العام حـ٢ ص ١٢١ ؛ الميلى : تاريخ الجزائر حـ ٢ ص ٣٤٨ .

وكان من نتائج هذه السياسة ، أن ارتبطت تلمسان بعجلة غرناطة فى مختلف الميادين السياسية والحضارية حتى صار لها طابع أندلسى نلمسه بوضوح فى مساجدها ومدارسها ومبانيها • وقد ساعد على تدعيم هذه الروابط ، أن معظم ثغور هذه الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم، بل إن بعضها كان من بنائهم . ومن أهم تلك الثغور نذكر: هنين(١) التى تقابل المرية Almeria فى شرق الأندلس ، ووهران التى بناها الأندلسيون وتقع شرقى تلمسان بقليل ، ومستغانم التى تقابل دانية Dania فى شرق الأندلس(٢). ولهذا كانت العلاقة بين البلدين محكمة وطيدة تبودلت فيها السفارات والهدايا والمراسلات السلطانية (٣) .

أما عن ترتيب هذه المملكة ، فالظاهر أنها تشبه مملكة تونس فى الحال والترتيب أو قريب من ذلك (٤) . وكان الحاجب عندهم هو الرجل الأول فى الدولة ، ويشمل نفوذه اختصاص الوزارة والحجابة معا ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فى مقدمته حين قال :

---

(١) هنين — بضم الهاء وفتح النون — كان موقعها فى شمال غرب تلمسان ، وفى مكانها الآن مدينة بنى ساف Beni Saf أنظر التعريف بابن خلدون ص ٣٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٥٠

(٣) يحى بن خلدون : بغية الرواد حـ ٢ ص ١٧٠ - ١٨١ ، ٢٨٠ - ٣٠٧ ، المقرى : أزهار الرياض حـ ١ ص ٢٤٩ - ٢٦١

عبد الرحمن بن خلدون : التعريف ص ١٢٢ ، ١٢٧

(٤) القلقشندى : المرجع السابق ص ١٥١

وأما دولة بنى عبد الواد ، فلا أثر عندهم لشىء من هذه الألقاب ولا تميز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها ، وإنما يخصون باسم الحاجب فى بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان فى داره كما كان فى دولة بنى أبى حفص ، وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها (١)

وكلام ابن خلدون هنا ينطبق على معنى الحجابة المطلقة التى سيطرت على مملكة تونس فترة من الزمان. وقد شرح كذلك خطة الحجابة فى تلمسان سلطانها أبو حمو الثانى فى خطابه الذى أرسله الى ابن خلدون يدعوه فيه الى تولى حجابته ، وفيه يقول :

« وكانت خطة الحجابة ببابنا العلى ـ أسماه الله ـ أكبر درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط لنظرائكم ، قربا منا ، واختصاصا بمقامنا ، واطلاعا على خفايا اسرارنا ، آثرناكم بها إيثاراً ، وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا ، فاعملوا على الوصول الى بابنا العلى ، لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبيه ، حاجبا لعلى بابنا ، ومستودعا لاسرارنا ، وصاحب الكريمة علامتنا ، إلى مايشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير الجسيم ، لايشارككم مشارك فى ذلك ، ولا يزاحمكم أحد .... الخ (٢)

وكل هذا يدل على أن مدلول الحاجب هنا هو الوزير أو رئيس الوزراء المستقل بالدولة والوسيط بين السلطان وبين أهل دولته (٣) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢
(٢) ابن خلدون : التعريف ص ١٠٣
(٣) ابن خلدون : التعريف ص ٩٧

على أن الشيء الذي نلاحظه في هذا الصدد ، هو أن عددا كبيرا من وزراء هذه الدولة كانوا من أهل الاندلس. ففي عهد أبي حمو موسى الاول (٧٠٧-٧١٧ هـ = ١٣٠٧- ١٣١٨م) ، ولي الوزارة على التعاقب محمد بن ميمون بن الملاح ، وولداه من بعده محمد الاشقر ، فأبراهيم، ثم عمها علي بن عبد الله . وكان بنو الملاح هؤلاء من مشاهير رجال المال ومن أسرة قرطبية الاصل اشتهرت بالعدل والصدق والتقوى . وقد انقرض أمر هذه الاسرة يوم اغتيال أبي حمو الاول سنة ٧١٨هـ ، إذ قتلوا معه وانتهبت أموالهم .(١)

وفي عهد ولده أبي تاشفين عبد الرحمن الاول (٨١٧ - ٧٣٧ هـ = ١٣١٨ - ١٣٣٦ م) ولي الوزارة مملوك من أصل قطلاني اسباني اسمه هلال ، ولد في غرناطة وتربى في بلاط بني الأحمر ، ثم أهداه سلطان غرناطه الى أبي حمو الاول الذي أعطاه بدوره الى ابنه أبي تاشفين الذي ولاه حجابته حينما صار سلطانا. وتصف المراجع هلالا هذا بالغلظة والفظاظة والمهابة ، وقد انتهت حياته في السجن سنة ٧٢٩هـ بعد أن غضب عليه سلطانه أبو تاشفين .(٢)

ويعتبر عصر أبي حمو موسى الثاني من أزهر عهود الدولة الزيانية

---

(١) يحيى ابن خلدون : بغية الرواد ج١ ص ١٧٢ نشر وترجمة الفرد بل Alfred Bel. (الجزائر ١٩٠٢)

(٢) نفس المرجع ج١ ص ٢٢١ والترجمة الفرنسية ص ١٨٩ حاشية ٤ .

٧٥٠ - ٧٩١هـ = ١٣٥٢ - ١٣٨٩م). وكان هذا السلطان قد ولد فى غرناطة سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، وقضى فيها فترة شبابه ، عندما كان والده منفيا[1] ، فتأثرت شخصيته بالحضارة الاندلسية الراقية التى كانت سائدة فى غرناطة فى ذلك الوقت ، مما كان له أثر كبير فى ذلك الازدهار الحضارى الذى نعمت به تلمسان حتى صارت صورة من غرناطة فى عهده[2] ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شىء جنديا باسلا ، إلا أنه كان فى نفس الوقت أديبا فيلسوفا وشاعرا فنانا. ويظهر ذلك بوضوح فى كتابه «نظم السلوك فى سياسة الملوك»[3] الذى صنفه على شكل نصائح لولده وولى عهده أبى تاشفين عبد الرحمن. والكتاب فى جملة تلخيص «لكتاب سلوان المطاع» لابن ظفر الصقلى[4] (ت سنة ٥٦٥هـ = ١١٦٠م) ، إلا أن أبا حمو ضمنه الكثير من نظمه وماجرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بنى مرين ، ومشايخ العرب ،

---

(١) نفس المرجع جـ٢ صـ ١٤-١٥

(٢) راجع L'Abbé Bargés : Complement de l'histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd al Jalil al Tenessi pags. 152-153)

(٣) طبع هذا الكتاب بتونس سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) وقد ترجمه الى اللغة الاسبانية ماريانو جاسبار Mariano Gaspar سنه ١٨٩٩ .

(٤) ترجم المستشرق الإيطالى ميشيل أمارى Amari هذا الكتاب الى اللغة الايطالية تحت عنوان (Conforti Politici, Firenze, 1851)

وزعماء المغرب وغيرهم[1] . ولقد أحاط هذا السلطان نفسه بطبقة من العلماء والشعراء نخص بالذكر منهم بعض الاندلسيين أمثال الكاتب يحي ابن خلدون ، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي.[2]

وقد سبقت الاشارة الى ان هذا السلطان فى سنة ٧٦٩ﻫ (١٣٦٨ م) دعا لحجابته المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون ، ولكن هذا الاخير اعتذر عن تلبية رغبته وأناب عنه أخاه أبا زكريا يحي بن خلدون ، فشغلها مدة طويلة انتج خلالها عدة أعمال أدبيـــة وتاريخية مثل كتاب « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ، وقصيدة فى السيف والقلم ، ومراسلات سلطانية مع ملك غرناطه محمد الخامس الغنى بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب[3] . وقد مات يحي بن خلدون قتيلا على يد ولى العهد ابى تاشفين سنة ٧٨٠ ﻫ (١٣٦٩م) لماطلته إياه بعقد ولاية وهران ، وكانت هذه المماطلة عن أمر السلطان أبى حمو[4] أما

(١) راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ١ ص ٢٤٩) وكذلك
(Menéndez y Pelayo : Origenes de la novela, I, p. 69-70)

(٢) يحي بن خلدون : بغية الرواد جـ٢ ص ٤٤ ، ١٧٠-١٨١

(٣) ابن خلدون : التعريف ص ١٢٢ ، ١٢٧

(٤) الميلي: تاريخ الجزائر جـ٢ ص ٣٥٨ ، الجيلالى: تاريخ الجزائر جـ٢ص٢٤٧ وفى كتاب مستودع العلامة لابى الوليد بن الأحمر ص ٦٥ أنه قتل بسبب شقيقه عبد الرحمن الذى التجأ فى هذه السنة ٧٨٠ﻫ الى أبى العباس الحفصى بعد رحيله من قلعة بنى سلامة كما ورد فى كتابه التعريف ص ٤٣٠ .

أخوه عبد الرحمن ابن خلدون ، فقد كان قبيل ذلك الوقت قد دعاه أبو حمو مرة أخرى للعمل معه سنه ٧٧٦هـ (١٣٤٥ م) ، ولكنه امتنع وآثر التخلي عن السياسة ، والانقطاع للدرس والبحث ، فنزل بأهله قلعة ابن سلامة أو بنى سلامه أو بنى تاوغزوت فى جنوب غرب مدينة فرندة Frenda بمقاطعة وهران فى الجزائر ، حيث أقام أربعة أعوام (٧٧٦ - ٧٨٠ هـ) كتب مقدمة تاريخه المشهورة [١].

ولقد استطاع أبو حمو بفضل تدبير وزيره الحاج موسى بن على بن برغوث ، أن يسيطر على بلاد المغرب الأوسط فترة من الزمان ، وأن يساعد مملكة غرناطة فى جهادها مع الاسبان بالمال والمؤن والرجال ، إلا أنه لم يلبث ان اصيب بخيبة أمل كبيرة عندما ثار عليه ولده ابو تاشفين ، وتآمر ضده مع السلطان أبى العباس المرينى ، فقام من فوره لإخماد ثورته ، ولكنه قتل فى خلال المعركة إذ كبا به فرسه فسقط صريعا سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) ، وبموته انتهت مملكة تلمسان كدولة مستقلة ، وصارت تابعة لسلطان فاس. [٢]

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٢٢٨-٢٢٩ وما بها من حواشى .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٣٦٢ ؛ القلقشندى ج٥ ص٢٠٢.

الوزارة والحجابة على عهد بني مرين أو بني عبد الحق :

كان بنو مرين من القبـــائل الزناتية (١) التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عمومتهم بني عبد الواد . ولهذا آثروا الهجرة إلى الصحراء جنوبا على الدخول في طاعة الموحدين . وحياة الصحراء كانت توافقهم لأنهم من البدو الرحل . وكانوا في فصل الربيع يرحلون إلى شمال المغرب الأقصى لرعى أبلهم ومواشيهم . فيقضون شهورا من السنة نازلين بين فجيج (فكيك) وملوية ، حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا الى بلادهم (٢) .

وقد لاحظ بنو مرين أثناء ذلك مابدأ يطرأ على جسم الموحدين من ضعف واختلال بعد هزيمة العقاب ، فشجعهم ذلك على الطموح للملك والاستيلاء على البلاد وخيراتها (٣) . وكان أول قيام بني مرين في سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، على عهد أميرهم أبي محمد عبد الحق بن محيو الذى أحتل مكناسة وتازا وأخذ يغير غربا على بلاد الهبط (٤) في شمال المغرب

---

(١) رغم هذا الأصل الزناتي البربري ، فان المرينيين يرفعون نسبهم الى مضر حيث يجتمعون بنسب الرسول « صلعم » راجع « أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ص ١٤ » .

(٢) ، (٣) راجع « محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية ، ومميزات العصر المريني الأدبية ، مجلة البينة ، ديسمبر سنة ١٩٦٢ » .

(٤) كانت بلاد المغرب الأقصى تنقسم الى أربع مناطق رئيسية وهي :

١ - الغرب وهي المنطقة التي تشمل مصب وادي سبو في شرق المغرب الأقصى . =

ثم تدعمت أركان هذه الدولة فى عهد عثمان بن عبد الحق سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وأخيرا جاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى وقضى على آخر خلفاء الموحدين ، أبى دبوس ، واستولى على عاصمتهم مراكش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) فانقرضت بذلك دولة الموحدين .

وقد تلقب يعقوب بعد ذلك بلقب أمير المسلمين بدلا من لقب الأمير الذى كان يدعى به ، كما قطع الدعاء للخلافة الحفصية بتونس ، وبنى فى الناحية الغربية من مدينة فاس ، عاصمة للدولة الجديدة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥) صارت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد وفاس الجديدة ، تمييزا لها من جارتها فاس البالية أو القديمة التى بناها الأدارسة من قبل [1] .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الدولة المرينية ، لم تستند فى قيامها إلى دعوة اصلاحية دينية خاصة كما فعلت الدول التى سبقتها ، بل قامت نتيجة للاضطراب والفساد الذى حل بالمغرب عقب كارثة العقاب ، فاتخذت من ذلك مبررا كافيا لقيامها [2] . على أن هذا لا يمنع القول بأن هذه

= ٢ ـ الهبط وهى المنطقة التى تقع فى شمال عرباوة والقصر الكبير فى الشمال .

٣ ـ دكالة وهى البساط العربية المطلة على المحيط الاطلسى غربا .

٤ ـ الحوز وهى المناطق الخصبة الجنوبية ، وكانت قاعدتها قديما مدينة أغمات ثم حلت محلها مدينة مراكش

(١) ابن خلدون : العبر ٨ ص ١٩٥ ، أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ص ١٩ - ٢٠

من المرجع السابق

الدولة كانت مثل سابقاتها ، دولة عسكرية مجاهدة ، جعلت من الجهاد فى الأندلس هدفا مباشرا لقيامها .

ولقد حاولت هذه الدولة الزناتية أن تجمع كلمة المغرب العربى ، وتعمل على توحيده كما كان الحال فى عهد بنى عبد المؤمن ، ونجحت فعلا فى بعض فترات قوتها ، أن تمد نفوذها إلى نواحى كثيرة من القطر الجزائرى بل والتونسى أيضا ؛ إلا أنها أصطدمت هناك بمقاومة عنيفة من جانب بنى عبد الواد والحفصيين ، واقتصر نفوذها آخر الأمر على بلاد المغرب الأقصى بين نهر ملوية شرقا والمحيط الأطلسى غـــربا ، وسجلماسـة « تافيلالت » جنوبا .

أما فى الشمال ، فقد حرص المرينيون على الجهاد فى أسبانيا ، ومساعدة مملكة غرناطه الاسلامية . واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية فى جنوب الأندلس مثل رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريف ، ومربلة ، لتكون بمثابة رأس جسر لهم هناك عند القيام بهذا الواجب المقدس ، إلا أنه يلاحظ فى الوقت نفسه ، ان اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية ، لا يرجع فقط الى الرغبة فى مساعدة أخوانهم فى الدين سكان غرناطة ، بل يرجع أيضا إلى الدفاع عن نفوذهم فى مضيق جبل طارق ، ومنع أى خطـــر يهدد المغـرب من هذه الناحية الشمالية .

وقبائل بنى مرين كانت كثيرة العدد ، نذكر منها : بنى عبد الحق ، وبنى عسكر ، وبنى وطاس ، وبنى الكاس ، وبنى يابان ، وبنى فودود ،

وبنى برنيان ... الخ وكلها تنتمى إلى زنانة (١) ، الا أن نظام الملك فيها انحصر فى بيت بنى عبد الحق لأنهم - كما يقول ابن الخطيب - يمسوب زنانة (٢) .

وكان العظماء من ملوك بنى مرين يباشرون القضايا المهمة بأنفسهم بمشور القصر الملكى بفاس الجديدة ، ويحيط بهم مجلس من الخاصة وأهل الشورى من أشياخ بنى مرين الذين كان يرأسهم كبير منهم يدعى بشيخ بنى مرين (٣) . وهذا المجلس يذكرنا بمشيخة الموحدين على عهد بنى عبد المؤمن والحفصيين .

وقد أشار العمرى إلى أن هؤلاء الأشياخ كانوا يجلسون مع السلطان متقلدين سيوفهم ، بينما يجلس السلطان على فرش مرفوعة . وكان الجميع بما فى ذلك السلطان والجند ، يتعممون بعمائم طوال ، قليلة العرض من كتان ، ويعمل فوقها احرامات يلفونها على أكتافهم ، ويتقلدون السيوف تقليدا بدويا ، ويلبسون الخفاف فى أرجلهم ، وتسمى عندهم بالأنمقة كما فى أفريقية (أى تونس) ، ويشدون المهاميز فوقها ، ويتخـــذون المناطق (وهى الحوائص) ويعبرن عنها بالمضمات من فضة أو ذهب .

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ، القسم الخاص ، بالمغرب الاقصى ، نشر محمد المنونى ، مجلة البحث العلمى ، يناير سنة ١٩٦٤ ، الرباط .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٨

(٣) العمرى : المرجع السابق وكذلك (محمد المنونى : نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمى ، مايو سنة ١٩٦٤ ، الرباط)

وربما بلغت كل مضمة منها ألف مثقال ، ولكنهم لايشدونها إلا فى يوم الحرب أو يوم التمييز ، وهو يوم عرضهم على السلطان . ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع ، لايلبسه ذو سيف غيره » (١) .

وإذا كانت السلطنة فى دولة بنى مرين قد انحصرت فى بيت بنى عبد الحق ، فانه يلاحظ أن خطة الوزارة أو رئاسة الوزراء قد استأثرت بها عائلات من القبائل المرينية المعروفة السالفة الذكر ، فنسمع عن عدد كبير من الوزراء باسم الفودودى أو اليرنيانى أو اليابانى أو العسكرى أو ابن الكاس أو الوطاسى ، بل إن بعضهم كانت تربطه بملوك بنى مرين روابط المصاهرة (٢) . ولهذا فان الوزير فى عهد هذه الدولة كان يعتبر من أرباب السيف ، ومن أشياخ بنى مرين ، وقد شرح ابن خلدون اختصاصه بقوله : « وأما رئاسة الحرب والعساكر فهى الوزير » . (٣)

وبطبيعة الحال كان هؤلاء الوزراء ، باعتبارهم من القادة العسكريين ، يرافقون السلاطين فى غزواتهم سواء فى المغرب أو الأندلس . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من استشهد منهم فى العمليات الحربية التى خاضها السلطان أبو الحسن المرينى فى طريف والجزائر وتونس ، ووصفهم بأوصاف

---

(١) العمرى : المرجع السابق ص ١٤٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) مثال ذلك الوزير عمر بن عبد الله بن على اليابانى الذى تزوج أخت السلطان أبى سالم ابراهيم المرينى .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

تدل على مكانتهم الحربية كالبطولة والفروسية وسيوف الله المسلولة[١]. ويضيف ابن مرزوق أنه كان من اختصاص الوزير أيضا ، الاشراف على الجبايات والنظر فى الولاة ، ورفع الشكايات السلطان ومباشرة الحكم فى بعضها [٢]

وبعد وفاة السلطان أبى عنان فارس سنة ٧٥٩ ﻫ (١٣٥٨م) ضعف نفوذ ملوك بنى مرين لصغر سنهم وتحول النفوذ الى الوزراء . وإذا استثنينا فترات قصيرة تمكن فيها بعض الملوك من الإنفراد بالحكم ، فانه يمكن القول بصفة عامة بأن كل نفوذ فى الدولة قد صار بيد الوزراء حتى نهاية الدولة المرينية .

أما من ناحية إدارة الشئون المالية ، فقد كانت فى يد كاتب يعمل تحت إدارة الوزير ، ويعرف بصاحب الأشغال أو كاتب الأشغال ، ويتولى حسابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش ، فيشرف على إحصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير ، وخطه معتبر فى صحة الحسابات فى الجباية والعطاء [٣] ويرى ابن مرزوق أن ديوان هذه الخطة ، كان يشتمل على كتاب الخراج ، وأهل الحساب والمساحة ، وأن من ملحقاته شهود بيت المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل فى بيوت الأموال دخلا وخرجا ، وترجع اليهم

---

(١) نشر المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال قطعة من كتاب المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن للخطيب ابن مرزوق فى مجلة هسبريس (Hespéris , tome V , 1925 p.18 - 39) مع ترجمة فرنسية وتعليقات مفيدة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢

سائر الأعمال ، وترفع لهم جرائد الحسابات وهى أشرف خطط العدالة (١). ومن توابع هذه الخطة أيضا ، عمـــال الزكاة ، وهم الذين يخرجون للنواحى لاقتضاء ضرائب سكان البادية . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من تولوا خطة الأشغال فى أيام السلطان أبى الحسن المرينى ، أمثال أبى الحسن القبائلى ، وأبى محمد عبد الله بن أبى مدين العثمانى ، وأبى الحسن على محمد بن مسعود ، ووصفهم جميعا بالحسب ، والفضل ، ونزاهة النفس والأمانة (٢) ، ثم يضيف ابن مرزوق بأن من فضائل السلطان أبى الحسن المرينى ، أنه لم يستعمل أحدا من أهل الذمة فى هذه الخطة أو غيرها كما استعمله غيره فى المشرق والمغرب والأندلس . وضرب مثلا على ذلك بابن نغزالة أو نغرله اليهودى وزير باديس بن حبوس بن زيرى ملك غرناطة (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ) على عهد ملوك الطوائف ، وكيف أن العامة قتلته هو وأهل ملته على أثر القصيدة الحماسية التى قالهـــا محرضا ضد اليهود الشاعر الصوفى أبو اسحاق إبراهيم الإلبيرى (٣) .

والواقع ان هذه السياسيه الحكيمة التى اتبعهـــا السلطان أبو الحسن المرينى ازاء أهل الذمة ، لم تكن قاعدة عامة عند جميع ملوك بنى مرين فلقد سبق أن اتخذ كل من يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (ت سنة ٧٠٦ هـ) ، وحفيده أبى الربيع سليمان (ت سنة ٧١٠ هـ) حاجبا يهوديا

(١) ابن مرزوق : المسند ص ٢٩ ، محمد المنوفى : نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمى ، مايو سنة ١٩٦٤

(٢) ابن مرزوق : المسند الصحيح ص ٢٩ - ٣٠

(٣) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٣٠ وراجع القصيدة فى (ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ٢٣١) .

يدعى خليفه بن حيون بن رقاصة [1] ، كذلك اتخذ عبد الحق (الثانى) ابن سعيد ، آخر ملوك بنى مرين جماعه من اليهود مثل هارون الذى جعله وزيره ، وشاويل الذى عينه حاكما على فاس . وقد عجلت هذه السياسة الأخيرة بنهاية الدولة المرينية ، إذ ثار الأهالى باليهود وسلطانهم وقتلوهم جميعا سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) [2] .

أما عن صاحب خطة الكتابة والانشاء ، فقد ورد ذكره بصيغ مختلفة مثل صاحب القلم الأعلى [3] ، والفقيه الكاتب [4] ، وشيخ الكتاب [5] أو رئيس الكتاب [6] ، وكاتب السر أو كاتب السر والانشاء [7] .

وواضح من هذه التسمية واختصاصها ، أنها تشبه تماما وظيفة وزير الفضل وكاتب السر على عهد الحفصيين ، فهى إذن فى مرتبة الوزارة وان كانت المراجع المرينية لم تشر صراحة الى أن صاحبها كان يسمى بالوزير، هذا ويشير ابن خلدون الى أن هذه الخطة كانت أحيانا تجمع فى شخص

---

[١] ابن الأحمر: روضة النسرين ص ٢١ ، ٢٣

[٢] السلاوى : الاستقصا ج ٣ ص ٩٨ - ١٠٠

[٣] ابن الأحمر : مستودع العلامة ص ٢٠ ومابعدها

[٤] المصدر السابق .

[٥] ابن مرزوق المسند ص ٢٩

[٦] ابن خلدون : التعريف ص ٤٠

[٧] القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٧٠

واحد ، وأحيانا نفرق فى عدة أشخاص [1]

وكيفما كان الأمر ، فان هذه الخطة كانت تعتبر من المناصب المرموقة فى الدولة ، وكان صاحبها من المقربين للسلطان فيذكر العمرى أن كاتب السر كان يقابل السلطان كل يوم ليعرض عليه الرسائل المختلفة وقصص أصحاب المظالم ، وقد يأمره السلطان بالمبيت عنده فى الحالات الهامه [2] ، وكان له فى كل يوم مثقالان من الذهب ، وله أيضا قريتان يتحصل له منهما متحصل جيد ، مع رسوم كثيرة له على البلاد ، ومنافع وإرفاقات . ولكل واحد من كاتب السر وقاضى القضاة فى كل سنة بغلة بسرجها ولجامها . وسبنية قماش برسم كسوته كما الاشياخ [3] وكان زى الكتاب والقضاة والعلماء عموما ، قريب الشبه من ملابس الأشياخ والجند السالفة الذكر ، إلا أن عمائمهم كانت خضراء اللون [4] .

ولم يشترط فى صاحب خطة الكتابة أن يكون من بنى مرين ، بل كانت تسند إلى من يحسنها من أهلها أرباب الفكر والقلم [5] . ولهذا شغلها عدد كبير من الأندلسيين الى جانب المغاربة وبعض حجاب

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٠٦ .
(٣) القلقشندى : نفس المرجع ص ٢٠٥ .
(٤) القلقشندى : نفس المرجع ص ٢٠٤ .
(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

الى جانب المغاربة وبعض حجاب السلطان الذين كانت لهم دراية بهذا الفن [1] .

ويلاحظ فى هذا الصدد ، أن الدولة المرينية كانت دولة بربرية خرجت من بداوة الصحراء الى حياة المدنية والحضارة . ولهذا عملت ، لسد هذا النقص ، على تشجيع العلم واكبار العلماء وبناء المدارس ، مما كان له أثر كبير فى اجتذاب عدد كبير من علماء أفريقيا الشمالية وغرناطة الى بلادهم ، واستيطانهم فيها حتى صاروا يعتبرون من أبنائها .

وكان علماء غرناطة (أى الاندلس فى ذلك الوقت) من أكثر العلماء اقبالا على الهجرة سواء الى المغرب أو المشرق .

وقد علل ابن خلدون ذلك بغلاء المعيشة وقسوة الحياة فى هذه المملكة نتيجة لصعوبة أرضها الجبلية وكثرة ما يبذل فيها من جهد وأموال وعناية لإصلاحها . ولهذا اضطر عدد كبير من أهلها الى الرحيل عنها الى مصر والمغرب حيث كانت فرص العمل أيسر ، ووسائل المعيشة أسهل وأرخص [2] . ولقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة ،

---

(١) ابو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ص ٢١، ٢٨.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٤ ، ٤٣٢ . كذلك أشار الى غلاء المعيشة فى غرناطة القاضى المعاصر الحسن النباهى فى كتابه : المرقبة العليا ص ١٦٤ « نشر بروفنسال » .

أن سمى أحد أرباضها الخارجية باسم « حوز الوداع »(١) ، وهو المكان الذى اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهليهم وأحبابهم قبل رحيلهم(٢) . وغير بعيد بالمرة أن يكون هذا المكان هو نفس المكان الذى يعرف حتى اليوم باسم Suspiro del Moro أى زفرة العربى ، وهو الذى ترجمه الرواية الأسبانية الى الملك عبد الله ابن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة حينما غادر ملكه وبلاده ، ووقف يبكى فى هذا المكان لإلقاء آخر نظرة على وطنه.

ومهما يكن من شيء ، فالذى يهمنا فى هذا الصدد هو أن عددا كبيرا من أهالى غرناطة ، قد رحل الى فاس ، إما لطلب العلم فيها أو التدريس فى جامعتها القروية ومعاهدها العلمية ، وإما للاشتغال فى البلاط المرينى ككتاب ، وفى المستشفيات المغربية كأطباء(٣) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع الغرناطيين الذين عملوا كتابا فى بلاط بنى مرين ، وحسبي أن أذكر بعضا منهم على سبيل المثال لا الحصر .

---

(١) ، (٢) راجع «المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ ص ٢٣٠» وفى ذلك يقول الشاعر المعاصر ابن جابر :

بحوز الوداع لنا موقف .·. أذاب الفؤاد لأجل الوداع
فما أنا أنسى غداة النوى .·. وحادى الركائب للبين داعى

(٣) راجع « احمد مختار العبادى : العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس فى القرن الثامن الهجرى ، الكتاب الذهبى لجامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الألف ص ١٩٨ فاس ١٩٦٠» .

فهناك مثلا الشاعر أبو الحسن بن الصباغ الذى تولى خطة الكتابة فى فاس منذ سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢م) حتى سنة وفاته ٧٥٨هـ (١٣٥٧م)(١) وهناك الشاعر الرحالة المحدث أبو اسحاق ابراهيم بن الحاج النميرى الذى طاف ببلاد المشرق والمغرب ثم تولى مشيخة الكتاب وكتابة السر على عهد السلطان أبى الحسن وولده أبى عنان فارس . وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية فى إحاطته ، ذكر فيها أمثلة من شعره الذى وصفه بالعذوبة التى تجمع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة . كذلك وصف كتابه الذى دون فيه رحلته بأنه يتضمن العجب العجاب . ولقد عاد ابراهيم بن الحاج إلى وطنه غرناطة حيث ولى القضاء بها عقب وفاة السلطان أبى عنان المرينى (٢) .

وهناك الكاتب المالقى أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى الخزرجى الذى شغل منصب الكتابة واؤتمن على خطة العلامة(٣)

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٣١٤ - ٣١٤ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(٢) راجع المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٣١٦ - ٣٢٧ ، احمد بابا : نيل الابتهاج ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) كانت علامة السلطان ، أى عبارة توقيعه ، من ملحقات خطة الكتابة ويتولاها الكاتب بنفسه أو يعهد بها إلى كاتب خاص موثوق به هو صاحب العلامة . وفى بعض الاحيان كان ملوك بنى مرين يباشرون وضع العلامة بخطهم فاذا كانت علامة الملك المرينى : وكتب فى التاريخ المؤرخ به ، فهى بخط يد السلطان ، وإذا كانت : وكتب فى التاريخ ، فهى بخط صاحب العلامة ، وكانت

أيام السلاطين أبي الحسن ، وأبي عنان ، وأبي سالم ، ولهذا الكاتب مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطي لسان الدين أبي الخطيب[1] كما يوجد له كتاب في السياسة ونظم الحكم ، ألفه للسلطان أبي عنان وبأمر منه ، وهو كتاب «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» [2] ، ويتضمن شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، وتوفي ابن رضوان سنة ٧٨٣ هـ ودفن في مدينة أنفا المعروفة اليوم بالدار البيضاء في شمال غرب المغرب [3].

كذلك نذكر أبا القاسم محمد بن يحيى البرجي [4] الغسانى الذى كان كاتبا للسلطان أبي عنان ثم لأخيه أبي سالم ، كما كان يوفد في السفارة إلى سلاطين مصر وملوك قشتالة ، وتوفي [5] سنة ٧٨٦ هـ .

= توضع أسفل المكتوب وترسم بخط غليظ راجع : (العمرى : مسالك الابصار القسم الخاص بالمغرب الاقصى ، نشر محمد المنوفى ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢١٠) .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحات ٢٢٣ - ٢٢٧ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٢١٣ - ٢١٧ .

(٢) توجد من هذا الكتاب عدة مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط من من بينها الأرقام : ق ٩٢ ، ج ٦٨ ، د ٧٢٩ .

(٣) راجع (محمد ابراهيم الكتانى : شذرات من كتاب السياسة لابن حزم بجلة تطوان ١٩٦٠): مستودع العلامة ص ٥١ - ٥٣ .

(٤) نسبة الى برجة Berja مدينة من أعمال المرية باسبانيا .

(٥) روضة النسرين ص ٢٩ .

وهناك أيضا الكاتب الأديب الشاب الغرناطى أبو عبد الله بن جزى على عهد السلطان أبى عنان وعلى الرغم من أن هذا الشاب قد توفى فى سن مبكرة ، وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ٧٥٥ هـ (١٣٥٦ م) ، إلا أن مآثره العلمية -كما يقول المقرى- قد أثارت اعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب . فمن ضمن أعماله المشهورة ، كتاب رحلة ابن بطوطة المسمى بتحفه النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . فابن جزى هو الذى قام بصياغة هذه الرحلة مستعينا فى ذلك بمسودات صديقه الرحالة الطنجى ابن بطوطة . ويقال إنه قام بهذا العمل بناء على طلب السلطان أبى عنان ، وأنه أتمه فى ثلاثة أشهر فقط [١] . كذلك كتب ابن جزى أثناء مقامه بفاس تاريخا عاما لبلده غرناطة ، ولكنه للأسف مات قبل أن يتمه . وقد صرح لسان الدين بن الخطيب بأنه قابل ابن جزى بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة ٧٥٥ هـ وأنه قرأ كتابه وسار على منهاجه عند تأليف كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة . كذلك يذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيرا فى احاطته من تاريخ ابن جزى [٢] ، وهذا يدلنا على مدى قيمة هذا الكتاب المفقود . ولم يكن ابن جزى أديبا ومؤرخا فحسب بل كان شاعرا أيضا ، وله شعر جيد أورده المقرى فى كتابية أزهار الرياض ، ونفح

---

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ١٦٦ ، أزهار الرياض حـ ٣ ص ١٩٥

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة (طبعة القاهرة) حـ ٢ ص ١٨٧ ، المقرى : نفح الطيب حـ ٩ ص ٣١٣ - ٣١٤

الطيب [١] . أما الكتاب من المغاربة ، فأسماؤهم لا حصر لها وكلها تنتمى إلى بيوتات معروفة ، ويكفى أن نشير الى بيت بنى أبى مدين العثمانى ، الذى انحصرت فيه كتابة الانشاء وخطة العلامة مدة طويلة منذ أيام يعقوب ابن عبد الحق المرينى وأبنائه من بعده [٢] . وهم ينسبون إلى بنى عثمان من بربر زواوة ببجاية ، ثم استوطنوا القصر الكبير (قصر كتامة) فى شمال المغرب الأقصى . ولا علاقة بين اسم هذه الاسرة واسم الولى الصالح شعيب بن الحسين الملقب بأبى مدين ، دفين قرية العباد بضواحى تلمسان سنة ٥٩٤ هـ . فهذا الأخير أندلسى أشبيلى من الخزرج ، وذاك من بنى عثمان كما ذكرنا ، وانما الاسمان توافقا وكلا الرجلين من الصالحين [٣] .

وهناك أيضا الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى ، وأصله من مدينة سبتة ، ثم اتخذه السلطان أبو سعيد المرينى كاتبا له ثم رقاه إلى رياسة الكتاب ورسم علامته فى الرسائل والأوامر سنة ٧١٨ هـ ، ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان أبى سعيد وابنه أبى الحسن ، فارتقت صناعة الانشاء والترسيل على يديه ، وتوفى فى وباء الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ [٤] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦ ، جـ ٨ ص ٤١ - ٤٤ ، أزهار الرياض جـ ٣ ص ١٨٩ - ٢٠١ ، ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ١٨٧ - ١٩٤ (طبعة القاهرة)

(٢) راجع (أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ص ١٨ - ٢٩ ، مستودع العلامة ص ٤١ - ٤٧ ، ٩٨)

(٣) أبو الوليد بن الاحمر : مستودع العلامة ص ٤٣ ، ٩٨ .

(٤) التعريف بابن خلدون ص ٣٨ - ٤١

كذلك نذكر المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون الذى ولى خطة العلامة للسلطان أبى عنان [1] ، ثم كتابة السر والانشاء لأخيه السلطان أبى سالم ابراهيم سنة ٧٦٠ هـ . وقد نوه ابن خلدون بطريقته الجديدة فى الكتابة التى تحرز فيها من قيود السجع بقوله :

« واستعملنى — أبو سالم — فى كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء لمخاطبته ، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، دون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الاسجاع لضعف انتحالها ، وخفاء العالى منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة . [2] »

ولقد أمدنا الأمير الغرناطى ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر النصرى فى كتابيه : روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، ومستودع العلامة ، بأسماء كتاب الدولة المرينية حتى بعد سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) .

من كل ماتقدم نرى أن الوزارة فى عهد بنى مرين ، قد جمعت بين وزارة السيف والمال والقلم ، كما كان الحال فى عهد الحفصيين ، وإن كان هذا الثالوث الوزارى قد تغير منذ وفاة السلطان أبى عنان ، حينما ضعف ملوك بنى مرين ، واستبد وزراء السيف بأمور المملكة حتى صار كل شىء فى يدهم .

ومن العجيب أن تنتهى دولة بنى عبد الحق على أيدى وزرائهم وأبناء

---

(١) التعريف بابن خلدون صـ ٥٩

(٢) راجع (ابن خلدون : التعريف صـ ٧٠)

عمهم الوطاسيين حينما أعلن محمد الشيخ الوطاسى نفسه سلطانا على المغرب سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك الدولة الوطاسية .

الحجابة على عهد المرينيين

أما عن خطة الحجابة ، فقد اختلف المؤرخون حول تحديد اختصاصها واسم صاحبها . فابن خلدون نفى وجود اسم الحاجب فى الدولة المرينية وذكر أن المتصرف بباب السلطان كان قائدا عسكريا أشبه برئيس للحرس الملكى يدعى بالمزاور ، وذلك بقوله : «ولا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهى رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزوار ، ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان فى تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته ، وانزال سطواته ، وحفظ المعتقلين فى سجونه ، والعريف عليهم فى ذلك ، فالباب له ، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامة راجع اليه فكأنها وزارة صغرى» [1]

أما ابن الخطيب ، فقد أشار فى معرض كلامه عن أحداث المغرب ، إلى وجود قائد عسكرى بباب السلطان ، ولكنه أسماه بصاحب الشرطة العليا وذلك عند قوله :

وقصد الى قيوم الرماة ، وصاحب الشرطة العليا بباب السلطان الشيخ عيسى بن الزرقاء ، المنتسب الى الرؤساء من بنى اشقيلوله [2] ، القديم

---

(١) ابن خلدون . المقدمة صـ ٢٤٢

(٢) واضح من هذا الاسم أنه أسبانى الاصل وهو اسم عائلة غرناطية =

جنوحهم إلى هذه الإيالة اليعقوبيه ... الخ » [١]

ويفهم من كلام كل من ابن الخطيب وابن خلدون أن صاحب الشرطة العليا أو المزوار كان من كبار رجال الدولة ، وأنه كان مكلفا بالنظر فى الجرائم التى يرتكبها علية القوم ، وتنفيذ أوامر السلطان الخاصة باعتقالهم وسجنهم . وهو فى هذا يختلف عن صاحب الشرطة الصغرى الذى كان ينظر فى الجرائم التى يرتكبها العامة [٢] .

أما أبو الوليد بن الأحمر ، فقد نص صراحة على وجود اسم الحاجب فى الدولة المرينية ، ولكنه أطلقه على فئات مختلفة من الناس : فمرة يطلقه على بعض أهل الذمة من اليهود مثل خليفة بن حيون بن رقاصة الذى كان حاجبا للسلطان يوسف بن يعقوب المرينى ، ولولده أبى الربيع سليمان [٣] . ومرة أخرى يطلقه على بعض موالى السلطان من الخصيان الاعلاج أمثال عتيق ، وعنبر ، وفرج ، وفارح بن مهدى

= كبيرة كانت ترتبط مع أسرة بنى الأحمر ملوك غرناطة برباط القربى والمصاهرة وكانت لهم رئاسات على بعض المدن الغرناطية الهامة ، ثم وقع خلاف بين الأسرتين أدى إلى نشوب الحرب بينهما والتجاء بنى أشقيلوله إلى ملوك بنى مرين راجع أخبارهم فى «ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٣٣٠ - ٣٣٦» .

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص٣٣١ ، والايالة اليعقوبية نسبة إلى يعقوب بن عبد الحق المرينى مؤسس هذه الدولة المرينية .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ .

(٣) ابو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ص ٢١ ، ٢٣

وهذا الأخير كان فى الأصل من موالى بنى زيان ملوك تلمسان ثم اصطنعه بنو مرين.[١] ومرة ثالثة يطلقه على بعض الكتاب الذين جمعوا بين العلامة والحجابة أمثال الحاجب محمد بن محمد الكنانى وولده أبى المكارم منديل الكنانى على عهد أبى سعيد عثمان[٢]، والحاجب عبد الله بن أبى مدين فى أيام يوسف بن يعقوب[٣]، والحاجب محمد بن محمد بن أبى عمر التميمى الذى تغلب على سلطانه أبى عنان، وبقى فى تحجبه مطلق العنان[٤] ويضيف ابن الاحمر أن هذا الحاجب التميمى لم يلبث أن تحول الى خطة السيف وقدمه أبو عنان على الامارة ببجاية. ومن الطريف ان ابن خلدون قابل هذا الحاجب بالبطحاء على مقربة من تلسان، وسماه فى كتابه التعريف باسم الحاجب[٥]، رغم انكاره وجود هذا الاسم فى الدوله المرينية كما أسلفنا.

وكيفما كان الامر، فانه يبدو أن هذا التضارب فى أقوال المؤرخين ناتج عن أن خطة الحجابة فى الدولة المرينية لم تتخذ وضعا ثابتا لا فى مدلولها ومعناها فحسب، بل وفى أصحابها الذين تقلدوها، مما دعا بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون الى عدم الاعتراف باسمها فى بعض كتبه[٦]

---

(١) أبو الوليد بن الأحمر. نفس المرجع السابق ص ١٨، ٢٠، ٢٢، ٤٠-٤١

(٢) أبو الوليد ابن الأحمر. مستودع العلامة ص ٩٨، روضة النسرين ص ٢٤.

(٣) أبو الوليد بن الاحمر. مستودع العلامة ص ٩٨

(٤) أبو الوليد بن الاحمر. مستودع العلامة ص ٣٦، ٩٥

(٥) ابن خلدن. التعريف بابن خلدون ص ٥٨

(٦) ابن خلدون، المقدمة ص ٢٤٣

وبعد ، فإن الدولة المرينية ، مكانة خاصة فى التاريخ المغربى اذ ترجع اليها الى حد كبير معظم التقاليد القومية والحضارية المغربية بل والشخصية المغربية الحالية حتى قيل فى المثل المغربى . «من بعد بنى مرين وبنى وطاس ما بقاو ناس» أى أن الناس المتمدينين هم الذين كانوا أيام بنى مرين وبنى وطاس [١] .

الوزارة والحجابة فى مملكة بنى الاحمر بغرناطة :

هذه الدولة تمثل آخر عهد المسلمين بأسبانيا ، وقد انحصر ملكها فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة ايبريا ، حيث جبال البشرات [٢] Alpujarras ، وجبال شلير [٣] أو جبال الثلج Sierra Nevada (٣٥٠٠ متر) ، التى كونت منها قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها . وكانت هذه المملكة تشتمل على الأراضى التى تقابلها اليوم ولايات غرناطة والمرية

---

(١) راجع ، محمد المنونى . نشأة الدولة المرينية ، البينة ، ديسمبر ١٩٦٢ .

(٢) البشرات بضم الباء وفتح الشين وتشديد الراء

(٣) شلير بضم الشين وفتح اللام وسكون الياء . وهو تحريف للاسم اللاتينى القديم Solorius أو Mons Solarius أى جبل الشمس وذلك لشدة لمعانه عند انعكاس أشعة الشمس على قممه المغطاة بالثلوج صيفا وشتاء ويعرف هذا الجبل اليوم باسم سييرا نيفادا أى الجبال المثلجة راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١١٢ ؛ Simonet : Deocripcion del reino de Cranada p.47)

وفى برد شتاء غرناطة يقول ابن صدره :

أحل لنا ترك الصلاة بأرضكم ومشرب الحميا وهو شىء محرم
فرارا الى نار الجحيم لأنها أرق علينا من شلير وأرحم
لئن كان ربى مدخلى جهنم ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

ومالقه ، وأجزاء من ولايات جيان وقرطبة واشبيلية وقادس [١] . وكانت عاصمتها مدينة غرناطة Granada ، وهى مدينة كبيرة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير ، ويخترقها نهر شنيل Genil أحد فروع الوادى الكبير ، وهو يعتبر واديا صغيرا (٢١١ ك . م .) إذا قورن بوادى النيل مثلا (٦٥٠٠ ك . م .) ، ولكن كتابهم قدروه بألف نيل [٢] .

كذلك كان يشق مدينة غرناطة وادى حدره [٣] Darro (١١ ك . م) ثم يصب فى شنيل . وكانت تقع عليه عدة قناطر مثل قنطرة القاضى التى ما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وفى جنوب غرب غرناطة كانت تمتد مروجها الخصبة النضيرة التى كانت تسمى بالمرج أو الفحص أو البقاع ، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت تسميتها الاسبانيـة Vega التى انتقلت إلى أمريكا أيضا (Las Vegas) .

وقلعة مدينة غرناطة ، هى مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالحمراء ، وهو اسم قديم ورد ذكره لأول مرة فى أيام ثورة المولدين التى قام بها

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ٦ ص ٢٥٧) وكذلك (Simonet : op. cit. p. 23)

(٢) مثل قول ابن الخطيب « وما لمصر تفخر بنيلها ، وألف منه فى شنيلها » لأن الشين عند المغاربة تعنى الألف فى العدد ، فقوله شنيل إذا أعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل . راجع (نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٢)

(٣) حدره : بفتح الحاء والدال وتشديد الراء المضمومة .

عمر بن حفصون فى القرن الثالث الهجرى (١) . وواضح أن هذا الاسم راجع إلى لون تربة الهضاب التى بنيت عليها ، والتى سميت بالسبيكة لهـذا السبب Monte de la Asabica ، وفى ذلك يقول ابن مالك الرعينى الغرناطى :

ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست   بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب (٢)

ومن هذا نرى أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بنى الاحمر الذين حكموها بعد ذلك ، فتشابه الإسمين وهو محض مصادفة .

وتأسيس دولة بنى الاحمر أو بنى نصر كان فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨م) على يد قائد عربى أندلسى شجاع من بلدة أرجونه Arjona إحدى حصون قرطبة ، وهو الغالب بالله محمد (٣) ابن يوسف بن نصر ... بن عقيل بن نصر بن قيس بن سعد بن عباده .

---

(١) أنظر Emilio Lafuente Alcantara : Inscripciones àrabes de Granada p. 18—19.

وهذا الكتاب يعتمد على ما كتبه المؤرخ المالقى المعاصر ابو الحسن النباهى المالقى فى كتابه نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) وهذا الكتاب يحتوى على تاريخ لملوك بنى نصر نشره المستشرق الألمانى جوزيف مولر فى كتابه، نخب من تاريخ المغرب العربى

Muller : Beitrage Zur Geschichte der Westlichen Araber I. P. 102 — 140

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥ .

(٣) أشاد ابن سعيد بشجاعة هذا القائد وفروسيته وجهاده فى مغاررة العدو، وقال بأن هذه الصفات عند الاندلسيين هى الأساس عند اختيار ملوكهم فى هذه الفترة العصيبة . راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠١)

وواضح من نسبه أنه ينتمى إلى سيد الخزرج سعد بن عبادة الذى عاون الرسول فى دار الهجرة . أما تسميته هو وأبناؤه من بعده بنى الاحمر ، فنسبه الى جده عقيل بن نصر ، الذى لقب بالاحمر لشقرة فيه[1] . وقد استمر هذا اللون الاشقر يظهر فى بعض أفراد هذه الاسرة مثل محمد السادس الذى لقب فى المصادر الاسبانيــة بالبرميخو Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب الى الحمرة ، وهو لون شعره ولحيته[2] .

ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا من اللون الاحمر شعـارا لهم فى قصورهم بالحمراء ، وأعلامهم [3] ، وقبابهم [4] أو خيامهم بل وفى لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية [5] .

(۱) راجع ابو الحسن النباهى: نزهة البصائر والابصار، القسم الخاص بتاريخ بنى نصر فى (Muller ; Op. cit. I P. 102—140)

(۲) Mariania : Historia General de Espana II, P. 221

(۳) يقول فى ذلك شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك (نفح الطيب جـ ۱۰ ص ۷٦)

خفقت به أعلامك الحمر التى　　　بخفوقها النصر العزيز موكل

(٤) مثل قول ابن زمرك (نفح الطيب جـ ۱۰ ص ٤٦، ۷۱)

وترى القبابـ الحمر ترفع للندى　　　فترى الغمائم تحتها كالانجم

وقوله :　سيث القبابـ الحمر ترفع للقرى　　　قد عام فى أرجائهن المندل

(٥) ورد وصف لون هذه الرسائل فى مجموعة الوثائق العربيـة التى نشرهـا ألاركون ولينارس، باسم

Alarcon y Linares : Documentos àrabes diplomaticos del Archivo de la Çorona de Aragon P. 115,119,124.

ولقد حكم هذا السلطان محمد بن يوسف مدة طويلة (٦٣٥ - ٦٧١هـ) وكان يلقب بالشيخ وبأمير المسلمين ، وقد وزر له عدد من كبار قواده الذين ساعدوه في تكوين مملكته مثل القائد يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان الذى مكنه من ناصيتها [1] ، ومثل محمد بن محمد الرميمى الذى كان والده واليا من قبل الامير محمد بن هود الجذامى على المرية ، ثم غدر به ابن الرميمى فقتله بالسم أو بمخدة سنة ٦٣٥هـ . ورحل إلى تونس فأتاح لابن الاحمر فرصة الاستيلاء على المرية ، وبنو الرميمى أصلهم من بنى أمية ملوك الأندلس ، وينسبون إلى قرية رميمة من أعمال قرطبة فهم من بيت عريق [2] . كذلك وزر لابن الاحمر ابنه وسميه فى الاسم أبو عبد الله محمد ، فاكتسب خبرة من ذلك [3].

ثم توفى السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه المذكور محمد الثانى (٦٧١ - ٧٠١ هـ) الذى لقب بالفقيه لعلمه وفضله وإيثاره للعلماء . ويعتبر هذا السلطان هو الذى مهد الدولة النصرية ووضع ألقاب خدمتها ، وأقام رسوم الملك فيها [4] . وكان وزيره عزيز بن على بن عبد المنعم الدانى - نسبة إلى

---

(١) ابن الخطيب . اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص٣٢ .

(٢) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢١٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٥٨ ، ابن الخطيب . أعمال الاعلام ص ٢٨٦ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨١) .

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٣٢ .

(٤) راجع Muller : Op. cit. I P. 118

دانية ـ وبيته معدود فى بيوتات الاشراف فى شرق الأندلس (١) .

ولقد استمر ملك غرناطة فى بيت بنى نصر أو بنى الأحمر حتى نهاية هذه الدولة وسقوط غرناطة آخر معقل للاسلام فى يد الاسبان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) .

ويلاحظ أن سلاطين هذه الدولة ، كانوا يكتبون علامتهم وتوقيعاتهم بخطهم على السجلات كلها ، بمعنى أنه لم يكن لديهم خطة للعلامة كما كان لغيرهم من الدول (٢) . وكانت علامتهم الغالبة هى : « صح هذا » ، وفى ذلك يقول شاعر الحمراء عبدالله بن زمرك فى مدح السلطان محمد الخامس ، الغنى بالله :

يا إماما قد تخذنا (م) ٭ من الدهر ملاذا
خط يمناك ينادى صح هذا صح هذا (٣)

كذلك كانت بعض توقيعاتهم تمتاز بخفة الروح وحرارة النادرة ومثال ذلك توقيع السلطان محمد الفقيه على رقعه شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات المخزنية (المخزونية) ويلح فيها :

يروم على الشهادة وهو حى ٭ إننى لا أحتسبه على الشهادة

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٣٩ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ ص ٩١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٩٢

وأطال الخط عند لفظ إلهى ، إشعارا بالضراعة عند الدعاء والجد[١].

وكانت الوزارة هى القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة : فالوزير هو الذى ينوب عن السلطان [٢] . وهو الذى يهيمن على شئون الدولة المدنية والعسكرية إلى جانب اشرافه على الكتابة وديوان الانشاء [٣] ، لهذا كان كثيرا ما يلقب الوزير الغرناطى بألقاب تدل على قوة نفوذه مثل لقب الرئيس [٤] ، وعماد الدولة (ابن الحكيم) [٥] ، وذى الوزارتين (ابن الخطيب) [٦] ، والحاجب (رضوان) [٧] . وكل هذه الألقاب لم تكن تشريفية بل كانت حقيقية فى معناها ومدلولها لأن صاحبها كان يجمع بين سلطتى السيف والقلم [٨] .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٣٩.

(٢) مثال ذلك قول الوزير ابن الخطيب فى رسالة إلى صديقه ابن خلدون «أمليته فى هذه الأيام التى أقيم بها رسم النيابة عن السلطان فى سفره إلى الجهاد» راجع التعريف بابن خلدون ص ١٢٩.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

(٤) المقرى : نفح الطيب حـ٩ صـ ٣١٤

(٥) راجع Muller : Op. cit. I P. 121

(٣) المقرى : نفح الطيب حـ ٦ ص ٣١٢

(٧) الحاجب هنا بمدلوله الاندلسى القديم على عهد بنى أمية أى رئيس الوزراء .

(٨) نفح الطيب حـ ٧ ص ٥

وبحكم هذه السلطات الواسعة ، كان الوزير كثيرا مايجنح إلى الاستبداد على سلطانه (١) ، مما يضطر هذا الأخير الى التخلص منه إما عزلا أو قتلا أو إقامة وزير آخر بجانبه ينازعه السلطة . فالسلطان أبو الوليد اسماعيل (٧١٣ - ٧٢٥ هـ) حينما استبد وزيره القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهرى ، أشرك معه فى الوزارة قائدا من أعيان الحضرة وهو أبو الحسن على بن مسعود المحاربى الذى « جاذب رفيقه حبل الخطة ، وقارعه لباس الحظوة ، إلى أن مات الفهرى (٢) » . أما ولده السلطان محمد الرابع بن اسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٢ هـ) ، فانه لما استولى عليه وزيره محمد بن احمد بن المحروق ، وغلب عليه ، لم يتردد فى قتله بمجلسه سنة ٧٢٩ هـ ، ثم أقام فى الوزارة مملوك أبيه أبا النعيم رضوان ، ولكنه لم يلبث أن زاحمه فى الوزارة بمملوك يدعى عصاما (٣) . كذلك يذهب ابن خلدون إلى أن فرار الوزير لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب سنة ٧٧٣ (١٣٧١ م) ، كان بسبب شعوره بالخوف من سلطانه محمد الخامس ، الغنى بالله ، ٧٥٥ - ٧٦٠ ، ٧٦٣ - ٧٩٣ هـ) بما كان له من الاستبداد عليه (أى على السلطان) ، وكثرة السعاية من البطانة فيه (٤) .

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على وزراء بنى نصر ، نجد أنهم كانوا

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٣٩

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٦٦

(٣) ابن الخطيب : نفس المرجع ص ٨١

(٤) ابن خلدون : التعريف ص ١٣٩

أصنافا من علية القوم : صنف من القادة الكبار أمثال بنى مول [١] ، وبنى أبى الفتح الفهرى [٢] ، وبنى سراج [٣] ، وكلهم كانوا من بيوت الأندلس الكبيرة من قديم ، وتربطهم بملوك بنى نصر صـــلات مكينه وروابط المصاهرة .

والصنف الثانى من الوزراء كان من مماليك بنى الأحمر وخاصتهم البارزين أمثال الحاجب أبى النعيم رضوان الذى وزر للسلاطين محمد الرابع ، وأبى الحجاج يوسف ، ومحمد الخامس ، وصار بيده تنفيذ الامور ، وتقديم الولاة والعمال ، وجواب المخاطبات ، وتدبير الرعايا وقود الجيوش [٤] . وقد انتهت حياة الوزير قتيلا فى الانقلاب الذى دبر لخلع السلطان محمد الخامس سنة ٧٦٠ هـ إذ اقتحم المتآمرون بيته وقتلوه بين أهله وولده [٥] .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٨

(٢) ابن الخطيب : نفس المرجع ص ٦٦

(٣) بنو سراج Abencerrages ينسبون فى الأصل الى قبيلة قضاعة اليمنية. وقد عهد اليهم الأمويون حراسة سواحل اقليم بجانة Pechina فى شرق الأندلس. وقد ظهر اسم هذه الأسرة بوضوح فى القرن الخامس عشر الميلادى حينما لعبت المنافسة بينهم وبين أسرة الثغريين دورا خطيرا فى سياسة غرناطة . راجع مقالنا (فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٩)

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٠

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة حـ ٢ ص ١١ - ١٢ (طبعة القاهرة)

كذلك نذكر الوزير خالد الذى كان فى الأصل عاركا للسلطان محمد الخامس (الغنى بالله) ثم وزر لولده أبى الحجاج يوسف الثانى سنة ٧٩٣ ﻫ (١٣٩١ م) ، فاستبد بالأمر ، وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة ثم حاول اغتيال السلطان نفسه بالسم بالتفاهم مع طبيب القصر اليهودى يحى بن الصائغ ، فأمر السلطان بقتله بين يديه سنة ٧٩٤ ﻫ كما زج الطبيب فى السجن ثم قتله بعد ذلك (١)

أما الصنف الثالث من وزراء غرناطة ، وهم الغالبية ، فكانوا من أهل العلم والفضل والأدب الذين مارسوا خطة الكتابة العليا فى ديوان الانشاء (٢) قبل ترشيحهم للوزارة ، ثم ظلوا محتفظين بهذه الخطة إلى جانب عملهم كوزراء . ويلاحظ أن خطة الكتابة هنا كانت تسمى بالكتابة العليا (٣) . وقد شرح ذلك ابن سعيد الغرناطى بقوله :

« وأما الكتابة فهى على ضربين : أعلاها ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السمه يخصه

---

(١) السلاوى : الاستقصا ﺣ ٤ ص ٨١

(٢) كان يوجد بهذا الديوان إدارة للترجمة الى اللغات الأوربية ولاسيما الاسبانية أى القطلانية والقشتالية ففى بعض الوثائق الغرناطية نجد اشارات تنص على انها كتبت فى نسختين بالعربى والعجمى لتكون احداهما عندنا والأخرى عندكم راجع (Alarcon y Linares: Documentos Arabes p. 411)

(٣) المقرى : نفح الطيب ﺟ ٨ ص ٢٣٥

من يعظمه فى رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لايكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصا عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن فى المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر هو كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة » . (١)

والجهبذة كلمة فارسية الأصل ومنها الجهبذ أى الناقد العارف ، ولكن الجهبذة هنا هى الادارة المالية الخاصة بجباية الضرائب وجمع الخراج وتحصيله ، وكاتب الجبهذة هو صاحب الزمام أو صاحب الأشغال الخراجية الذى كان بمثابة وزير للمالية (٢).

وقد ذكر ابن سعيد أن صاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس ، كان أعظم من الوزير وأكثر اتباعا وأصحابا وأجدى منفعة ، فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار . » (٣) أما ابن خلدون فانه يذكر أن المختص بالحسابات وسائر الأمور المالية فى الدولة ، كان يسمى فى غرناطة بالوكيل . (٤)

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢)

(٢) راجع

(R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes , I p.226,601)

(٣) أنظر (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣)

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص٢٤٢

ويفهم من هذا وذاك أن الشئون المالية فى الدولة كانت فى يد موظف مختص آخر غير الوزير ، يختار من عظماء القوم ووجوههم ؛ ويسمى بتسميات مختلفة كالوكيل وصاحب الأشغال وكاتب الزمام أو الجهبذة .

غير أننا إذا استعرضنا الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، نلاحظ أن الوزراء العظام فيها ، كان لهم اشراف على الشئون المالية واختصاص بمعرفتها ومثال ذلك الوزير محمد بن احمد بن المحروق الذى كان وكيلا للسلطان محمد الرابع [١] ، كذلك الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذى داخله السلطان أبو الحجاج يوسف الأول فى تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالا [٢] ، ثم عهد اليه ولده محمد الخامس (الغنى بالله) بالإشراف على بيت ماله ، والعمل على صيانة الجباية وتثميرها [٣] . بل إنه مما كان يؤخذ على الوزير عبد الله بن زمرك الذى خلف ابن الخطيب فى منصبه ، هو كما يقول أحد معاصريه . « قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ؛ وعدم اضطلاعه بالامور الجبائية ، واتهامه للمشتغلين ـ على غير أساس ـ بأنهم احتجنوا الأموال ، وأساءوا الأعمال » . [٤]

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٨٠

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٦ ، وراجع كذلك مقالنا (النزعات الاقتصادية فى حياة لسان الدين بن الخطيب ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨)

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ ص (طبعة القاهرة) ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٥ - ٧

(٤) المقرى . أزهار الرياض جـ ٢ ص ١٩

كل هذا يدل على أن إشراف الوزراء على النواحى المالية وإلمامهم بمعرفتها ، كان يلعب دورا هاما فى نجاح مهمتهم .

وكيفما كان الأمر ، فالذى يهمنا فى هذا الصدد ، هذا أن أصحاب الكتابة العليا ، وليس كتاب الزمام ، هم الذين كانوا موضع الترشيح لمنصب الوزارة فى الدولة ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك عند قوله :

الطب والشعر والكتابه ⁂ سماتنا فى بنى النجابه
هى ثـــلاث مبلغات ⁂ مراتبا بعضها الحجابه[1]

ومن هؤلاء الكتاب الذين شغلوا منصب الوزارة تذكر الحاج المحدث أبا عبد الله محمد ابن الحكيم الرندى اللخمى ، الذى ابتدأ كاتبا للسلطان محمد (الثانى) الفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) ثم صار وزيرا لولده محمد الثالث (المخلوع) (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) مـــع احتفاظه برئاسة القلم الأعلى[2] .

وقد انتهت حياة هذا الوزير قتيلا سنة ٧٠٠ هـ فى مجلس السلطان أبى الجيوش نصر (٧٠٨ - ٧١٣ هـ بسبب خلاف وقـــع بينه وبين القائد الوزير أبى بكر عتيق بن [illegible] الذى كان [illegible] و [illegible] السلطان نصر بعد عزله لأخيه محمد الثالث وإبعاده عن السلطة[3] . ولذلك نذكر

(١) المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ١٨٧؛
(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٠ - ٥١
(٣) الحسنى الناصرى نزهة البصائر والأبصار ، القسم الخاص بملوك بنى نصر ، نشر مولر .

Muller : Op. cit . I , p. 122

الفقيه أبا الحسن ابن الجياب - شيخ ابن الخطيب الذى تولى الكتابة العليا السلاطين : أبى الجيوش نصر ، وأبى الوليد اسماعيل (٧١٣ - ٧٢٥ ﻫ) ، ومحمد الرابع بن اسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٣ ﻫ) ، وأبى الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥ ﻫ) . وقد ولاه هذا السلطان الأخير رسم الوزارة إلى جانب رئاسة الكتابة عندما تغير على وزيره أبى النعيم رضوان وعزله سنة ٧٤٠ ﻫ .

وظل ابن الجياب وزيرا وكاتبا للدولة إلى أن توفى فى سنة ٧٤٩ ﻫ [1] . فخلفه تلميذه لسان الدين بن الخطيب [2] فى رسم الوزارة والكتابة حتى نهاية عهد السلطان أبى الحجاج يوسف سنة ٧٥٥ ﻫ .

ولما ولى ولده أبو عبد الله محمد الخامس ، الذى كان لايزال شابا حدثا استدعى من جديد مولى آبائه ووزيرهم أبا النعيم رضوان ، وأسند اليه وزراته ونيابته كما أبقى ابن الخطيب فى منصبه السابق كوزير ولكن تحت رئاسة الحاجب رضوان نظرا لمكانة هذا الأخير وسنه واختصاصه بالوزارة من قديم . وقد ذكر ابن الخطيب لأعمال التى كان يقوم بها فى

---

(١) ب الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٠ - ٩١

(٢) ينتمى ابن الخطيب الى بيت معروف فى الاندلس عرف قديما بوزير ثم ببنى الخطيب حينما انتقلوا من طليطلة واستقروا بلوشه Loja من أعمال غرناطة ومن المعروف أن والد ابن الخطيب وأخاه قد استشهدا فى وقعة طريف سنة ٧٤١ ﻫ .

أوائل عهد هذا السلطان وهى « الوقوف بين يدي سلطانه فى المجالس العامة ، وايصال الرقاع ، وفصل الامر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والانشاء ، والمؤاكلة والمجالسة ، جامعا بين خدمة القلم ولقب الوزارة » .

ثم يضيف ابن الخطيب بأنه رغم وجود أبى النعيم رضوان فقد كان المنفرد بسر السلطان وسفيره لدى ملوك المغرب (١) . الا أنه يبدو أن نفوذ ابن الخطيب لم يلبث أن تضاءل أمام طموح الحاجب رضوان واستئثاره بالسلطة ، وفى ذلك يقول أحد المعاصرين : « وعلى أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبى عنان و وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة واقنعه بالإسم من ذلك المسمى ، فآثر الانتباذ وأخذ فى تأليف كتابه الاحاطة » (٢)

وفى سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وقع فى غرناطة ذلك الانقلاب الذى أودى بحياة الوزير رضوان ، وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس ونفيه الى المغرب وتولية أخيه اسماعيل الثانى مكانه . وصحب السلطان المخلوع الى المغرب بعض أفراد حاشيته ورجال دولته ونخص بالذكر منهم وزيره لسان الدين بن الخطيب وقد رحب بهم سلطان المغرب ابو سالم ابراهيم

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٤ - ٥ ، اللمحة البدرية صـ ١٠٣ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ صـ ٥ ، ٢٧

(٢) المقرى ، نفح الطيب جـ ٩ صـ ٣١٤

المرينى ، وأنزلهم فى بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . غير أن ابن الخطيب فضل أن يعيش بعيدا مرابطاً فى ثغر سلا Salé ، ومجاورا لأضرحة ملوك بنى مرين فى ضاحيتها شالة Chella .

وفى سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه بعد حروب وخطوب شد أزره فيها كل من سلطان المغرب وملك قشتالة بدرو الأول الملقب بالقاسى Pedro el cruel (١).

وتجدر الاشارة هنا إلى أن محمد الخامس كان فى خلال هذه العمليات الحربية التى خاضها لاسترداد عرشه فى الأندلس ، قد اتخذ وزيرا من قواده ، وهو قائد البحر أبو الحسن على بن يوسف بن كماشة ، الذى كان من عتاق خدامه وخدام أبيه على قول ابن الخطيب . ولكن هذا الوزير لم يبق إلى جانب سلطانه أيام محنته ، إذ أنه حينما أرسله محمد الخامس من رنده الى الباب المرينى بفاس لاستجلاء بعض الأمور ، لم يعد اليه ثانية . ولما انتصر محمد الخامس على خصومه ، واستقر فى عرشه ثانية ، هرع اليه ابن كماشة طامعا فى العودة إلى وزارته ، ولكن السلطان رده خائبا وأرسل فى طلب ابن الخطيب من المغرب للقيام بأعباء وزارته (٢) .

وعاد ابن الخطيب إلى سابق منصبه كوزير ، ولكنه فى هذه المرة انفرد بالحكم بدون منافس . وفى ذلك يقول ابن خلدون « وخلا لابن

---

(١) راجع التفاصيل فى مقالنا (فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٥٩)

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ١٥ - ١٧

الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع اليه تدبير الدولة ، وخلط بنية بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت اليه الوجوه ، وعلقت به الامال ، وغشى بابه الخاصة والكافة »(١)

كذلك شرح ابن الخطيب سياسته التي سار عليها في دولة محمد الخامس الثانية بقوله .

« ورمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقلى فى اختبارات عقله ، وغطى من جفائى بحلمه ، ورمى الى بدنياه وحكمنى فيما ملكت يداه ، واستعنت بالله تعالى وعاملت وجهه فيه بالنظر فى سد الثغور ، وصون الجباية ، وانصاف المرتزقة ومقارعة الملوك المجاورة ، وايقاظ العيون من نوم الغفلة ، وقدح زناد الرجولية ، وجعل الثواب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النوم ، والشغل لمصلحة الاسلام »(٢) .

وهذه العبارة الأخيرة تشير الى ماعرف عن ابن الخطيب من أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف العلمى ، يساعده فى ذلك أرق أصابه بينما يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة . ومن الغريب أن هذا الجهد الكبير الذى كان يبذله ابن الخطيب ، لم يحد من نشاطه وحيويته ، ولهذا لقب بذى العمرين . ولقد أفاد كل من الجانب العلمى والجانب السياسى صاحبه ، فالسياسة اتاحت لابن الخطيب فرصة الاتصال بسفراء

---

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ٧ ص٢٩

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة حـ ٢ ص ١٧ - ١٨ ، المقرى: نفح الطيب حـ٧ ص٧

لدول المختلفة ومعرفة أخبار بلادهم ، والاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة فى أرشيف الدولة بقصر الحمراء . واستخدام كل هذه المادة التاريخية فى مؤلفاته . أما العلم فقد أعطاه شهره ومكانه دعمت مركزه كوزير عن طريق قصائده ورسائله ونصائحه وحكمه التى كان لها تأثير كبير على ملوك الدول المجاورة من المسلمين والمسيحيين . وحسبنا أن نشير الى ما اورده ابن الخطيب فى أحاطته من أنه نصح ملك قشتالة بدرو القاسى ، باعتباره صديقا لسلطانه محمد الخامس ، بأن يضع أمواله وذخيرته وأولاده فى حصن قرمونه المنيع خوفا من أطماع أخيه هنرى الثانى دى تراستمار Henrique de Trastamara الذى كان ينازعه العرش . ولقد استجاب الملك بدور لنصيحة ابن الخطيب وعمل بما أشار عليه به . وحينما تغلب هنرى على أخيه بدور وانتزع العرش منه ، كان أول شيء اهتم به هو الاستيلاء على قلعة قرمونه Carmona وما فيها من ذخائر وأموال ، فانصرف بذلك عن محاربة غرناطه لأنها كانت من أنصار أخيه ، وهذا ما كان يهدف اليه ابن الخطيب من وراء نصيحته السالفة الذكر[١] .

على أن نجاح ابن الخطيب فى سياسته لايرجع فقط الى مكانته العلمية ، اوصدق فراسته السياسية ، بل يرجع كذلك الى تمسكه فى احكامه بماجرت عليه الدولة من قواعد وعادات وقوانين ، حرصا على استمرارها والمحافظة عليها ولدينا فى هذا الموضوع نص طريف أورده الوزير والكاتب أبو يحيى محمد بن عاصم القيسى الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى (١٥م) والذى شبهه معاصروه بابن الخطيب فى بلاغته ورئاسته ،

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ﺟ ٢ ص ٥٥

فسموه بابن الخطيب الثانى ، فيقول(١) :

ولم يكن الوزير الكيس ابن الخطيب يجرى من الاستقامة على قانون الا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة ، وألو الحذق من أرباب المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويرون المفسدة فى الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالاقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر معناها ففهموه ، أو خفى عليهم وجه رسمها فجهلوه ، حدثنى شيخنا القاضى ابو العباس احمد بن أبى القاسم الحسنى ، أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرك ، دخل على الشيخ ذى الوزارتين ابى عبد الله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع الى مصلحة ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ماعدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ابن الخطيب : لا والله يارئيس أبا عبد الله ، لا آذن فى هذا ، لأنا ما استقمنا فى هذه الدار ألا بحفظ العوائد(٢)

أما عن نهايه ابن الخطيب المؤلمة ، فتشبه الى حد كبير نهاية الكثيرين من وزراء غرناطة الذين حكموا قبله أو بعده نتيجة لاستئثارهم بكل نفوذ فى الدولة . على أنه يلاحظ أن ابن الخطيب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو حوله ، انحرف بسياسة غرناطة انحرا[فا]

---

(١) أورد ابن عاصم هذا النص فى كتابه الذى كان يعتبر ذيلا على إحاطة ا[بن] الخطيب ويسمى بالروض الأريض فى تراجم ذوى السيوف والأقلام والقريض

(٢) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤)

كبيرا فى أواخر حكمه ، إذ رسم لها سياسة ثابتة قوامها الارتباط بعجلة فاس ، وإرضاء سلاطين بنى مرين فى كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة . وكان هدفه من وراء ذلك هو سكنى المغرب والاستقرار فيه اذا ما عزل من منصبه .(١)

والواقع ان سياسة التقرب من المغرب ، كثيرا ما لجأت اليها غرناطة عند استصراخها لاخوانها المغاربه للجهاد معها ضد المشركين ، إلا أنها فى نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بنى مرين فى بلادها ، وتخشى أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل(٢) . كذلك كانت غرناطة حريصه على سلامة مصالحها المرتبطة مع جيرانها المسيحيين أمثال قشتاله وأراجون ، ولهذا لم تلتزم سياستها جانبا واحدا من هذه القوى المحيطة بها ، بل كانت تتغير وتتبدل فى حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها . فتارة تتقرب من قشتاله ضد المغرب ، وتارة أخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجون ، وتارة ثالثة تتقرب مق ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس وهكذا . فهذه

---

(١) راجع مقالنا (سياسة ابن الخطيب المغربية ، مجلة البينة ، الرباط مايو ١٩٦٢)

(٢) مثال ذلك قول السلاوى : ولما صنع الله للسلطان (المغرب) ما صنع من العز والظهور ، ارتاب ابن الأحمر وظن به الظنون ، وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف (الاستقصا ج ٢ ص ٢٤) . وقوله فى مكان آخر وكان ابن الأحمر متخوفا من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده (الاستقصا ج٢ ص٢٥)

السياسة الماهرة الماكرة التى سلكتها غرناطه مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد أشاد المؤرخون بالدبلوماسية الغرناطية ، ووصفوها بصفة تدل على المرونة والمهارة وهى « سياسة اللعب بالثلاث ورقات » Juego de tres Barajas.[1]

من هذا نرى أن وضع هذه المملكة الصغيرة وسط هذه القوى الثلاث (قشتالة ، أراجون ، المغرب) قد جعل سياستها مرتبطة بتلك السياسية التى حولها . ولعل هذا هو السبب فى أن عددا من ملوك غرناطة ووزرائها ، قد راحوا ضحية تماديهم فى التزام جانب سياسى واحد دون تقدير العواقب المرتبة على تجاهلهم للجوانب الأخرى . ومثال ذلك الوزير محمد بن على المعروف بابن الحاج المهندس الذى كان مداخلا لملوك قشتالة ، عالما بلغتهم وسيرهم وأخبارهم ومهتما بشأنهم ، ولهذا نهج سياسة موالية لهم ، وانحرف فى ذلك انحرافا لم يقبله أهل غرناطة ، فثاروا ضده واتهموه بتحريض ملك قشتالة على الاستيلاء على حصن القبذاق Alcuadete ، ومساعدته على تملكه ، وكادوا يقتلونه لولا أن سلطانه أبا الجيوش نصر أمر بعزله فى الحال[2] .

---

(١) راجع Sanchez Albornsz, la Espana Musulmana, II p 392,399).

(٢) ابوالحسن النباهى : نزهة البصائر والأبصار ، القسم الخاص بتاريخ ملوك بنى نصر ص ١٢٥ نشر مولر ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٨)

ويبدوا أن الخطيب قد قد وقع فى نفس هذا الخطأ حينما دفعته سياسته المغربية الى رسم سياسة بوحدة المغرب والأندلس دون أن يعمل حسابا لأنصار القوى السياسية الأخرى . بل انه لم يلبث أن تمادى فى سياسته الى أقصى حدودها خطورة حينما فر الى المغرب واخذ يحرض السلطان عبد العزيز على غزو غرناطة . وكان رد الفعل شديدا من جانب غرناطة ، ولاسيما بعد موت السلطان عبد العزيز ، إذ سارع السلطان محمد الخامس باحتلال جبل طارق وثغرسبتة ليسيطر على المضيق ، ثم أخذ يتدخل فى فاس نفسها يولى ويعزل من يراه من سلاطين بنى مرين . وكان طبيعيا أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على ابن الخطيب وقتله وحرقه ومصادرة أمواله سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م)[١]

لقد كان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطع بموته أهم مصدر عربى لتاريخ غرناطة .

---

(١) راجع التفاصيل فى مقالنا (سياسة ابن الخطيب المغربية ، مجلة البينة ، مايو سنة ١٩٦٢.

تاريخ البحرية العربية

فى المغرب والاندلس

البحرية فى العصر الاموى بالاندلس

سبقت الاشارة فى أول هـذا الكتاب الى أن المسلمين الأوائل ، أدركوا قيمة البحرية كسلاح متمم لفتوحاتهم البرية ، فأخذوا فى انشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية فى معظم المرافىء الممتدة على طول شواطىء الشام ومصر والمغرب . وقد ساعدتهم تلك القواعد والاساطيل على نقل جيوشهم ومعداتهم عند فتح الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا. فلولا تلك الاساطيل لتعذر بل استحال عليهم تنفيذ هذه الفتوحات العظيمة كما سبق أن بينا .

وتمتاز شبه جزيرة ايبريا بسواحلها الطويلة التى تشرف على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى شرقا وغربا وجنوبا ، إلا أن هذا جعلها عرضة لأى غزو بحرى يأتيها من هذه النواحى . ولا شك أن المسلمين أدركوا هذه المسألة منذ بادىء الأمر ، ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التى كانت منتشرة على تلك السواحل مثل طرطوشه Tortosa ، وطركونه Tarragona ، ودانيه Denia ، ولقنت Alicante ، وبجانه Pechina ، واشبيلية Sevilla والجزيرة الخضراء Algeciras وغيرها .

كما أنهم لم يجدوا صعوبة فى الحصول خامات الخشب والحديد

وكل ما هو ضرورى لبناء الأساطيل ، فكل ذلك كان وما زال متوفرا فى اسبانيا[١] .

وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بأخبار هذه الفترة المبكرة التى تلت الفتح العربى بسبب الفتن والاضطرابات التى عمت الاندلس فى ذلك الوقت ، الا أنه يفهم من بعض الروايات أن الثغور الأندلسية كانت عامرة بالمراكب والسلاح والعدة ، فابن القوطية مثلا حينما يتكلم عن طالعة بلج بن بشر ، وهم فرسان الشام الذين حاصرهم البربر فى ثغر سبتة ١٢٣ هـ (٧٣١م) ، ورفض والى الأندلس عبد الملك بن قطن أن يسمح لهم بالعبور إليه ، يقول « فلما يئس بلج بن بشر منه ، أنشأ قربات (بتشديد الراء وفتحها أى قوارب Càrabos وأخذ من مراكب التجار ، وأدخل فيها من رجاله من جاوره الى دار الصناعة بالجزيرة الخضراء ، وأخذوا ما فيها من المراكب والسلاح والعدة وانصرفوا بها اليه ، فدخل بذلك الأندلس[٢] .

ومن الطريف أن ابن عذارى يشير فى الأحداث التالية الى أن والى شرطة الخليفة مروان بن محمد بدمشق ، واسمه الرماحس بن عبد الرحمن

---

(١) مثال ذلك غابات شجر الصنوبر الذى تصنع منه السفن حول طرطوشه ودانيه ، ودار صناعة الحديد لمراسى السفن فى جزيرة شلطيش Saltes بالقرب من أشبيلية راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧ ، الحميرى ، الروض المعطار ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٤) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٦ والترجمة الاسبانية ص ١٢ حاشية .

قد لجأ الى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، فولاه عبد الرحمن الأول (الداخل) ثغر الجزيرة الخضراء[1] . وهذا هو أول ذكر لمؤسس بيت بنى الرماحس الذى اشتهر أفراده بقيادة الأسطول الاندلسى على عهد الامويين[2] ولاشك أن اسناد ولاية هذا الثغر الجنوبى الهام الى الرماحس ، فيه معنى للقيادة البحرية أيضا .

وكما اعتمد الامويون فى الشام على القبائل اليمنية الكلبية فى شئونهم البحرية ، فكانوا النواة الأولى للبحرية العربية فى الشرق[3] ، اعتمد كذلك الامويون فى الأندلس على اليمنيين القضاعيين فى هذه الامور البحرية فى بادىء الامر ، فأنزلوهم فى المناطق الساحلية الشرقية ، وجعلوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل ، وقد سمى هذا الاقليم أرش اليمن[4] ، أى أعطيتهم من الارض أو الاقطاع . وكانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم) Pechina[5] ، هى أهم قاعدة لهم فى هذا

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) راجع (ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، نشر عبد الرحمن الحجى ص ١١٥ - ١١٦ ، العذرى : ترصيع الأخبار ، نشر عبد العزيز الأهوانى ص ٨١) .

(٣) هونيرباخ : البحرية العربية فى عهد معاوية ص ١٩ .

(٤) هناك أروش كثيرة باسم اليمنيين فى الأندلس وقد انتقل لفظ أرش الى الى الاسبانية باسم Arce أنظر :
(Simonet - Descripcion del reino de Granada p. p.221 - 223)

(٥) بجانة Pechina الآن قرية صغيرة شمالى المرية بنحو عشرة كيلومترات ، وتبعد عن البحر بقدر تلك المسافة .

الاقليم ، لما تمتاز به من موقع حصن مأمون ، وأرض خصبه عند مصب نهر أندرش Andarax ، المعروف أيضا بوادى بجانه[1] .

الى جانب هذه العناصر العربية ، اعتمد الأمويون كذلك فى حماية سواحلهم وشن الغارات على أعدائهم ، على جماعات بحرية أندلسيه من المولدين والبربر والمستعربين الذين كانوا يتكلمون بعجمية أهل الأندلس Romance . ولقد انتشر هؤلاء البحريون فى بلدان الساحل الشرقى الأندلسى التى كانت تعرف أيضا باسم البلاد البحرية[2]. وكانت لهم فيها مراسى ورباطات ودور صناعة ومن أهم قواعدهم أشكوبارس Escombreras وبجانة التى جاوروا فيها العناصر اليمنية[3] ، ولقنت Alicante . وأقيله Aguilas وكلها فى شرق الأندلس كذلك انتشر هؤلاء البحريون فى بعض جهات الساحل الافريقى الشمالى على شكل جاليات أندلسية متفرقة . ومن أهم المدن التى أسسوها هناك نذكر مدينة تنس Tanes سنة ٢٦٢هـ (٨٧٥م) ومدينة وهران Oran سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م) فى الجزائر ويشير البكرى الى أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم فى كل عام بين شواطىء المغرب

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٣٧ - ٣٨ ، العذرى ، نفس المرجع ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) العمرى : مسالك الابصار ص ٤٤

(٣) راجع وصف بجانه فى أيام البحريين فى (الحميرى : الروض المعطار ص ٣٧ والترجمة ص ٤٧ - ٤٨ ، العذرى ترصيع الاخبار ص ٨٦ - ٨٧)

والاندلس ، فيقضون فصل الشتاء فى المغرب والصيف فى الأندلس[1]

كذلك كان لهؤلاء البحريين الاندلسيين مغامرات ومحاولات فى المحيط الأطلسى لكشف غياهبه وظلماته فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ومثال ذلك ما أورده كل من البكرى والحميرى عن خشخاش ابن سعيد بن أسود الذى خاطر مع جماعه من الأحداث فركبوا المراكب ودخلوا البحر وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة [2] وكان بيت بنى أسود من البيوت المشهورة فى بجانة ، ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة بنى الأسود، ولعله رباط القابطة أو القبطة المشهور فى كتب التاريخ ومكانه اليوم Cabo de Gata على ساحل المريه وقد ظهر أسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ، ضمن قادة الأساطيل التى قاتلت النورمانديين فى عهد الامير محمد الاول .

وحديث خشخاش وأصحابه يذكرنا بحديث الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة Lisboa الذين توغلوا كذلك فى المحيط الاطلسى فى منتصف القرن الثالث الهجرى أيضا [3] ، وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد من جزر الخالدات [4] التى تعرف اليوم باسم جزر كناريا Canarias

---

(١) راجع (البكرى : نفس المرجع ص ٦١ - ٦٢ ، ٨١) وكذلك (Lévi Provençal Histoire de l'Espagne musulmane, tome I) pp. 348 - 354)

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٢٨ والترجمة ص ٣٦ حاشية ٣) .

(٣) راجع وصف هذه الرحلة فى (الادريسى، نزهة المشتاق ص١٨٤-١٨٥، الحميرى : نفس المرجع ص ١٦ راجع كذلك (عبد الحميد العبادى : صور وبحوث من التاريخ الاسلامى جـ ١ ص ١٤٨ ، زكى حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٨٠) .

(٤) أنظر (Lévi Provençal ; Op. cit . t.III p.342 & Ency - of Isam art Khalidat by Schwarz

ومنذ هذا الوقت المبكر أيضا كان المسلمون واليهود يذهبون الى مدينة براغ لشراء الرقيق والقصدير والفراء ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية الى بجانه حيث يخصى الرقيق ويباعون كخصيان بسعر مرتفع فى الأندلس، وكان البحر هو الطريق العادى لهذه الرحلة[1].

أما عن النشاط الحربى لهذه الجماعات البحرية فى حوض البحر المتوسط، فقد أغفلته المصادر العربية، بينما تكلمت عنه باسهاب المصادر اللاتينية والبيزنطية، ووصفت أصحابه بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص.

والواقع أن أعمال القرصنة فى ذلك الوقت لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم، بل كانت شائعة ومنتشرة بين المسيحيين والوثنيين النورمانديين أيضا، وكثيرا ما استعان أمراء الأندلس بخبرة رعاياهم البحريين فى حماية سواحلهم، وقيادة أساطيلهم، كذلك يلاحظ أن السفارات التى كان يرسلها كل من أباطرة الدولة الكارولنجية والدولة البيزنطية الى أمراء وخلفاء قرطبة كانت تنص على طلب الحد من نشاط واعتداءات هؤلاء البحريين باعتبارهم من رعاياهم وتحت سلطانهم.

ومهما يكن من شيء، فان ماورد فى هذه الحوليات الاوروبية،

---

(١) راجع (خوان برنيت: هل هناك أصل عربى أسبانى لفن الخرائط الملاحية؟ مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، العدد الأول سنة ١٩٥٣، ترجمة احمد مختار العبادى)

يشهد بوضوح على أن هؤلاء المجاهدين الأندلسيين ، قد ركبوا البحر وعرفوا القتال فيه وحذقوه منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أى على عهد الأمير الحكم الأول الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ = ٧٩٦ - ٨٢٢م) .

ومن أمثلة نشاط هذه الجماعات ، نذكر تلك الغارات التى شنوها على الجزر الشرقية أو جزر البليار سنة ١٨٢ ه (٧٩٨ م) لدرجة أن أهالى تلك الجزائر استنجدوا بالامبراطور شرلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ووضعوا أنفسهم تحت حمايته .(١)

وفى سنة ١٩٠ ه (٨٠٦م) هاجم الأندلسيون جزيرة كورسيكا وغنموا منها غنائم كثيرة ، وفى أثناء عودتهم طمع فيهم آدمر Admer أمير جنوه ، وتعقبهم بأسطوله ، فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا اسطوله وأسروا رجاله ، وبلغ ذلك شرلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم(٢). ولقد عاود الاندلسيون هجومهم على جزيرة كورسيكا مرة أخرى سنة ١٩٨ ه (٨١٣ م) ولكن فى أثناء رجوعهم ، اكمن لهم أرمنجول Armengol أمير أمبورياس Ampurias (٣) قرب جزر البليار قوة بحرية غنمت

---

(١) راجع Migul Alcover : El Islam en Mallorca (707-1232) p.4 (Palma de Mallorca 1930)

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ١٤٠ .

(٣) تقع ولاية أمبورياس على الساحل الشمالى الشرقى لإسبانيا شمالى برشلونه =

منهم ثمانية مراكب بما كان فيها من غنائم وأسرى . وقد انتقم الاندلسيون عن ذلك باجتياح سواحل جزر البليار وجزيرة سردانيا سنة ٢٠٠ (٨١٥ م)[1] .

مثل آخر لنشاط هذه الجماعات الاندلسية فى البحر المتوسط جاء نتيجة لثورة داخلية قامت فى الاندلس ، وهى ثورة أهالى ربض قرطبه على أميرهم الحكم الاول فى أواخر القرن الثانى الهجرى. وقد عاقبهم هذا الامير بهدم ديارهم وحرق حيهم وحرث أرضه وزراعتها ، ونفيهم عن البلاد. فعبر بعضهم الى المغرب حيث استقروا فى مدينة فاس عاصمة الادارسة الجديدة ، وشاركوا فى بنائها وتعميرها . أما البعض الآخر وكانوا ١٥ الفا عدا النساء والاطفال ، فقد واصلوا سيرهم فى البحر شرقا حتى بلغوا شواطىء الاسكندرية فنزلوا فى ضواحيها. وكانت الاحوال فى مصر مضطربة ، إذ انتقلت اليها عدوى الخلافات التى نشبت بين الامين والمأمون : ففريق كان يؤيد الامين وفريق آخر مع المأمون ، وفريق ثالث بزعامة السرى بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ، ويضرب فريقا بآخر بغية الاستقلال بمصر . فانتهز الاندلسيون المهاجرون

= وكانت فى هذه الفترة المبكرة قد استطاعت أن تستقل عن الدولة الاسلامية فى أسبانيا ، وأن تكون لنفسها اسطولا بحريا كان له نشاط محدود فى مياه تلك المنطقة كما كانت له بعض القواعد فى جزر البليار . راجع

(Capmany: Memorias historicas sobre la marina' comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona, tomo I.p 10 (Madrid 1792)

(١) راجع (A. Companer y Furertes : Bosquejo be la deminacion islamita en las Islas Baleares, p.15 (Palma de Mallorca 1888)

فرصة هذه الفتن ، واستولوا على مدينة الإسكندرية بمعـــاونة أعراب البحيرة ، وأسسوا فيها إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت أكثر من عشر سنوات .

وعندما استتب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبد الله بن طاهر ابن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨م)(١). فأرسل إلى هؤلاء الاندلسيين يهددهم بالحرب إن لم يدخلوا فى الطاعة ، فأجابوه إلى طلبه حقنا للدماء ، واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية وعدم النزول فى أى أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا فى مراكبهم الى جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية ، فاستولوا عليهـــا بقيادة زعيمهم أبى حفص عمر البلوطى سنة ٨٢٥ م (٢) . وهنـاك أسسوا قاعدة لهم أحاطوهـا بخندق كبـير فعرفت بالخنـدق ، ثم انتقل هذا الاسم الى الأوربية على شكل Chandax ثم Candia كانديـا أو كنديه وهو اسم المدينة الحالية التى تعرف أيضا بالاسم اليونانى Herakleon (٣).

ومن الطريف أنه ينسب الى هذه المدينة بعض المنتجات التى نالت شهرة شعبية فى مصر مثل العسل والصابون الـكنديه (بكسر الكاف وتشديد الياء) .

---

(١) راجع Lêvi Provençal; Op. cit. tome I P. 172.

(٢) نسبة الى فحص البلوط Pedroches بنواحى قرطبه.

(٣) انظر : A. Vasiliev ; History of the Byzantine Empire 324 — 1453) p. 278 (Madison 1952).

ولم تلبث كريت منذ ذلك الوقت أن صارت قاعدة بحرية هامة ، ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، إذ أخذ الاسطول الكريتي يشن الغارات على جزر بحر ايجة ، وساحل تراقيا ، وجبل آتوس Athos ، ومدينة ميتلين (٨٦٢ م) ، واستطاع أن يوجه أقسى ضرباته في سنة ٩٠٤ م عندما هاجم مدينة سالونيك ، وهي المدينة الثانية في الامبراطورية البيزنطية ، وأسر آلافا من سكانها اقتيدوا الى مختلف الأقطار الاسلامية [١] . وظل مسلمو كريت مصدر رعب لأمن بيزنطة وتجارتها مما تسبب عنه وقوع اضطرابات اقتصادية وسياسية في داخل أراضيها . وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة مرات عديدة ، ومن الطريف أن مئات من الجنود الروس اشتركوا في بعضها [٢] ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل . والسبب في ذلك يرجع الى الامدادات العسكرية التي كانت تقدمها مصر والشام وافريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة باعتبارها حصنا أماميا لها [٣] ضد عدوان البيزنطيين [٤] .

---

(١) راجع : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة احمد محمد عيسى ، صفحات كلمة كريت في الفهرس

(٢) راجع Vasiliev : Op. cit. p. 307 مثال ذلك الحملة البحرية الكبيرة التي قادها يوحنا الاول تزيمسكس John Tzimisces ضد كريت سنة ٩٤٩م ، فقد اشترك فيها حوالي ٦٢٩ جندي روسي .

(٣) يقول المقدسي في هذا الصدد إن جزيرة كريت حمت مصر ، وقبرص حمت الشام ، وصقلية حمت افريقية ، وجزر البليار حمت الاندلس . راجع (ارشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٤٩ ، ٣٢٢) .

=

ومن الطريف أنه فى نفس تلك السنة التى استولى فيها الأندلسيون على مدينة كريت أى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧) غزا الأغالبة أيضا بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات بن سنان [١] ، جزيرة صقلية وثبتوا أقدامهم فى مازره Mazara وميثيو Mineo وغيرها من النواحى المواجهة للساحل التونسى جنوبا ؛ وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس بعضهم من الفرس الخراسانيين ـ وأسد بن الفرات واحد [٢] منهم ـ والبعض الآخر من الأفارقة ومن الأندلسيين المقيمين فى افريقية . وكان ابحارهم جميعا من ميناء سوسة . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند أسوار مدينة سرقوسة Syrcuse شرق الجزيرة سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨م) بعد أن وطد الحكم الاسلامى فى بعض نواحيها [٣] . ولم تلبث هذه

---

(٤) من المعروف أن جزيرة كريت سقطت فى يد البيزنطيين سنة ٩٦١ م (٣٥٠هـ) على يد نقفور فوقاس وفى عهد الامبراطور رومانوس الثانى ، وذلك بعد أن ظلت فى يد المسلمين ما يقرب من قرن ونصف . راجع عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١١٢ .

(١) يؤثر عنه أنه كان يقول: أنا الأسد، والأسد خير الوحوش، وأبى الفرات، والفرات خير الماء ، وجدى سنان ، والسنان خير السلاح : أنظر (أمارى : المكتبة الصقلية العربية ص ٣٣١) .

(٢) كان أسد بن الفرات من موالى بنى سليم وأصله من خراسان من نيسابور وولد بحران سنة ١٤١ هـ . راجع (المالكى : كتاب رياض النفوس جـ١ ص ١٧٢ نشر حسين مؤنس) .

(٣) راجع (المالكى : نفس المرجع ص ١٠٥ - ١٨٩ ، أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى صقلية ص ٦٥ ، إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٢٤

الجزيرة بعد قليل أن صارت كلها فى يد الأغالبة الذين هددت جيوشهم وأساطيلهم جنوب ايطاليا حتى بلغت روما نفسها .

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على المساهمة فى فتح صقلية تحت لواء أسد بن الفرات ، بل عملوا بعد ذلك بعامين على دعم جيوشها عندما اشتد ضغط البيزنطيين عليها ، فيروى كل من أبن الأثير وابن عذارى أن أمــير الأندلس عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ = ٨٢٢-٨٥٣م) وجه الى تلك الجزيرة حملة بحرية خرجت من ميناء طرطوشة سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) ، واتجهت الى صقلية لتعزيز الحامية الاسلامية هناك [١].

على أنه يبدو أن المساعدات الأندلسية لجزيرة صقلية لم تستمر بعد ذلك طويلا ، بسبب المعاهدة الودية التى أبرمت بين الامبراطور البيزنطى تيوفل [٢] وبين عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م). وكان الدافع لها هو اجتماع البيزنطيين والأمويين على عداوة العباسيين الذين كانت صقلية تقع تحت سلطانهم . إلا أنه يلاحظ أن الامــير الأندلسى لم يلتزم فى هذه المعاهدة بأى عمل مضاد لنشاط الأغالبة فى صقلية رغم كونهم حلفاء للعباسيين بل اعتبرهم مجاهدين فى سبيل الله .

هذا وتجدر الإشارة هنا الى أن السياسة التقربية التى سلكها الامويون فى الاندلس نحو بيزنطـــة ، كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٦ ص٢٣٨، ارشيبالد لويس: القوى البحرية ص ٢١٢
(٢) تيوفيل Theophilus حكم من ٨٢٩ الى ٨٤٢م.

الكارولنجيين فى فرنسا ، إذ لم ينس الاندلسيون صراعهم الطويل مع هؤلاء الفرنجة أيام شارل مارتل [1] (٦٩٠ - ٧٤١م) وابنه ببين Pépin (٧٥٢ - ٧٦٨)م وحفيده شرلمان (٧٦٨-٨١٤) الذى تحالف مع أعدائهم العباسيين ، وحاول غزو الأندلس فى حملته الفاشلة على عهد الامير عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٢ هـ (٧٧٩م) ثم جاء ولده لويس الحليم أو التقى (٨١٤-٨٤٠م) ، فسار على سياسة آبائه العدائية نحو الاندلس ، وبسط حمايته على الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية وكورسيكا.

ورأى الامير عبد الرحمن الاوسط (٨٢٢-٨٥٢م) أن البحر هو الميدان المناسب الذى يستطيع أن يقهر فيه خصومه الكارولنجيين ، إذ كان يعلم أن قوتهم الحقيقية تقوم أساسا على جيوشهم البرية ، فضلا عن أن قوتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفا على أيامه فى عهد كل من لويس التقى وإبنه شارل الاصلع (٨٤٠ - ٨٧٧م). ولهذا قام بحشد أساطيله على طول الساحل الشرقى الاندلسى .ولاسيما فى طرطوشة وبلنسيه ، ثم أخذ يشن غارات مستمرة من سنة ٨٣٨ الى سنة ٨٥٠م على السواحل الكارولنجية فى جنوب فرنسا حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وآرل وما حولها ، بحيث استطاع مغامرو البحر من الاندلسيين اتخاذ جزيرة كامارج Camargue عند مصب نهر الرون، قاعدة شبه دائمة للاغارة على الساحل الجنوبى

---

(١) هو صاحب موقعة بلاط الشهداء بين مدينتى تور وبواتييه بفرنسا ، التى انتصر فيها على المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) ولقد استشهد الغافقى فى المعركة بينما تلقب شارل بالمارتل أى المطرقة .

والتغلغل فى أراضيه عن طريق وادى الرون نفسه.[1]

ولم تقتصر غارات الاسطول الاندلسى على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية بل شملت أيضا جزر البليار التى كانت خاضعة لحمايتهم. ويبدو أن حكام هذه الجزر قد شعروا بعدم جدوى الارتباط بعجلة الدولة الكارولنجية، فسارعوا بقبول سيادة الامويين، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين وفى ذلك يقول ابن حيان :

« وفى سنة أربع وثلاثين ومائتين أى (٨٤٨ م). أغزى الامير عبد الرحمن أسطولا من ثلثمائة مركب الى أهل جزيرتى ميورقه ومنورقه لنقضهم العهد واضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين، ففتح الله عليهم، واظفر بهم، فأصابوا سباياهم وفتحوا أكثر جزائرهم. وأنفذ الامير فتاه شنظير الخصى الى ابن ميمون [2] عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم، ويقبض الخمس، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم، واحصيت رباعهم وأموالهم، وقبض منهم ماعليه صولحوا.[3] ويضيف ابن عذارى متمما رواية ابن حيان :

---

(١) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٢٩-٢٣٠ ، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٥٠

(٢) يلاحظ أن بيت بنى ميمون كان من البيوتات الشهيرة التى قاد أفرادها أساطيل المرابطين والموحدين بعد ذلك، فلعل هذا القائد هو جد الاسرة أو ينتمى اليها.

(٣) راجع (ابن حيان : المقتبس، القسم الخاص بعبد الرحمن الاوسط، نشر محمود مكى (تحت الطبع) ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٨)

وفى السنة التالية ٢٣٥ هـ (٨٤٩م)، ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة الى الامير عبد الرحمن، يذكرون مانالهم من نكاية المسلمين لهم، فكتب اليهم ماجاء فيه :

أما بعد، فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم، واغارة المسلمين الذين وجهناهم اليكم لجهادكم، وأصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك، وسألتم التدارك لامركم وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة المسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما تحملونه من أنفسكم، ورجونا أن يكون فيما وقبتم به صلاحكم، وتمنعكم عن العود الى مثل ذلك الذى كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته.(١)

من هذه النصوص المتقدمة يتضح لنا أن الجزر الشرقية (البليار) قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة فى سنة ٢٣٤هـ (٨٤٨م)، وان كان من المعروف أن هذه الجزر لم تضم الى الاندلس نهائيا، وتحكم حكما مباشرا بواسطة عمال الدولة الأموية إلا منذ سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م) حينما أرسل اليها الأمير عبد الله، قائده عصام الخولانى حاكما عليها.(٢)

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص ١٢٢-١٢٣

(٢) راجع (A. Campaner y Fuertes : Op. cit p. 18-42)
وكذلك (ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ١٦٤)

على أنه ينبغى أن يلاحظ هنا أنه رغم هذه الانتصارات التى أحرزها الأسطول الأندلسى على خصومه الفرنجة وحلفائهم فى حوض البحر المتوسط ، فإن البحرية الأندلسية فى ذلك الوقت كانت لا تزال محدودة فى إمكانياتها ووسائلها ، فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها . ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أساطيل النورمان أو الفايكنج (١) بتحركاتها السريعة الخاطفة وأسهمها النارية ، وأشرعتها السوداء التى جعلت بعض المعاصرين يراها « وكأنما ملأت البحر طيراً جونا (٢) » ، كما ملأت القلوب شجواً

(١) ورد ذكرهم فى المراجع العربية باسم الأردمانيين والمجوس . وواضح من التسمية الأولى أنها تحريف للكلمة Norsemen الانجليزية أو Normandos الأسبانية وهى تعنى سكان الشمال أى سكان الدول الاسكندنافية أما تسميتهم بالمجوس فلأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون فيه بل كانوا يحرقون بها جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم . فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزرادشتية. كذلك أطلق عليهم اسم الفايكنج Vikingos وهى مشتقة من الكلمة النرويجية Vik التى تعنى ساكن الخليج لهذا أطلقوها على سكان شبه جزيرة اسكنديناوه الكثيرة خلجانها وإن كانت قد وردت فى المعاجم الأسبانية (Vikingos) بمعنى المحاربين . وأصل هذا الشعب جرمانى أو تيوتونى ، وينقسم إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والدنماركيون. والمجموعة الأخيرة هى التى هاجمت سواحل المسلمين فى الأندلس والمغرب . راجع (ابن حيان : المقتبس ص ٢٤٩ تعليق عبد الرحمن ... ، سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠، حسين مؤنس : غارات النورمانديين على الأندلس ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الأول سنة ١٩٤٩) وكذلك (Lévi - Provençal ; Op. cit. I. p. 218)

(٢) الجون ضرب من القطا سود البطون والأجنحة .

وشجونا (١) ».

هذا ولم تكن غارات النورمانديين مركزة فى مجموعة واحدة ذات قيادة موحدة ، بل كانت فى مجموعات متعددة وفى أماكن مختلفة ، ولهذا كثيرا ما كانوا يغيرون فى وقت واحد وفى أماكن متفرقة أو متقاربة ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الروايات الاسلامية التى دونت أخبارهم(٢)

كذلك عرف عن النورمانديين أنهم كانوا يتحاشون الاماكن المحصنة بوسائل الحراسة والدفاع ، ويهاجمون السواحل المكشوفة التى لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم . وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع الأخير ، ولهذا لم يجد هؤلاء الشماليون صعوبة فى اختراق نهر الوادى الكبير من مصبه ، والصعود فيه بسفنهم ، ثم احتلال مدينة اشبيلية عدة أيام ، عاثوا خلالها قتلا ونهباً وتخريبا سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) على عهد الأمير عبد الرحمن الاوسط (٣).

ولما كان معظم الاسطول الاندلسى مرابطا على الساحل الشرقى ، فقد اعتمد الاندلسيون فى مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية ، فأخذوا يعدون لهم الكمائن ، ويبثون لهم السرايا التى تحول بينهم وبين العودة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٢ ص١٣٠

(٢) R. Dozy ; Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne, II, p. 264

(٣) راجع تفاصيل هذه الاحداث فى (المقرى : نفح الطيب حـ١ ص ٣٢٧ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص٦٣ - ٦٧ ، ابن عذارى . البيان المغرب حـ٢ ص١٣٠ ومابعدها) وكذلك Dozy : Recherches II. pp.252-266 Lévi-Provençal : Op. cit. I pp. 18—225.

إلى مراكبهم ، ويقذفونهم بالمجانيق من جنبي نهر الوادى الكبير . إلا أنه يبدو أن انسحاب النورمانديين من أشبيلية لم يتم إلا بعد وصول وحدات الاسطول الاندلسى إلى مكان المعركة . يؤيد ذلك قول العذرى : « ثم هبطت للامام عبد الرحمن (الأوسط) خمسة عشر مركبا بالمقاتلة والعدة ، فنزلوا أشبيلية . فلما أحس المجوس بها لحقوا بلبلة (Niebla)[(١)] » وقد انتهت هذه الغارة بانهزام النورمانديين عند طلياطه Tejada ، بين لبلة وأشبيلية [(٢)] ، وانسحابهم عن الاندلس .

لا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه الأذهان إلى ضرورة اتخاذ اجراءات دفاعية ضد أى هجوم مفاجىء يقع على الأندلس من ناحية البحر . ولهذا قام الأمير عبد الرحمن الاوسط بعدة أعمال هامة فى هذا السبيل ، ومثال هذا أنه أحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية كما بنى فى مينائها دار صناعة لبناء السفن الحربية ، وزودها بالآلات ونيم النفط[(٣)] وبرجال البحر المدربين من سواحل الأندلس[(٤)] .

والإشارة إلى استخدام النفط هنا تجعلنا نعتقد أن المسلمين فى ذلك الوقت ، قد توصلوا الى استخدام النار الإغريقية التى حرص البيزنطيون

---

(١) العذرى . نفس المرجع السابق ص ١٠٠

(٢) الحميرى . الروض المعطار ص ١٢٨

(٣) النيم (بكسر النون وفتح الياء) جمع نيمة وهى القارورة ، والمقصود هنا قوارير النفط betün التى كانت تقذف على سفن العدو . انظر Dozy ; Suppl. Dic. Ar. II p. 743.

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٦٧ .

على الاحتفاظ بسرية تركيبها منذ أن اخترعوها[1]. وقد يؤيد ذلك أنه قبيل هذا التاريخ بسنوات قليلة استخدم الأغالبة لأول مرة فى أساطيلهم سفنا تقذف بلهب النفط تعرف بالحراقات ، وذلك ردا على النار الاغريقية التى استخدمها البيزنطيون .[2]

وكيفما كان الأمر ، فان تلك المجهودات الكبيرة التى بذلها الأمير عبد الرحمن الأوسط فى تقوية اسطوله وتحصين سواحله ، قد استمرت وأينعت فى عهد ولده الامير محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ = ٨٥٢ - ٨٨٦م). فيروى المؤرخون أن هذا الأمير أنشأ فى البحر سبعمائة غراب ، وأن جيش المسلمين فى عهده بلغ مائة الف فارس ، منهم عشرون ألفا بدروع الفضة [3] .

وحينما عاود النورمانديون هجومهم على السواحل الأندلسية سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، استطاع الاسطول الاندلسى أن يردهم على أعقابهم بعد ان كبدهم خسائر فادحة . وقد أورد كل من العذرى وابن حيان ، وصفا

(١) من المحتمل أن يكون البيزنطيون قد توصلوا الى استخدام هذه النار الاغريقية سنة ٥١٦م ثم أدخلوا عليها تحسينات جديدة على يد رجل يدعى كالينيكوس ، وهو سورى مقيم فى القسطنطينية. وقد استخدم هذا التركيب الجديد لأول مرة أثناء حصار الأسطول العربى للعاصمة البيزنطية سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) فى عهد يزيد بن معاوية وقد نتج عن استعماله انسحاب الاسطول العربى عن المدينة. راجع (ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٩٧)

(٢) أرشيبالد لويس : نفس المرجع ص ٢١٤

(٣) ابن الكرديوس : كتاب الاكتفا ص ٥٧ ؛ ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ٩٧.

مفصلا لهذه العمليات البحرية التى دارت بين الفريقين ، ننقله هنا لاهميته[١] :

« وفى سنة خمس وأربعين ومائتين ، خرج المجوس - لعنهم الله - إلى ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثانى ، خرجوا فى اثنين وستين مركبا ، فألفوا البحر محروسا ، ومراكب الأمير محمد فيه جارية ما بين حائط[٢] أفرنجة فى الشرق إلى أقصى حائط غليسية فى الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتهما المراكب المنصوبة الجارية من حائط جليقية معافصة فى بعض مراسى كورة باجه (Beja) ، فغنمتها بما كان فيها من مال ومتاع وعدة وسبى ، ومضت سائر مراكب المجوس فى الريف[٣] حتى انتهت إلى مصب نهر اشبيلية (أى الوادى الكبير) وما يليها ، وذهب الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد باخراج الجيش إلى الغرب ،

---

(١) يقوم الدكتور محمود مكى بنشر وتحقيق هذه القطعة الخاصة بعصر عبدالرحمن الاوسط من مقتبس ابن حيان ، وقد تفضل مذكورا فأعارنى بعض اللوحات الخاصة بهذه الغارة . راجع كذلك (العذرى : نفس المرجع ص١١٨ ومابعدها).

(٢) حائط هنا بمعنى شاطىء أو رصيف من الحجارة فى الميناء . راجع (Dozy : Suppl. Dic. Arabes, I p. 337) وكذلك (الحميرى : الروض المعطار ص ٢٦٣ فى فهرس الكلمات التى لا دلالات خاصة) .

(٣) تطلق كلمة ريف فى مصر على الأراضى الخصبة الداخلية ولا سيما الممتدة على ضفتى النيل ، أما فى المغرب والاندلس فتطلق على الأراضى التى تحف بالبحر أو المحيط (ريف البحر) . وكلمة ريف أيضا اسم علم للمنطقة الممتدة من تطوان إلى نهر ملوية فى شمال المملكة المغربية. راجع Dozy; Suppl-Dic.Ar. I p. 575

واستنفار الناس إلى العدو الطارق ، فنفروا من كل أوب ، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم ، عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب ، وتقدمت مراكب الكفرة من اشبيلية ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء[١] ، وتغلبت على الحاضرة ، فاستباحتها عنها ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقلعت عن بر الأندلس تطلب العدوة (أي المغرب) ، فاحتلت بناكور[٢] ، واستباحت أريافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرق . . وتوافت بساحل تدمير (مرسية) ، ودخلوا حصن أوريوله Orihuela ، ثم تقدموا إلى حائط إفرنجه ، فسبوا فيها ، وأصابوا الذرارى ... وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا . ولاقتهم مراكب الامام محمد وعليها قرقاشيش بن شكوح ، وخشخاش البحرى ، ومعها نير النفط ، وأصناف

---

(١) كان على مدينة الجزيرة الخضراء فى ذلك الوقت قائد البحر كليب بن محمد ابن ثعلبة ، الذى يبدو أنه قصر فى الدفاع عنها ، إذ يقول الشاعر عبد الله بن محمد الموروري الجزيري يبكى أهل بلدته :ـ

ألمت بأبناء الجزيرة أمة ... مجوسية الأنساب مغر أشائم
فصدعت الشمل الجميع بفرقة ... إلى يوم بعث الحشر لا يتلائم
وكان كليب فى إدارة حربه ... كحالم أضغاث الكرى وهو نائم
لحى الله من آباؤه وجدوده ... بناة المعالى وهو للمجد هادم

راجع (ابن حيان : المقتبس نشر محمود مكى) .

(٢) تكتب كذلك نكور وهى مدينة مندرسة فى شمال شرق المملكة المغربية . وكان من أعمالها ثغر المزمة الذى حرفه الاسبان إلى ألوثيماس التى عربها المسلمون إلى الحسيمة الحالية التى تسمى أيضا سان خورخو Villa San Jurjo وهى خاضعة للنفوذ الأسبانى .

العدة البحرية ، والكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من النشاب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شذونه ، فيها أموال كثيرة ، وأمتعة واسعة نفلها الله المسلمين ، ثم صدمهم ابن شكوح وخشخاش صاحبه ، رئيسا اسطول السلطان ، وقاتلاهم حتى غلباهم على مركبين آخرين ، فأحرقاهما بجميع من كان فيهما ، فحمى المجوس عند ذلك على خشخاش ، فأحدقوا به ، وضاربهم فى صدر مركبه دراكا حتى استشهد رحمه الله وقوم من المسلمين معه . ثم مضت بقية مراكب المجوس مصعدة إلى حائط ينبلونه ...

وفى سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦١ م) ، ظهرت مراكب المجوس فى البحر ، فكتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ . فلم يكن للمجوس فى هذه الكرة فى الانبساط فى البحر والاضرار بأهل السواحل ، ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعا لشدة ضبطها ، ولافوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركبا بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة فلم يلقوا ظفرا ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدهم بالخيبة ، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس إلى اليوم عودة[1] » .

مما تقدم نرى ، كما هو واضح ، أن غارات النورمانديين على الأندلس فى عهد الأمير محمد ، لم تحرز نجاحا مثل النجاح الذى أحرزته فى عهد والده عبدالرحمن الاوسط ، وذلك بسبب ارتقاء البحرية الأندلسية إلى

---

(١) ابن حيان : نفس المرجع السابق، العذرى: نفس المرجع ص١١٨-١١٩.

إلى المستوى الحربي المطلوب للدفاع عن أراضيها .

وفى خلال ذلك الوقت الذى كانت فيه اساطيل الاندلس وجيوشها فى قتال النورمانديين وصد عدوانهم فى البحر والبر ، لم يتوقف نشاط المغامرين من رجال البحر الأندلسيين عن مواصلة قتال الكارولنجيين فى حوض البحر المتوسط ، وشن الغارات على قواعدهم فى آرل ومرسيليا فى جنوب فرنسا . ولقد كان لهؤلاء البحريين هناك قواعد شبه دائمة فى جزيرتى كامرج Camargue وماجلون عند مصب نهر الرون للاغارة منها على تلك الجهات . ومن المؤسف أننا لا نجد لنشاطهم أثر رواية إلا فى الحوليات الاوروبية التى سجلت هذه الاحداث ، وهذا شيء طبيعى إذ أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين شيئا عن هذه القرصنة بحكم كونها منظمة غير رسمية ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها تنظيما رسميا إلا أنها كانت تشرف عليها وتشجعها(١) . ومن أمثلة ذلك حادثة رولان رئيس أساقفة آرل الذى أسره البحريون الاندلسيون سنة ٨٦٠ م ، وساقوه إلى أحد مراكبهم ، وطلبوا فيه فدية كبيرة . ورضى أهل آرل بتقديم هذه الفدية ، وأخذوا فى جمعها لإنقاذ اسقفهم ، ولكن حدث فى أثناء ذلك أن مات الأسقف وهو لايزال أسيرا ، فكتم الاندلسيون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الاشياء التى طلبوها ، أخرجوا جثة الاسقف إلى البر ، وألبسوها الثياب التى كانت عليه عندما كان حيا ،

(١) راجع (حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط « المجلة التاريخية المصرية ، مايو سنة ١٩٥١) :

واجلسوه على مقعد مرتفع . وكان المسيحيون قد جاءوا جمعا عظيما لتهنئة الاسقف بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مأتما(١) .

وأمام هذه الغارات المتواصلة ، اضطر ملك فرنسا شارل الأصلع أو الجسور ، أن يعقد صلحا مهينا مع الأمير محمد سنة ٨٦٤ م كى يتيح لسكان هذه المنطقة الفرنسية الجنوبية بعض الراحة من تلك الغارات(٢) .

وبعد وفاة الأمير محمد ، تجددت غارات البحريين الاندلسيين على ساحل بروفانس فى جنوب فرنسا ، فى عهد ولديه المنذر (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ = ٨٨٦ - ٨٨٨ م) ، وعبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ - ٩١٢ م) . ولقد استطاع هؤلاء المجاهدون الاندلسيون فى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ، أن يؤسسوا على قمة جبل فى خليج سانتروبيز Saint Tropez ، معقلا جديدا سماه المعاصرون باسم فراكسنيتم Fraxinetum ، وقد اندرس هذا الاسم الآن ، وأغلب الظن أنه كان فى نفس المكان الذى عليه الآن قرية جارد فرينه Garde - Freinet ، كما تسمى الغابة التى تحيط بها باسم غابة المور أى المسلمين . ويمتاز هذا الموقع المرتفع بأنه يشرف على سهول بروفانس وحدود ايطاليا(٣) .

---

(١) راجع التفاصيل فى (أرشيبالد لويس : نفس المرجع ص ٢٣٠ ، شكيب أرسلان ، نفس المرجع ص ١٥٩) وكذلك (Lévi-Provençal; Op.Cit.2,p.153) .

(٢) أنظر مراجع الحاشية السابقة .

(٣) راجع (Lévi Provençal : Op. cit. 2 p. 158) .

ولقد تحدثت جميع المصادر الألمانية والفرنسية والايطالية عن نزول الأندلسيين فى فراكسنيتم ، ووصفت الغارات التى شنوها من تلك القاعدة على البلاد الداخلية مثل دوفينى Duaphiné ، وبيومونت Piemont ، وسافوى Savoy ، ونيس ، وكيف أنهم تمكنوا من التحكم فى المواصلات التى بين إيطاليا وفرنسا ، وأحتلوا جميع ممرات جبال الألب الموصلة بين البلدين فيما بين مونت سنى والبحر المتوسط لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون لأحد بالمرور منها دون أن يدفع لهم رسما معلوما . وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تذكر شيئا عن نشاط هؤلاء المجاهدين ، إلا أنها أشارت باختصار إلى موقع فراكسنيتم ، الذى أطلقت عليه اسم جبل القلال بمعنى رؤوس الجبال (جمع قلة) . وينص ابن حوقل على ان هذا الجبل ، كان تابعا لصاحب الأندلس (١) ، بينما يصفه الاصطخرى بأنه كان فى الأصل خرابا وفيه ماء ، ثم عمره المسلمون وثاروا فى وجوه الافرنجه ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم (٢) .

واستمرت قاعدة فراكسنيتم شركا فى جنب الفرنجة فى هذه النواحى مدة قرن تقريبا ، واستطاعت وحداتها البحرية بالتعاون مع وحدات جزر البليار ، ووحدات موانى الثغر الأعلى فى الأندلس مثل طرطوشه أن تكون أسطولا أندلسيا بديع التنظيم سيطر على غربى حوض البحر المتوسط فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) (٣) .

---

(١) راجع (ابن حوقل كتاب صورة الأرض ص ١٨٥ ، طبعة بيروت)
(٢) راجع (كتاب شكيب أرسلان . تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ - ١٦٥ وما بها من حواشى) .
(٣) ارشيبالد لويس ص ٢٥١ وكذلك
(Lévi-Provençal: op.cit II p.155-157)

ففى عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠هـ = ٩١٢ - ٩٦١م) اشتد خطر هذه القواعد الأندلسية على المدن الساحلية الفرنسية والايطالية وعلى تجارتها أيضا . ولما كان حصن فراكسنيتم هو أهم وأخطر معقل فى تلك المنطقة ، فقد اتفق هوجو Hugo الذى كان ملكا علـــى ايطاليا وبروفانس ، مع صهره امبراطور الدولة البيزنطيـــة رومانوس الأول ليكابينوس ، عـلى أن يقوم الاسطول البيزنطى بمهاجمة هـــذا المعقل الأندلسى من ناحية البحر ، بينما يهاجمه هوجـو من ناحيـة البر . وفى سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) ، زحف هوجو عـلى حصن فراكسنيتم بجيش كبير وجاء الأسطول البيزنطى من البحر فأحرق مراكب الأندلس التى فى الخليج ، بينما تمكن هوجو من الحصن حتى كاد أن يستولى عليه . ولكن حدث فى ذلك الوقت العصيب أن جاءت الأخبار إلى هوجو بأن برنجر الذى ينازعه ملك ايطاليا ، وكان قد فر إلى ألمانيا ، قد رجع ثانية إلى إيطاليا يحاول محاولته من جديد ، فاضطر هوجو إلى مهادنة المسلمين أصحاب هذا الحصن ، والاسراع فى العودة إلى ايطاليا ، ففشلت بذلك الحملة المشتركة ، وبقى الاندلسيون فى معقلهم يهددون ما يجاورهم من البلاد الايطالية والفرنسية (١) .

هذا ويفهم من كلام العذرى أن أسطولا أندلسيا كبيرا بقيـــادة محمد بن رماحس ومعه غالب بن عبد الرحمن ، وسهل بن أسيد ، خرج من ثغر المرية وغزا سواحل افرنجـه فى نفس تلك السنة التى حوصرت فيها قاعدة فراكسنيتم (٣٣١ هـ) إلا أن عاصفة هوجاء قذفت به بعيداً

(١) راجع (Lévi - provençal : Op. cit. II, p. 160)

عن تلك السواحل (١) . وأغلب الظن أن هذه العمليات الحربية التي قام بها الأسطول الاندلسي ، كانت تهدف الى محاولة هذه القاعدة الاندلسية الامامية ، وشد أزرها أمام ضغط البيزنطيين والكارولنجين . ومن المعروف أن العذرى ، صاحب هذه الرواية عاش في القرن الخامس الهجرى ، فهو قريب عهد لهذه الاحداث . فضلا عن أنه من أهالى مدينة المرية قاعدة الاسطول الاموى ، فروايته لهـا قيمتها في كل ما أورده عن البحرية الاموية .

واستمرت قاعدة فراكسنيم مصدر خطر لحركة المواصلات والتجارة التي تربط بين فرنسا وايطاليا وسويسرا عبر جبال الالب ، لدرجة أن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الاكبر (٩٣٨ - ٩٧٣ م) اضطر أن يتدخل بنفسه في هذه المسألة ، فبعث رسالة شديدة اللهجة إلى عاهل الاندلس عبد الرحمن الناصر يحمله فيها مسئولية أعمال التخريب التي تقوم بها تلك المستعمرة الاندلسية في جبال الالب ويطلب منه وضع حد لها باعتبار هذه القاعدة تابعة له ، وقد رد علية الخليفة الاموى برسالة شديدة مماثلة في سنه ٩٥٠م . وبعد أعوام قليلة عاد الامبراطور أوتو الاول وبعث برسالة أخرى إلى الخليفة الناصر على يد راهب يدعى جان دى جورز Gorze (١) . فلما وصل الراهب الى قرطبه أحسن استقباله وأنزل في قصر بقرطبه ، بجوار إحدى الكنائس حتى يتسنى له ممارسة شعائره الدينية . وطبقا للتقاليد المتبعة في مثل تلك الحالات

---

(١) راجع (العذرى : توضيح الاخبار ص ٨١)

(٢) نسبة الى دير جورز Gorze الذى كان ينتمى اليه هذا الراهب بالقرب من مدينة متز .

أحيط الخليفة علمــا بمضمون الرسالة قبل تقديمها اليه رسميا ، ووجد الخليفة أنها تتضمن كلاما فيه نيل من الرسول (صلعم) ، ولهذا رفض تسلمها ، وطلب مقابلة الراهب بالهدية التي بعث بها الامبراطور فقط دون الرسالة . ولكن الراهب أصر على تقديم الخطاب الذى معه للخليفة تنفيذا لتعليمات الامبراطور أوتو الاكبر .

واضطر الخليفة الناصر أزاء اصرار الراهب ، أن يرسل سفيرا من قبله الى الامبراطور أوتو لحل هذا المشكل ، واختار لهذه السفارة رجلا مستعربا يجيد العربية واللاتينية معا وهو رثموندو Recomundo الذى يسمى أيضا ربيع بن زيد ، إذ جرت عادة المستعربين فى قرطبة أن يتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية واتجه السفــير الأندلسى الى مدينة فرانكفورت حيث استقبله الامبراطور أوتو الأول وأكرم وفادته وأجابه إلى كل ما اقترحه ، وأرسل معه مرافقا ، ثم قفل الرسول ومرافقه الى قرطبة فوصلاها فى سنة ٩٥٦ م . وبناء على تعليمات الامبراطور الجديد ، تخلى الراهب عن عناده وتنازل عن استصحاب الرسالة ، واستقبله الخليفة الناصر فى احتفال كبير .

ومن الغريب أن المصادر العربية لاتذكر شيئا عن أخبــار تلك السفارات التى تبودلت بين أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، والتى اقترنت بمواشرا باحداث تلك القاعدة الاندلسية المســامة التى كانت فى الأراضى الأوروبية . ابن خلدون والمقرى أوردا عبارة مختصرة يذكران فيها أن ملك الافرنجة وراء جبال البرت أرسل رسولا وهــدية الى

الناصر[1]. اما المصادر الأوربية فقد تحدثت عن تلك السفارات فى شيء من الإسهاب والتفصيل[2].

وكيفما كان الأمر ، فان مثل هذه الروايات إن دلت على شيء فانما تدل على مـــدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط فى حوض البحر المتوسط إلى درجة جعلت كلا من امبراطور بيزنطة ، وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة قرطبة كى يحد من نشاطهم.

أما فيما يتعلق بالخطر النورماندى على عهد الخليفة الناصر ، فلم يرد فى المصادر مايفيد بأنهم قاموا بغارات بحرية على السواحل فى أيامه. إلا انه يلاحظ أن الخطر النورماندى فى ذلك الوقت قد بدأ يتخذ طابعا مستقرا ثابتا نتيجة لاتخاذهم قاعـــدة لهم بالقرب من ثغور الاندلس

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر حـ ٤ ص ١٤٣؛ المقرى: نفح الطيب جـ١ ص ٣٤٢

(٢) نخص بالذكر منها الحوليه اللاتينية Antapodosis التى كتبها المؤرخ المعاصر اللمباردى Luitprando اسقف ولاية Cremona الايطالية الذى لازم الامبراطور اوتو الأول وقـابل السفير الأندلسى ربيع بن زيد وتوطدت بينهما أواصر الصداقة (ت ٩٧٠ م). كذلك نذكر ماكتبه المؤرخ جـان اسقف سان أرنولفو San Arnülfo الذى كتب وصفا لمقابلة الراهب جان دى جوزا للخليفة الناصر. وقد نشر هذا الوصف بالاسبانية:

Paz y Mella : Embajada del Emperador de Alemania Oto I al Califa de Cordoba Abderrahman. III (Madrid 1872)

وقد أعيد نشر هذا النص فى (Boletin de la Academia de Ciencias Bellas Letras y nobles Artes de Cordoba, X, 1931 no 33)

راجع كذلك Lévi Provençal : Op. cit. II, p 154

الشمالية وسواحلها الغربية ، وأعنى بذلك ولاية نورماندیا Normandie فى غرب فرنسا . وتاريخ هذه القاعدة النورماندية يرجع الى سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م) أثناء المنازعات التى قامت بين أفراد الأسرة الكارولنجية . فيروى ان ملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج Le Simple أقطع الزعيم النورماندى رولون Rollon هذه المقاطعة التى عرفت باسم نورمانديا . ولم يلبث هذا الزعيم النورماندى أن اعتنق المسيحية وتسمى باسم روبرت. وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدنمركية خطرا كبيرا على الاندلس عن طريق الحملات البحرية التى كانت تخرج من موانيها وتغير جنوبا على السواحل الاندلسية الغربية ، كذلك عن طريق حملاتها البرية التى كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير على الثغـــور الأندلسية الشمالية . والمتواتر فى الكتب ان هذه الحملات النورماندية البرية على شمال الاندلس قد بدأت بعد ذلك فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى، حينما استولى النورمانديون على القلعة الإسلامية بربشتر Barbastro شمالى سرقسطة سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) . غير أنه يبدو بوضوح من كلام العذرى أن هذه الغارات النورماندية على الثغر الأعلى سرقسطه ترجع إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر بدليل قوله :

«وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحيى بن محمد بن عبد الملك على بربشتر والقصر Alquezar فى سنة ٣٣٠هـ (٩٤٢م) فكان بها الى أن أسرة المجوس الذين خرجوا الى ثغر لارده وسرقسطه ، فى يوم السبت لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ (٣٣٠هـ) ، ففداه رجل من التجار بألف مثقال . وقدم يحيى الى سدة أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمـــر

للذى فداه بتضعيف ما أداه فيه ، وصرفه الى بربشتر فدخلها سنة ٣٣٣ھ (١)

فهذا النص السابق يدل على أن غارات النورمانديين على الأندلس قد اتخذت طابعا بريا فى عصر عبد الرحمن الناصر .

أما الخطر الحقيقى الذى كان يقلق بال عبد الرحمن الثالث ويثير مخاوفه ، فهو خطر جيرانه الفاطميين الشيعة الذين ظهروا فى تونس ، وسيطروا على جميع المغرب العربى ، وفرضوا عليه عقائدهم الاسماعيلية ، كما أخذوا ينظرون الى الأندلس بعين لاتخلو من طمع فى احتلاله بغية توحيد الغرب الاسلامى كله تحت لواء خلافتهم الجديدة . واضطر عبد الرحمن الثالث ان يدخل معهم فى صراع طويل لعبت فيه البحرية دورا بارزا فى كلا الجانبين ، واستطاع عاهل الاندلس بفضل اسطوله أن يسيطر على مضيق جبل طارق ، وأن يحتل بعض القواعد المغربيه الهامة المطلة على المضيق مثل سبته وطنجه ومليلة. وقد سبق أن شرحنا الأدوار التى مر فيها هذا النزاع(٢) ، وقلنا إنه كان يبدو فى ظاهره صراعا بين الأمويين والفاطميين ، ولكنه كان فى حقيقة أمره صراعا بين السنة والشيعة ، وانتهى بانتصار المذهب السنى المالكى ، واستتباب أمره بدون منازع الى اليوم . ويلاحظ أن المذاهب الدينية فى ذلك الوقت كانت تقوم مقام المذاهب السياسية الآن وهذا هو سبب الاهتمام بها والتعصب لها . كذلك كان من مميزات هذا النزاع أنه أسفر عن ميلاد

(١) راجع (العذرى نفس المرجع ص ٧٢-٧٣).
(٢) راجع الباب الخاص بالخلافة من هذا الكتاب ص ٦٥ وما بعدها.

خلافة سنية جديدة فى قرطبة ، وهى الخلافة الأموية التى أعطت الأندلس طابعه السياسى والحضارى المميز له . ومن الطريف أن هـــذه النزعة الاستقلالية الروحية لم تلبث أن سرت أيضا بـــين أهـل الذمة ، إذ تروى المصادر العبرية أن الجاليات اليهوديه الاندلسية ، أسرعت بعد إعلان خلافة عبد الرحمن الناصر (٣١٧ هـ = ٩٢٧ م) بالغاء تبعيتها الروحية للاكاديميات اليهودية ببغداد . ثم تضيف فى مكان آخر أن أمير البحر محمد بن الرماحس ، أسر فى عرض البحر أربعة من الاساتذة اليهود الذين أرسلتهم أكاديميـــة سورات Sura [١] لجلب اعانات اقتصادية من يهود أسبانيا [٢] . وغير بعيد أن يكون للحادث الثانى صلة بالحادث الاول .

ومهما يكن من شىء ، فإن هذا النزاع بين السنة والشيعة فى المغرب

---

(١) يطلق اسم سورا على بلدة فى بمباى بالهنـد ، كما أطلق أيضا على موضع جنب بغداد وقيل بغداد نفسها . كذلك أطلق على بلدة بجوار بابل القديمة فى جنوب شرق بغداد وفى ذلك يقول الشاعر :

وفتى يدير على من طرف له ∴ خمـــرا تولد فى العظام فتـــورا
مما تخيرت التجـــار ببابل ∴ أو ما تعتقه اليهـــود بسورا

راجع (صفى الدين البغـــدادى : مراصد الاطـــلاع جـ ٢ ص ٧٥٣)
وكذلك (لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ص ١١١)

(٢) راجع Millas Vallicrosa la poesia Sagrada Hebraicoespanola p. 25 (Madrid 1948)
وكذلك (خوان بيرنيت : هل هناك أصل عربى أسبانى لفن الخرائط البحرية؟ ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد الاول ١٩٥٣)

قد أدى إلى انسحاب الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) تاركين حكم المغرب لحلفائهم بنى زيرى زعماء صنهاجه . إلا أنه يلاحظ أن الفاطميين حينما غادروا القيروان إلى القاهرة ، أخذوا معهم أسطولهم . ولم يتركوا لنوابهم الزيريين سوى عدد قليل من السفن تعينهم على حماية أملاكهم فى المغرب ضد اسطول الأمويين بالأندلس . وعلى الرغم من أن الزيريين قد أخذوا بعد ذلك فى بناء أسطول جديد فى دار صنعتهم الضخمة بالمهدية ، وبذلوا جهودا كبيرة فى هذا السبيل ، إلا أنه يمكن القول بأن بحرية بنى زيرى لم تبلغ من القوة وحسن التنسيق ما بلغته بحرية الفاطميين ولا بحرية الأغالبة قبل ذلك ، ولهذا كانت عاجزة عن مواجهة الأسطول الأندلسى أو التفكير فى غزو الأندلس كما فكر الفاطميون من قبل[1] .

غير أن ابتعاد شبح الغزو الفاطمى عن الاندلس لم يقلل من اهتمام الخليفة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ... ٩٦١ - ٩٧٦ م) بتقوية بحريته وأسطوله . والسبب فى ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين .

اولهما هو الاحتفاظ بسيطرة الأندلس على مضيق جبل طارق .

وثانيهما هو الخطر النورماندى .

أما عن العامل الأول ، فقد رأى الحكم المستنصر أن يسير على سياسة والده عبد الرحمن الناصر فى صورة الاحتفاظ بالقواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبته وطنجه . ومد نفوذه عن طريقهما إلى

---

(١) ارشيبالد لويس نفس المرجع ص ٣١٢ وكذلك

(L. Golvin ; le Magrib central a l'epoque des Zirides, Recherches d'drcheologie et d'Histoire Paris 1957/

قلب العدوة المغربية غـير أن هـذه السياسة لم تلبث أن اصطدمت بمصالح أمراء الادارسة من بنى محمد الذين كانوا يطمعون فى استعـادة ملكهم على هذه النواحى الشمالية للمغرب . فقاموا بثورة عامة ٣٦١ هـ-٩٧٢م) بقيادة كبيرهم الحسن بن جنون . وقطعوا الدعوة للأمويين ، واحتلوا طنجه وتطوان وأصيلا ، وسائر المنطقة الجبليـة الممتدة شمال وادى الكوس Locus ، وجعلوا قيادتهم فى قلعة شاهقة الارتفـاع فى شمال شرق القصر الكبير تسمى حصن الحجر أو حجـر النسر كناية عن ارتفاعها (١) .

ولم يتردد خليفة قرطبة فى إرسال أساطيله وجيوشه عـبر المضيق لاستعادة نفوذه فى تلك المنطقة . وأول من أنفـذه إلى المغرب قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلمس الذى عبر المضيق إلى سبتة فى شوال من تلك السنة (٣٦١ هـ) ، ثم لحقت به الأساطيل الأندلسية بقيـادة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس . وحينما تكاملت الجيوش والأساطيل معا بسبته ، بدأ هجومها على طنجه براً وبحراً . وكان أمير الادارسة الحسن بن جنون داخلها يشد عزائم أهلها ولكنه فشل فى محاولتـه ، واضطر أن يهجر المدينة ويفر هاربا .

ولم يجد أهـالى طنجه بدأ من التسليم ، فخرج شيخهم ابن الفاضل مع جماعة من وجوه طنجه وهم ينادون « الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم » ثم تقدم ابن الفاضل إلى قائد البحر ابن رماحس وطلب منـه الامان لاهل بلده . فأعطاه إياه ودخل طنجه فى شوال سنة ٣٦١ هـ (أغسطس

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس جـ ١ ص ١٣٧ .

سنة ٩٧٢ م) (١) : أما القائد محمد بن القاسم بن طملس ، فانه تعقب فلول جيش الحسن بن جنون على ساحل المحيـــط الاطلسى ، ثم احتل مدينة أصيلا ودخل جامعها فوجد به منبرا جديداً موسوما باسم الشيعى معد بن اسماعيل (المعز لدين الله) فأمر باحراقه . ولم يستسلم الحسن ابن جنون لهذه الهزيمة ، فأخذ يجمع شمله ويوحد صفوفه من جديد ، ثم هاجم الجيش الاندلسى على غرة فى مكان يعـــرف بفحص مهران بضواحى طنجه فأنزل به هزيمة ساحقة ، وقتل قائده محمد بن القـاسم بن طملس ، فى ربيع الاول سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م)) ولجأ الفل إلى سبته مستغيثا بالخليفة الحكم (٢) .

وثارت ثائرة الخليفة المستنصر لهذه الهزيمة ، وصمم على اســـترداد كرامته ونفوذه فى هذه المنطقة ، ويظهر ذلك واضحـــا فى تصرفاته وتصريحاته ومراسلاته التى بعث بها إلى قواده فى المغرب ، والتى أوردها من حسن الحظ ، المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان نقلا عن المؤرخ المعاصر عيسى بن أحمد الرازى الذى تعتـــبر رواياته أشبه بجريدة يومية تسجل الأحداث أولا بأول :

فيروى أن الخليفة المستنصر ، استدعى وزيره وقائده الأعلى غالب ابن عبد الرحمن من ثغر مدينة سالم Medinaceli ، فوافاه بقرطبة فيمن معه من رجال الثغور فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٢ هـ ، وضم اليه الخليفة

(١) ابن حيـان . المقتبس فى أخبـار الأندلس ، نشر عبـد الرحمن حجى ، ص ٨٩ (القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر) .

(٢) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦٩ ، مفاخر البربر ص ٨ ، ٩ .

جيشا كبيرا وأمره بالتوجه لقتال هذا الثائر قائلا له : سر سير من لا اذن له فى الرجوع حيا الا منصورا ، أو ميتا فمعذوراً ، وابسط يدك فى الانفاق ، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال ، (٢) .

ثم كتب الخليفة الى قائد اسطوله المرابط فى طنجه عبد الرحمن بن رماحس ، والقائدين اللذين معه سعد وقيصر ، وإلى قواده بأصيلا أمثال عبد الرحمن بن أرمطيل ، ورشيق بن عبد الرحمن ، يأمرهم بعدم التفاوض مع الحسن بن جنون وعدم التعرض لقتاله حتى يصل القائد غالب بجيوشه ، ثم يطلب منهم العمل على معرفة أخبار الحسن وبث الجواسيس لتتبع حركاته (١) .

ثم أبحر غالب بجيوشه من الجزيرة الخضراء يريد طنجه فى رمضان ٣٦٢ ه ، الا أن عاصفة شديدة واجهت أسطوله وردته ثانيه الى ساحل الجزيرة التى أبحر منها . واضطر أن يبقى هناك أياما الى أن تحسن الجو ، فعبر المضيق الى طنجه ، ثم تقدم لقتال الادارسة فى معاقلهم الشاهقة فى شوال من تلك السنة . وفى نفس هذا الوقت اتجه قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بأسطوله من طنجه الى أصيلا كى يتعاون مع الأسطول الاندلسى المرابط هناك ، ولكى يكون قريبا من القائد الأعلى غالب ، ولقد بارك الخليفة هذه الحركة بخطاب وجهه الى

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٨ - ٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(١) ابن حيان : المرجع السابق ص ٩٧ - ١٠٣ .

ابن رماحس يقول له فيـــه ، ان اجتماع الاسطولين فيــه صواب التدبير ، (١) . وبهذه السياسة الحكيمة الحازمه شدد الامويون الحصار حول حصن ابن جنون المعروف بحجر النسر . فاشتد الامر عليه واضطر الى الاستسلام وطلب الامان ، فأجيب الى طلبه ودخل غالب الحصن حيث صلى فى مسجده صلاة الجمعة مع الامير الادريسى ، ودعى يومئذ على منبره للخليفة المستنصر بالله فى ٢٩ جمادى الثانيـــة سنة ٣٦٣ هـ (٢٧ مارس ٩٧٣ م) (٢) .

وبإخماد هذه الثورة استطاع الخليفة المستنصر أن يضمن سيطرته على مضيق جبل طارق ، وأن يحمى بلاده من أى خطـــر شيعى أو زيرى يتهددها من ناحية العدوة المغربية .

وتعرض الحكم المستنصر بعد ذلك أن يعين على حكم هذه المنطقة أميرا اندلسى الاصل اشتهر بعداوته للزيريين ، وهو الامير جعفر بن على ابن حمدون (٣) الذى اشترك مع أخيه يحيى فى حكم هذه المنطقة بالتعاون

---

(١) ابن حيان : نفس المرجع ص ١١٥ - ١١٦

(٢) ابن حيان : نفس المرجع ص ١٥٠ وما بعدها ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٦٥.

(٣) سبقت الاشارة الى هذا القـائد كان قد عرض عليه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى حكم ولاية افريقية باسم الفاطميين عندما عزم على الرحيل الى مصر ، ولكن ابن حمدون اشترط أن يكون شبه مستقل فى ولايته فرفض المعـــز ذلك وعين على افريقية يوسف بن بلكين بن زيرى زعيم صنهاجه . وقد أثار هـــذا العمل غضب جعفر بن حمدون ففر هاربا الى الاندلس هو وأخـيــه يحيى حيث خدما فى بلاط الخليفة المستنصر .

مع زعماء قبائل زناتة من مغراوة وبنى يفران .

أما الخطر الثانى الذى دفع الحكم المستنصر الى الاهتمام بتقوية أسطوله وتحصين سواحله ، فهو خطر الغـزو النورماندى الذى كان لا يزال يهدد ثغوره وسواحل بلاده ، وخاصة بعد أن صار لهم قاعدة ثابتة بالقرب من السواحل الغربية الأندلسية ، وهى ولاية نورمانديا Normandie فى غرب فرنسا ، التى أشرنا اليها من قبل .

فيروى المؤرخون أن دوق نورمانديا ريكاردو الأول Ricardo I. حفيد رولون Rollon مؤسس هذه الولاية ، أمر أساطيله بالسير نحـــو أسبانيا ، فخرجت من موانى نورمانديا فى شكل مجموعات عديدة جريا على عادتها واتجهت نحو السواحل الغربية الاسبانية (١) ، غير أن الأندلس فى ذلك الوقت كانت على أتم استعداد للقـاء هـــؤلاء القراصنة وتتبع أخبارهم قبل وصولهم . فيروى ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر كان يرسـل جواسيسه إلى مدينـة شنت ياقب Santiago, de Compostella من قاصية بلاد العدو فى جليقية Galicia (شمال غرب أسبانيا) لامتحان أخبار المجوس(٢) . كما أنه فى الوقت نفسه تحالف مع بعض الحكام الأسبان (٣)

---

(١) أنظر (Dozy : Recherches II p. 288)

(٢) ابن حيان : المقتبس ـ القسم الخاص بالحكم المستنصر ص ٩٣

(٣) ورد اسم هذا الحاكم الجليقى فى كتاب المقتبس لابن حيـان على شكل : « غندشلب » الذى قد يكون أصله اللاتينى Gundislavos ثم صار بالاسبانية الحديثة جرثالو Gonzalo (ابن حيان: نفس المرجع السابق ص ٢٧، ص ٢٥٤-٢٥٥ نشر عبد الرحمن حجى) .

فى غرب جليقية ليكون له عينا على النورمانديين ، ويمده بأخبارهم وتحركاتهم فى الوقت المناسب وقد أشار ابن حيان إلى احدى هذه السفارات التحذيرية التى أرسلها هذا الحاكم إلى خليفة قرطبة فى رمضان سنة ٣٦٠ ﻫ (يونيو سنة ٩٧٠ م) يخبره فيها بظهور المجوس فى شواطىء أسبانيا الغربية [١] .

كذلك يروى ابن عذارى ان الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المجوس ، ووضعها فى الوادى الكبير تمهيدا لقتالهم بها فى نفس طريقتهم [٢] . هذا الى جانب الصوائف البرية والبحرية التى كانت تتجه الى الساحل الغربى الاندلسى فى صيف كل عام ، وتتجول فيه برا وبحراً برسم جهاد المجوس وتتبع أخبارهم فى تلك النواحى الغربية التى اعتادوا الظهور فيها . وكاد يقود هذه العمليات البرية والبحرية قواد مهرة مثل الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ، وأمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وصاحب الخيل زياد بن أفلح ، وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان وغيرهم [٣] .

---

(١) ابن حيان : نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٥٢٤ - ٢٥٥

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٦ . وقد أطلق الأندلسيون اسم القراقر على مراكب المجوس وقالوا إنها مراكب عظام تجرى إلى أمامها وإلى خلفها بقلوع مربعة . أنظر :

(Dozy ; Recherches II P. XCI).

(٣) راجع ابن حيان : المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٩٢ - ٩٣)

ولقد حصر المؤرخون الاندلسيون الغارات النورماندية عـلى عهد الحكم المستنصر فى التواريخ الثلاثة الآتية . - ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) [١] ، ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) [٢] ، ٣٦١ هـ (٩٧١ م) [٣] . واذا استثنينا رواية ابن الخطيب التى تشير إلى غارة فاشلة قام بها النورمانديون على حصن القبطة Cabo pe Gata من حصون المرية فى شرق الاندلس [٤] ، فان جميع الروايات تتفق على أن هذه الغارات السالفة كانت على غرب الاندلس وفى مياه المحيط الأطلسى .

ولقد هاجم النورمانديون فى غارتهم الاولى (٣٥٥) هـ منطقة قصر أبى دانس Alcacer do sal فى جنوب البرتغال ، وكذلك سهول لشبونه التى دارت فيها معركة عنيفة استشهد فيها عدد كبير من الجانبين ، ثم تمكن الاسطول الاندلسى المرابط فى أشبيلية من اللحاق بالاسطول النورماندى عند مصب وادى شلب ، وتحطيم معظمه واسترداد ما كان فيه من أسرى المسلمين [٥] .

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٥٦ ويحدده ابن خلدون بالسنة التى قبلها (٣٥٤) راجع (المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٠) .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٦٠ ، ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ ، ٥٨ .

(٣) ابن حيان : نفس المرجع ص ٦٧ ، ٧٨ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٤١ - ٤٢ (القسم الثانى) .

(٥) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٥٦ .

وكان الاسطول النورماندى فى هذه الغارة مكونا من ثمانية وعشرين سفينة ، تحتوى كل منها على ثمانين محاربا ، أى أن مجموع هؤلاء الدنمركيين كان حوالى ٢٢٤٠ رجلا ، قتل معظمهم وانهزم الباقون لا يلوون على شيء[1] .

أما الغارات النورماندية التى تلت ذلك فى سنتى ٣٦٠ ، ٣٦١ هـ ، فيبدو أنها لم تستطع النزول الى الشواطىء الأندلسية بفضل يقظة الاسطول الاندلسى الذى استطاع أن يبدد شملها دون عناء كبير .

ولا شك أن هذه الانتصارات كان لها صدى كبير فى الحياة الاجتماعية والعسكرية بالأندلس ، وقد تغنى بها الشعراء وأشادوا بفضل الحكم المستنصر وقواده فى هذا النصر . ومثال ذلك قول الشاعر المعاصر محمد بن شخيص فى مدح الخليفة وقائده غالب بن عبد الرحمن :

بسعدك يسلو غالب لا ببأسه	فأنت ولى الشكر فى كل ما أبلى
رميت به جيش المجوس عناية	بتحصينك القوى وتأمينك السبلا
ولما أحاطت بالمحيط جنوده	فلم تبق من شطيه علوا ولا سفلا
مرت تخبط الظلماء والموج مثلما	مرى الطاعن فى الدهناء يعتسف الرملا
أساطيل من الموت أو فى طباعه	لإيقاعها بطشا واتباعها رسلا
إذا أثخنت فى إثر راكبها انبرى	يجنبها وعرا ويركبها سهلا [2]

وتوفى الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وخلفه ولده أبو الوليد

(١) أنظر (R. Dozy : Recherches 11 P. 288)
(٢) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦١

هشام الثاني الملقب بالمؤيد بالله ، وكان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وقد ساعد ذلك على ظهور شخصية موهوبة لم تلبث أن سيطرت على الخليفة الجديد ، واستبدت بجميع شئون الدولة . وهي شخصية الحاجب محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالمنصور [١] ، ورأى هذا السياسي الداهية أن يدعم نفوذه بعمل يكسبه شرعية وشعبية بين الناس وهو الجهاد في سبيل الله . وفي سبيل هذا الهدف اهتم المنصور بتقوية أسطوله حتى صار موضع مديح معاصريه . وفي ذلك يقول المقري : « وقد أطنب الناس في وصف السفن وأطابوا ، وقرطسوا الغرض وأصابوا [٢] » ، ومثال ذلك الشاعر ابن دراج القسطلي في قصيدته التي يقول في مطلعها :

تحول منه البحر بحرا من القنا   يروع بها أمواجه ويهول
اذا سابقت شأو الرياح تخيلت   خيولا مدى فرسانهن خيول [٣]

واقد استعان المنصور بهذا الاسطول في نقل قواته ومعداته إلى العدوة المغربية للاحتفاظ بسلطان الامويين هناك ، والقضاء على كل من فكر في

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص ٤١٧ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ . والواقع ان ما ورد في الادب الاندلسي من شعر في وصف الاسطول يمدنا بمادة خصبة تصلح لأن تكون موضوعا قائما بذاته ، اذ أنه فضلا عن قيمتها الأدبية ، فانها تتضمن اصطلاحات فنية وتشبيهات لغوية لها قيمتها في المجال البحري . راجع على سبيل المثال (المقري : نفح الطيب ج ٥ ص ١٩٨ — ٢٠١ ، ٢٢٧) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٧ .

معارضته أو عصيانه فى تلك المنطقة ، فقتل الشريف الحسنى الادريسى الحسن بن جنون حينما عاود الخروج عن الدعوة الروانية ٣٧٥ هـ كما قضى على حركة الزعيم المغربى زيرى بن عطيه المغراوى ، حينما حاول الاستقلال بالمغرب عن سيطرة قرطبه سنة ٣٨٩ هـ . (٩٩٩ م) . ونجح المنصور فى ذلك نجاحا لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد . إذ وصل الدعاء لخليفة قرطبه فى المغرب حتى مدينة سجلماسة (تافيلالت) جنوبا ، وإلى تلمسان وتاهرت شرقا (١) . ولما كانت مدينـــة سبتة Ceuta هى القاعدة البحرية الرئيسية للعمليات الحربية الاندلسية فى المغرب ، فقد اهتم المنصور بتحصينها وتزويدها بالرجال والسلاح ، حتى قيـــل إن الأمير بلقين بن زيرى الصنهاجى صاحب افريقية حينما حاول الاقتراب منها بجيوشه سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) ، هالته قوتها ومناعتهـــا ، وقال لأصحابه : « انما سبتة حية ولت فنيها حذاءنا » وقصرت فاها نحونا » ، وانصرف راجعا الى بلده » .

كذلك استعان المنصور بالأسطول ، فى الحملات التى شنها على سواحل قطالونيا فى شمال شرق أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) ، وفى نقـــل المشاة من جنوده فى المحيط الاطلسى فى حملته عـــلى جليقية أو غليسية Galicia غربا سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وهى الحملة التى دمرت مدينة شنت ياقوب Santiago de Compostella (٢) . القاعـــدة الدينية

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٢٤ ، نشر ليفى بروفنسال .

(٢) نسبة الى القديس يعقوب أحد الحواريين الاثنى عشر ، الذى يوجـــد ... هناك . وقد حرص المنصور على عدم المساس به أثناء حركة التخريب التى ... ـته المدينة .

لاسبانية المسيحية . وقد شرح ابن عذارى الدور الذى قام به الأسطول فى تلك الجملة بقوله :

وقد كان المنصور تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس Alcacer do Sal من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصفوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويره Duero . فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه ، فعقد من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هناك ، ووزع المنصور ما كان فيه من الميرة على الجند فتوسعوا فى التزوه منه إلى أرض العدو ، ثم نهض يريد مدينة شنت ياقوب قاصية غليسيه »[1] .

هذا وتجدر الاشارة هنا الى أن المنصور وإن كان قد عمل على تقوية الأسطول الأندلسى ، إلا أنه فى الوقت نفسة قضى على بعض كبار رجال البحر من قادته مدفوعا فى ذلك بعوامل الاستبداد والغيرة التى اتصف بها ، ومثال ذلك عبد الرحمن بن رماحس الذى كان قائدا هاما للاسطول وواليا على أهم قواعده وهى المرية وبجانة ، فقد دس له المنصور سما زعافا قضى عليه سنة (٣٦٩) (٩٨٠م) [2] . وفى السنة التالية حارب المنصور صهره قائد البحر وأمير الثغور غالب بن عبد الرحمن الذى سقط ميتا خلال

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ ، انظر كذلك (Lévi - Provençal : Op. cit. II, p.469)

(٢) انظر (Lévi .Provençal .Op. cit . II p. 262)

المعركة سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م)[1] . وبذلك تخلص المنصور من شخصيتين كبيرتين كان لهما فضل كبير على البحرية الأندلسية فى العصر الأموى ، غير أن زوال تلك الشخصيات لم يحل دون وجود شخصيات أخرى حلت محلها فى قيادة الأسطول الأندلسى . وقد أورد العذرى اسماء من تولوا إمارة البحر وولاية المرية وبجانة حتى سنة ٤٠٠ هـ مثل القاسم ابن عبد الرحمن (٣٨٦ هـ) ، وابن حدير ، وابن فرجون المعروف بالربولو ، ومحمد بن حدين (٣٩٣ هـ) ، وابن صاعد ، وعبد الرحمن بن رويش ، وأفلح العبد (٤٠٠ هـ)[2] .

ومهما يكن من شىء : فإن البحرية الأموية قد أخذ نجمها يأفل عقب وفاة المنصور بن أبى عامر فى ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (١١ أغسطس ١٠٠٢ م) وابنه عبد الملك المظفر من بعده سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) ، إذ دخلت الأندلس بعد ذلك فى مرحلة سياسية مضطربة ترتب عليه زوال وحدتها السياسية والحربية معا .

حركة الرباط الساحلى فى المغرب والاندلس فى ذلك العهد .

الى جانب الاساطيل والقواعد البحرية ، وجدت أيضا الرباطات أو المحارس[3] الساحلية على طول سواحل المغرب والأندلس ، نتيجة لتعرضها

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨

(٢) العذرى : ترصيع الاخبار ص ٨٢

(٣) راجع شرح كلمة محرس فى (Dozy:Supplement aux Dic.Arabes I p. 270)

للغارات البحرية المفاجئة من جانب المسيحيين أو النورمانديين . ولقد اعتبر عمل المرابطين على السواحل رباطا وجهادا فى آن واحد ، ويروى فى هذا الصدد أن عقبة بن نافع حينما أنشأ مدينة القيروان قال له أصحابه : « نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط . [1] »

ونشأت حركة الرباط فى المغرب أول الامر عند ساحل افريقية (تونس) لقربها من خطر الغارات المفاجئة من القسطنطينية أو صقلية وجنوب ايطاليا . ويعتبر رباط المنستير من أقدم رباطات أفريقية بناه الامير العباسى هرثمة بن أعين سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) . وله فى يوم عاشوراء موسم عظيم ، وكان عبارة عن حصن كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض ، وله ميناء تشحن فيه السفن بالملح المستخرج من هذه المنطقه ، كما كان يوجد بالقرب منه محارس خمسة متقنة البناء معمورة بالصالحين [2] .

واقد توسع الاغالبة فى بناء الربط الساحلية التى كانت تسمى أيضا بالقصور والمحارس وفى ذلك يقول اليعقوبى (ق ٣ هـ) : « ومن اسفاقس الى موضع يقال له بنزرت مسيرة ثمانية أيام ، وفى جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون . » [3] . كذلك يروى ابن خلدون أن الامير احمد الاغلبى (٢٤٢ - ٢٤٩ هـ) بنى عشرة آلاف قلعة من الحجر الصخر وبأبواب من حديد . وهذا الرقم وان كان يبدو مبالغا فيه ، الا

---

(١) محمد فتحى : الحدود الاسلامية البيزنطية حـ ٣ ص ٣٣٦ .

(٢) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٣٦ ، ٨٤

(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٥٠ نشر وستنفلد

أنه من المعروف أن المسلمين قد استفادوا من الحصون والأبراج البيزنطية القديمة التى كانت منتشرة فى هذه المنطقة واستخدموها فى أغراضهم الدفاعية مثل حصون طبنه Tubnae ، وبغاية Bagai ، وبلزمه Belezma وجلولاء وغيرها [1] . هذا الى جانب مجموعة الرباطات أو المحارس التى كانت حول المدن الساحلية الهامة مثل طرابلس وصفاقس ، وسوسة وبنزرت ، والتى مازالت باقية الى اليوم .

ومن حصون ومحارس صفاقس الساحلية نذكر محرس بطوية ومحرس الريحانة [2] وكذلك حصن ينقة الذى مازال باقيا إلى الآن بالقرب من بلدة المحرس وهو حصن بيزنطى قديم كان يعرف باسم ينجه Younga ولعله هو قصر الروم الذى تحدث عنه البكرى . ويوجد بالقرب من هذا الحصن قبر أبى خارجه عنبسة بن خارجة الغافقى ويسميه أهالى تلك الناحية سيدى عبسة وكان هذا الرجل من الأخيار الصالحين الذين درسوا على الامام مالك بن أنس بالمدينة ثم أقام فى هذا الحصن مرابطا مجاهدا إلى أن مات سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥م [3]) .

ويعتبر كتاب رياض النفوس للمالكى من أهم الكتب التى تفيدنا فى موضوع رباطات افريقية ، إذ أنه على حد قول ناشره الدكتور حسين

---

(١) راجع
(Georges Marçais : L' Architecture Musulmane D'occident p. 29 - 30 , papis 1954) .

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ١٩ - ٢٠

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ١٦٢ - ١٦٨ نشر حسين مؤنس .

تونس ، يلقى ضوءا كشافا على نشوء الرباط وتطوره خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجرى[1].

ومن تونس انتشرت الرباطات على الساحل المغربى كله ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ، رباط نكور الذى يوجد مكانه اليوم مدينة سان خورخو الاسبانية Villa Sanjurjo . ويروى البكرى أن الأمير العربى سعيد بن صالح بنى فى هذا الرباط مسجدا سنة ٢٩٣ ﻫ على صفة مسجد الاسكندرية بمحارسه وجميع منافعه[2] . وعلى الرغم من أن البكرى لم يحدد للأسف اسم هذا المسجد أو مكانه بالاسكندرية إلا أنه يبدو أن المقصود به هو أحد تلك المساجد الساحلية التى أشار اليها المؤرخون مثل مسجد الأخضر أو الخضر الذى كان على ساحل البحر فى الميناء الغربى[3] ، ومثل مسجد المنارة الذى كان يرابط فيه منطوعة المصريين وغيرهم[4] .

كذلك كانت توجد بين مدينتى سبتة وطنجة بعض المحارس والمنارات مثل جبل المنارة ومرسى اليم الذى كان فيه سكنى ورباط[5] . ومن المعروف أيضا أن كلا من مدينتى سلا والرباط (عاصمة المملكة المغربية)

---

(١) راجع (المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ - ٢٧)

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ٩١

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٩ حاشية ١

(٤) جمال الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٣٣ ، محمد عبد الهادى شعيرة الاسكندرية من العصر العربى الى نهاية العصر الفاطمى ص ٨٦ (فى كتاب الغرفة التجارية عن الاسكندرية سنة ١٩٤٩) .

(٥) البكرى : نفس المرجع ص ١٠٥

كانت فى الأصل رباطا على دولة برغواطة فى تامسنا (الشاوية الحالية [1]) وفى ذلك يقول الرحالة ابن حوقل البغـــدادى (ت ٣٦٧ هـ) « ومن وراء وادى سبو [2] إلى ناحيـة بلد برغواطه [3] على نحـو بريد [4] ، وادى سلا ، وإليه تنتهى سكنى المسلمين ، وهى رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة [5] قـــد خربت ، والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها ، وربما اجتمع فى هـذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان ، يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطه ، وهى قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التى شغلت عمارة بلد الإسلام إليها [6] » .

---

(١) المنطقة الممتدة على ساحل المحيط الأطلسى من مدينـة الدار البيضاء حتى مصب نهر أم الربيع .

(٢) سبو Sbou من أعظم أنهار المغرب الأقصى (٩٠٠ ك م) ينبع من جبال أطلس المتوسط ويروى نواحى فاس ومكناس ومنطقة الغرب ، ويصب فى المحيـط الأطلسى عند مدينة المهدية الحاليـــة .

(٣) عن دولة برغواطة راجـع مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين مجلة كلية الآداب الاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، المجلد العشرون) .

(٤) قدر الفقهاء وعلماء المسالك المرحلة التى يقطعها عامل البريد بأربعـــة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أى أن البريد هو مسافة اثنى عشر ميلا .

(٥) هى المعروفة باسم شالة Chella ولا زالت آثارها باقيـــة إلى اليوم فى ضواحى مدينة الرباط .

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض ج ٢ ص ٥٦ ، نشر خويه (ليدن ٨٧٢)

ويفهم من كتاب الاتحاف الوجيز [١] ، وكتاب آسفي وما إليـــه [٢] ، أن حدود هذه الدولة المارقة برغواطة لم تلبث أن امتدت جنوبا على ساحل المحيط الاطلسي حتى شملت تامسنا ودكاله وعبده وغيرهـا من الأراضي الحوزية جنوبي آسفي ونواحي مراكش ، وأنها كانت تمتلك أسطولا بحريا قاعدته الرئيسية مدينة فضالة بجوار الدار البيضاء [٣] . لهذا كان من الطبيعي أن يعمل المسلمون على إحاطة هذه الدولة البرغواطية بالرباطات من جميـــع نواحيها . فرابطوا عند سواحلهـا الشمالية في سـلا والرباط ، كما رابطوا بجنوبها في رباطي ماسة وفوز عند البحر المحيط أيضا . [٤] . هذا بالاضافة إلى رباط شاكر الذي كان يقع في جنوبهـــا أيضا بالقرب من مدينـة مراكش ، ولا يزال الأهالي هناك يسمونه بسيدي شيكر ويعتقدون أنه من أصحاب عقبه بن نافع وأنه مات هنـاك ، وأن يعـــلى بن مصلين الرجراجي هو الذي بناه ليكون رباطا عـــلى كفار برغواطه [٥]. وعلى

---

(١) محمد بن علي الدكالي السلاوي : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز (مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٣٢٠ هـ) .

(٢) محمد العبدي الكانوني : آسفي وما إليه ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) البكري ص ٧٨ .

(٤) البكري ص ٨٦ ، ١٦١ .

(٥) ابو يعقوب التادلي المعروف بابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٦ (نشر أدولف فور) .

الرغم من أن هذه الدولة المارقة قد زالت بعد ذلك يد المرابطين والموحدين ، إلا أن أسماء تلك الرباطات التى جاهدتها قد بقيت علما لتلك الأماكن إلى اليوم .

ولقد انتقل هذا النظام الحربى الدينى إلى الأندلس ، فقامت الربط على سواحله كلها وخاصة بعد غارات النورمانديين فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أهل الأندلس مثل أهل المغرب شديدى التحمس للرباط والجهاد ضد أعداء الاسلام ، فكان الكثيرون منهم يرحلون الى المغرب للرباط على سواحله . كما كان الكثيرون من المغاربة يذهبون إلى الأندلس للقيام بنفس هذا العمل أيضا .

ومن أهم الربط الساحلية الأندلسية نذكر رباط ألمرية الذى هو نواة مدينة ألمرية ، وكان الناس يرابطون فيه على حاشية البحر المتوسط لحماية مدينة بجانة من غارات النورمانديين . فيقول الحميرى : وكان المجوس لما قدموا ألمرية ، وتطرفوا بساحل الأندلس ، فاتخذها العرب مرأى ، وابتنت بها محارس وكان الناس يرابطون فيها[1] . وقد سمى هذا المكان فى بادىء الأمر باسم مرية بجانة ثم صار يسمى بألمرية . ويرى دوزى أن هذه التسمية مشتقة من فعل رآى ، فيقال للشىء هو مره وهى مرئية أو مرية كناية عن ظهور أبراجها ومناورها التى تراها السفن من بعيد .

وقد ظلت المرية مجرد رباط أو ميناء لمدينة بجانة حتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) الذى اهتم بموقعها وجعلها قاعدة

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٣ .

لأسطوله وبنى حولها سورا منيعا من الصخر ، كما أنشأ بها دار صنعة كبيرة قسمت الى قسمين أحدهما للمراكب الحربية والعدد والآلات ، والثانى للمراكب التجارية وما يتبعها من مخازن وفنادق . ومنذ ذلك الوقت أخذت ألمرية تعمر وتكبر على حساب جارتها بجانه ، فانقلب الوضع وصارت ألمرية من أشهر المراسى وقاعدة القيادة العليا للاسطول بينما خربت بجانه وتحولت الى قرية صغيرة بجوارها كما هو حالها اليوم[1].

وفى شرق المرية وجد رباط ساحلى آخر عرف برابطة القابطة أو القبطة ، ولعلها قابطة بنى الأسود التى أشار اليها البكرى كموضع بجوار مرية بجانه[2] . ويرى بروفنسال أنها تقابل اليوم المكان المعروف باسم Cabo de Gata [3] . وقد سبقت الإشارة إلى الزيارة التى قام بها الخليفة الحكم المستنصر لهذه الرابطة فى أول خلافته واهتمامه بأحوالها وأحوال المرابطين فيها . كذلك يشير ابن الأبار إلى رباطات أخرى نشأت بجوار المرية ودفن فيها عدد من الفقهاء والزهاد المجاهدين مثل

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٢٧ ، ١٨٣ - ١٨٤ ، العذرى : نفس المرجع ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ٨٩ .

(٣) راجع/ Lévi - Provencal : Op. cil 11, p. 170 /

رباط عمروس ورباط الخشنى [1] وغيرها . وكل هذا يدل على أن المرية كانت مثل المدن المغربية الهامة ، محاطة بسلسلة من الرباطات الساحلية لحمايتها من أى عدوان باعتبارها قاعدة الأسطول الاندلسى .

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن بقية المدن الساحلية الأندلسية الاخرى ، ومثال ذلك مدينة دانية Denia التى كان يشرف عليها جبل مرتفع سماه الأندلسيون بجبل قاعون ، ويسمى اليوم مونجو MOngo وهذا الجبل كانت له فائدة كبيرة وهى كشفه للعدو القادم من البحر من بعيد ، واختباء المسلمين فيه عند الضرورة . وقد بنى عليه بعض تلاميذ الشاعر الصوفى الزاهد أبى عبد الله محمد بن زمنين (ت ٣٩٨ هـ) رباطا لا زالت آثاره تطل على البحر هناك ويعرف باسم الامبروى Alambroy [2].

كذلك تذكر الرباط الذى كان يديره حسن بن عبد الله بن عباس على

---

(١) راجع ذيول كتاب التكملة لابن الأبار التى نشرها جونثالث بالنثيا ص ٤٣٢ ومحمد بن شنب ص ١٠٤ وكذلك

Jaime Oliver Asin ; Origen Arabe de Rebato. p. 27

(٢) راجع المقرى : نفح الطيب حـ ٥ ص ٩٥ وكذلك

Julian Ribera : Un Monasterio musulmane en Denia, Disertaciones y Opusculos, tomo II, p. 202 — 204 & Torres Balbas ; Râbitas Hispanomusulmanas p. 487, Al Andalus, Vol. XII, 1948, Fasc. 2

جبل فاره [١] (بتشديد الراء وضمها) أو جبل فاروق [٢] على ساحل مدينة مالقه . وقد اهتم المسلمون بهذا الموقع الهام ، وبنوا عليه حصونا حتى آخر عهدهم بالأندلس ، ولا يزال يعرف هـــذا المكان إلى اليوم باسم جبل فارو Gibralfaro [٣] .

كذلك انتشرت الرباطات على الساحل الغربى الأندلسى المطـــل على المحيط الأطلسى ونذكر على سبيل المثال رباط روطه (٤) الذى ما زال حصنه قائما باسم Castillo de Rota عند مدخل ميناء قادس وكان هذا الرباط مقصدا للصلحاء والمتصوفة وقد زاره الصوفى المعروف محي الدين ابن عربى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) (٣) . كذلك يشير ابن بشكوال إلى مجموعة من الربط الساحلية الغربية التى رابط فيها بعض فقهـــاء القرنين الرابع والخامس الهجرى ومثال ذلك قوله : « ورابط ابن محمد الشنتجيالى (ت ٤٣٦ هـ) ببطليوس Badajoz ، وموجيق Monchique ، وشلب

---

(١) المقرى: نفح الطيب حـ ٩ ص١٠٩-١١٠، ابن عبد الملك المراكشى: الذيل والتكملة ، السفر الرابع ص ٢٠٩ لنشر إحسان عباس .

(٢) رابطة جبل فاروق من مالقه، كذا أورد هذا الاسم أسين بلاثيوس نقلا عن تكملة ابن الأبار (Asin Palacios : Toponimia arabe de Espana p.107-108)

(٣) أنظر ; Oliver Asin Op. cit p. 25 ! Asin palacios Op. cit p. 107

(٤) راجع وصف حصن روطة ، (الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٢)

(٥) محي الدين بن عـــربى : الفتوحات المكية حـ ١ ص ٢٤٢ ، وكذلك Asin Palacios:El islam Cristianizado P.72 (Madrid 1931)Torres Balbas; Op. cit. p. 485.

Silves ، ورباط الريحانة من عمل شلب ، وروى عنه بتلك الجهات وكان له فرس سميه مرزوق(١) » . وفى هذه المنطقة أيضا وجد رباط الثوبة على ساحل المحيط قبالة مدينة أونبه Huelva ، وقد تحول هذا الرباط فيما بعد إلى دير للفرنسيسكان ، وما زال يعرف إلى الآن باسم الرابطة La Rabida . والجدير بالذكر أن فى هذا الحصن أقام الرحالة المشهور كريستوفر كولمبس قبل قيامه برحلته التى اكتشف فيها أمريكا سنة ١٤٩٢ م (١) .

هذه أمثلة لبعض الربط الساحلية فى المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، ولا شك أنها كانت تشكل جزءاً أساسياً فى البحرية الإسلامية ، وإذا نحن تصفحنا المعاجم الجغرافية الاسبانية ، نجد أنها مليئة بالأماكن التى من أسمائها رابطة ورباط ولا سيما فى الأماكن البحرية أو الثغور الجبلية التى كانت تفصل بين المسلمين والمسيحيين وكذلك فى جزر البحر المتوسط مثل الجزر الشرقية وغيرها مما يدل على وجود رباطات اسلامية فيها . أما عن حياة المرابطين فى هذه القصور الساحلية ، فكانت تقوم على الحراسة والزهد والتعبد وذكر الله بصوت مرتفع ، وفى ذلك يقول الصوفى الغرناطى ابن أبى زمنين : « ورأيت أهل العلم يستحبون التكبير فى العساكر والثغور والمرابطات ، بعد صلاة العشاء وصلاة الصبح تكبيراً عاليا ثلاث تكبيرات ، ولم يزل ذلك

(١) ابن بشكوال : كتاب الصلة ح ١ ص ٢٦٧ (ترجمة رقم ٥٩٣)
(٢) الحميرى . الروض المعطار ص ٦٤ ، والترجمة الفرنسية ص ٨١ .

من شأن الناس قديماً » . (١) وكانت الحراسه تعتبر صفة أساسية من صفات المرابطه . وعرف الحراس الليليون باسم السمار (٢) ، وقد جرت العادة أن تكون الحراسة فى مراقب عالية ملحقـــة بالرباط ، أو فى أما كن مرتفعة قريبة منه لكشف سفن العدو من مسافة بعيدة . وكانت هـذه المراقب أو الربط مزودة بالمناور أو المنائر أو المنـــارات التى عرفت أيضا باسم الطلائع أو الطوالع جمع طالعة أو طليعـــة Atalaya (٣) ، فكان على أولئك السمار أو المرابطين إذا ماكشفوا عدوا فى البحر مقبلا من بعيد ، أشعلوا النار على قمم المناور أو الطلائع إن كان الوقت ليلا ، أو أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهـاراً . هذا إذا جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالى المدن المجاورة من غارة العـــدو ؛ وكثيرا ما استعمل المرابطون إشارات نارية أو دخانيـة بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عـدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هـــذه الإشارات . وبهذه الطريقة التى تشبه صفارات الإنذار فى وقتنا الحاضر ، كان من

---

(١) ابن أبى زمنين : كتاب قدوة الغازى ورقة ٢٩ (مخطـــوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد) وكذلك (Oliver Asin ; Op. cit. P 26)

(٢) ابن عـــذارى : البيان المغرب حـ ٤ ص ٤٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢١٧ .

(٣) راجع شرح هذه الكلمة فى

(Eguilaz . Glosario etimologico do las palabras espanolas & Dozy : Supplem. aux Dic . Arabes II p 55)

الممكن إرسال تحذير أو إنذار عبر المغرب كله من الاسكندرية إلى سبتة فى ليلة واحدة .

ولعل الوصف الذى أورده كل من المقدسى (ق ٤ هـ) والعمرى (ق ٨ هـ) عن دور المناور فى مقاومة الصليبيين والمغول فى الشرق العربى، يعطينا فكرة واضحة عما كان متبعا فى مثل هذا الشأن فى الغرب الاسلامى فيقول المقدسى :

« وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة بها جامع على الجادة ، ولهذه القصبة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون إليهم فى الرسالات ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة . وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم، فان كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخنوا ، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودى إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة[1]. وفى هذا المعنى يقول العمرى :

« والمناور هى مواضع رفع النار فى الليل ، والدخان فى النهار . وذلك

---

(١) المقدسى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٧ نشر دى خويه (ليدن ١٩٠٦)

أن مملكة ايران لما كانت بيد هولاكو من التتار ، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ، ويثار الدخان نهاراً ، للاعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغاره . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون على أبنية عالية . ومواضعها معروفة ومن أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعه الجبل حتى أن المتجدد بالفرات ان كان على بكرة علم به عشاء ، وان كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النار أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها على اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة فى العدد وتارة فى غير ذلك . وقد ارصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وايراء ما أمامهم »(١)

ولقد اقتبس الأسبان عن جيرانهم المسلمين نظم المرابطة منذ وقت مبكر ، فدخل لفظ رباط العربى فى اللغة الاسبانية ومنه اشتقت كلمة rebato أى الرباط ، arrebatar أى يرابط ويقاتل ، Tocar el rebato وتعنى الانذار بغارة معادية ، كذلك استخدموا نفس الوسائل والأدوات بأسمائها العربية مثل الطلائع Atalaya ، والمنارة Almenara ، والنفير Anafil ، الا أنهم زادوا عليها استعمال النواقيس التى تقابل الطبول عند المسلمين ولم يقتصروا فى ذلك على أجراس الكنائس بل وضعوا فى كل حصن من حصونهم الساحلية ناقوساً خاصا أسموه ناقوس الرباط أى

(١) شهاب الدين العمرى . التعريف بالمصطلح الشريف ص١٩٩ ؛ القلقشندى . صبح الأعشى حـ ١٤ ص ٢٩٨

ناقوس الخطر Compana del rebato . كذلك وضعوا اسيارهم أو حراسهم تعليمات خاصة تأمرهم بعدم اقتناء الكتب أو القيثارة Guitarra أو أدوات الصيد كي يتفرغوا تماما للحراسة (١) .

ولا شك أن وجود مثل هذه الألفاظ العربية فى اللغة الاسبانية يدل تماما على شيوع مدلولها بين الاسبان ، وحسبنا أن نتصفح مدوناتهم التاريخية وأشعارهم ومسرحياتهم كالتى كتبها لوبى دى فيجا Lope de Vega وثربانتس Cervantes وبيرث دى هيتا Perez de Hita لنرى مدى استعمالهم لهذه الألفاظ ومدى إدراكهم وتطبيقهم لمضمونها فى حياتهم الحربية (٢)

البحرية فى عصر ملوك الطوائف بالاندلس

تعتبر الفترة التى بين نهاية القرن الرابع ونهاية القرن الخامس الهجرى، فترة تقهقر للقوى البحرية الإسلامية بوجه عام فى حوض البحر المتوسط: ففى سنة ٣٥٠ ﻫ (٩٦١ م) استرد البيزنطيون بقيادة نقفور فوقاس جزيرة كريت فى شرقى حوض البحر المتوسط ، التى كانت معقلا أندلسيا أثار الذعر والاضطراب فى ممتلكات الدولة البيزنطية فى بحر ايجه مدة قرن ونصف تقريبا . وفى سنة ٣٦٤ ﻫ (٩٧٥ م) استرد الفرنجه الكارولنجيون بقيادة الكونت وليام Guillaume صاحب بروفانس ، وأخيه روبو Roubaud ، معقلا أندلسيا آخر فى غرب البحر المتوسط ، وهو

---

(١) أنظر (Oliver Asin : Op cit P. 46-47)

(٢) راجع (لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ص ١٠٣ وكذلك (Oliver Asin : Op. cit. p. 69)

حصن فراكسنيتم فى سان تروبيز الذى هدد سواحل فرنسا وايطاليا وتحكم فى ممرات جبال الألب أكثر من ثمانين سنة [1] . كذلك لم تلبث البحرية الأندلسية نفسها أن ضعفت هى الأخرى بعد وفاة المنصور بن أبى عامر وولده عبد الملك المظفر ، بسبب ضعف الخلافة الأموية ، ولشوب الفتن والحروب الداخلية التى أدت الى سقوط الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .

ولقد قامت على أنقاض الدولة الأموية المنهارة ، دويلات صغيرة مستقلة متنازعة ، يحكمها أمراء من العرب والبربر والمولدين والصقالبة ، عرفوا بأهل الفرق أو بملوك الطوائف . ولم يستطع هؤلاء الملوك المغامرون ، أن يوجدوا لأنفسهم قوة بحرية موحدة ، بل على العكس من ذلك ، أخذوا يتقاسمون أسطول الخلافة وقواعده ، مما أدى الى زوال تلك الوحدة المتناسقة التى كان يمتاز بها الأسطول الأندلسى على عهد الأمويين . ومن ثم اقتصرت العمليات البحرية على مناطق محلية محدودة وموزعة بين أصحاب بطليوس ، وأشبيلية غربا ، والمرية ودانية وبلنسية شرقا ، كل يعمل فيها لحسابه الخاص .

فبنو عباد ملوك أشبيلية ، كانوا يمتلكون أسطولا ودور صناعة للسفن فى هذه المنطقة الغربية لدرجة أن عاهل المغرب يوسف بن تاشفين ، حينما أراد الاستيلاء على مدينتى سبتة وطنجه من أيدى البرغواطيين ، طلب من المعتمد بن عباد أن يمده بجزء من أسطوله ، وفى ذلك يقول صاحب الروض المعطار « ووجه ابن عبـــاد من أشبيلية أسطولا نحو

صاحب سبته ، فانتظمت فى سلك يوسف [1] » ، وفى هذا المعنى يقول صاحب مفاخر البربر . « وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد بن عباد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين ، بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا ، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكداً ، ووجهها الى مدينة طنجة للثمار ، وقد أنجد أمر الله وغار . ولما رأى أمير المسلمين تلك السفينة ، خاطب المعتمد بن عباد فى ذلك ، فشحنت على سبته موتا ذريعا ، وأقيمت بإزائها وسورهــا حصنا منيعا [2] » .

كذلك يروى ابن الخطيب أن المعتمد ابن عبــاد حينما استنجد بالمرابطين ضد أطماع الملك الأسبانى الفونسو السادس ، « جاز الى يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م) بأسطول الأندلس جوازا فخما ، واختار لمصاحبته فى سفره الخواص والأعيان . واستخلف ولده الرشيد بأشبيلية ، وشيعه الناس إلى محل ركوبه البحر ، ومدحــه الشعراء [3] » ويضيف .

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٨٧ ويلاحظ أن كلمة أسطول ربما تطلق على سفينة حربية واحدة .

(٢) مفاخر البربر ص ٥٦ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤٦ (القسم الخاص بتاريخ الاندلس نشر برفنسال) ومن الشعراء الذين مدحوه فى هذه المناسبة نذكر عبد الجليل بن وهبون فى قصيدته التى مطلعها :

عزم تجدد فيه النصر والظفر ... وفكرة خدمت من دونها الفكر

ويضيف صاحب روض القرطاس ان اجتماع العاهلين قد تم بمكان يعرف ببليطة بجوار سبتة (١) . وتشاء الأقدار أن المرابطين بعد ذلك حينما استولوا على أشبيلية وعزلوا المعتمد بن عباد عن ملكه سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، أحرقوا بعض وحدات الأسطول الاشبيلي الراسية فى الوادى الكبير ، كما حملوا المعتمد وأبناءه ونساءه فى بعض المراكب إلى منفاهم بمدينة أغمات جنوبى المغرب . وكان منظراً مؤثراً عندما بدأت السفن سيرها وقد خرج جميع أهل أشبيلية واصطفوا بضفتى نهر الوادى الكبير يضجون بالبكاء والنحيب . وكان شاعر بنى عباد المعروف بابن اللبانه قد خرج لتوديع هذه الأسرة التى طالما تغنى بمجدها ، فلم يتمالك أن فاضت شجيته بتلك القصيدة التى يقول فيها :

نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكبادى (٢)

ومن ملوك الطوائف أيضا الذين كان لهم نشاط بحرى ، نذكر الزعيم الصقلبي خيران العامرى صاحب المرية الذى يرجع إليه الفضل فى تعمير هذه المدينة وتحصين قصبتها حتى صارت فى أيامه من أجل وأمنع

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ٥١ (طبعة الهاشمى الفلالى) .
(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٤٨ ، ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٢٣ ، عبد السلام الطود : بنو عباد ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

ثغور الأندلس وما زالت أطلال هذه القصبة باقية الى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة . وقد قصد خيران العلماء والشعراء ونخص بالذكر منهم أبا عمرو بن دراج القسطلي الذى مدحه سنة ٤٠٧ ﻫ بقصيدة خصص جزءاً كبيراً منها فى وصف محنته أثناء ركوبه البحر اليه [١] وهذا يدل على أن الفتن والحروب الداخلة في ذلك الوقت قد جعلت المواصلات البرية الداخلية صعبة أو متعذرة مما اضطر المسافرين الى ركوب البحر والتنقل بين الموانى الاندلسية كما فعل ابن دراج القسطلي [٢] وتوفى خيران فى سنة ٤١٩ ﻫ (١٠٢٨ م) وخلفه أخوه زهير العامرى الذى أنشأ المسجد الجامع بالمريه ، وسار على سنة سلفه فى حسن السيرة إلا أنه تورط فى حروب مع جاره باديس صاحب غرناطة انتهت بهزيمة زهير ومصرعه سنة ٤٢٩ ﻫ (١٠٣٨ م) وتعرضت المرية بعد ذلك لفترة مضطربة قصيرة انتهت سنة ٤٣٣ ﻫ (١٠٤١ م) حينما استقل بها معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم . وقد وجه هذا الأمير العربى عناية خاصة نحو بحريته وأسطوله اذ يروى ابن خاقان فى هذا

---

(١) مثل قوله :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ... وبشراك قد آواك عز وسلطان
يقلن وموج البحر والهم والدجى ... تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل الى الدنيا معاد وهل انا ... سوى البحر قبراً وسوى الماء أكفان؟

راجع (ديوان ابن دراج القسطلي : نشر محمود مكى ص ٨٦ وما بعدها ، المقرى : نفح الطيب ج٤ ص ٤٠٥

(٢) أنظر (Henri Pérés : la poésie Andalouse en arabe Classique au xi siécle p. 214 - 215)

الصدد أن المعتصم لم يكن يهتم بشىء الا بأساطيله وجواريه (أى سفنه الحربية) وفلكه ، وأنه كان يعيش من النشاط البحرى لأسطوله سواء أكان تجاريا أم حربيا [١] . لهذا كان أسطول المعتصم موضع حديث الشعراء الذين عاصروه ، ومثال ذلك الشاعر أبو عبد الله بن الحداد الذى تضمن شعره اشارات الى آلات النفط الذى كان مزودا بها أسطول المعتصم مثل قوله :

هام صرف الردى بهام الأعادى	ان سمت نحوهم لها أجيـــاد
وترامت بشرعهـا كـعيونٍ	دأبها مثـل خائفيهـــا سهاد
ذات هدب من المجاذيف حاك	هدب باك لدمعه إسعـــاد
حمم فوقهـا من البيض نار	كل من أرسلت عليه رماد [٢]

هذا ويروى ابن الخطيب أنه لما توفى المعتصم ، أيقن ابنه معز الدولة بتغلب المرابطين على ملكه ، فركب بمن اختص به فى قطعة من أسطوله، وحمل المال والمتاع فى شنتين ، وأحرق باقى الأجفــان خشية الاتباع (بتشديد التاء) ، فأمن عاديتها ، ونزل بالجزائر على طائر اليمن [٣] .

---

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٤٧ وكذلك
(Henri Péres : Op cit. p 215
(٢) راجع (المقرى : نفح الطيب ﺣ ٥ ص ١٩٨) وحول ترجمة ابن الحداد راجع (ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ ﺣ٢ص ٢٠١-٢٢٦ ، المقرى : نفس المرجع ﺣ ٥ ص ١٩١) .
(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٩٣ .

على أن الأسطول البحرى الذى أبدى تفوقا ونشاطا على سائر الأساطيل الأندلسية فى عصر ملوك الطوائف ، هو بلا جـــدال أسطول صاحب دانيه Denia⁽¹⁾ أبى الجيش مجاهد العـــامرى الصقلبي ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ (١٠١٠ - ١٠٤٥ م) . ولا شك أن الموقع الجغرافى الممتاز لمدينـة دانية على ساحل البحر المتوسط جنـــوبى بلنسيه ، كان له أثر كبير فى اهتمام هـذا الأمير بتقوية أسطوله وتشييد حصونه وقلاعه التى مازالت أطلالها باقية الى اليوم . كذلك كانت دانيه مثل طرطوشه محاطة بغابات كثيفة من شجر الصنوبر الذى تصنع منه السفن . فكان هذا الخشب يقطع ويلقى فى مياه الأنهار المجاورة مثل نهر شقر Jucar ، ويحمل الى دانيه التى كانت تضم دار صناعة ضخمة (ترسانة) لصناعة السفن الكبيرة⁽٢⁾. ولهذا كانت دانيه مثل المرية قاعدة هامـة للأسطول الأندلسى منـذ أيام الأمويين . ولقد استغل الأمير مجاهد هذا الموقع الاستراتيجى الهـام فى أعماله التوسعية وغزواته البحرية على سواحل فرنسا وايطاليا وقطالونيا⁽٣⁾

وبدأ مجاهد هذه الأعمال بضم الجزر الشرقية (البليـار) الى أملاكه فى رمضان سنة ٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٠١٤م) . ومن قواعد هذه الجزر ،

---

(١) دانيه مشتقة من ديانيوم أى مدينة ديانة آلهة الصيد عند الرومان القدماء أنظر Ency. of Islam, art. Deniaby Seybold

(٢) راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٢ والترجمة ص ٩٥) . وكذلك (Chabas Roque :-Historia de la ciudad de Denia p. 151, Denia 1874) & (Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas Al Andalus Vol. XI, 1946, fasc. I p. 183.

(٣) أرشيبالد لويس ص ٣١٣ - ٣١٤ .

أطلق أسطوله للغزو فى غرب البحر المتوسط

ففى ربيع الأول سنة ٤٠٦ ﻫ (سبتمبر ١٠١٥م) ، أى بعد خمسة أشهر من احتلاله لجزر البليار ، أبحر مجاهد فى أسطول كبير مكون من مائة وعشرين مركبا عليهـا ألف فارس ، متجهـا نحو جزيرة سردانية مصطحبا معه زوجته المسيحية جود ، وأبنه الأكبر عليا وبعض بناته . واستطاع مجاهد أن يحتل جزءا كبيرا من هذه الجزيرة وان يهزم ويقتل قائدا من قوادها يدعى مالوتو ، وأن يفرض الجزية على بعض حكامها ، ويأسر عددا كبيرا من أهلها ، وفى ذلك يقـول ابن حيان وكسد فى زمانه السبى وبخست فيه الأثمان . وقد ساعدته الأموال التى غنمها فى اختطاط مدينة واسعة شرع فى بنائها هناك وانتقل إليها بأهله وولده(١) .

وواضح أن مجاهد أراد أن يجعل من سردانية رأس جسر يهاجم منه الأماكن التى تليها وهى السواحل الإيطالية الغربية . اذ أنه قام بعد ذلك بغزو مدينة لونى Luni الإيطالية ، واتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ماحولها من المناطق الساحلية . وتقع هذه المدينة على ساحل البحر التيرانى بين بيزا وجنوة على خليج سبيزيا Spezia فى إقليم أتروريا Etruria . وقد

---

(١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢١٩ ، احمد مختار العبادى الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣) أنظر كذلك
(Codera ; Mochehid Conquistador de Cerdana, Centenario della Nascita di Michele Amari, Volume II, p. 115 -133, (Palermo 1910)

امتازت بمركزها التجارى الهام فى هذه المنطقة .

ويرى المؤرخ الفرنسى لويس ماس لاترى أن احتلال مجاهد لمدينة لونى كان يفرض عليه المرور فى مضيق بونيفاتشو Bonifacio الذى يفصل بين سردانيا وكورسيكا ، ولهذا رجح أن يكون مجاهد قد إحتل أيضاً الساحل الجنوبى لجزيرة كورسيكا كى يضمن سيطرته على هذا الممر البحرى الذى يفصل بينه وبين الشواطىء الإيطالية(١) .

كـذلك يشير المؤرخون إلى أن غزوات مجاهد لم تقتصر على ساحل إيطاليا الشمالى الغربى ، بل شملت أيضاً ساحل أربونة Narbonne الفرنسى ، وساحل برشلونة الاسبانى وكل هذا يدل على أن مجاهداً أراد أن يستعيد نفوذ الأندلسيين فى هذه المناطق الساحلية الإيطالية والفرنسية بعد أن أنسحبوا منها منذ عهد قريب ، وفقدوا أهم معقل لهم هناك وهو حصن فراكسينيتم . غير أنه يؤخذ على مجاهد فى هذا الصدد ، أنه لم يقدر ظروف الزمان والمكان عندما قام بهذه المغامرة الغير مأمونة العواقب . ذلك لأن الأوضاع الحربية فى غربى حوض البحر المتوسط كانت قد تغيرت عما كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) ، اذ طرأ عليها عامل جديد وهو

(١) أنظر Mas Latrie : Traités de paix et de commerce et documents divers Concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen age p. 8 (Paris 1866)

وكذلك (كاليكيا ساربلى : مجاهد العامرى ، قائد الأسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى ص ١٩٨ - ١٩٩ (القاهرة ١٩٦١)

ظهور بيزا وجنوة وساحل إيطاليا الشمالى الغربى ، كقوى بحرية ضاربة فى البحر منذ بداية القرن الخامس الهجرى (١١م) . هذا إلى جانب أن أهالى وحكام تلك المنطقة ، لم ينسوا ما فعله قراصنة الاندلسيين فى بلادهم خلال السنوات الطويلة الماضية ، فأقبلوا على الملاحة إقبالا جديا . ويذهب أرشيبالد لويس فى هذا الصدد الى أن تخليص حصن فراكسنيتم من قبضة الاندلسيين سنة ٩٧٥م ، على يد وليام حاكم بروفانس ، ربما كان العامل الحاسم فى إقبال أهالى تلك المناطق على ركوب البحر[١] .

وكيفما كان الامر ، فان الحملات البحرية التى قام بها مجاهد فى البحر المتوسط ، قد أفزعت حكام غرب أوربا ، ودفعتهم إلى التكتل ضده بزعامة البابا بندتو الثامن Benedetto VIII ولم تلبث أساطيل بيزا وجنوة وبرشلونه وفرنسا ، أن اتحدت لمحاربته ، وفى ذلك يقول المؤرخ المعاصر ابن حيان :

وتداعى عليه ملوك الارض الكبيرة واستجاشوا . وبلغه من أمرهم مالا يطيقه ، فعزم على التحول إلى محله ، والقفول الى دار ملكه بدانية وميورقه ، فأعجله العدو عن ذلك وقطع به فكانت عليه وقيعة شنيعة وظهور ماسمع بمثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لايحصى ، وملكوا أسطوله واستنقذوه ، واستولوا على حرمه ، وفيهن نساؤه وبناته ، وعلى ولده ، وجود أمة النصرانية ، ولم يخلص من أسطوله أجمعه الا خمسة مراكب وأربعة قوارب وكانت شحنة الأسطول المفلول من سبي سردانية

---

(١) أرشيبالد لويس : نفس المرجع ص ٣١٤ .

يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس[1]. ويضيف الضبي أن خلافا شديدا وقع بين مجاهد وجنوده أدى إلى هذه الكارثة ، كما يشير إلى عاصفة شديدة جعلت تقذف بمراكب المسلمين الى الساحل ، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين . فكلما سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد يبكى بأعلا صوته عاجزا عن انقاذه . ثم نجا مجاهد بأعجوبة عائدا إلى الجزائر الأندلسيه التى كانت فى طاعته[2]

واستطاع مجاهد بعد ذلك أن يفتدى بناته سريعا ، أما زوجته المسيحية فيقال إنها ماتت ، ويذهب البعض إلى أنها رفضت ترك الاراضى المسيحية كى تموت على دين آبائها .

أما ابنه على ، فقد وقع فى سهم أحد الأمراء الألمان الذى رفض أن يطلق سراحه على سبيل المباهاة والفخر ، ولكن مجاهد بذل فى هذا السبيل أموالا طائلة الى أن تمكن من فك أسره بعد ثمانية عشر عاما سنة ٤٢٣هـ (١٠٣٢م) ، فجاء الى بلاده مسيحيا يتكلم بلسانهم (الالمانية) ، ويتزيا بزيهم ، فاعتنق الاسلام ، واختتن ، وأصابه من ذلك مرض شديد ثم شفى منه ، وأقامه والده وليا لعهده وقائدا لجيوشه[3].

هذا ولم تكن أيام مجاهد حربا كلها، بل كانت تتخللها أوقات سلم يرابط فيها الأسطول موانى جزر البليار أو فى خلجانها المتعددة . وقد جرت

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢١٩ - ٢٢٠
(٢) راجع الضبي : (بغية الملتمس ص ٤٥٨ ترجمة رقم ١٣٧٩)
(٣) أنظر (احمد مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا ص ٢٦)

العادة أن يحتفل الأسطول بجزيرة ميورقة فى صيف كل عام بعيد المهرجان (٢٤ يونيو)[١]. فيقوم بعرض ومناورات وألعاب يحضرها أمير الجزيرة بنفسه[٢]. ولعل أبلغ وصف لهذا الاحتفال هو ما أنشده فى مثل هذه المناسبة الشاعر أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة[٣] ، مثل قوله :

---

(١) عيد المهرجان أصله فارسى مثل عيد النيروز ، على أنه يلاحظ أن الاحتفال به فى الشرق كان فى شهر سبتمبر ، بينما يحتفل به فى أسبانيا صيفا فى ٢٤ يونيو أى فى عيد العنصرة أو عيد سان خوان . راجع .
(Dozy ; Suppl. aux Dictionnaires arabes II p. 621 & Henri perés : Op. cit. p. 304)

(٢) كان يحكم هذه الجزر الشرقية ولاة من قبل صاحب دانيه نذكر منهم عبد الله المرتضى ومولاه مبشر بن سليمان ناصر الدوله راجع (القلقشندى : صبح الأعشى ح٥ ص ٢٥٦ ، ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢)

(٣) هو أبو بكر الدانى محمد بن عيسى بن محمد اللخمى ، من أهل مدينة دانية ، توفى أبوه عن أولاد صغار وأرملة مكافحة استطاعت أن تتخذ من بيع اللبن حرفه تعول صغارها فأطلق عليها الناس لقب الحرفه «اللبانة» فنسب أولادها إليها واشتهر أبو بكر بابن اللبانه . وقد انقطع هذا الشاعر فى بادىء الأمر الى بنى عباد باشبيلية، وفيهم أجود مدائحه ومراثيه كما ألف فى أخبارهم وتاريخهم كتابين : أحدهما « السلوك فى وعظ الملوك » ، والآخر « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » وقد انتقل هذا الشاعر فى أواخر حياته الى ميورقه وكان عليها الأمير مبشر بن سليمان العامرى الصقلى . والشعر الذى أوردناه فى الآن ، قاله الشاعر فى مدح مبشر وليس لمجاهد، ولكنه يعطينا صورة متشابهة لما كان يحدث فى ذلك الوقت . وقد توفى ابن اللبانة بميورقه سنة ٥٠٧ هـ .

راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٤٧ ، عبد السلام الهراس : ابن اللبانة ، مجلة البحث العلمى بالرباط، مايو ـ أغسطس ١٩٦٤) .

بشرى بيوم المهرجان فإنه ... يوم عليه من احتفالك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ... ريش الغراب وغير ذلك شوذق(١)
وعلى الخليج كتيبة جرارة ... مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواري التي ... تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها ... فأتت كما يأتي السحاب المغدق
خاضت غدير الماء سابحة به ... فكأنما هي في سراب أينق
عجبا لها ما خلت قبل عيانها ... أن يحمل الأسد العنواري زورق
هزت مجاديفا إليك كأنها ... أهداف عين للرقيب تحدق
كأنها أقلام كاتب دولة ... في عرض قرطاس تخط وتمشق(٢)

ومن الطريف أن مجاهد العامري كان يهب شعراءه مراكبا ضمن العطايا والهدايا التي كان ينعم عليهم بها . ومثال ذلك قول الشاعر أبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي بعد أن استماله مجاهد بخريطة مال ومركب أهداه إليه :

اقتنى الخريطة والمركب ... كما اقترن السعد والكواكب(٣)

مما تقدم نرى أنه خلال القرن الخامس الهجري (١١ م) ، حدث تغيير كبير في ميزان القوى في غرب حوض البحر المتوسط. فالسيطرة

---

(١) الشوذق (بفتح الشين وسكون الواو) الصقر أو الشاهين وقد جرت عادة الشعراء تشبيه السفن بالطيور.

(٢) المراكشي نفس المرجع ص ١٥٣ .

(٣) الحميدي . جذوة المقتبس ص ٣٥٤

الاندلسية على هذه المنطقة قد ضعفت، رغم المحاولات الجريئة التى قام بها مجاهد العامرى فى سبيل استعادة هذا النفوذ القديم الذى كان للدولة الأموية من قبل

كذلك نلاحظ فى الوقت نفسه أن قوى بحرية جديدة مثل جنوه وبيزا وبرشلونه وغيرها ، قد أخذت تقوى وتزدهر حتى تمكنت أساطيلها من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته .

ولعل أصدق مثال يصور هذه الحالة ، هو ماذكره أبو الاصبغ نباتة الحارثى الاندلسى ، من أن المعتمد بن عباد صاحب اشبيليه ، بعث الى الشاعر الصقلى أبى العرب مصعب بن محمد بن أبى الفرات القرشى الزبيرى مبلغ خمسمائة دينار بصقلية وامره ان يتجهز بها ويتوجه إليه ، فكتب إليه ابو العرب معتذرا بقوله :

لا تعجبن لرأسى كيف شاب أسى
واعجب لاسود عينى كيف لم يشب
البحر للروم لايجرى السفين به
إلا على الغرر[1] والبر للعرب[2]

البحرية على عهد المرابطين

المرابطون أو الملثمون ، قوم صحراويون من قبائل صنهاجة الثام ، خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين

---

(١) الغرر (بفتح الغين والراء) التعرض للهلاك

(٢) راجع (أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٦٢٨ - ٦٢٩)

عن الدين الحنيف من قبائل برغواطة وغماره فى بلاد المغرب شمالا[١] .
واستطاع هؤلاء المرابطون المجاهدون أن ينتصروا على هذه القوى الضاله، وأن يسيطروا على جميع بلاد المغرب الأقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية مثل سبتة وطنجه التى سيطرت عليها إمارة بحرية قــوية ، وهى إمارة سقوت البرغواطى . وكانت دراية المرابطين بالشئون البحرية قليــلة فى ذلك الوقت ، ولهذا لم يتمكنوا من احتلال تلك الثغور . ومن ثم شرع يوسف بن تاشفين فى إعداد أسطول لهذا الغرض ، كما استنجد فى الوقت نفسه باساطيل جيرانه ملوك الطوائف بالأندلس . وقد استجاب بعضهم لندائه ، لأن هذه الإمارة البرغواطية ، كانت بحكم وضعها الجغرافى فى منطقة سبتة وطنجه ، تمتلك أسطولا بحريا وتتحكم فى مضيق جبل طارق، وكثيراً ما أثارت الذعر والاضطراب بسبب أعمــال القرصنة التى كانت تقوم بها ضد السفن الأندلسية والمغربية المارة هناك ، وفى ذلك يقول ابن بسام :

« .. رجل - أى سقوط البرغواطى - استهان بالشر ، وتهاون بالأمر ، لا سيما فى البحر ، فإنه أضرم بلججـــه ناراً ، ولقى ريحه إعصاراً ، أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف إلى كلٍّ رعبا ، فضجت منه الأرض والسماء ، والتقت الشكوى علية والدعاء»[٢] .

---

(١) راجع تفاصيل قيام هذه الدولة فى مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .

(٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ حيث وردت هذه النصوص نقلا عن كتاب الذخيرة لابن بسام .

واستطاع أسطول سقوت البرغواطى بقيادة ولده المعز أن ينتصر فى مياه سبتة على الأسطول الذى أعده يوسف بن تاشفين لقتالهم سنة ٤٧٦ﻫ وأن يستولى على قطعة جليلة منه ، مما أدى إلى ارتياع محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام ، وقوضوا بعض الخيام[1] . ولكن فى ذلك الوقت وصلت نجدة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وهى سفينة حربية ضخمة ، تقدمت - كما يقول ابن بسام - نحو سبتة ، « فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها ، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ٤٧٦ ﻫ . فلجأ المعز بن سقوت إلى البحر ، فهم بركوبه فأعوزه الفرار ، ودفع فى صدره المقدار . وكر راجعا فدخل داراً تعرف بدار شوير ، وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفر عنه أصحابه . ولما أحس بالشر . دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغنى أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهراً كبيراً ، ونشبا من نشب الملك خطيرا ، ووجد فى جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الادريسى ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقيه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : « ألخازن أبيك كنا نجمع المال ؟ فجدله الحسام ، وحكم فيه الحمام ، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه »[2] .

ولا شك أن احتلال المرابطين لهذه الثغور الشمالية ، كان خطوة

---

(١) و (٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ ويلاحظ أن سقوط البرغواطى كان فى الأصل مملوكا لبنى حمود الأدارسة حكام هذه المنطقة ثم تمكن من الاستقلال بها .

ايجابية فى بناء أسطول مغربى قوى ، إذ انهم استفادوا من دور صناعتها وما فيها من سفن وآلات ، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخوله سبتة . هو إصلاح أحوالهـــا وسفنها(١) .

وعندما استنجد الاندلسيون بالمرابطين ضد أطماع الملك الفونسو السادس ، اشترط عليهم يوسف تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء كى يستطيع التحكم فى مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وإيابا . واضطر المعتمد بن عبـــاد ، الذى كانت الجزيرة الخضراء ضمن ممتلكاته ، أن يستجيب لطلبه ، فأمر ابنه الراضى بإخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين (٢) . ثم جاز يوسف بن تاشفين بجيوشه إلى الأندلس ، وكان أسطوله حتى ذلك الوقت يتألف من سفن النقل أكثر من سفن القتال ، لأن الغرض الأساسى منه وقتئذ هو نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والأندلس(٣) .

وأحرز المرابطون نصرهم المشهور على جيوش الفونسو السادس ، فى وقعة الزلاقة غربى الأندلس سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٦ م) . وقد مكنهم

---

(١) راجع (ابن أبى زرع : روض القرطاس حـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٨ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٨٢ (القسم الثانى)

(٣) أشباخ . تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين حـ ٢ ص ٢٣٧ ترجمة عبد الله عنان .

هذا النصر من توطيد نفوذهم فى الأندلس وخلع ملوك الطوائف بعد ذلك . ولا شك أن المرابطين قد استفادوا بما كان فى الأندلس من إمكانيات مادية [1] وكفايات بشرية فى الشئون البحرية ، فأولوها عنايتهم ، وخلقوا منها قوة بحرية منظمة موحدة ، وقيادات حكيمة ماهرة ، مثل أسرة بنى ميمون التى قادت أساطيل المرابطين إلى النصر فى معظم المعارك التى خاضتها مع القطلانيين والنورمانديين فى صقليه . وقد مدح الشقندى بعض أفراد هذه الأسرة بقوله . « وفى المرية ، كان ابن ميمون القائد الذى قهر النصارى فى البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على البلاد الرومانية ، فقتل وسبى وملأ صدور أهلها رعبا ، حتى كان منه كما قال أشجع .

فإذا تنبه رعته وإذ غفا سلت عليه سيوفك الأحلام [2]

ومن الطريف أن الشقندى ينسب هذه الأسرة إلى المرية ، بينما ينسبها صاحب المعجب إلى دانيه[3] ، أما ابن خلدون فيرى أنهم من قادس[4] ، كما يفهم من ابن الكردبوس أنهم خدموا فى ميورقة[5] والواقع أننا لو أنصفنا هذه الأسرة المجاهدة ، لجعلنا من البحر وطنا لها

---

(١) أشار الادريسى الذى كان معاصرا للمرابطين إلى دور الصناعة فى طرطوشة ودانية وقصر أبى دانس وشلب التى كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لبناء السفن (Torres Balbes : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus, 1946, Vol. XI, fasc. I P. 184)

(٢) راجع المقرى . نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٦

(٣) عبد الواحد المراكشى . المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٩٠

(٤) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٥٥

(٥) ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ص ١٢٣ ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥

وأحسب أن هذا كان شعورها ايضا بدليل ما أورده صاحب المعجب من أن أهل المرية حاولوا إقامة القائد أبى عبد الله بن ميمون والياً عليهم ولكنه اعتذر بقوله : « إن وظيفتى البحر ، وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى »(١)

هذا وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الأسطول المرابطى تحت قيادة هذه الأسرة بقوله : « وكان الجانب الغربى من هـذا البحر موفور الأساطيل ، ثابت القوة ، لم يتحيفه عـدو ، ولا كانت لهم به كرة (بتشديد الراء) . فكان قواد الأسطول به لعهد لمتونة (أى المرابطين) بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس ، وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعا »(٢) .

وقد فسر بعض المؤرخين كلمة أسطول التى وردت فى كلام ابن خلدون بأنها تعنى القطعة الواحدة وليس مجموعة من السفن (٣) ، وإن كان يبدو أن هذا التفسير لا يتفق هنا مع عظمة الأسـطول المرابطى الذى بسط نفوذه على سواحل المغرب الأقصى والأوسط وسواحـل الأندلس ، فكيف نتصور أن مجموع أساطيل هـذه الامبراطورية ، مائة قطعة فقط فى حين كان أسطول أحد ملوك الطوائف وهو مجاهد العامرى ، أكثر من ذلك !؟ (٤) هذا فى الوقت الذى كانت فيه أساطيل القوى المسيحية

---

(١) عبد الواحد المراكشى : نفس المرجع ص ٢١٠

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ .

(٣) أنظر Aly Mohamed Fahmy; Muslim sea-power in the eastern mediterranean p. 128.

(٤) راجع الصفحات القليلة السابقة من هذا الكتاب .

مثل جنوا وبيزا والنورمانديين فى صقلية ، تزيد كل منها على ثلاثمائة قطعة [1] . وأغلب الظن أن المقصود من كلام ابن خلدون هنا هو عدد مجموعات السفن الحربية التى كانت موزعة على جميع قواعد المغرب والأندلس ، يؤيد ذلك قول ابن الكردبوس أن أمير المؤمنين على بن يوسف ابن تاشفين أمر بتعمير ثلاثمائة قطعة لإنقاذ جزيرة ميورقة [2] .

أما عن المعارك البحرية التى خاضها الأسطول المرابطى ضد القوى المسيحية فى حوض البحر المتوسط . فالمصادر التى لدينا لاتشير للأسف إلى تفاصيلها، ولكنها تشير الى بعض للعمليات الحربية التى قام بها الأسطول فى بعض الجزر الشرقية (البليار) سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وفى جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ .

وكانت جزر البليار فى بادىء الأمر يحكمها ولاة من قبل صاحب دانية مجاهد العامرى وولده على بن مجاهد . وعندما استولى أمير سرقسطة ، المقتدر بن هود على دانية ، وسجن أميرها على بن مجاهد ، أعلن والى هذه الجزر عبد الله المرتضى استقلاله بحكمها ، ثم خلفه بعد موته مولاه مبشر بن سليمان ناصر الدولة :

وقد فضل المرابطون فى بادىء الأمر ترك هذه الجزر فى يد أصحابها مادامو ا يقومون بأعباء الدفاع عنها ويغزون ما وراءهم من بلاد الأعداء إلا انهم اضطروا الى احتلالها فى سنة ٥٠٩ (١١١٥م) نتيجة للغارات والاعتداءات المتكررة التى شنها المسيحيون على شواطىء تلك الجزر وعلى سكانها المسلمين . وكانت أخطرها تلك الغارة الوحشية التى قام بها سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م)

---

(١) أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨٢ ، ٢٩٣ .

(٢) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٣ .

حلف مشترك من أساطيل جمهوريتي بيزا ، وجنوه ، وأمير برشلونه رامون برنجير الثالث Ramon Berenguer III ، وأميرى ناربون ومونبلييه بفرنسا (١) . وبلغت سفن هذه الأساطيل المتحدة نحو خمسمائة سفينة ، اتجهت فى بادىء الأمر نحو جزيرة يابسة Ibiza ، فاستولت عليها ثم اتجهت نحو ميورقة كبرى هذه الجزر ، ونزلوا فيها وضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التى تعرف الآن باسم بالما دى ميورقه Palma de Mallorca (٢) . قال ابن الكردبوس : « وفى خلال ذلك الحصار ، كان ناصر الدولة (أى مبشر بن سليمان) كتب الى أمير المسلمين (على بن يوسف) يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله بن ميمون ، وكان اذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمرا ليلا من دار الصناعة عليه ، فانطلق فى الحين يقفو اثره ، وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره فلما قطع يأسه فى الظفر به ، رجع خاسئا على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب الى أمير المسلمين ، فأمر فى الحين ، بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلق بعد شهر دفعة . فامتثل أمره فى ذلك ، واندفعت بجملتها من هنالك ، واذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المؤمنين . فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينه بما احتمل

(١) راجع Jacinto Bosch Vila : Los Almoravides p. 191, Tetuan 1954.

(٢) راجع ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢ فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد سنة ١٩٦٥ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٥ ؛ ج ٦ ص ٢٤٢ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٨ وكذلك Alvaro Campaner : Op. cit p. 91

السبي والأموال فريرة . فلما وصل الأسطول ، وجد المدينة خاليه على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة . فعمرها قائد الأسطول ابن تافرطاس بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب اليها من كان فر عنها الى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها . وانصرف الأسطول الى مكانه ، وعاد الى موضع مقره واستيطانه .

وفى انصراف العدو الى أوطانه هبت عليه ريح ببحار طامية فحملت منه أربع قطائع الى ناحية دانية ، فعمر اليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت أمامه وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث (أى جعلها مراكب اسلامية) [1].

وهكذا احتل المرابطون جزر البليار بدون قتال على عهد على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ / ١١١٦ م) والجدير بالذكر أنه فى أثناء حصار العدو لميورقة ، مات مبشر بن سليمان ناصر الدولة ، وقام بالأمر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون الذى تسميه المصادر المسيحية Burabé (أى أبو الربيع) وقد دافع هذا القائد عن بلده ببسالة حتى غلب عليه وتملك العدو البلد فى ٧ ذى القعدة سنة ٥٠٨ هـ وأحدثوا فيها خرابا يجل عن الوصف كما هو واضح من النص السالف الذكر .

ولقد تعاقب على حكم هذه الجزائر بعد ذلك عدد من قواد المرابطين [2]، ثم وليها فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) القائد المرابطى محمد بن

(١) راجع (عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ص ١٢٣ - ١٢٤ صحيفة معهد مدريد سنة ١٩٦٥)

(٢) أنظر Alvaro Campaner, y Fuertes: Bosquejo historico de la dominacion islamita en las Baleares p. 100.

(٣) راجع أسماء هؤلاء الولاة فى (ابن عذارى : البيان المغرب ج٤ ص ٢١٥)

علي بن غانية المسوفي ، مؤسس أسرة بني غانية التي ظل فيها حكم هذه الجزر من بعده .

ولم يقتصر نشاط الأسطول المرابطي على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حاول أيضا وقف أطماع النورمانديين في ممتلكات الزيريين بافريقية . وكان هؤلاء النورمانديون قد استقروا في بداية أمرهم في ولاية قلورية (كلابريا) في جنوب ايطاليا ثم تمكنوا بزعامة ملكهم رجار الأول Roger I (١٠٧٠-١١٠١ م) من انتزاع صقلية من أيدي المسلمين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٢ م) [1] . ومن هناك أخذوا يشنون الغارات على سواحل الدولة الزيرية طمعا في احتلال عاصمتها المهدية . واستنجد الزيريون الصنهاجيون بأبناء عمومتهم المرابطين فلبوا نداءهم ، وسير أمير المسلمين علي بن يوسف قائد أسطوله أبا عبد الله ابن ميمون [2] إلى جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . فشن الغارة على بعض نواحيها ، وافتتح بها مدينة نقوطرة Nicotra[3] من عمل رجار (الثاني) وسبي نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها ؛ فلم يشك رجار الثاني (١١٠١ - ١١٥٤ م) أن المحرك لذلك والمسبب له هو أمير أفريقية الحسن بن علي بن يحي[4] ، فاستنفر أهل بلاد

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٣٠ حاشية .

(٢) يرد اسم هذا القائد أحيانا باسم محمد بن ميمون ، وأحيانا أخرى باسم علي بن ميمون .

(٣) يذهب البعض إلى أن هذه المدينة تقع في اقليم كلابريا في جنوب ايطاليا . راجع مادة نقوطرة في فهرس المكتبة الصقلية لاماري .

(٤) هو الحسن بن علي بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي آخر ملوك بني زيري الصنهاجيين على افريقية .

الروم قاطبة[1] ضده ... الا أنه يلاحظ أن الملك روجار الثانى ، كثيرا ما كان يعمل حسابا لقوة المرابطين فيعدل عن خططه العدوانيـــة ضد الوبريين [2] ، ولعل مما يلفت النظر فى هذا الصدد أن استيلاء روجار الثانى على المهدية لم يتم الا فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) أى بعد سقوط دولة المرابطين بقليل [3].

ولقد كان سقوط دولة المرابطين على يد قوة فتية مغربية جديدة هى دولة الموحدين . ومن الطريف أن أحداث نهاية هذه الدولة قد اقترنت ببحريتها عندما حاول السلطان المرابطى تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين أن يستعين بأسطوله فى الفرار الى الاندلس ، فرحـــل إلى ثغر وهران Oran بالجزائر سنة ٥٣٩ هـ ، وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن على بن عيسى بن ميمون [4] ، الى أن وصل إليـــه من المرية فى عشر سفن حربية ، فأرسى قريبا من معسكره ، غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على أحاطوا بالمدينة من كل جانب . ولجأ تاشفين إلى

---

(١) أمارى المكتبة العربية الصقلية ص ٣٧١ .

(٢) أمارى : نفس المرجع ص ٢٨٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ ١١ ص ٥٦ - ٥٨ ، وكذلك مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧) .

(٤) الحميرى . الروض المعطار ص ١٤٧ والترجمـــة الفرنسية ص ١٧٦ ، ويلاحظ أن السلاوى الناصرى قد أورد اسم هذا القائد على أنه محمد بن ميمون (الاستقصاء حـ ٢ ص ٦٤) .

ربوة هناك مشرفة على البحر ، فأحدقوا بها وأضرموا النار حولها ، حتى اذا غشيهم الليل ، خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل فمات فى ٢٧ رمضان من تلك السنة [١] . وبموت تاشفين ثم ولده ابراهيم من بعده ٥٤١ هـ (١١٤٦) . تنتهى هذه الدولة المجاهدة .

والخلاصة إن المرابطين كانوا قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعانى النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة رفعوا من شأنها إلى درجة انها صارت اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكرى يمنحه كل سلطان مرابطى لأتباعه المجاهدين ليؤكد من جديد سنة أسلافه فى إيثار الجهاد والرباط والذود عن الإسلام . ويكفى أن نشير إلى سلسلة الرباطات والمحارس التى انتشرت فى أيامهم على طول السواحل المغربية والأندلسية . ولعل من أهمها ذلك المحرس أو الطالع العظيم الذى بنوه فى مدينة سبته ليشرف على كل حركة فى المضيق . وقد شرح أهميته أبو القاسم الانصارى السبتى بقوله : « ومنها الطالع الكبير الفذ النظير ، طالع سبتة الذى بأعلى جبل ميناثها المعروف عندنا بالناظور . ابتناه المرابطون هنالك للناظر الراتب ، به حصنا وبه قلهرة كبيرة [٢] . وبداخل القلهرة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضى أبى الفضل عياض . وهذا الطالع من أعجب

---

(١) راجع السلاوى : نفس المرجع جـ ٢ ص ٩٤ .

(٢) قلهرة بمعنى قلعة أو برج القلعة (Dozy : Suppl . II p. 401)

الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بر الريف ، ومن مالقة شرقا والى ماوراء طريف غربا ، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفى حكم أهلها إذا تقع فتنه أو يحصل حصار [1] .

البحرية فى عهد الموحدين :

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية اصلاحية تهدف إلى تحقيق وحدة اسلامية شاملة كما هو واضح فى كتابات مؤرخيهم وشعرائهم .

ثم بدأ الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن بن على (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ = ١١٣٠ - ١١٦٣ م) عملياته العسكرية فى المغرب والاندلس ، إذ كان من الطبيعى لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الأندلس ، وشرقا عبر المغرب العربى الكبير كى يتم لها توحيد المغرب الاسلامى وتكتيله ضد القوى الصليبية فى البر والبحر .

ولم يلق عبد المؤمن صعوبة فى ضم الاجزاء الغربية والوسطى من الاندلس، اذ سارع أمراء هذه المناطق بإعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين وكانت ولاية شريش Jerez فى طليعة هذه الولايات (٥٣٩هـ=١١٤٤م) ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين ، وصاروا مقدمين على غيرهم فى التشريفات الملكية . كذلك انضم الى الموحدين فى السنة التالية أمير البحر على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين الذى كان قد استقل

---

(١) راجع محمد بن القاسم الانصارى السبتى : وصف سبتة (القرن ١٥م) نشر ليفي بروفنسال فى Hesperis 1931 , Tome XII fasc .II p. 156)

بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم . كذلك انضمت اشبيلية الى الموحدين ، وسافر وفد من أعيانها برئاسة القاضى أبى بكر بن العربى المعسافرى ، إلى العاصمة مراكش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن على(١).

أما الاقليم الشرقى للأندلس Levante ، فقد عارض امراؤه فكرة الوحدة مع المغرب ، وأعلنوا استقلالهم بإماراتهم(٢) ومثال ذلك مدينة المرية التى استقل بها أهلها من رجال الأسطول (القطائع) وغزاة البحر ، وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة ، وصاروا يغـــيرون منهـا بأساطيلهم على شواطىء أسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا .

ولقد تكالبت على هذه الإمارة البحرية أساطيل برشلونه ومونبليبيه وجنوا وبيزا ، بالإضافة إلى جيوش قشتاله وقطلونيـا ونـافارا وجليقيـة وأشتوريش ، التى حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ، ثم احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ (١١٤٧م) ، وسلمتها لملك قشتاله وليون الفونسو السابع الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبى لم يدم أكثر

---

(١) راجع (السلاوى : الاستقصا حـ٢ ص ١٠٤) وقد توفى القاضى أبو بكر ابن العربى وهو فى طريق عودته بالقرب من مدينة فاس، ودفن خارج الباب المحروق سنة ٥٤٣هـ (١١٤٧م) ، ولايزال قبره يزار هناك الى اليوم بجوار قبر ابن الخطيب .

(٢) إذا تصفحنا تاريخ هذا الاقليم الشرقى الأندلسى فى مختلف المصـادر الإسلامية ، نجد أنه كثيرا ما جنح الى الاستقلال وإثارة القلاقل فى وجه الأمويين والمرابطين والموحدين وكذلك فى أيام بنى نصر ملوك غرناطه ، وهـذه ظاهـرة تدعو الى الإلتفات والدراسة .

من عشر سنوات ، إذ تمكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية سنة ٥٥٢ هـ[1] .

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن الجزر الشرقية (البليار) التى استقل بها محمد بن غانية وأولاده من بعده . وبنو غانية كانوا فى الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين فى الأندلس ، ويقال أنهم عرفوا ببنى غانية على اسم أمهم غانية [2] . وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين ، إذ نجد كثيرا من قوادهم ينسبون إلى أمهاتهم مثل ابن عائشة وابن فاطمه وابن الصحراوية وغيرهم .

ولقد ظل بنوغانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية مدة طويلة ، إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية فى حوض البحر المتوسط ، فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا ، وهاجموا سفنهم فى البحر . كذلك كانت تربطهم فى بعض الأحيان بجمهوريتى جنوه وبيزا الايطاليتين علاقات تجارية طيبة : وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين فى الدعاء للخلفاء العباسيين فى بغداد ، واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم ، إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت يهادنون الموحدين ويداورونهم بالهدايا والأموال تجنباً لخطرهم ، وفى ذلك يقول عبد الواحد المراكشى فى سيرة اسحاق بن محمد غانية : «وأقبل

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين حـ ١ ص - ٢٣٤

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٧ - ٢٧٦

على الغزو ، وصرف عنايته إليه ، فكان له فى كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم ، يغنم ويسبى وينكى فى العدو أشد نكاية إلى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالا ، فقوى بذلك أمره وتشبه بالملوك . وكان يراسل الموحدين ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبى ويغنم بنفيسه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها . وخرج فى سنة ٥٧٩هـ إلى بلاد الروم غازيا ، فاستشهد رحمه الله هناك[1] . ولم تخضع هذه الجزر لسلطان الموحدين إلا فى سنة ٥٩٩هـ أيام الخليفه الناصر .

كذلك استقل بولايتى بلنسية ومرسية فى شرق الأندلس ، الأمير محمد بن سعد بن مردنيش . وواضح من اسمه أنه أصل أسبانى وهو مارتين Martinez . غير أن هذه الامارة لم تلبث أن انضمت إلى الموحدين بعد موت عاملها فى عهد يوسف بن عبد المؤمن وصار أبناء ابن مردنيش من كبار قادة الأسطول الموحدى .

وهكذا نجد أنه باستثناء بعض الإمارات الشرقية ، فان معظم الأندلس قد انضم الى الموحدين منذ أيام الخليفة الأول عبد المؤمن ابن على .

أما بالنسبة للمغرب العربى فلقد قام عبد المؤمن منذ سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده لأول مرة فى تاريخ المغرب منذ أن افتتحه العرب : فبدأ أولا بضم

---

(١) عبد الواحد المراكشى . المعجب ص ٢٦٩

وطنه الأصلي المغرب الأوسط[١] ، ثم احتل تونس وسوسه وصفاقس وطرد النورمانديين من المهدية وغيرها من بلدان سواحل أفريقية ، كما استولى على طرابلس وما وراءهـا ، وبذلك تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وإلى الصحراء الكبرى جنوبا وفى ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار : وكلمة التوحيد والهداية متصلة من طرابلس الى مدينة غانة[٢].

ولقد شارك الاسطول الموحدى مشاركة فعالة فى تلك العمليات الحربية السالفه الذكر ولاسيما فى حصار المهدية التى كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر ، فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن زحف اليها بجيوشه والاسطول يحاذيه فى البحر ، وكان يتكون من سبعين شينيا [٣] وطريدة [٤] وشلندى [٥] بقيادة محمد بن

---

(١) يقال إن عبد المؤمن حينما مر بمسقط رأسه وهى قرية تاجرا بأرض كوميه بالجزائر ، تشبثت به امرأة عجوز وهى تصيح فى زهو وافتخـار « هكذا يعود الغريب إلى بلاده » وهى عبارة جميلة تعبر عمـا ينبغى على الشباب عمله وهم فى بلاد الغربة كى يعودوا إلى بلادهم ظافرين مرفوعى الرأس .

(٢) كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار (لمؤلف مجهول من كتاب الموحدين) ص ١١١ . نشر سعد زغلول.

(٣) الشينى أو الشوانى السفينة الحربية الضخمة التى كانت تتكون من عـدة طبقات كالقلعه Galére .

(٤) الطريدة والطراد سفينة صغيرة سريعة أطلق عليها الاسبان اسم Tarida

(٥) الشلندى وجمعها شلنديات ، وهى نوع من المراكب الحربية الكبيرة المسطحة لحمل المقاتلة والسلاح .

عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور فى قيادة البحر [1] ، وابن الخراط وأبى الحسن الشاطبى وغير هؤلاء ممن هو مثلهم فى المعرفة والشهرة ، ثم ضرب حول المهدية حصاراً من البر والبحر [2] . ثم ركب عبد المؤمن سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر ليتفقد حماتها من هذه الناحية فهاله أمرها ، وعلم أنها لا تفتتح بقتال وليس لها إلا مطاولة الحصار ، فتمادى حصاره لها ستة أشهر ..

ويؤثر عن عبد المؤمن أنه قال للحسن بن على الصنهاجى آخر أمراء بنى زيرى الذى كان صاحبها قبل احتلال النورمانديين لها ٥٤٣ ﻫ (١١٤٨م)

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن أمير البحر أبا الحسن على بن عيسى بن ميمون الذى كان قائدا للمرابطين ثم انضم الى الموحدين حتى صار يسمى بصاحب البحر الموحد ، قد انتهت حياته عندما تعقب فارس المرابطين يحى بن أبى بكر بن يوسف ابن تاشفين الملقب بالصحراوى أو ابن الصحراوية فيروى البيذق أن هذا القائد الصحراوى حينما فر الى سبتة أرسل عبد المؤمن وراءه صاحب البحر على بن عيسى الذى حاصر سبتة بأسطوله ، فخرج إليه الصحراوى وقال له : أريد أن يكون توحيدى على يديك يا أبا الحسن . فقال له نعم أحملك إلى الخليفة . ولما أنس له هبط على بن عيسى من الغراب وأراد الجلوس معه فرأى فى وجه يحى الصحراوى الغضب ، فأراد أن يرجع إلى الغراب فرمى عليه يحى حصانه وضربه بالرمح فوصل بين الكتفين حتى نفذه . (راجع البيذق : كتاب أخبار المهدى وانقضاء دولة الموحدين ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ٢٠٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٠ حاشية ٣ ، نشر وترجمة بروفنسال) وكذلك (المراكشى : المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٢) راجع رحلة التجانى ص ٢٤٧ وما بعدها .

« ما الذى أخرج هذا المعقل من يدك ؟ » فقال له « أخرجه انقضاء الأمر وعدم الثقة بأحد » . فصدقه عبد المؤمن واستحسن كلامه .
وحاول ملك صقلية النورماندى وليام بن رجار (١١٥٤ - ١١٦٦ م) انقاذ المهدية . فأرسل اليها أسطولا كبيرا من مائة وخمسين شينيا غير الطرائد . فلما ظهرت طلائعه فى الأفق : تقدم مقدم الاسطول الموحدى ابن ميمون بين يدى الخليفة عبد المؤمن وقال له : هذا الأسطول قد أقبل وهو لا يصل إلا متفرقا بحكم النوء ، فلتأذن لنا بالخروج إليه فسكت عبد المؤمن ، فاغتنموا سكوته وبادروا إلى القطع فملأوها بما تحتاج إليه من العدد ، واصطفت عساكر المسلمين على الساحل . فلما قاربت شوانى الفرنج المهدية . حطوا قلاعهم ليدخلوا الميناء ، فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن ، فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر ، ودخل الرعب قلوبهم ، وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر ، واقتتلوا فى البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج ، وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شوانى ، ولو كان معهم قلوع لأخذوا أكثرهم . وعاد أسطول المسلمين ظافراً منصوراً فسجد عبد المؤمن شكراً لله ، وفرق فى غزاة الأسطول اثنى عشر ألف دينار مؤمنية . (١)

---

(١) أورد أمارى فى المكتبة العربية الصقلية معظم روايات المؤرخين العرب حول فتح المهدية ، وذلك فى الصفحات ٣٠٢ ، ٣١٨ - ٣٢١ ، ٤٠١ - ٤٠٣ ، ٥١٨ ، ٥٠٦ ، ٥٤٠ .

ويبدو أن ملك صقلية وليام بن رجار قد رأى فى ذلك الوقت عدم التورط فى حرب مع الموحدين كى يتفرغ لحرب فردريك الأول (بربروسا) امبراطور ألمانيا ، فترك المهدية لمصيرها المحتوم [1] . ولما يئست حامية المدينة من النجدة ، طلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأن يعودوا إلى بلادهم ، فأجابهم عبد المؤمن الى طلبهم ودخل المدينة بكرة عاشوراء من المحرم ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) [2]. ولقد وجه عبد المؤمن عنايته نحو إنشاء وتعمير المراسى ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والأندلسية . ولا شك أن اهتمام هذا الخليفة بانشاء بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضتها عليه طبيعة تلك الانتفاضة الدينية الاصلاحية التى قام بها الموحدون والتى اتسمت بطابع العظمة والتوسع والزعامة الاسلامية . ولم يجد عبد المؤمن صعوبة فى الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضرورى لبناء السفن ، اذ أن كل ذلك كان متوفراً فى جبال وغابات العدوتين، ومن ثم استطاع أن ينشىء أقوى أسطول فى البحر المتوسط على حد قول اندرية جوليان [3] . وقد أشار صاحب كتاب روض القرطاس الى أنه فى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) انتجت دور الصناعة فى العدوتين أسطولا من أربعمائة قطعة : منها فى سلا والمعمورة ١٢٠ قطعة ، وفى مراسى سبتة وطنجة وبادس ومراسى الريف

---

(١) أنظر André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord p.110)

(٢) أمارى : المرجع السابق

(٣) (A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord p. 124)

مائة قطعة وفى مراسى وهران وهنين وتونس مائة قطعة ، وفى مراسى الأندلس ثمانين قطعة (١) وفى هذا المعنى يعطينا المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة وصفا يدل على مدى الاستعداد والقوة والرخاء فى ذلك العهد . فيقول . « وأن أمير المؤمنين - عبد المؤمن - رضى الله عنه ، أضمر غزوة عظمى للروم بجزيرة الأندلس براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لديه والرجاء، فأمر بانشاء القطائع فى سواحل العدوة (٢) والأندلس ، فصنع منها زهاء مائتى قطعة ، أعد منها فى مرسى المعمورة بحلق البحر على وادى سبو بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة ، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور ، وأعد باقى العدد الذى ذكرته فى أرياف (٣) العدوة والأندلس . وأمر بكتب الرجال والرؤساء والأبطال لعمارتها والقيام بحمايتها والنظر فى آلاتها، وأعد من القمح والشعير للعلوفات

---

(١) ابن أبى زرع . روض القرطاس ح ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) المقصود بالعدوة هو بلاد المغرب بصفة عامة ، والعدوة (بضم العين أو كسرها أو فتحها) شاطىء الوادى وجانبه والنسبة اليها عدوى ، لهذا أطلقت على عدوتى المغرب والأندلس لأن بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوتى سلا والرباط ويفصلها وادى أبو الرقراق ، وعدوتى فاس وبينهما وادى فاس أو وادى الجواهر . كذلك أصطلح على اطلاق كلمة العدوة ، لا على المغرب الأقصى وحده بل على المغرب العربى الكبير أيضاً ، ونجد ذلك واضحا فى جغرافيــة الادريسى مثلا على اعتبار أن المغرب الكبير يمثل جانبا مقابلا لأوروبا وبينهما البحر المتوسط

(٣) سبقت الاشــارة الى أن المقصود بالريف فى المغرب والأندلس هو ريف البحر أو الأراضى المتاخمة للبحر أو المحيط .

والمواساة للعساكر على وادى سبو، بالمعمورة المذكورة مما عاينته مكدسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله، ولاسمعنا به فى جيل من الأجيال، بقى فى ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين الى عام اثنين وستين وخمسمائة، حتى فنى فى أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه فى بعض، وافساد الزمان له فسادا (١).

والى جانب دور الصناعة السالفة الذكر، كانت توجد أيضا دار صناعة فى قصر مصمودة (٢) التى كانت تبنى فيها مراكب النقل التى يسافر عليها الجنود .... أنهم الى الأندلس. كذلك كانت توجد دار صناعة كبيرة فى الموضع المعروف حتى اليوم باسم الحبالات (بضم الحاء وتشديد الباء) شرقى فاس عند ملتقى وادى فاس بوادى سبو، وكانت تنشأ بها القوارب والسفن الصغيرة ثم تنساب منها الى وادى سبو، وتصعد فيه حتى مصبه فى المحيط الاطلسى. وقد أنشأ هذا المصنع الخليفة عبد المؤمن عندما أراد أن يتوجه لفتح المهدية سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م). (٣)

---

(١) راجع (ابن صاحب الصلاة: كتاب المن بالإمامة ص ٢١٣-٢١٥، نشر عبد الهادى التازى).

(٢) قصر مصموده أو قصر المجاز أو القصر الصغير الذى بناه من قديم أحد زعماء قبيلة مصمودة بالقرب من طنجه أيام طارق بن زياد، وتقابله بلدة طريف Tarifa فى العدوة الأندلسية المقابلة، والمسافة بينها عبر المضيق ٢٠ ميلا (ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢١٠-٢١١)

(٣) الجزنائى: زهرة الآس ص٢٧، وقد ورد فى النص اسم المكان على شكل الحبالات وصحته الحبالات. وهو اليوم عبارة عن بساتين وحقول فى القسم

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضى المغربية ، فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور أو الطلائع التى تشعل النار على قممها ليلا وينبعث منها الدخان نهارا لإنذار الاهالى فى حالة وقوع غارة بحرية معادية. هذا الى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه وهى تقابل الأجراس والأبواق عند المسيحيين. ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الأطلسى جنوبى الجديدة (مازيغان) بنحو ١٢ ك م. ويؤرخ بناء هذا الحصن فى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢م)[1]. كذلك نذكر قصبة المهدية التى بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥هـ عند مصب وادى أبى الرقراق فى مكان مدينة الرباط أو قصبة الوادية الحالية على ساحل المحيط الأطلسى. وقد سماها بالمهدية تيمنا باسم المهدى بن تومرت ، وأجرى لها الماء فى سرب تحت الأرض من دين غبوله التى تقع فى جنوب غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلو مترا ، وما زالت آثار السقاية المتفرعه منها باقية الى الآن[2].

وقد نقش الخليفة على الباب الشرقى لهذه القصبة تلك الآية الكريمة

= الشرقى من مدينة فاس. راجع (الترجمة الفرنسية لكتاب الجزنائى ص٦٨ حاشية٣ ترجمة الفرد بل Alfred Bel الجزائر ١٩٢٣) .

(١) راجع (Georges Marçais : L'architecture musulmane d'Occident p. 222, Paris 1954)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢١٨ ، ٤٤٨ ؛ أبن أبى زرع : روض القرطاس حـ ٢ ص١٦٧ ؛ السلاوى الاستقصا حـ٢ ص١٢٨ وكذلك (Caillé : La Ville de Rabat p. 27)

التى ترمز الى جهاد العدو المهاجم من البحر « ياأيهـا الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ...... الى قوله وبشر المؤمنين (١).

ولايبعد أن يكون قصد الخليفة الموحدى فى اطلاقه اسم المهدية على هذه القلعة ، هو تقليد الفاطميين فى تسميتهم للمهدية الشرقية بتونس ، وإن كانت الرواية السائدة تقول بأن أهل الأثر وكذلك المهدى بن تومرت كانوا قد بشروا ببناء مدينة فى هذا المكان والزمان. (٢)

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو عدم الالتباس بين مهدية الموحدين التى صارت رباط الفتح عاصمة المغرب الآن ، وبين مدينة المهدية الحالية أو المعمورة التى تقع على الضفة اليسرى لمصب وادى سبو بالغرب من القنيطرة على ساحل المحيط الأطلسى. فهذه المدينة الأخيرة سميت بالمهدية أيام العاهل المغربى المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢هـ (١٦٨١م) عندما ضيق الحصار على الجيش الأسبانى المرابط فيها ، فخرج راهبا مستسلما وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان ، فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها المهدية (٣).

(١) راجع (محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص١٣)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٤٧

(٣) عبد الهادى التازى: مهدية المولى اسماعيل ، مجلة المغرب مايو ١٩٦٢ ، عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج٢ ص ٧٢ وكذلك : (Caillé ' La Ville de Rabat p. 63)

هذا ولم ينس عبد المؤمن أن يربط بين قصبة المهدية وبين مدينة سلا المقابل لها ، بجسر من السفن المشدود بعضها ببعض السلاسل عبر وادى الرمان (أبو الرقراق الحالى) وعليها ألواح خشبية كى تمر عليها جيوشه ومعداته المتجهة الى أسبانيا (١).

على أن العمل العسكرى الهام الذى توج أعمال عبد المؤمن وخلد ذكراه هو تلك المدينه البحرية الحصينة التى بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ (١١٦٠م) وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضا بجبل الفتح (٢). وقد قام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من العمال والبنائين الأندلسيين ، كما أشرف على بنائها مجموعة من العرفاء أو المهندسين المشهورين أمثال الحاج أبن يعيش المالقى ، والعريف احمد بن باسه ، اللذين قاما بأعمال فى هذا الجبل وفى غيره من المشروعات العمرانية ، تشهد لهما بالبراعة والنبوغ ، كما تشهد لعصر الموحدين بالنهضة والتقدم (٣).

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٥٠

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص٢١٣، الحلل الموشية ص١١٩-١٢٩ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٢١

(٣) الحاج يعيش المهندس هو الذى صنع فى أعلا جبل طارق أول رحى تدار بالريح لطحن الأقوات، إذ أن الطواحين فى العصور الوسطى هى الطواحين المائية التى تدور مع جرية الماء، كذلك ينسب إلى هذا المهندس صنع مقصورة المسجد الجامع بمدينة مراكش التى كانت =

ومن الطريف أنه حينما تم بناء مدينة الفتح ، ركب الخليفة عبد المؤمن سفينة من أسطوله وطاف بها حول جبل طارق ليتفقد حصون المدينة الجديدة ، ويعاين أحوال البناء[1] فيها ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل بمدينة المهدية التونسية قبل الاستيلاء عليها .

ومن حسن الحظ ، أنه يوجد لدينا ضمن مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، الخطاب الرسمي الذي وجهه عبد المؤمن الى رعاياه حول تفاصيل هذا المشروع الكبير[2] . كذلك توجد تفاصيل أخرى هامة في هذا الموضوع في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة[3] ، هذا الى جانب القصائد الشعرية التي قيلت بمناسبة زيارة عبد المؤمن لهذه المدينة بعد انتهاء العمل فيها ، وقد تضمنت اشارات هامة في وصف الأسطول الموحدي الذي صحب الخليفة في هذا المهرجان الكبير .[4]

= تتحرك بطريقة آلية فترتفع عند خروج الخليفة عبد المؤمن وتنخفض عند دخوله. أما المهندس ابن باسه فهو الذي قام ببناء جامع اشبيلية وصومعته الشهيرة باسم الخيرالدا ومعناها بالأسبانية الدوارة.

راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص١٤٢، ٤٦٧-٤٦٩ ، ٤٧٤)

(١) ابن صاحب الصلاة نفس المرجع ص١٤٤.

(٢) انظر (Levi- Provençal: Trente Sept-lettres officielles Almohades p. 95-99 (Rabat 1941)

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ١٣٧ وما بعدها

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ١٥٩ - ١٦٤ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٦٦ ، ٢٦٧.

إلى جانب هذه المصانع المادية التى تنتج السفن الحربية وما يلزمها من معدات وآلات ، اهتم عبد المؤمن أيضاً بالمصـــانع البشرية التى تتولى تربية الجيل الناشىء وإعـــداده للحرب والجهاد فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن أنشأ فى حاضرته مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والأسطول ، وأنه كان يستدعى إليها الشبان (الحفاظ) من أبناء أشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغـــيرها ، ويتولى تربيتهم على حفظ القرآن والحديث ، وتآليف المهدى بن تومرت الخاصة بعقيدة الموحدين . وكان يجمعهم كل يوم جمعة بعد الصلاة فى قصره ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة ، فيمتحنهم فيما درسوه ويزودهم بنصائحه تشجيعا لهم على الاجتهاد . ثم يعمد فى أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراب والرمى بالقوس والسهام والمبـــارزة وركوب الخيل والركض ، ثم فى تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره فى الحى المعروف اليوم باكدال (أى المنتزه) . وأعد فيهـــا طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال فى البحر والتجذيف وقيـــادة السفن والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية ، وكان تعليمهم جميعاً على نفقة الدولة .[1]

كذلك يؤثر عن عبد المؤمن أنه كان يشجع الناس على قراءة ونشر

---

(١) الحلل الموشيه ص ١٢٥ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٩ ، أشباخ : نفس المرجع جـ ٢ ص ٥١ .

الكتب التى تتحدث عن الفروسية أو سيرها أو كتب المغامرات . ومن القصص التى كانت شائعة على هذا العهد قصة جازية والشريف التى يرويها باختصار ابن خلدون فى تاريخه عند حديثه عن دخول العرب الهلالية لافريقية ، وهى فى الواقع ما هى إلا قصة أصل أبى زيد الهلالى الشهيرة (١) .

وهكذا استطاع هذا المجاهد الكبير ، الذى يعتبره المؤرخون المحدثون من أعظم قواد العصور الوسطى ، أن يخلق من المغرب الإسلامى قوة موحدة مجاهدة فى البر والبحر تمهيداً لغزو الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا ، ويؤثر عنه أنه قال لأشياخ وقادة دولته فى هذا الصدد « أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً » فقال القائد الاندلسى أبو محمد سيد راى ابن وزير القيسى (٢) : نقسم العساكر على روم جزيرة الاندلس إلى أربع جهات تكون جهة ابن الرنك (٣) بقلمرية (٤) أولا : وجهة الببوج (٥)

(١) نقل هذه القصة السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) يعتبر من كبار القادة الاندلسيين الذين شاركوا فى غزوات الموحدين ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ولهذا كانت له دراية بأحوال اسبانيا وقد اعتمد بن صاحب الصلاة على روايته مرارا . (راجع كتاب المن بالامامة ص ١١٧ حاشية ٣)

(٣) ابن الرنك هو الفونسو انريك Alfonso Enrique ملك البرتغال

(٤) قلمرية Coimbra قاعدة البرتغال فى ذلك الوقت

(٥) الببوج هو فرناندو الثانى ملك ليون ويلقب بالبوج El baboSo بمعنى الكثير اللعاب أى الأحمق .

بالسبطاط (١) ثانية ، وجهة أذفونش (٢) بطليطلة ثالثة ، وجهة برشلونة رابعة ، فقال له الخليفة أحسنت يا أبا محمد ! ثم قام جميع الأشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطة (٣) وبينما كان عبد المؤمن مقيما فى مدينة سلا والجيوش تحتشد ، والأساطيل تستعد لنقلها إلى الأندلس ؛ فاجأه الموت بعد مرض قصير فلم يمهله حتى يحقق عزمه ، ونقل جثمانه إلى مدينة تينملل (٤) بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

وولى بعد عبد المؤمن ولده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ ١١٦٣ - ١١٨٤ م) الذى كانت سياسته استمرارا لسياسة والده الجهادية . فيروى أنه أمر العلماء بالقاء المحاضرات فى الجهاد على الموحدين ليدرسوها وأنه شارك فى القائها ، فكان يمليها عليهم بنفسه ، وكان كل واحد

---

(١) السبطاط هى مدينة رودريجو Ciudad Rodrigo غربى آبله Avila

(٢) الأذفونش هو ملك قشتاله الفونسو الثامن الملقب بالصغير El chico

(٣) راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص٢١٨-٢٢١)

(٤) تينملل كلمة بربرية مؤلفه من شقين : تين بمعنى ذات ، وملل بمعنى الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى . وهذه القاعدة الجبلية الحصينة كانت مهد دولة الموحدين ، وبها بنى المهدى بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد مماته . راجع (الادريسى : نفس المرجع ص٦٤ ، الاستبصار ص٢٠٨ ، محمد الفاسى : الاعلام الجغرافية ، مجلة البينة ، مايو ١٩٦٢) كذلك ؛ (Basset et Terrasse ; Tinmel, Hespéris 1924)

من هؤلاء الطلبة يحمل لوحا يكتب فيه ما يملى عليه . [1] وما يقال عن اهتمام هذا الخليفة بتربية هذا النشء وتوجيهه ، يقال ايضا عن اهتمامه بتقوية بحريته ، وقد لاحظ ابن خلدون أن تفوق الأسطول في عهده كان تفوقا ملحوظاً بز من قبله ومن بعده ، وفي ذلك يقول : « ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد . وكان قائد أساطيلهم احمد الصقلي أصله من صدغيان الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش ، أسره النصارى من سواحلها وربي عندهم ، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك ، وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ، فلحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني عبدالمؤمن ، فأجازه إلى مراكش ، فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والتكرمة ، وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله ، فجلى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ؛ وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه [2] .

كذلك يروى المراكشي أن ملك صقلية (وليام الثاني) صالحه وأرسل اليه بالإتاوة بعد أن خافه خوفا شديدا ، فقبل منه ما وجه به

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمه ص ٢٥٥ ، أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

اليه ، وهادنه على أن يحمل اليه فى كل سنة مالا اتفق عليه (١) .

هذا ويلاحظ أن مهمة الاسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد الصليبين ، بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة التى كانت منتشرة بين المسيحيين والمسلمين على السواء ذلك لأن سياسة الموحدين البحرية كانت تقوم على مبدأ احترام نواميس التجارة الدولية وضمان السلام والطمأنينة فى البحار ، وهم بهذا العمل - كما يقول بعض المؤرخين الاوربيين - قد لقنوا أوربا درسا فى بعض مبادئها التى تنادى بها (٢) . وحسبنا الآن أن نضرب على ذلك مثلا بتلك الغارات البحرية التى شنها الخليفة أبو يعقوب يوسف على حصن طبيرة Tavira الذى كان وكرا للقراصنة المسلمين بزعامة ثائر يدعى عبد الله بن عبيد الله . ويقع هذا الحصن فى منطقة غرب الأندلس Algarve على ساحل المحيط الأطلسى على نحو ٦٠ ك.م غربى مدينة فارو (شنتمرية الغرب) . وقد ظل هذا الحصن شجى على أهل المغرب والأندلس فى نهب أموال المسافرين والتجار فى البرارى والبحار منذ سنة ٥٤٦ هـ حتى آخر سنة ٥٦٣ هـ عندما استولى عليه الخليفة أبو يعقوب يوسف وقضى على فساده (٣) .

---

(١) عبد الواحد المراكشى : نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٢) راجع (عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان العددان ٣ ، ٤ ١٩٥٨ - ١٩٥٩) . وكذلك
Alndré Julien . Histoire de l' Afrique du Nord p.123.

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، ابن الابار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢١٨ .

هذا وقد شارك الأسطول الموحدى أيضا فى معظم العمليات الحربية التى دارت ضد القوى المسيحية فى أسبانيا . فى عهد هذا الخليفة يوسف نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين على مقربة من برشلونة وأحرز الأسطول الموحدى كثيرا من ضروب التفوق [1] . على أن معظم العمليات البحرية فى الواقع قد تركزت بصفـــة خاصة فى غرب الأندلس حيث مملكة قشتالة الناشئة التى كانت فى ذلك الوقت قد استقلت عن مملكة قشتالة ، وأخذت تنمو وتتسع جنوبا على حســـاب المسلمين بقيـــادة ملكها الفونسو انريكش Alfonso Enriquez الذى تسميه المصادر العربية بابن الرنك أو الريق . ثم لم تلبث هذه الدولة أن اعترف بها البابا كدولة مستقلة ومنح أميرها المذكور لقب ملك سنة ١١٧٩م ورأى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أن يركز حملاته على هذه الجبهة الغربية البرتغالية لأنها كانت اقرب وأشد الممالك الاسبانية وطأة على المسلمين ، ثم لأنها كانت أيضا معبرا هاما إلى قلب مملكة قشتالة التى كان ملـكها الفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يغـــير على الأراضى الإسلامية المتاخمة له .

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطر الخليفة خلالها أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الأندلسية التى كانت عرضة لغارات هذا الثغر برا وبحرا عن طريق الوادى الكبير ، واهتم يوسف بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالأندلس ، فعقد

(١) أشباخ نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٤٧.

على واديها (أى الوادى الكبير) جسرا من السفن عظيم [١] الهندسة يمتد إلى أطريانه Triana إحدى حواضر اشبيلية . وذلك لإجازة الجيوش المتجهة إلى تلك الجهات الغربية . ويشير ابن صاحب الصلاة أن الخليفة حضر افتتاح هذا العمل الهندسى الحربى فى صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وأمر بأن تكون جيوش النجدة المتجهة إلى مدينة بطليوس التى تهددها العدو ، هى أول من يعبر على هذا الجسر العظيم [٢] كذلك أمر عامله فى اشبيلية أباداود يلول بن جلداسن ، ببناء سور حصين على قصبة اشبيلية من مبدأ بنائه أمام رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية حتى مسجد المدينة ، وبناء دار صنعة للقطائع (أى الأسطول) تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل [٣] . هذا الى جانب بناء قصبتها الجوانية والبرانية وترميم أسوارها ولا سيما المطلة على الوادى ، وتعمير ثغورها الخارجية بعد أن كانت ثغرة من كلب النصارى عليها [٤] .

---

(١) يلاحظ أن هناك فارقا بين الجسور وبين القناطر فى أن الأولى متحركة مثل الكبارى حاليا بينما تكون الثانية ثابتة مثل القناطر الخيرية مثلا . وكانت الجسور عبارة عن سفن يشد بعضها ببعض بواسطة سلاسل بعرض النهر وتوضع ألواح خشبية عليها لمرور الناس والدواب عليها ثم تفتح عند اللزوم لمرور السفن ويذكرنا هذا بالخليفة العباسى إلى جعفر المنصور حينما قال له أحد المهندسين فى مدح موقع بغداد « وانت بين أنهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر أو خربت القناطر لم يصل اليك عدوك » .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٦٢ ، ٢٣٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٨١

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٥ – ٢٣٦

ولم يقتصر اهتمام الخليفة على تحصين اشبيلية وحدها بل شمل مدنا أخرى فى هذه الجبهة الغربية الساحلية مثل قول صاحب الصلاة « وهو الذى حمى بطليوس من الكفر وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادى فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد من الأسلحة والرجال المنتخبة (١) .

وفى خلال ذلك الوقت التحمت أساطيل الموحدين بأساطيل للبرتغاليين فى معارك بحرية ، فأحيانا كانت تنتصر وأحيانا أخرى كانت تنهزم ولكن الغلبة عامة كانت للمسلمين . يروى ابن عذارى أنه فى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩م) اشتدت وطأة البرتغاليين فى البر والبحر ، فولى الخليفة أمير البحر غانم ابن مردنيش (٢) قيادة أسطول سبته ، فعبر غانم البحر غازيا إلى مدينة

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٦ .

(٢) هذا القائد هو ابن أمير بلنسية وشرق الاندلس أبي عبد الله محمد بن سعد ابن مردنيش الذى رفض الاعتراف بحكم الموحدين ودخل فى حرب معم إلى أن مات سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) واضطر أبناؤه أبو القمر وهلال وغانم وابو العلا وغيرهم أن يدخلوا فى طاعة الموحدين وقد عوضهم الخليفة ابو يعقوب يوسف عن ممتلكاتهم بمناصب يتقلدونها وأراضى تقطع لهم فى مملكته كما تزوج أختا لهم تدعى الزرقاء المردنيشية وولع بها وتغلبت عليه حتى صار الناس يضربون المثل بحب الخليفة لها . وواضح من المتن أن معظم أبناء ابن مردنيش قد أسندت اليهم قيادات فى البحرية المغربية . راجع (ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ٩٥ ، ١٠٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧١ (القسم الثانى) .

لشبونه وتغلب فيها على قطعتين من قطائع البرتغاليين الراسية هناك وعاد بهما إلى سبته .

ولقد كان رد البرتغاليين على ذلك بأن أغاروا على جزيره سلطيش(١) Saltes ، وأسروا فيها من المسلمين عددا كبيرا (٢) . وفى السنة التالية ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، عندما كان الخليفة يوسف متوجها إلى افريقية (تونس) ، أمر أمير البحر غانم بن مردنيش بأن يواصل هجماته وغاراته على سواحل البرتغال ، فأقلع غانم وأخوه أبو العلا بالأسطول من سبته فى شهر مايو من تلك السنة ونزلوا بقواتهم فى ميناء سان مارتين دوبورتو San Martin do Porto ، ثم توغلوا فى داخل البلاد البرتغالية محاولين الاستيلاء على بلدة بورتو دى موس Porto de Mos ، غير أن أمير البحر البرتغالى فواس روبنهو FuaS Roupinho استطاع بمساعدة أهالى شنترين Santaren وألكنينا Alcanena أن يعد كمينا للغزاة المسلمين فى جبال منديجا Mendiga عند منابع نهر بورتو دى موس ، ففوجىء المسلمون بالعدو فى هذا المكان الوعر ، فأسقط فى أيديهم ؛ واستشهد منهم عدد كبير بينما أسر القائد غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلا ، وخمسون من

---

(١) جزيرة ساحلية صغيرة أمـــام مدينة أونبه Huelva فى جنوب غرب الأندلس ، ويروى صاحب الروض المعطار أنه كان يوجد بها دار صناعة الحديد الذى يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه ، وهى صنعة المراسى التى ترسو بها السفن (الحميرى : الروض المعطار ص ١١٠) .

(٢) (ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ١١٣) .

الموحدين ، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليها من الملاحين وانصرفوا بها الى اشبونه [١] .

وكتب أمير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله إلى الخليفة يوسف يشكو له سوء حاله ، فوصل كتابه وهو بتلمسان ، فأمر الأمير أبا القمر هلال بن مردنيش بالذهاب إلى مدينة مراكش لينظر فى فداء أخويه غانم وأبي العلا ويأمر بانشاء وإعداد الاساطيل فى الحال . فلما وصل أبو القمر إلى مراكش أحضر المال وبعث به إلى أشبيلية ، فانصرف الفكاك به ودفعه إلى البرتغـــاليين ، وانطلق غانم المذكور من الأسر وكذلك أخوه ومن بقى من أصحابه [٢] .

وتشير المصادر البرتغالية إلى أن هذا النصر الذى أحرزه البرتغاليون قد شجع قائدهم فواس روبينهو على الخروج بأسطول قوى والاغارة على سواحل الأندلس الغربية ثم على مدينة سبته بعد ذلك . [٣] أما المصادر العربية فتشير إلى غضب الخليفة والمسلمين من هذه الإعتداءات ، وكيف أن نفوسهم جميعا قد نشطت لجهاد أعداء الله ، والأخذ بثأر إخوانهم ، فخرج القائد عبد الله بن جامع بأسطول سبته سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٤ ص ١١٦) وكذلك :
(Huici Miranda ; Historia politica del Imperio Almohade. I, pp.279 - 281 , Tetuan 1957) .

(٢) المرجعان السابقان

(٣) المرجعان السابقان

كما خرج القائد أبو العباس الصقلى من أشبيلية بأسطولها أيضا ، واجتمعوا جميعا عند ثغر قادس وقد استكملوا أربعين قطعة ، فمضوا منها بجمعهم إلى جهة شلب Silves والتقوا بالأسطول البرتغالى نفس المكان والزمان الذى أسر فيه غانم بن مردنيش فى منتصف المحرم من العام الفارط ، وهذا من أغرب الاشياء . وقد نصر الله المسلمين فى هذا اليوم نصرا مبرورا ، وقتل من النصارى وأسر منهم نحو الألف وثمانمائة ، ولم يمت فيه من المسلمين إلا عدد قليل ، وأخذت للعدو من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم ، وانصرفوا ظاهرين ظافرين الى موضعهم » . [1] ولقــد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التى حاقت بأسطولها كما أنها تجمع على أن أمير البحر البرتغالى فراس روبينهو قد لقى مصرعه فى هذه المعركة [2] .

ويضيف ابن عذارى أن هذا الهجوم البحرى قد صحبه هجوم برى قام به قائد جيش الموحدين فى أشبيلية أبو عبد الله بن وانودين الذى استطاع أن يعيد مدينة يابره Evora ، وأن يستولى على بعض الحصون المجاورة لها وأن يسبي من النساء أربعمائة بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال مائة وعشرين ثم يعود ظافرا إلى أشبيلية حيث بيع السبي وكثر عند الناس الخدم [3] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) راجع :

(Cronicas dos seie primeros reis de Portugal, I. p. 125 y sig. & Huici Miranda : Op. cit. 1 , p.280

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ١١٧ .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين فى البر والبحر دون أن تسفر عن نتائج حاسمة. ولهذا عزم الخليفه أبو يعقوب يوسف على أن يقود غزو البرتغال بنفسه ، وحشد لهذه الغاية قوات عظيمة وأسطولا ضخما من سفن القتال ومراكب النقل لشحن آلات الحصار والمؤن والسلاح بقيادة أمير البحر أبى العباس الصقلى[1]. ثم عبر الخليفة الموحدى مضيق المجاز ونزل اشبيلية سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤ م) ، وكانت خطته تقضى بمهاجمة مدينة لشبونه من البر بينما يحاصرها الأسطول من جهة البحر عند مصب نهر التاجـو Tajo . ولكنه رأى لإنجاح خطته أن يستولى أولا على مدينة شنترين Santaren ، مفتاح التاجو ، المجاورة لها. فضرب حولها حصاراً واستطاع أن يستولى عليها ماعدا قلعتها.

ولما طال حصار المسلمين لهذه القلعة ، أمر الخليفة بأن يرحل معظم الجيش الى لشبونه كى يتعاون مع الاسطول فى حصارها. ويبدو أن هذا القرار قد جاء مفاجئا لجنوده ، إذ وقع اضطراب فى صفوفهم خصوصا بعد أن ترددت الشائعات بأن الخليفة قد رحل. وبينما كان الهرج يسود هذا الإنسحاب ، إذا بحامية قلعة شنترين تخرج فجأة أثناء الليل وهى تصيح الرى ! الرى ! أى أقصدوا السلطان لأن كلمة رى Rey معناها الملك . ثم انقض أفرادها على معسكر الخليفة ، وتمكن بعضهم من النفاذ الى شخصه وإصابته بجراح قاتلة استشهد على أثرها فى ربيع الثانى سنة ٥٨٠هـ (يوليو ١١٨٤ م).[2]

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع حـ٤ ص١٣٢.
(٢) ابن عذارى: نفس المرجع حـ٤ص١٣٤ ، ابن ابى زرع: روض القرطاس ص ١٤١ ، اشباخ حـ٢ ص٧٤.

كانت وفاة خليفة الموحدين بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنكسة قوية فى المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ، ومثال ذلك بنوغانية حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وتصادف فى ذلك الوقت أن بعض وحدات الأسطول الموحدى كانت فى زيارة رسمية لجزيرة ميورقه بقيادة أبى الحسن بن الربرتير[1]،

---

(١) الربرتير Reveerter أو Reberter هكذا ضبط اسمه دوزى حسب نصوص الحولية اللاتينية للامبراطور الفونسو السابع. أما المصادر العربية فقد ذكرته بأشكال مختلفة مثل الدبرتير والدبرتين والابرتير ... الخ. وواضح من اسم هذا القائد أنه من أصل مسيحى و اذكان ابوه فارســا قطلانيا من برشلونه ثم وقع أسيرا فى يد أمير البحر على بن ميمون الذى حمله الى سلطانه على بن يوسف بن تاشفين بمراكش. فعينه السلطان قائدا على جنوده الاسبان الذين فى خدمته فقام بمهمته خير قيام وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن دولة المرابطين إلى أن قتل فى معركة ضد الموحدين عند تلمسان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥م) وقد أعتنق أبنــه الإسلام وتسمى بأبى الحسن على بن الربرتير. ولما قامت دولة الموحدين إنخرط فى خدمتهم وصار من كبار قوادهم فى البر والبحر إلى أن انتهت حياته هو الآخر فى المعركة التى دارت بين المنصور الموحدى وبنى غانية بافريقية عند بلدة عمره من اعمال قفصه سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م).

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب حـ٤ص١٦ ، ١٥٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص٩٦) راجع كذلك :

(Dozy : Recherches II pp. 437-442 & Lévi-Provençal Documents inédits d'histoire Almohade p. 139 note I)

فتظاهر الميورقيون باستقباله والحفاوة به ، ثم بعثوا سرا الى مراكبه من استولى عليها وأسر بحارتها ، فلم يكن للقائد أبى الحسن محيد عن الاستسلام ، واعتقلوه فى دار الضيافة التى كانوا قد أنزلوه بها ، ووكلوا به من الحرس والرقباء ما أمنوا به مكره واحتياله[١].

ويضيف ابن عذارى أن بنى غانية خرجوا بعد ذلك بأساطيلهم ورجالهم الى الساحل الإفريقى حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب الأوسط سنة ٥٨١ﻫ (١١٨٥ م). ومن هناك أخذوا فى اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين ، وتحالفوا مع قبائل الأعراب من بنى هلال وسليم فى شرقى المغرب ، وكذلك مع جنود الغزو المرتزقة الذين قدموا من مصر واستقروا فى قابس بقيادة الأمير المملوكى قراقوش التقوى[٢]. واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بنى غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الأدنى والأوسط وأن تدعو على منابرها لبنى العباس أعداء الموحدين[٣].

ولم تكن الحالة فى الأندلس أقل خطورة من المغرب ، إذ انتهز

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص١٤٦ وما بعدها .

Campaner y Fuertes : Op. cit. p. 147

(٢) هو شرف الدين قراقوش التقوى مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين الأيوبى، وهو شخصية أخرى غير بهاء الدين قراقوش الأسدى وزير صلاح الدين ونائبه فى مصر ومملوك أسد الدين شيركوه.

(٣) ابن عذارى ج٤ ص١٤٧، رحلة التجانى ص١١٢

البرتغاليون فرصة الاضطراب الذي حل بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفتهم يوسف ، وأخذوا يمتلكون غرب الاندلس برا وبحرا. وقد ساعدتهم الظروف في ذلك الوقت أن قوات صليبية كبيرة من الألمان والانجليز والفلنكيين[1] قد أخذت تتجه تباعا الى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) وكانت هذه الأساطيل الصليبية كثيرا ماترسو في المواني البرتغالية إما رغبة أو اضطرارا.

فتصادف في سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) أن اسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الألمان والفلنك ، اضطر الى الرسو في ثغر لشبونه ، فانتهز ملك البرتغال سانشو الأول Sancho I Enriquez هذه الفرصة ، وطلب من هؤلاء الصليبيين معاونته في قتال جيرانه المسلمين ، فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب Silves وأحدقوا بها من جميع جهاتها . وقد دافع أهلها ببسالة نادرة ولكنهم اضطروا الى الاستسلام بعد أن تمكن العدو من الاستيلاء على بئر قراجه الذي يمد المدينة بالمياه (٢).

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين في المغرب والأندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عاهلهم أبي يعقوب يوسف .

---

(١) سكان الأراضي الوطيئة Netherlands وهي الأراضي الهولندية .

(٢) راجع ابن عذاري : نفس المرجع ج٤ ص ١٧٥) وكذلك & Huici Miranda : Op. cit. I, p. 342 Las Cronicas dos sete primeros reis de Portugal I, p. 152-153

وفى خلال هذه المدة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ - ١١٩٩ م). وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية ، والضرب على أيدى المفسدين فيها أمثال بنى غانية وحلفائهم الغز والأعراب فى المغرب الشرقى . فقام فى الحال بتعبئة قواته البرية والبحرية لغزو تلك الجهات ، وأسند قيادة الجيوش البرية إلى السيد أبى زيد بن أبى حفص ، كما تحركت الاساطيل من سبتة على اختلاف أشكالها ، وعليها أبو محمد بن أبى اسحاق بن جامع ، وأبو محمد بن عطوش الكومى ، والقائد أبو العباس الصقلى ومن دونهم من الرؤساء والأعيان والانجاد والشجعان ، والكل تحت رعى الشيخ أبى محمد بن جامع والى نظرة تحت ما يراه من نهيه وأمره ، ومشى الجميع على قواعد من تظافر البر والبحر ، وتلاقى الفريقين على الفتح والنصر ، فأرتجت الارض برا وبحرا (١) .

ولقد مهد المنصور لهذه الحملة بارسال عيونه وأعوانه فى تلك الجهات وهو ما يعرف الآن باسم الطابور الخامس ، اذ يقول ابن عذارى : « وكان أبو يوسف المنصور أتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتبا لاهل سائر البلاد المغلوب عليها بالامن والامان والصفح والاحسان . ولما دنت الحملة من البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلا الى البلاد ، واجتمعوا بها مع من يوثق به للامن . فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الابواب ، وثبوا

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ج٤ ص ١٤٩

على من كان عندهم من الاعداء ، وأرصدوا لفرارهم بالمضايق ، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق . (١) »

ويشير ابن عذارى بعد ذلك إلى النصر العظيم الذى حققه الأسطول الموحدى فى هذه الحملة سنة ٥٨١ ه بقوله . « وسبقت الاساطيل ففتحت مدينة الجزائر قبل وصول أهل البر ، وضربت الطبول فى يوم واحد مع فتح الجزائر ومليانه ، وقبض على يحي صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانه ... وتقدم القائد أبو العباس الصقلى الى بجاية بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد ، ودسوا لهم كتبا بما وراءهم من الاسطول والجيوش الواصلة ، فلما وصل الاسطول الى بجاية ضجت العامة وفتحت الابواب ودخلت عمائر الاساطيل . (٢) »

ثم توجه الخليفة المنصور الى أفريقية فى السنة التالية (٥٨٢ ه = ١١٨٦ م) حيث تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه ، واتخذ من مدينة تونس مقراً لقيادته ، واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على خصومه ، وفر على بن غانية الى الصحراء حيث ظل محتميا بها الى أن مات سنه ٥٨٤ ه (١١٨٨ م) . أما قراقوش وجنوده الغز وحلفاؤهم الاعراب ، فقد انضموا الى جيوش الموحدين وصح توحيدهم ، وأرسل المنصور عددا كبيرا منهم الى المغرب والاندلس برسم الجهاد (٣) .

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٤ ص ١٥٠
(٢) ابن عذارى : نفس المرجع والصفحه .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٤ ص ١٥٥-١٥٧

وفى خلال ذلك الوقت أستطاع قائد الخليفة المنصور ، أبو الحسن على ابن الربرتير الذى كان معتقلا فى جزيرة ميورقة ، أن ينتهز فرصة غياب معظم أمراء بنى غانيـة فى أفريقيه ، ويداخل بعض مواليهم وجنودهـم المسيحين المرتزقة الذين كانوا فى خدمتهم ويرغبون فى العودة الى بلادهم ، فوعدهم بتحقيق رغباتهم ، وقام معهم بانقلاب فى الجزيرة ضد حكم بنى غانية فى أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٦ م) ، وانضم إليهم حاكم الجـزيرة السابق محمد بن إسحاق بن غانية الذى كان أخوته قد خلعوه واعتقلوه بالجزيرة ، فأقامه الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين . ثم عاد على بن الربرتير إلى مراكش بعد أن سرح الجنـــود المسيحيين بأموالهم وأهليهم وأعادهم إلى بلادهم حسب وعده لهم .

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما علم بنو غانية فى أفريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الى الجـزيرة فورا عن طريق صقلية الأمير عبد الله بن غانية . ويرجح المؤرخ الفرنسى الفرد بل فى البحث الذى كتبه عن بنى غانية أن ملك صقلية وليام الثانى (١١٦٦ - ١١٨٩ م) قد أمد هذا الأمير ببعض سفنه كى يسترد ملكه فى الجزيرة [١] . واستطاع الأمير عبد الله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى رأسهم علج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمداً الذى فر الى الأندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية [٢] .

---

(١) انظر (Alfred Bel : Les Banou Ghanya p.71, Paris 1903)
(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ .

وحاول الخليفة المنصور انقاذ الجزيرة ، فأرسل اليها أسطولا بقيادة أمير البحر أبى على بن جامع ، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده لاسيما بعد أن تدخل أسطول ملك أراجون بدور الثانى Pedro II فى صالح الميورقيين [١]. على أن المنصور وأن كان قد فشل فى احتلال كبرى جزر البليار ، الا أنه قد نجح فى احتلال صغراها ، جزيرة يابسة [٢] Ibiza على يد أمير البحر أبى العباس الصقلى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) [٣].

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح فى اعادة توحيد المغرب الكبير من ليبيا شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، وبذلك أصبح فى مقدوره أن يعبر فى أطمئنان الى الاندلس لجهاد الممالك الاسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة .

ولقد اختار المنصور مدينة المهدية التى أسسها والده أبويعقوب يوسف

---

(١) راجع (Huici Miranda : Op. Cit. II p. 396)

(٢) اشتهرت جزيرة يابسة بشجر الصنوبر الجيد العود الذى كان يصلح للانشاء وعدة المراكب .

راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٨)

(٣) يعلق ابن عذارى على هذا التاريخ بأنه يوافق تاريخ سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين الايوبى راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٦٩ - ١٧٠)

على ساحل المحيط ، وبنى قصبتها قبل ذلك جده عبد المؤمن [١] ، لتكون قاعدة تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل أن تتجه إلى أسبانيا برسم الجهاد والفتح ، ولهذا أطلق عليها المنصور اسم رباط الفتح [٢] وأمر بتعميرها وتحصينها حتى صارت كما يقول إبن عذارى «معقل الدنيا ارتفاعا ووثاقة ومناعة» . [٣] ولم يلبث إسم رباط الفتح أن غلب على هذه المدينة التى قدر لها أن تصبح اليوم عاصمة للملكة المغربية [٤] .

وتظهر براعة هـــذا المجاهد الكبير فى انه استطاع أن يتجنب لقاء

---

(١) راجع الصفحات القليلة السابقة عن بناء هذه القصبة فى عهد المؤمن. أما عن تأسيس المدينة على يد الخليفة ابى يعقوب يوسف ، فيصفه ابن صاحب الصلاة بقوله . وتقدم الخليفة جيوشه على فرسه إلى أن بلغ أسوار القصبة المهدية التى بناها والده ثم دار بفرسة حتى صار مواجها لجنوده ، فبارك جمعهم وطلب منهم البقاء والبناء ، فأخذ الناس يتنافسون فى ذلك .

(٢) بعث الاشارة إلى أن مكان هذه المدينة كان رباطا على برغواطه من قديم ثم جاء المنصور فأكد هذا المعنى حينما أطلق عليها اسم رباط الفتح . ومن الطريف أن عبد الواحد المراكشى سماها فى كتابه المعجب ص ٢٦٦ اسكندرية المغرب لأنها كانت تشبهها فى اتساعها وحصانتها وحسن تقسيمها (السلاوى ج ٢ ص ١٨١) .

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ٣٣٩

(٤) كان ذلك منذ سنة ١٩١٢ م حينما اختارها المارشال الفرنسى ليوتى Lyautey مركزا اداريا للمغرب .

أعدائه فى أسبانيا مجتمعين وأن ينفرد بهم واحداً بعد الآخر ، وهذه الخطة هى التى سار عليها نابليون بونابرت فى العصور الحديثة ، وكانت سر عظمته . وقد شرح المنصور هذه السياسة اللولبية المرنة فى خطاباته الرسمية التى وجهها إلى رعاياه ، إذ بين فيها أنه قد آثر التحالف مع ملكى قشتالة وأراجون كى يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ، ثم رأى أن يتحالف مع ملكى ليون وأرجون كى ينفرد بملك قشتالة فى المعركة [1] .

وبدأ المنصور حركته الجهادية سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) بمملكة البرتغال التى سبق أن استشهد فيها والده ، فهاجمها براً وبحراً ، واكتسح أراضيها ، ولم يجرؤ ملكها سانشو انريكث Sancho I Enriquez (ابن الرنك) على مواجهة المنصور فى معركة عامة مكشوفة ، بل ظل مختفيا وراء جدرانه لاحول له ولا قوة . وكان للاسطول الموحدى قصب السبق فى هـــذه الحملة ، إذا استطاع قبيل المعركة بقليل أن يحرز نصرا على الأسطول البرتغالى سنة ٥٨٦ هـ ، ويعكس عـــدة من أجفانه فيصيرها إسلامية بعد أسر جميع من كان فيها . وقد أعتبر هذا النصر من بواكر الفتوحات ، وهنىء الخليفة المنصور على ذلك مثل قول الشاعر إبن جبير

دلائل فتح كان يذخرها الدهر ∴ فلما أردت الغزو أبرزها النصر [2]

---

(١) نشر هذه الرسائل ليفى بروفنسال تحت عنوان :
(Lèvi Provencal ; Les Trente Sept Lettres Officielles Almohades pp. 218 - 228 (Rabat 1941)

(٢) إبن عذارى البيان المغرب حـ ٤ ص ١٧٧

كذلك شاركت البحرية خلال هذه الحملة بنقل المعدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية فى الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية . وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب Silves والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة قصر أبى دانس Alcacer do Sal سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وقد أشاد ابن عذارى بالخفة والسهولة التى امتازت بها تحركات قطع الأسطول الموحدى بقوله : « ووصلت الاجفان البحرية بالعدد الحربية وقد تسابقت لدخول الوادى بتيسير يعجز العقول عن تكييفه ، فبهت الذى كفر ، وسقط فى أيدى المشركين من كل من ألقى السمع وأبصر . »(١) ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل أننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور .

ثم تحول المنصور نحو مملكة قشتالة فى قلب أسبانيا ، وانتصر على ملكها الفونسو الثامن الملقب بالصغير El Chico عند حصن الأرك Alarcos من أعمال قلعة رباح calatrava سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) . ثم أعقب هذا النصر بسلسلة من الانتصارات الأخرى فى شمال قشتالة خرب فيها أرباض طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط Madrid ووادى الحجارة Guadalejara ووصل إلى أراضى لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبى عامر . ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدى بالمنصور بن أبى عامر .(٢) . ولاشك أن البحرية

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٤ ص ١٨٤ ، عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٨٠

(٢) راجع تفاصيل معركة الأرك فى (ابن عذارى حـ ٤ ص ١٩٢ - ٢٠٥ ؛

كانت من وراء هذه الانتصارات البرية ، تعمل على حراسة المضيق وحماية المواصلات ونقل الحشود والمعدات والرقاصين (عمال البريد) بين العدوتين .

ولعل أكبر دليل على إختصاص الموحدين فى ذلك الوقت بالأساطيل الحربية، هو ماترويه المصادر من أن عاهل مصر صلاح الدين الأيوبى أرسل فى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) سفيرا من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور ، يطلب إعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الصليبيين وبين إمداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة ثغور عكا وصور وطرابلس التى سقطت فى أيدى الصليبيين . وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه فى رسالته بأمير المؤمنين أى لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام(١).

كذلك أورد صاحب روض القرطاس مثلا آخر يدل على تفوق البحرية فى ذلك الوقت ، وهو الخطاب الذى أرسله ملك قشتالة الفونسو الثامن إلى الخليفة المنصور يطالبه فيها بارسال أسطول من المراكب والشوانى والطرائد والمسطحات ، كى يجوز إليه بجيوشه ويقاتله فى بلده(٢). هذا إلى جانب رواية ابن سعيد المغربى (ق٧هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر للعمل فى الأسطول المصرى استنادا إلى الفكرة التى كانت شائعة فى المشرق عن إختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر(٣).

= الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى : كتاب رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة جـ٢ ص ١٥٦ (القاهرة ١٣٤٤هـ) راجع كذلك (. Huici Miranda la Campana de Alarcos p.25-27 Revista del Instituto de Estudios Islamicos de Madrid, Vol. II, 1954.

(١) السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص ١٦٣ - ١٦٣

فأمثال هذه الروايات إن دلت على شيء فانما تدل على تفوق البحرية المغربية والأندلسية في ذلك العهد .

ثم توفى الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩م) ، وقد أثارت وفاته حزنا عميقا في الأوساط الإسلامية(١) ؛ إلا أنها في الوقت نفسه حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة من جديد ، فعاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على أفريقية ، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد ، والدعاء فيها للخليفة العباسي جريا على عادة أسلافهم المرابطين .

كذلك حاول عبد الله بن غانية في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠م) أن يسترد جزيرة يابسة Ibiza من أيدى الموحدين ، فتحرك إليها بأسطوله من جزيرة ميورقة وحاصرها من جميع نواحيها ولكن أهلها قاوموه بشدة ، واستنجدوا

= (٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٤٠ والمسطحات من أكبر السفن الإسلامية وربما سميت كذلك لأن لها سطحا .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ٣ ص ١١١ - ١١٢ .

(١) يقال إن الكثيرين من الناس كذبوا وفاته ، وقال البعض إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورها لجهاد الكفار ، وقال البعض الآخر بل انه توجه الى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول حيث يخفى أمره ، وقال فريق ثالث بل إنه رحل الى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل .

راجع (الزركشي : تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية ص ١١ - ١٢ ، الشريف الغرناطي : رفع الحجب المستورة جـ ٢ ص ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، ابن عذارى جـ ٤ ص ٢١١) .

بأسطول الموحدين ، الذى كان قريبا منهم ، فأسرع لنجدتهم بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، واشتبك مع ابن غانية فى معركة بحرية انتصر عليه فيها ، وظفر منه بطريدتين أضرمها نارا ، ورجع عبد الله بن غانية خائب الوجه[1].

ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو عبد الله محمـــد الناصر لدين الله بن المنصور (٥٩٥ - ٦١١ هـ ١١٩٩ - ١٢١٤م) أن استقرار نفوذ الموحدين فى افريقية لن يستتب إلا اذا استولى على جزر البليار ، قاعدة بنى غانية ، ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية . لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها[2].

ولقد أعد الناصر لهذا الفرض حملة ضخمة فى ثغر دانيه Denia ، أسند قيادة الأسطول فيها الى عمه أبى العـــلاء ادريس بن يوسف عبد المؤمن ، كما أسند قيادة الجيش الى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . وكانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس ، والرماة سبعمائة، والرجالة خمسة عشر ألفا ؛ غير غزاة القطع . وكان الاسطول فى ثلاثمائة جفن ، منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريده ، وخمسون مركبا كبارا ، وسائرها قوارب منوعة . وأما العدد والسلاح والمجانيق والسلالم والمساحى والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشىء لا يأخذه عدد ، وكذلك الدروع والرماح والبيضات والاتراس والدرق والقسى وصناديق النشاب وجملة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص ٢١٦

(٢) يلاحظ أن الجزيرة الصغرى يابسة كانت فى بدء الموحدين منذ سنة ٥٨٣هـ أيام المنصور ، والمراد هنا احتلال جزيرتى ميورقه ومنورقه .

وافرة من الطعام ؛ فأدوا صلاة الجمعة بيابسة ، وأقلعوا غدوة السبت الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣م) ، فأتوا ميورقة Mallosca ونزلوا فيها وتقدم الجنود نحو المدينة ، بينما دار الأسطول بالمرسى مع أبى العلاء ، وخرج إليهم عبد الله بن غانية بجموعه ، ودافع كل الدفاع ثم انهزم وقتل ، وأغلقت المدينة بابها ، فأحاطت بها الرماة وغزاة البحر ، فتغلبوا عليها ، فدخلت ونهبت ولم يسلم إلا قصبتها . ودخل البلد السيد أبو العلاء قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد قائد الجيش ، ورأس عبد الله ابن غانية معهما على قناة بيد رجل غزى كان قطعه ، فنهيا الناس عن النهب ، وأمرا بضرب عنق رجل فعل ذلك وخالف النهى ، وطيف برأسه ، وأمنا الناس ، ونودى بالأمن فى الأزقة والقصبة ، فخرج الناس وأمنوا ، وكتبا إلى الملك الناصر بالفتح[1]. ويضيف ابن عذارى أن السيد أبو العلاء أسرى بأسطوله الى الجزيرة الثانية منورقه Monorca ، وكان ابن غانية قد ترك عليها مولى أبيه ابن نجاح[2]. السالف الذكر ، فبطش الأسطول بأهلها قبل التئام أحوالهم وترتيب قتالهم ، فدخل البلد عنوة ، وقبض على ابن نجاح وارسله الى العاصمة مراكش فهلك بها[3]، وبذلك تم للموحدين إحتلال الجزر الشرقية أو البليار . وكان من الطبيعى بعد ذلك

---

(١) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣١٤ — ٣١٥ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٩) .

(٢) يسميه المراكشى (المعجب ص ٣١٧) بالزبير بن نجاح ويقول بأن الموحدين تناوه وبعثوا برأسه الى مراكش

ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٦ .

أن يتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى أفريقية ، فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله(١) سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) و ستولى على تونس والمهدية ، وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس . ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى أفريقية يتوقف على إقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف فى إدارتها . فاختار لهذا الغرض واليا من قرابته وهو الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص الهنتانى جد الملوك الحفصيين(١).

وبعد أن تم للناصر توحيد المغرب الكبير، تقدم بجيوشه وأساطيله نحو الأندلس للقيام بالدور الذى كان يحلو له ولآبائه من قبل وهو جهاد الممالك النصرانية فى أسبانيا .

واستطاع الأسطول الموحدى فى بادىء الأمر أن يحرز نصرا باهرا على أسطول ملك أراجون إذ يقول ابن عذارى : وفى سنة ٦٠٧ هـ . (١٢١٠م) تحرك السيد أبو العلا قائد أساطيل البرين إلى بلاد برشلونه بجميع أجفان العدوة والاندلس على معاندة ومنافسة من أهل البلاد فى الاحتفال ، وتمكن من العدد الوافرة والأموال ، فكانت أحسن حركة للمسلمين ، وأرحش فجيعه وأعم وقيعة جرت على الغزاة البحرين ، وأوقع خسارة كانت بقلوب الكافرين (٢).

---

(١) السلاوى : الاستقصا حـ ٢ ص ١٩٣ ، رحلة التجانى ص ٣٦٢ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ٢٤٣ .

غير أن الأوضاع السياسية في أسبانيا في ذلك الوقت ، قد تغيرت عما كانت عليه في عهد المنصور ، ذلك أن الأسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل أعلنوا الدعوة لحرب صليبية في أوربا وبارك البابا أنوسنت الثالث حركتهم ، فجاءتهم جيوش جرارة من إيطاليا وفرنسا والمانيا . ولم يستطيع الخليفة الناصر الصمود أمام هذه القوى الصليبية المتحالفة ، فدارت الدائرة عليه وقضى على معظم جيشه في موقعة العقاب Las Navs de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ , (١٢١٢م) .

ولقد انهار تماما نفوذ الموحدين في الأندلس بعد هذه الكارثة ، وأخذت المدن الأندلسية تتساقط في يد المسيحيين . وقد شجعت هذه الحالة على قيام بعض الرؤساء الأندلسيين بمحاولة الاستقلال بحكم الأندلس بنية انقاذها من تلك النكسة ، ولعل الأرجاف والنبوءات التي سادت البلاد في ذلك الوقت بتحديد اسم المخلص المنتظر ؛ لخير دليل على ما كانت تحس به البلاد من فراغ وشغور في الحكم ، ومثال ذلك قول ابن الخطيب «وكان الناس يرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف ، وهي العلة المحركة لمحمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية ، ثم لمحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر بعده بأرجونه ، وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحان شقي به قوم ممن وافق هذا الاسم أسماؤهم أو أسماء آبائهم ، وقتل بسبب ذلك شخصان من أهل جيان(١).

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص٢٧٨ (القسم الثاني) ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٥٦ .

ولقد استطاع ابن هود فى بادىء الأمر أن يجمع شمل معظم بلاد الأندلس، كما أطاعته سبتة ورباط الفتح وسلا بعضا من الوقت . ولكى يكسب حكمه الشرعية اللازمة ، دعا للخليفة العباسى ببغداد المستنصر بالله الذى أرسل له بدوره خلعته وتقليده الذى يخول له حكم الأندلس .

واستعان ابن هود فى قيادة جيوشه وأساطيله بشخصية طريفة مغامرة وهى شخصية المقدم الغشتى . وكان هذا الرجل فى الأصل صعلوكا ذاعرا يقطع الطريق ، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال ، وسباع البراز ، قد اشتهر أمرهم فى تلك النواحى بشرق الأندلس ، مغاورين(١) فيما للروم المجاورين إليها حتى اشتد جنوده هنالك بالأرض ومن عليها . فنهض إليه ابن هود ، وعرض عليه الانضمام اليه ، فوافق الغشتى بشرط أن يوليه قيادة الأسطول بالأندلس إذا تم له الأمر ، وقال له : نستفتح الأمر بمغاورة إلى أرض العدو باسمك وعلى سعدك : ففعلوا وجلبوا كثيرا من الغنائم والاسرى . ثم وفى ابن هود للغشتى بعهده ، فولاه قيادة أسطول اشبيلية ثم أسطول سبتة مضافا إلى إمرتها . فلما علا سعده ، قام عليه أهل سبتة وأرادوا قتله ، ففر أمامهم وخفى أثره إلى أن تحقق بعد ذلك خبره . فقيل إنه دخل فى زورق صغير ليهرب فيه إلى الاندلس،

---

(١) انتقلت كلمة المغاور بمدلولها ولفظها إلى اللغة القشتالية باسم Almogavar ومعناها المحارب الذى يغير على الحدود المجاورة وتطلق كذلك على فرسان البحر راجع : (Eguilaz Glosario etimologico de las palabras españolas p, 233)

فوقع في أيدي العـــدو أسيرا ، فحمل إلى جهة غرب الأندلس ، ودام في الأسر أعواما كثيرة ، ولو علموا أنه الفشتي لقتلوه أو طلبوا منه مالا كثيرا، لأنه كان قـــد ضربهم في البحر ، وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته . [1]

على أن جهود ابن هود في توحيد الأندلس ، لم تلبث أن أصطدمت بمطامع الاسبان من ناحية [2] ، والرؤساء الأندلسيين من ناحية أخرى، فكانت النتيجة أن جـــرت عليه وقائع وهزائم كثيرة ، وانتهى الأمر باغتياله سنة ٦٣٥ (١٢٣٨م) [3] . وتحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة .

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ويضيف ابن عذارى أن هذا القائد ترك الأندلس في شيخوخته ومات برباط أسفى بالمغرب . راجع كذلك (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٧٩)

(٢) يروى ابن الخطيب ان ابن هود أرسل إلى البابا في روما رسولا من قبله ليطلعه على العقود المبرمة بينه وبين ملك قشتالة وكيف أن هذا الأخير قد نكث عهده ولم يف بشرطه . وكان سفير ابن هود هو أبو طالب بن سبعين ، أخو أبي محمد عبد الحق بن سبعين المتصوف المرسي المعروف وقد أشاد البابا بمنزلته.

راجع : (ابن الخطيب : الاحاطة، نسخة الاسكوريال لوحة ٢٨١ - ٢٨٣)

(٣) اغتاله ابن الرميمي عامله على المرية (ابن عذارى ج ٤ ص ٣٥٨ ، ٣٣٥) :

وفى خلال ذلك الوقت تكالبت قشتالة وأراجون على أراضى المسلمين بالأندلس ، فاستولى ملك قشتالة وليون فرناندو الثالث الملقب بالقديس El santo (١٢١٧ - ١٢٥٢ م) على نهر الوادى الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة سنة ٦٣٣ ه (١٢٣٦ م) ، واشبيلية وقادس وشريش سنة ٦٤٦ ه (١٢٤٨ م) ، فصار لهم منفذ إلى مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للمسلمين فقط . أما ملك اراجون خايمى الأول الملقب بالفاتح El Conquistador (١٢١٣ - ١٢٧٦ م) ، فقد أغار بأساطيله وجيوشه على شرق الأندلس ، وحاصر مدينة بلنسية برا وبحرا . وقد حاول أمير تونس أبو زكريا الحفصى إنقاذ هذه المدينة، فأرسل إليهـا فى المحرم سنة ٦٣٦ ه أسطولا مزودا بالمال والسلاح والمؤن، ولكن الأسطول لم يستطع اختراق الحصار المضروب حولها فاضطر إلى العودة بعد ترك ماسوى المال من أطعمة وأسلحة فى مدينة دانية . ولم تلبث بلنسية بعد شهر واحد أن سقطت فى يد العدو (صفر سنة ٦٣٦ ه - ١٢٣٨ م) (١)

وفى نفس هذه السنة التى سقطت فيها بلنسية ، هاجم الجنويون ثغر سبتة بغية فصل المغرب عن الأندلس والتحكم فى مضيق جبل طارق . غير أن يقظة حاكمها الحاج أبى العباس اليانشتى ، وسرعة استنجاده بالقبائل المجاورة ، قضت على هذه المحاولة ، واضطر الجنويون إلى الفرار بعد أن ذبح معظمهم ونهبت أموالهم وفنادقهم التى بالمدينة . ولقد عاود الجنويون

---

(٢) ابن عذارى ص ٣٤٤ - ٣٤٥

الهجوم على سبتة فى مائة مركب للانتقام لضحاياهم ، فحاصروها ونصبوا المجانيق عليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من النيل منها لقوة أسوارها ، واضطروا إلى الاقلاع عنها بعد أن دفع لهم اليانشتى مالا معلوما ثم يعوضا لهم عن بعض خسائرهم (١) و (٢) .

ولم تقتصر فتوحات ملك أراجون خايمى الاول على مدن الساحل الشرقى ، بل شملت أيضا جزر البليار ، يعاونه فى ذلك كثير من الجنويين وأهل بروفانس . فاستولى على جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ هـ (٣) (١٢٣٠م) ثم يابسة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥م) . أما الجزيرة الوسطى منورقة ، فقد ظلت

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ وكذلك ص ٣٨١ حيث ترد اشارات عن قوة أسوار سبته وعدم تأثرها بمقذوفات المجانيق .

(٢) يروى ابن عذارى ص ٣٤٧ أن بعض أهل سبته يؤرخ هذه الحملة فى سنة ٦٣٣ هـ وإن كان الرأى الغالب هو سنة ٦٣٩ هـ

(٣) تذكر المدونات الاسبانية أنه لما سقطت ميورقة فى أيديهم وجدوا فيها مكانا محاطا بأسوار وحصون ويحفظون بداخله السفن على الأرض ويطلقون عليه اسم دارسانة Darzana ، وقد أهدى الملك خايمى الأول هذا المكان الى جماعة الفرسان الاسبتارية كى يمكنهم عمل منازل جميلة بضم هذه السفن بعضها ببعض .

راجع (Cronicas de los reyes de Castilla coleccion ordenada por don Cayetano Rosell, 1, cap. xvII p. 163 & Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus , 1946 , fasc . 1 p. 180)

فى يد أميرها أبى عثمان سعيد بن حكم الأموى (ت ٦٨٠ هـ = ١٢٨١م)؛ ثم ولده من بعده أبى عمر حكم بن سعيد حتى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وقد أفرد ابن الخطيب لكل منهما ترجمة وافية. وقد شرح فى كلامه كيف استطاع أبو عثمان سعيد بقوته ويقظته، أن يحمى منورقة من خطر الغزو، اذ يقول: «وكان من سيرته أن يقتل الناس عقابا على شرب الخمر، فقال له المحدث ابن مفوز (تشديد الواو مع كسرها) محتجا: حفظك الله، تطلب منى رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله هكذا؟، والله لاسمعت منى حرفا أبدا». فقال له: «يافقيه، هذه الجزيرة كثيرة العنب، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون، فيضيعون الاحتراس، فيظهر علينا العدو.». أما فى ترجمة ابنه أبى عمر بن سعيد، فيقص ابن الخطيب كيف كانت نهايته المحزنة غرقا فى البحر مع أهله جميعا وهو فى طريقه الى تونس، بعد أن رفض ماعرضـه عليه قائد السفينة من ركوب الشانى الذى يتبع المركب لينجو به وحده»[1].

وصف الشعراء لاسطول الموحدين:

كان أسطول الموحدين مثل غيره من الاساطيل الأسلامية الأخرى، موضع اطراء الشعراء ومديحهم. الا أنه يلاحظ أن معظم القصائد التى

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الاعلام (القسم الثانى) ص ٢٧٥ - ٢٧٧، ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣١٩.

قيلت فيه ، كانت فى مناسبات سياسية أو حربية معينة ، وهذا أعطاها قيمة تاريخية إلى جانب قيمتها الأدبية . ومثال ذلك القصائد التى انشدت بمناسبة زيارة الخليفة عبد المؤمن للقاعدة البحرية « مدينة الفتح » التى بناها على جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ . وحسبنا أن نقتبس منها بعض الابيات مثل قول الشاعر للقرشى الأمى القرطبى المعروف بالطليق[1]

يرمى بهم ظهر طرف بطن سابحة فابر فى شغل والبحر فى صخب
وتعبر الماء منهم نار عــادية يصلى بها عابد الاوثان والصلب
ملك اذا ادعته الحرب عن بعد طار السفين أمام الجحفل اللجب[2]

وفى هذه المناسبة أيضا يقول الشاعر الأندلسى أبو عبد الله الرصافى :

تسنم الفلك من شط المجاز وقد نودين : ياخير أفلاك الملا سيرى
فسرن يحملن أمر الله من ملك بالله منتصر فى الله منصــور
لما تسابقن فى بحر الزقاق به تركن شطيه فى شك وتحيير
ذى المنشآت الجوارى فى أجرتها شكل الغدائر من سدل وتضفير
من كل عذراء حبلى فى ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور
تخالها بين أيد من مجادفهــا يغرفن فى مثل ماء الورد مبخور
وربما خاضت التيــار طائرة بمثل أجنحة الفتخ الكواسير[3]

---

(١) يقال إنه حفيد طارق السامه الذى أفرج عنه المنصور بن أبى عامر بسبب اسطورة النامة .

راجع (المراكشى : المعجب ص ٢١٦ - ٢١٧)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامة ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

وفى سنة ٥٦٠ هـ تحرك السيد الأعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن من مراكش لمقابلة أخيه السيد أبى سعيد أمير اشبيلية فى جبل طارق. وفى اليوم التالى من وصوله سبته عبر غراب طيار من الجزيرة الخضراء يعلم بحلول السيد أبى سعيد بجبل الفتح فعبر السيد أبو حفص البحر فى ذلك اليوم، ومعه جملة الناس فى القطائع المعدة لعبوره فى هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود وقرع الطبول. كذلك برز السيد أبو سعيد فى قطائعه بجبل الفتح براياته ما أبهت الحاضرين. وفى هذا اللقاء أنشد الشاعر أبو عمر بن حربون قصيدة نذكر منها:

يا من رأى الفلك على المزج طافية كما كفأت قبابا وسطها العمد
بنسـاب منهن فى أعلى غواربه أساود سكنت أجوافهـــا أسد
بحر كأن أبا حفـــص بصورتـه لقمان والمركب الجارى به لبد (١)
تعجبوا من غراب فوق غاربه نهلان ذو الهضبات الشم أو أحد (٢)

وحينما عبر الخليفـــة أبو يعقوب يوسف إلى الاندلس فى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) مدحه الفقيه أبو محمد المالقى بقوله:

أو راكب فوق متن الماء مرتفق كأنه قيصر والقلع اكليـل
فالبر كالبحر إذ تمشى أدرعهـا والبحر كالبر إذ يصطف أسطول (٣)

كذلك أورد المقرى أبياتا عديدة فى وصف الأسطول الموحدى نقلا عن

---

(١) لقمان شخصية أسطورية ينسب إليها الحكم والأقوال والأمثال، ويقال إنه أبو النسور ولبد آخر نسوره.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المرجع ص ٤٢١ - ٤٢٣

شعراء عديدين أمثال ابن الأبار البلنسي وأبي عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي الاشبيلي وغيرهما (١) .

البحرية في عهد بني مرين ملوك المغرب

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب ، وأخذ كل رئيس يستقل بناحيته ، استطاع الفقيه الشريف أبو القاسم بن أبي العباس العزفي بمساعدة قائد البحر الأندلسي أبي العباس الرنداحي أن يستقل بسبتة وأحوازها سنة ٦٤٧ ﻫ (١٢٤٩م) وقد أطاعه الناس جميعا لأن بيت بني العزفي كان من بيوتات سبتة المعروفة بالدين والعلم والرئاسة .

وفي سنة ٦٦٣ ﻫ بعث الفقيه أبو القاسم العزفي أسطوله إلى مدينة أصيلا فهدم أسوارها وقصبتها خوفا من احتلال الاسبان لها ، ثم أعقب ذلك باحتلال مدينة طنجة سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٧ م) فصار مسيطرا بذلك على السواحل الشمالية للمغرب (٢) .

ومن هذا الموقع الاستراتيجي الهام ، أخذ أبو القاسم يبث سفنه في أنحاء المضيق للتجسس على تحركات الأساطيل الاسبانية المعادية . واستطاع بفضل هذه السياسة اليقظة أن يحذر أهالي المراسي والسواحل المغربية قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف . ومثال ذلك تحذيره لأهالي مدينة سلا من الغارة البحرية التي شنها عليهم ملك قشتالة الفونسو العاشر (العالم El sabio) سنة ٦٥٨ﻫ قبل وقوعها بأيام قلائل (٣) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٥ ص١٩٨ - ٢٠٠ ، أزهار الرياض ج ١ ص٣٣

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) [illegible]

وقد وجه إليه الخليفة المرتضى الموحدي رسالة شكر على تحذيراته ونصائحه (١ و ٢).

ولما قامت دولة بنى مرين بالمغرب، وقضت على نفوذ بنى عبد المؤمن نهائيا سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) وجدت أن إتمام توحيد المغرب يقتضى ضرورة الاستيلاء على هذه القواعد البحرية الشمالية التى تحت طاعة بنى العزفى . واستطاع السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ - ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م) أن يستولى على مدينة طنجة من أيديهم سنة ٦٧٢ هـ . أما مدينة سبتة فقد استعصت عليه واضطر أن يبرم اتفاقا مع صاحبها أبى القاسم العزفى ينص على أن يبقى هذا الأخير معتصما بحصنه، وأن يؤدى لسلطان المغرب خراجا

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٤٢٥ .

(٢) يؤثر عن هذا الفقيه أبى القاسم العزفى أنه أول من احتفل بالمولد النبى (١٢ ربيع الأول) احتفالا رسميا، وجعله عيدا من أعياد الدولة الوطنية الرسمية شاركت فيه بأموالها ونفوذها فأكسبته بما يستحقه من روعة وبهجة . ولم تلبث هذه العادة أن انتقلت إلى فاس وغرناطه وتلمسان وتونس وعمت جميع بلاد المغرب الاسلامى فصار يحتفل به رسميا هناك إلى اليوم : وما زالت مدينة سلا تختص بموكب الشموع الذى يخرج منها فى هذه الليلة العظيمة . هذا ومن المعروف أن الفقيه أبا القاسم العزفى قد ألف كتابا حول هذا الموضوع أسماه « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » .

وقد توفى هذا الحاكم العالم سنة ٦٧٧ هـ . راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٥٣) .

معلوما كل سنة (١) .

ولقد أخذ المرينيون منذ ذلك الوقت يوجهون عنايتهم نحو الأسطول، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب هو أول المهتمين به ، وينسب إليه بناء دار الصناعة بمدينة سلا ، على يد المهندس الأندلسى محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج الاشبيلى الاصل (ت ٧١٤ هـ) . وقد بنيت قبلى مدينة سلا من جهة وادى أبى الرقراق ، وجعل لها بابان كان الوادى يدخل من أحداهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية ، حيث جلب الماء من الوادى إلى الباب المسامت لجامع حسان فى ترعة عميقة ، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار ، وأريد أرسالها فى الوادى فتحت الترعة فيدخل الماء وتعوم فيه السفينة ، فتخرج من الباب القبلى سابحة على وجه الماء إلى أن تقع فى الوادى ، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلى جدا ، ليخرج المركب منشور القلاع (٢) كذلك اهتم السلطان يعقوب بتحصين بعض القواعد

---

(١) السلاوى . الاستقصا جـ ٣ ص ٣٤ - ٣٥ . ولقد استمرت سبتة فى طاعة بنى العزفى إلى أن استولى عليها سلطان غرناطة أبو سعيد سنة ٧٠٣ هـ ثم استعادها سلطان المغرب أبو الربيع سليمان المرينى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وظل بنو العزفى يتمتعون بنفوذهم القديم فى ظل الدولة المرينية (السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٨٢ ، ١٠١) .

(٢) راجع (محمد بن على الدكالى السلاوى : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D 1320 ولا يزال هذا الباب القبلى لدار صناعة سلا قائما حتى اليوم ويعرف بباب الملاح إذ أنه يجاور حارة لسكنى اليهود ، وقد جرت العادة فى المغرب اطلاق اسم الملاح على الأحياء اليهودية . راجع كذلك (محمد المنونى . نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمى الرباط ، العدد الثانى مايو ١٩٦٤) .

البحرية التابعة له على الضفة الأخرى للمضيق ومثال ذلك البنية أو المدينة التى بناها بجوار الجزيرة الخضراء(١) .

وجاء بعد السلطان يعقوب ولده يوسف (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ = ١٢٨٦ - ١٣٠٦ م) الذى استمر على سياسة والده فى انشاء الأجفان الغزوية بدار صناعة سلا ، كما بنى قصبة تطوان سنة ٦٨٥ هـ ، ثم بنى سور قصر المجاز الذى يعرف أيضا بقصر مصمودة والقصر الصغير بجوار طنجة سنة ٦٨٦ هـ(٢)

على أن البحرية المرينية لم تبلغ ذروتها وقوتها إلا فى عهد السلطان أبى الحسن على المرينى (٧٣١ - ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) . فيروى ابن خلدون ان هذا السلطان استكثر من بناء الاساطيل حتى بلغ مجموعها مثل عدة النصرانية وعديدهم (٣) . كذلك يذكر السلاوى أن أساطيل هذا السلطان التى جاز بها فى حملته على تونس فى أواخر أيامه بلغ عددها نحو الستمائة قطعة . هذا ولم يتردد أبو الحسن فى الاستعانة بخبرة الملاحين الجنويين فى تنظيم بحريته حتى يضارع بها بحرية مملكتى أراجون وقشتاله فى أسبانيا (٤).

---

(١) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن نشر نخبا منه ليفى بروفنسال فى مجلة هسبريس سنة ١٩٢٥ .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٨٩

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٦ .

(٤) السلاوى : نفس المرجع جـ ٣ ص ١٧١ .

هذا الأسطول للأسف عصفت به ريح شديدة حطمت معظمه وغرق الكثير من رجاله وفيهم جملة من العلماء والفقهاء . ونجا السلطان من الموت بأعجوبة إذ قذف به الموج وألقاه على الساحل الجزائرى بنواحى تدلس .

ولم تقتصر عناية السلطان أبي الحسن المريني على بناء الأساطيل ، بل اهتم أيضا بانشاء المحارس والمناظر على طول الساحل المغربي ، كما بنى أبراجا للمراقبة في داخل البحر أمام ميناء سبتة ليحول دون دخول سفن العدو في مرساها . وقد وصف كل ذلك الكاتب والخطيب المعاصر ابو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني (ت ٧٨١ ه) في الكتاب الذي ألفه عن هذا السلطان (١) وفيه يقول :

أنشأ هذا المولى من المحارس والمناظر ما لم يعهد بمثله في عصر من الاعصار ، وحسبك أن من مدينة آسفي وهي آخر المعمور إلى بلاد الجزائر ، جزائر بني مزغنان ، آخر وسطى الغرب ، وأول بلاد افريقية ، محارس ومناظر إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد بلاد المسلمين إلا والتنبير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم ، فأمنت السواحل في ايامه السعيدة .

ومن أعجب ما أنشأه في هذا النمط ، الابراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشيء ليتصور بناؤها على الوجه الذي قدره

---

(١) هو كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن للخطيب بن مرزوق ، وقد نشر نخبا منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة هسبريس تحت عنوان

Lévi Provençal : un nouveau texte d' histoire Mérinide Le Musnad d' Ibn Marzuk , Hespéris ' tome V 1925)

وأراده ، فجرت على أتم الوجوه والإحسان ، فمنها برج الماء الذى أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة ، وقد حضرت إنشاءه ، وكان قد اجتمع الملأ على عـــدم إمكان بنائه هنالك ، فنقلت الصخور التى هى كالروابى والأحجار التى لا يتزحزح مثلها إلا بهندسة وإحكام وعجل ، فالقيت فى تلك التروش ، وضم اليها أمثالها حتى صارت جزيرة فى وسط البحر ، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هنالك ، ثم أمر بعمل جسر يمر من الساحل إلى هذا البرج بحيث يتمكن مشى البهيمة عليه واتصال ممشاه من البر إلى البرج صان ذلك البرج جميع المرسى ، فلا يتهيأ لأحـد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلا أن يكون صديقا ، وإلا فهو يشرف على جميع مايدخل تحته ، وهو من أعاجيب معمورات المعمور. ومنها البرج الذى على المنحن أيضا من المدينة المذكورة ، وآخران من هذا النمط بالجبل المحروس (١) . (أى جبل طارق) .

كذلك اهتم السلطان أبو الحسن بتحصين القواعـــد البحرية التابعة المرينيين على الضفة الأندلسية المقابلة . وأهمها جبل طارق الذى حرره من أيدى القشتاليين سنة ٧٣٣ ﻫ (١٣٣٣ م) وعمل على تحصينه وتزويده بالعدد والآلات . وقد زاره عقب ذلك الرحالة الطنجى المعاصر إبن بطوطة ووصفه بقوله « وتطوفت على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وما أعد فيه من العدد ، ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر » ثم يقول : « وبنى به مولانا

---

(١) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١

أبو الحسن ، رحمه الله المأثرة العظمى - أى برجا كبيرا - بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق ؛ فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة لانشاء السفن ؛ ولم يكن به دار صنعة ، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة (١) (أى مصنع الآجر والقراميد) .

ولقد خاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل أراجون وقشتالة انتصر فى بعضها وانهزم فى البعض الآخر ، وكلها تدخل فى نطاق الصراع حــول السيطرة على مضيق جبل طارق الذى أفردنا له فصلا خاصا بعد ذلك نظرا لتشعب أحداثه مع القوى الأخرى

وولى بعــد أبى الحسن ولده أبو عنان فارس (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) الذى اهتم بإعادة بناء الأسطول المغربى بعد تلك العاصفة المدمرة التى أودت بمعظمه خلال حملة القيروان المشئومة فى أواخر أيام والده . وقد أشار ابن بطوطة إلى الجهد الذى بذله السلطان أبو عنان فى هذا الصدد بقوله : « ومما شاع من أفعال مولانا - أيده الله - انشاؤه الأجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر ... وأكد ذلك بتوجهه

---

(١) أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة : تحفة النظار فى غــرائب الأمصار وعجائب الأسفـــار جـ ٤ ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ نشر وترجمة دفريمرى وسانجونيتى (باريس

بنفسه إلى جبال جبانه (١) فى العام الفارط ليباشر قطع الخشب للإنشاء، ويتولى بذاته أعمال الجهاد » (٢).

ولاشك أن هذه الأساطيل لم تكن تصنع بسلا فقط، بل كانت تبنى أيضا فى دار صناعة سبتة التى كانت تسمى أيضا بدار الإنشاء. ولقد اشتهرت سبتة بمنجراتها أو مناجرها، وهى مصانع النجارة التى كانت تصنع بها لوازم السفن وأنواع القسى المختلفة. كذلك اشتهرت سبتة بمراميها أو جلساتها التى يرابط فيها الرماة على أبعاد مختلفة لصد المغيرين، إذ كان الرمى من طبع أهلها فلا تجد منهم شريفا ولامشروفا ولا كبيرا ولاصغيرا إلا وهو بصير بالرمى له وتقدم فيه (٣)

هذا وقد سار أبو عنان على سياسة والده، فى توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية أمامية هامة لبلاده. وقد بلغ من اهتمامه بهذه القاعدة أن أمر بعمل مجسم أو مثال لهذا الجبل ليضعه أمام عينيه فى قصره وفى ذلك يقول ابن بطوطة :-

---

(١) جاناته فى غرب زمور بأقليم الرباط. راجع (محمد المنونى : المرجع السابق ص ٢٢٣)

(٢) إبن بطوطة : المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٥١

(٣) راجع (محمد بن القاسم الانصارى السبتى. وصف سبتة فى القرن التاسع الهجرى، نشر ليفى بروفنسال، مجلة هسبريس سنة ١٩٣١، الجزء الثانى عشر ص ١٥٦)

« وجدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان عهد تحصينه وتحسينه وزاد بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث إليه العدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة ... وبلغ من اهتمامه بأمور هذا الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور يمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ، فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع إتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال ، وما ذلك إلا لتشوقه ، أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه وإعداده [1] » .

ولقد كان الاسطول فى عهد السلطان أبى عنان موضع مديح عدد من الشعراء نذكر منهم كاتب الدولة فى عهده أبا القاسم بن رضوان المالقى فى قوله :

ولما استقامت بالزقاق أساطل له ... واستقامت للسعود محاملا
رآها عدو الله وانقض جمعه ... وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن دهش ظن السواحل أبحرا ... ومن ذهب خال البحار سواحلا
ومن جندكم هبت عليه عواصف ... تدمر أدناها الصلاب الجنادلا [2]

كذلك نذكر الشاعر أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى نزيل القاهرة فى أبيات يخاطب بها أبا عنان :

(1) إبن بطوطة نفس المرجع ص ٣٥٧ ، ٣٥٩
(2) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٣٤

فلله ما انشأته من مـــراكب ترادفها فى البحر منه تكاوس
قطائعها مثل النجوم قـــلوعها وغربانها قطع من الليل دامس
كأن مجاديف الغراب قـــوادم يطير بها والنسر فى الأفق كانس

وهـذه الأبيات قالها إبن أبى حجلة بمناسبة قـدوم غراب لأبى عنان فى الرسالة إلى الاسكندرية ، مما يدل على ما كان الأسطول العنانى من شهرة فى الشرق العربى .(١)

كذلك يورد ابن الخطيب رسالة فى هذا المعنى موجهة من سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف إلى السلطان أبى عنان يقول فيها :

وقـد كان ذاع الخبر الذى تروق فوق أعطاف الإسلام منه الحبر ، بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، واحياء ما القح سلفكم واغترس ، من الأساطيل السابحة ، والتجارة الرابحة ، والأعمال الباقية الصالحة ، وأن الانشاء قد استدعى إليه الخلق ، والعزم تبلج منه الصباح الطلق ، وشيم منه البرق وذهب الفرق ، فلا تسألوا عن موقع هـذه الأنباء من صديق يعدها من الله فضلا ومنا ، وعـــدو يسىء بها ظنا ، فلكل منها شرب معلوم ، وحفظ مقسوم .(٢)

---

(١) محمد المنونى : نفس المرجع ص٢٢٣ نقلا عن مخطوط بعنوان منطق الطير بمكتبة الرباط رقم ١٩١٠ .

(٢) ابن الخطيب . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب جـ ٢ لوحة ٥٤ ، محمد المنونى : المرجع السابق .

أما عن قيادة الأساطيل فهى ـ كما يقول إبن خلدون ـ من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وإفريقيه ، ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الأحوال ، ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغه الإفرنجة . (١)

ولقد رأس الاسطول المرينى عـــدد من كبار قواد البحر فى ذلك العصر نذكر منهم يحى الرنداحى الذى تولى قيادة الأسطول فى سبتة حتى سنة ٧٢٠هـ،وهو ينتمى إلى بيت أندلسى عريق فى القيادة البحرية بمدينة المرية(٢) ثم آلت القيادة بعد ذلك فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان والد أبىالحسن إلى ثلاثة إخوة من بنى العزفى بسبتة وهم أبو زيد عبد الرحمن بن أبى طالب الذى تولى قيادة اسطول سبتة ، ومحمد بن على الذى تولى رئاسة دار الصناعة بمينائها ، ثم أبو زكريا يحى الذى عين واليا على مدينة سبتة نفسها .(٣)

وفى عهد السلطان أبىالحسن المرينى برز فى هؤلاء الإخوة قائد البحر محمد بن على الذى تولى القيادة العليا للأسطول وانتصر على أساطيل قشتالة

---

(١) لعلها الكلمة الاسبانية Almirante وأصلها أمير البحر . راجع (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٢)

(٢) راجع (إبن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال جـ ١ ص ٧١ نشر علوش ، ابن خلدون : العبر جـ٧ ص ٢٤٧)

(٣)(راجع ' Levi provencal : Le Musnad d' Ibn Marzuq) Hespéris ,1925, Tome V, p. 13

وأراجون فى مياه الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) واستمر هذا القائد فى منصبه إلى أن قتل بعد وقعة القيروان سنة ٧٤٩ هـ . (١)

وفى عهد السلطان أبى عنان آلت القيادة العليا للأسطول إلى الأمير الغرناطى محمد بن يوسف بن الأحمر ، بينما تولى أحمد بن الخطيب قيادة أسطول طنجة ، كما ولى أبو القاسم بن أبى بكر بن بنج قيادة أسطول جبل طارق (٢) . ولم يلبث هذا الأخير أن صار قائدا أعلى للاسطول فى عهد السلطان أبى سالم المرينى (٧٦٠ - ٧٦٢ هـ) . ويوصم إسم هذا القائد بن بنج بتلك المأساة التى حلت بصغار أمراء بنى مرين على يديه ، وقد وصفها ابن الخطيب وصفا مؤثرا بقوله :

«وصرف السلطان - أبو سالم - وكده إلى اجتثاث شجرة أبيه ، وأن لا يدع من يصلح للملك ولا من يترشح للامر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع ، طائفة تناهز العشرين غلمانا روقة من إخوانه وأبناء إخوانه ، فاركبوا البحر إلى رنده ، ثم تعقب النظر فيهم ، فأركبهم جفنا غزويا موريا بتغريبهم إلى المشرق مبعدا اياهم عن حدود أرضه ، ثم طير إلى قائد الأسطول أبى القاسم بن أبى بكر بن بنج يأمره بتغريقهم عند انصرافه عن مليلة (Melilla)، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين

(١) السلاوى ، الاستقصا حـ٣ ص ١٣٥

(٢) المنونى : نظم الدولة المرينية بمجلة البحث العلمى بالرباط ع العدد الثانى مايو سنة ١٩٦٤

أمهاتهم الثكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر ، وعاث فى شعورهم الحيوان لطول مقامهم فى البحر شهورا عدة وأغرقوا : يركب الصبى منهم زبنى من تلك الزبانية ليخرجه إلى البر ، فاذا خاض به الغمر ، وقارب الضحضاح ظبه ، وأمسك أصحابه بيديه وغمسوا رأسه فى الماء حتى تفيض نفسه ، إلى أن كمل منهم تسعة عشر بدور ملك وشموس إمارة ، غذوا بالنعيم ، ومهدت لهم الأرائك ، ثم تعلق بهم شبهة توجب إباحة قطرة من دمائهم . حدثنى متولى هذا المكروه بهم بهول مصرعهم فقال : لقد علت منهم ايامئذ الجثث حتى صارت هضبة ، وحفر لهم أخدود هيل عليهم ترابه [1]

ومن العجيب أن ابن الخطيب الذى أعطانا هذا الوصف المؤلم ، يورد أيضا خطابا وجهه إلى هذا القائد أبى القاسم بن بنج يهنئه فيه على مولود أنجبه ، قال فيه :

« أبقاك الله أيها القائد الذى بأسه ضرم ، وشأنه شجاعة وكرم ، وعلى ولايته من العدو حرم ... بلغنى الطالع لديك ، والوارد من حضرة المواهب الإلهية عليك ، جعله الله أسعد مولود على والد ، وأقر عينك منه بالقائد بن القائد بن القائد . وقد نظمت له أبياتا إن أدركته بعدها حيانى بر وشكر ، أو كانت الأخرى رحم وذكر هى :

ارفع قسى المنشآت بسعده   واستنجز النصر العزيز لوعده

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٢٦٧ نشر أحمد مختار العبادى .

وانظر اليه تلح اليك بوجهه   سمة الشجاعة من أبيه وجده
لله من سيف لعمرك صارم   ينساب ماء الحسن فوق فرنده
صدرت اليك بشارتى وتفاؤلى   بالأمر قبل بروزه من غمده
يستبشر الاسطول منه بقائد   كالبدر تحت شراعه أو بنده
والبحر يفخر منه يوم ولاده   بملنده بن ملنده بن ملنده (١)

أما عن تحركات الأسطول ووصف مناوراته البحرية ، فحسبنا أن نورد فى هذا المعنى بعض النصوص على سبيل المثال ، فيقول السلاوى فى وصف عبور السلطان أبى الحسن بجيوشه إلى الأندلس : ثم شرع السلطان أبو الحسن فى أجازة العساكر ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة ، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين الفا ، أجاز هو فى أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف (٢)

كذلك يصف أحد المعاصرين المناورة البحريه التى أشرف عليها أبو عنان فى مياه بجاية فيقول :

« أمتثالا لتعليمات أبى عنان ، اصطفت أساطيل البلاد البحرية المتوكلية (٣) يتقدمهم القائد الأعلى ابن الأحمر فى طريدته ، ثم أسطول طنجة يتقدمه

(١ ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٩٣ - ١٩٤
(٢) السلاوى : الاستقصا ح٢ ص ١٣٥
(٣) نسبة إلى لقب أبى عنان وهو المتوكل على الله

قائده ابن الخطيب فى غرابه ، وبعد هذا ترتبت بقية الأساطيل وقوادها حسبما اقتضته المدن التى تولوا أمر بحرها . وقد لزم قائد كل أسطول مكانه من مصطف الاجفان التى كان يكسوها طلاء السواد الحالك ، وتظهر صواريها شبه المآذن بينما شحن داخلها بالأبطال : بين رام وسائف(١) ورامح ، وقد لبسوا الحديد ، ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد . فما شوهد أبدع من تلك الأجفان وقد صدحت موسيقى : فقرعت الطبول ، وعلت أصوات البوقات والأنفار ، كما دوت طاقات الأنفاط ، بكل متأجج الشواظ ، والرايات خفقت حول أعالى الرماح ، وقد تنوعت ألوانها . كأنها قوس قزح ، سوى طريدة القائد الأعلى فقد كانت رايتها بيضاء ،(٢)

البحرية فى عهد بنى الأحمر ملوك غرناطة

مملكة غرناطة (٣) هى البقية الباقية لدولة العرب فى أسبانيا بعد أن تمزقت دولتهم وسقطت مدنهم فى أيدى المسيحيين . لهذا كانت غرناطة هى الملجأ الطبيعى لمعظم المهاجرين الأندلسيين الذين فروا أو طردوا من بلادهم بعد سقوطها فى يد الأسبان . ولا شك أن هذه العناصر المهاجرة قد أعطت لهذا الوطن الجديد كل خبراتها وسواعدها مما كان له أثر كبير فى أزدهار هذه المملكة وبقائها فى مواجهة الأسبان أكثر من قرنين ونصف من الزمان (١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) ولقد وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالا شاهقة مثل جبال شلير

---

(١) سائف أى حامل السيف

(٢) محمد المنونى : المرجع السابق ص ٢٢٦

(٣) راجع ما قلناه فى وصف هذه المملكة وسياستها فى باب الوزارة ص ٢٢٤ وما بعدها .

Sierra Nevada والبشرات Alpujarras التي سهلت مهمة الدفاع عنها ، كما وهبتها أيضا ساحلا طويلا يمتد من المرية شرقا إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوبا ، وهذا جعلها ـ رغم صغر حجمها ـ دولة بحرية من دول البحر المتوسط . ولقد عرفت هذه المنطقة الساحلية الغرناطية باسمها القديم وهو البلاد البحرية التي ظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمحارس التي ورثتها عن الأسلاف المجاهدين منذ أيام الأمويين . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨ هـ) وصفا قيما لأسطول غرناطة ونشاطه وقواعده فى هذه المنطقة بقوله : وبالبلاد البحرية أسطول حراريق[1] للغزو فى البحر الشامى يركبها الأنجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون فى الغالب ، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل ، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما شاء ويهدى ويبيع . والبلاد البحرية أولها من جهة الشرق :

المرية ، وهى ذات مرسى على البحر الشامى ، وهى أول مرامى البلاد الاسلامية بالأندلس ، وكانت العمارة قبل لبجانة (Pechina) فانتقلت إلى الساحل لمنافع الناس . والمرية ثلاث مدن . الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلى ، لها سور محفوظ من العدو بالسمار والحراس ، ولا عمارة بها.

---

(١) الحراريق والحراقات ومفردها حراقة ، هى نوع من السفن الحربية التى تستخدم لحمل الاسلحة النارية ، كالنار الاغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو فى البحر . وقيل هى المرامى أنفسها . أنظر (محمد ياسين الحموى : تاريخ الأسطول العربى ص ٣٥)

ويليها إلى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلى المرية وهى أكبر الثلاث . والقلعة تحوز القديمة من جهة الشمال وتسمى القصبة بألمنتوم ، وهما قصبتان فى غاية الحسن والمنعة . وساحل المرية أجمل السواحل وحولها حصون وقرى كثيرة الفواكه . وبها دار صناعة لإنشاء الحراريق لقتال العدو . ويأتيها الان ولاة من صاحب غرناطة وقد كانت فيما مضى مملكة مستقلة وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام .

ويلى المرية من البلاد البحرية من جهة الغرب بلدة شلوبين[١] (Salobrena) وهى معدة لإرسال من يغضب عليه السلطان من أقاربه ويزرع بها قصب السكر . ويليها المنكب[٢](Alemunecar) وهى مدينة دون المرية ، بها دار صناعة لانشاء السفن ، وبها قصب السكر والموز ويلى المنكب مالقة (Malaga) وهى مدينة بديعة كثيرة الفواكه لها ربضان عامران أحدهما عن علوها والآخر عن سفلها ، وبها دار صناعة لانشاء الحراريق، وجامعها بديع وبصحنه نارنج[٣] ونخل . يلى مالقة مدينة مربلة (Marbella)

---

(١) ينسب الى هذه البلدة إمام النحاة فى الأندلس أبو على عمر بن محمد المعروف بالشلوبين نسبة الى بلده هذا . له مصنفات كثيرة مثل كتاب التوطئة فى النحو وشرح كتاب سيبويه ، وكانت وفاته سنة ٦٤٥ هـ. راجع (السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٦٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٩٠) .

(٢) اشتهرت هذه المدينة بنزول عبد الرحمن الداخل الأموى على مرساها عند دخوله الأندلس فى طلب الملك سنة ١٣٨ هـ ، وهى الآن مصيف هادى صغير، ولاسيما لأهل غرناطه .

(٣) أباح الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى (ت ١٥٧ هـ.) غرس الأشجار فى صحون المساجد ومذهب الاوزاعى الشامى هو أول مذهب انتشر فى الأندلس ، وقد انتشرت معه عادة غرس أشجار النارنج والليمون فى صحون المساجد وظلت هذه العادة مستمرة بعد انتشار المذهب المالكى فى هذه البلاد .

ويليها اشتبونة (Etepona) ، ثم جبل الفتح وهو طود شامخ منيع جدا يخرج فى بحر الزقاق ستة أميال ويلى جبل الفتح من الغرب على الساحل ، الجزيرة الخضراء (Algeciras)وهى مدينة أمام مدينة سبتة من بر العدوة من بلاد المغرب ، ومرساها من أحسن المراسى وهى آخر البلاد البحرية الاسلامية الاندلس وليس بعدها لهم بلاد [1]

والى جانب هذه القواعد البحرية وما فيها من دور صناعة لبناء الأساطيل وجدت كذلك الرباطات والمراقب الساحلية .

ولاشك أن الرباطات القديمة التى سمعنا عن نشاطها من قبل فى هذه المنطقة ، قد ظلت تؤدى دورها فى حراسة هذه السواحل والدفاع عنها فالوزير الغرناطى ابن الخطيب يشير الى رابطة القبطة [2] بساحل المرية Cabo de Gata ، وذلك فى خلال كلامه عن غرق سفينة غرناطية بمن عليها من الطلبة والأدباء وأبناء السراة والحسباء بأحـــواز هذا المكان سنة ٧٣٩ هـ.[3] كذلك نجد فى بعض الظهائر الرسمية التى كان يصدرها سلطان غرناطة محمد الغنى بالله الى رعيته ، الحض على بناء الحصن بجبل

---

(١) راجع (ابن فضل الله العمرى : كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار الجزء الخاص بوصف أفريقية والأندلس ص ٤٤ - ٥٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس) .

أنظر كذلك (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧ وما بعدها)

(٢) راجع ص ٢٩٦ - ٢٩٧ من هذا الكتاب .

(٣) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٥ .

فارو[1] Gibralfaro الذى يشرف على مرسى مالقة ، اهانة للمسافرين وانجادا لجهاد الكافرين[2] . هذا الى جانب المدونات الاسبانيـــة المسيحية التى وصفت غرناطة عقب سقوطها فى يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإزابيل (١٤٩٢م) ، وأشارت الى وجود عدد كبير من الربط والقصور الساحلية التى كانت ترجع فى معظمها الى العصر الاسلامى[3] .

ولقد برز من أبناء هذه البلاد البحرية قادة مهرة تولوا قيادة الأسطول الغرناطى والمغربى أيضا ، ونذكر منهم على سبيل المثال بنى الرنداحى[4] فى المرية الذين استمرت فى بيتهم هذه الخطة منذ أواخر أيام الموحدين . وقد برز منهم شخصيات متعددة فى المراجع الاسلامية .

فنسمع عن أبى العباس الرنداحى[5] الذى ساعد بأسطوله الفقيه أبا القاسم العزفى عندما استقل بسبتة وطنجه عن طاعة الحفصيين سنة ٦٤٧ هـ . ونسمع كذلك عن جعفرن الرنداحى[6] الذى ولاه الخليفة المرتضى الموحدى على

(١) راجع ص ٢٩٨ من هذا الكتاب .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) راجع (Alfonso Gamir Sandoval ; Organizacion de la defensa de la costa del reino de Granada, desde su reconquista hasta finales del siglo XVI pp 265 - 275)

(٤) ورد هذا الاسم كذلك فى معظم المراجع ، ويرى سيبولد استنادا الى الادريسى أن صحته الرانداجى نسبة الى بلدة فى صقلية اسمها الرانداج Randazzo راجع : C.F. Seybold ; Analecta Arabo-Italica, en Centenario della Nascita di Michele Amari, Volume II p 213 Palermo 1910

(٥) ابن عذارى . البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٠٠

(٦) ابن خلدون . العبر جـ ٧ ص ١٨٦ .

قيادة الأساطيل بالمغرب . وهناك أبو الحسن على الرنداحى[1] الذى تولى قيادة أسطول المرية وقام بدور كبير فى الدفاع عنها عندما حاصرها ملك أراجون خايمى الثانى سنة ٧٠٩ هـ (١٠٣٩ م) .

ثم هناك أبو على الرنداحى[2] الذى أشار اليه ابن الخطيب كقائد عام للبحرية الغرناطية على أيامه ، ولعله ابن أبى الحسن على الرنداحى السالف الذكر ، كذلك يشير ابن خلدون الى يحيى الرنداحى كقائد لأسطول سبتة حتى سنة ٧٢٠ هـ[3] وكل هذا يدل على اختصاص هـذه الأسرة بالقيادة البحرية .

ومن القادة الذين تولوا قيادة الاسطول الغرناطى نذكر أيضا أباعبدالله محمدبن سلبطور الهاشمى ، وواضح من اسمه Salvador أنه من أصل اسبانى ، وهو ابن اخت أبى على الرنداحى وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة فى احاطته قال فيها

كان من وجوه المرية وأعيانها ، متجندا ظريفا ، دربا على ركوب البحر وقيادة الأساطيل ، ناب فى القيادة البحرية عن خاله القائد أبى على الرنداحى ، وولى أسطول المنكب برهة ، وكان أديبا جيدالشعر والكتابة ، ثم انحط فى هواه انحطاطا أضاع مروءته ، استهلك عقاره ، وهد بيته ؛ والجأه أخيرا إلى اللحاق بالعدوة وتوفى بمراكش سنة ٧٥٥ هـ[4] .

---

(١) ابن القاضى . درة الحجال فى غرة أسماء الرجال جـ١ ص ٧١ ، نشر علوش الرباط سنه ١٩٣٤ .

(٢) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحه ١٨ - ١٩ .

(٣) ابن خلدون . العبر جـ٧ ص ٢٤٧ .

(٤) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحه ١٨ - ١٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ . ص ١٩٢ ، ابن القاضى : درة الحجال جـ ١ =

ومن قادة الأسطول الغرناطي أيضا نذكر القائد الوزير أبا الحسن بن كماشة الذي أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في احاطته قال فيها : كان جده من المتميزين ببعض حصون الأندلس طليطاطة (Tablada) وخدم طاغية الروم ببعضها وانخرط في جملته يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ووراء ظهره صانها حافده المترجم به في خرقة من السرق لا يزال يعرضها في سبيل الفخر على من يصل إلى باب السلطان من رسل الروم . ولقد عرضها أيام سفارته إلى ملك قشتاله على وزيره سمويل اليهودي وطلب تجديدها . وهذا الرجل حسن الشكل كثير الهشة جيد الرياش ، كثير التعلق والتوسل ، شديد المداخلة لأذيال الأمراء ، متصامم على أغراضهم متنفق بالسعاية متبذل في أسواق الخدمة ... أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه ، وأبعدهم في مهاوى الخسة ، أما فلسه فمخزون ، وأما خوانه فمحجوب ، وأما زاده فممنوع ، وأما ثوبه فحبيس التخت إلى يوم القيامة (١) .

= ص١٩٦) وقد ورد في هذه المصادر السابقة نماذج من شعر هذا القائد مثل قوله في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف عندما زار المرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك به الراح تختم

وقوله مخاطبا الشاعر أبا القاسم محمد بن خاتمة ردا على قطعة خاطبه بها مطلعها البيت الأخير من هذه الأبيات :

وفاضت دموعى بفرط ولوعى ... وبين ضلوعى هوى شب نار
فكم ذا أقاسى وقلبك قاسى ... ومالى آسى لطول النفار
اترضى مماتى وأنت حياتى ... إذا لم توات فكيف اصطبار
خلعت عذارى بوادى المزار ... وسمع القمارى وسيف العقار

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحه ٢٩٧

ومن الطريف أنه بينما يتحامل ابن الخطيب على هذا القائد ويصفه بالبخل والطمع إذا بالشاعر ابن خاتمة يصفه بالكرم أثناء ترجمته للشاعر ابن خميس بقوله : وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن ابن كماشة فوسع له في الإيثار والمبرة ، وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة ، فقال في مدحه .. الخ (١) . ولعل تحامل ابن الخطيب على ابن كماشه راجع إلى موقف هذا الأخير من سلطانه محمد الغني بالله حينما تخلى عنه أثناء مطالبته بعرشه (٢) .

وإلى جانب هذه المعلومات التي أوردها ابن الخطيب عن قادة الأسطول الغرناطي، فقد أعطانا أيضا بعض المعلومات عن بحارة الأسطول ، ومثال ذلك إشارته إلى اهتمام الدولة بزيادة أجورهم على أيامه (٣) . ثم وصفة لمهارة هؤلاء الملاحين وخفة حركاتهم عند قوله :

وبحرى تلاعب في شريط ... وحي الفعل متصل الصموت
تدلى وارتقى وسما وأهـــوى ... وأعجب في التماسك والثبوت
وقلنا إن يكـــن بشرا سويا ... ففيه غريزة من عنكبوت (٤)

كذلك يفهم من قصائد شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك أن الأعلام التي كانت ترفرف على الأسطول الغرناطي كانت حمراء اللون جريا على شعار بني الأحمر ملوك هذه الدولة ، ومثال ذلك قوله في مدح السلطان محمد الغني بالله :

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٨٢
(٢) راجع الجزء الخاص بالوزارة في عهد بني الأحمر ص ٢٣٩ .
(٣) ابن الخطيب . الاحاطة جـ ٢ ص ٣٠ - ٣١ (طبعة القاهرة) .
(٤) ابن الخطيب : الاحاطة . نسخة الاسكوريال : لوحه ٤٥٤

أعلامك الحمر فوق السفن خافقة   وريح سعدك تجريها على قدر (١)

أما عن سياسة غرناطة البحرية ، فكانت مرتبطة بسياستها العامة التى امتازت بالمهارة والمرونة . لقد كانت غرناطة تمتلك قوة بحرية منظمة قادرة على حماية سواحلها وتجارتها بل وإمداد جارتها قشتالة (٢) ببعض وحداتها البحرية أثناء حروبها مع أرجوان ، إلا أن غرناطة مع ذلك كانت دولة صغيرة محدودة القوة والموارد والامكانيات ، ومحاطة بدول تفوقها عدة وعددا مثل أراجون وقشتالة والبرتغال والمغرب . لهذا كانت سياستها تعتمد أولا على مهارتها الدبلوماسية تجاه تلك الدول المحيطة بها ، وعدم التورط فى خوض قتال خطير بمفردها ، ثم على الاستعانة بقوة جيرانها المغاربة عندما تضطرها الظروف الى مجابهة أعدائها المسيحيين فى ميدان القتال برا أو بحرا . وهذا الموقف جعل غرناطة تحرص دائما على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحا أمام النجدات المغربية ، وبعيدا عن السيطرة المسيحية كى يظل اتصالها بالعدوة المغربية آمنا مستمرا . وقد اضطرت غرناطة فى هذا السبيل إلى التنازل أحيانا للمغرب عن بعض قواعدها الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء

---

(١) المقرى ازهار الرياض ج٢ص١٣٨

(٢) يلاحظ أن مملكة أرجوان كانت دولة بحرية بحكم وضعها الجغرافى فى شمال شرق أسبانيا ، على عكس مملكة قشتالة التى كانت دولة برية بحكم نشأتها فى قلب أسبانيا ، غير أن انتصاراتها الأخيرة على المسلمين مكنتها من احتلال بعض القواعد البحرية . الأمر الذى جعلها ترسم لنفسها سياسة بحرية منذ ذلك الوقت

وطريف ورنده ليتولى بنفسه مهمة الدفاع عن تلك القواعد ، واتخاذها رأس جسر للتدخل في وقت الجهاد ولقد أدركت كل من قشتالة وأراجون أهداف تلك السياسة ، فحاولت من جانبها فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعده ، كي تحول دون اتصال المغرب بالأندلس . ومن هنا نشأ صراع طويل بين جميع هذه القوى حول السيطرة على مضيق جبل طارق La empresa del estrecho de Gibraltar . ولما كانت سياسة غرناطة في هذا الصراع مرتبطة بسياسة الأطراف الأخرى المشتركة فيه فقد آثرنا أن نفرد لهذا النزاع موضوعا مستقلا .

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى (١٤ ، ١٥ م)

ذكروا أن الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس مملكة غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أرجونة يعرف بأبى الحسن بن الحسن بن أشقيلولة[١] شاركه فى فى فتوحاته وفى تأسيس مملكته فلما استقر الأمر للغالب بالله بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الأمر ، فقال له « أنا أمى ، لا أكتب ، وعزك من عزى ، وملكك ملكى » ، فأسكنه بالقصبة وقدمه على الجيش . ثم توفى الرئيس ابن اشقيلولة وخلف ولدين : أبا اسحاق ، وأبا محمد ، فصاهرهما السلطان على ابنتيه . مؤمنة وشمس ، وولى الأول على مدينة وادى آش Guadix كما ولى الثانى على مدينة مالقة Malaga ، وأنجبوا البنين والبنات وصارت أحوالهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، إلى أن كبر ابن السلطان وولى عهده محمد ، فنافس هؤلاء الأبناء بنى اشقيلولة وقلق بهم (٢)

---

(١) واضح أن هذا الأسم ليس عربيا وإنما من أصل أسبانى وقد وردت كتابته بصيغ مختلفة

راجع (Diccionario de Historia de Espana I ' p. 368)

(٢) يروى إبن الخطيب فى احاطته (نسخة الاسكوريال ورقة ٢١٤) =

ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الأمر إلى ولده محمد الثانى المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ — ١٢٧٢ = ١٣٠٢ مْ) زادت النفرة بين بنى اشقيلولة وبين غالهم السلطان الجديد ، فأظهروا الامتناع والعصيان بمدينتى وادى آش ومالقـه ، ثم أعلنوا ولاءهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ = ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م) وانتهز سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للثوار واستولى على مدينة مالقه وأقام بها عيد النحر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧م)[1] وتخوف السلطان

= أن ثورة بنى أشقيلولة بدأت فى أواخر أيام السلطان محمد الشيخ، وأنهم امتنعوا بحصونهم فى مالقة ووادى آش مما أدى إلى قيام الحرب بينها . ثم يروى نادرة لطيفة تدل على إنسانية هـذا السلطان وشفقته إذ يقول وبينما كان السلطان ينازل مالقه ، ركب فى ثلاثة من مماليكه متخفيا كأنما غرضه وذهب إلى باب المدينة ، فلما أبصر به القائمون به هالهم الأمر وأدهشهم الهيبة فأفرجوا له موقرين لحاله آنسين لقلة أتباعه ،فدخل وقصد القصبة ،وطير الخبر إلى الرئيس محمد بن اشقيلولة فبادر اليه راجلا مهرولا حافيا ولما دنا منه ترامى على رجليه يقبلها اظهارا لحق أبوته وتعظيما لقدره ودخل معه إلى بنته أى بنت السلطان وحفدته فترامى الجميع على أطرافه يلثمونها ويتعلقون بأذياله وأدرانه وهو يبكى إظهارا للشفقة والمودة. وأقام معهم بياض يومه ثم انصرف إلى محلته .

(١) عن ثورة بنى أشقيلولة راجع (ابن الخطيب . أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ص ٢٨٧ - ٢٩١) ولأهمية هذا النص فقد ترجمه جاوثر إلى الفرنسية (Hesperis xxv , 1938) كما ترجمـه سانشث البرنث إلى الأسبانية (Sanchez Albornoz : La Espa a Musulmana II , p 352)

من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون ، وخشى أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمدين عباد وغيره من ملوك الطوائف ، فلجأ إلى جيرانه المسيحيين ، وعقد مع سانشو الرابع Sancho IV ملك قشتالة وخايمى الثانى Jaime II ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب .

واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمى أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالها بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras التى كانت فى يد المرينيين ، لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الاندلس . ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك .

ثم نازلت أساطيل أراجون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ولكنها منيت بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربى والسبتى ، واضطرت الى الاقلاع عنها خائبة السعى وتمكن سلطان المغرب من العبور بجيوشه الى أسبانيا . وكانت مالقة فى خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل واليها من قبل المرينيين وعوضه عنها بالمنكب وشلوبانية . فنازلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المرينى الى ان صادمت الأسوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب الى فك الحصار عن مالقة والعودة الى الجزيرة الخضراء . واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين الى ان تم الاتفاق بينها على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادى آش قاعدة بنى اشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل

سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير (١) فى شمال المغرب لبنى اشقيلولة. وفى سنة ٦٨٧هـ هاجر بنو اشقيلولة بأموالهم وأهليهم ورجالهم الى مدينة القصر الكبير وأعمالها ؛ واستقروا بها الى أن انقرضت أيامهم فى أواخر الدولة المرينية (٢).

على أن سلطان غرناطة رغم هذا الاتفاق السالف الذكر، لم يأمن جانب بنى اشقيلولة، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه، ولهذا استولى على مدينة وادى أش وطرد عامل المرينيين منها، كما استنجد بالقوى المسيحية الاسبانية لسد المضيق بأساطيلهم : وفى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) قام سانشو الرابع ملك قشتالة بمحاصرة طريف برا بينما حاصرها ملك أراجون بأساطيله من البحر. أما ملك غرناطة، فانه أكتفى بمهاجمة مدينة أسطبونة إحدى القواعد الاندلسية التابعة لسلطان المغرب، وانتهت هذه العمليات بسقوط طريف فى أيدى القشتاليين بعد حصار دام ستة أشهر (٣).

---

(١) القصر الكبير مدينة فى شمال المغرب فى جنوب سبتة وكانت تسمى أيضا بقصر كتامه وقصر عبد الكريم.

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٦٨.

(٣) راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٩١) وكذلك.

Gimenez Soler ; La corona de Aragon y Granada Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona : num. 19, 1905).

وراجع كذلك (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢١٦).

على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسى وعوده السابقة لملك غرناطة، ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضا بالحصون الغرناطية التى كان محمد الثانى قد سلمها إليه فى مقابل تسليمه قاعدة طريف ، وثارت ثائرة سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور إلى سلطان المغرب أبى يعقوب يوسف سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ليطلب منه الصفح على مسلكه السابق ، وليطلب منه أيضا معونة حربية لاسترداد طريف (١) .

واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والأساطيل المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق فى احتلالها . وترجع المصادر الأسبانية هـــذا الفشل إلى بطولة قائد حامية المدينة قزمان الطيب Guzman el Bueno الذى فضل أن يقتل المسلمون ولده أمام عينيه على أن يسلم المدينة (٢) .

غير أن السلطان محمد الثانى ، وأن كان لم يوفق فى استعادة طريف ، إلا أنه استطاع أن ينتزع من القشتاليين مدينتين من أعمال جيان وهما قيجاطة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢٦٥ ، ابن خلدون . العبر جـ ٧ ص ٢١٧ .

(٢) راجع Pedro Barrantes Maldonado : Ilustraciones de la casa de Niebla, memorial historico Espanol, t IX p. 145 - 170 , Gimenez Soler ; La corona de Aragon. y Granada, B.R.A.B.L.B. , no 19 (1905) p. 162)

Quesada سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥ م) (١) والقبذاق Alcuadete سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى (١٤ م) قامت فى بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث السلطان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولا بيد بعض عبيده سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) .

ولقد حركت أنباء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (٧٠٢ - ٧٠٩ هـ ١٣٠٢ - ١٣٠٩ هـ) فى السيطرة على المضيق ، فانتهز هذه الفرصة وأمر ابن عمه أبا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبته ، فاقتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) وقبض على ولاتها من بنى العزفى وأرسلهم أسرى الى غرناطة (٢) .

وغضب سلطان المغرب أبو ثابت عامر (٧٠٦ - ٧٠٨هـ) من هذا التدخل الغرناطى فى شئون بلاده ، وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان (٣) جنوبى

---

١) راجع تفاصيل هذا الفتح فى (ابن الخطيب : الاحاطة نسخة الاشكوريال : لوحات ٤٨ - ٥٣) .

أنظر كذلك (Melchor Antuna : Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammad II de Granada, Religion y Cultura, 1932, XIX, XX)

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٣ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) يلاحظ أن قصبة تطوان بناها السلطان أبو يوسف يعقوب ١٢٨٥ م ثم جاء السلطان أبو ثابت فبنى المدينة نفسها لكى يهدد منها مدينة سبتة . راجع (السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٤٦) .

سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية فى سبتة . ولم يعش السلطان أبو ثابت طويلا لكى يحقق أماله ولكن أبنه أبو الربيع سليمان (٧٠٨ - ٧١٠ ه = ١٣٠٨ - ١٣١٠ م) واصـــل سياسته بضرورة استعادة سبتة وتحالف مع مملكتى قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرناندو الرابع ، وملك أراجون خايمى الثانى ، أن الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة ، فتحالفا على غزوها فى وقت واحد على أن تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مدينة الجزيرة الخضراء من الجنوب ، بينما تهاجم الأساطيل الاراجونية مدينة المرية من الشرق ثم يتقابل الجيشان فى مدينة غرناطة العاصمة (١) .

وحينما علمت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها ، ثارت ثائرة أبنائها ، وأخذوا يستعدون للقتال . وساءهم أن يجدوا سلطانهم محمد الثالث قد استنفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية فى بلاد المغرب ، فقاموا بثورة ضده ، انتهت بخلعه ونفيه إلى ثغر المنكب

---

(١) راجع التفاصيل (Gaspar Remiro : Relaciones de Aragon con los estados musulmanes de Occidente : El negocio de Ceuta entre Jaime II de Aragon y abu Rabi Solaiman sultan de Fez, contra muhammad III de Granada & Angel Canellas: Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, estudios de Edad media de la Corona de Aragon Vol. II, P. 17 & Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, B. R. A. B. L. B., ho 14 (1904) P. 292) .

Almunecar ، وتولية أخيه أبى الجيوش نصر سلطانا على غرناطة (٧٠٨ - ٧١٣ هـ = ١٣٠٩ - ١٣١٤ م)[1].

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الاسلامية ضد الخطر المسيحى المنتظر. فعبر إلى سلطان المغرب أبى الربيع سليمان ؛ وتنازل له عن مدينتى رنده والجزيرة الخضراء ، كما أعاد إليه ثغر سبتة الذى سبق أن استولى عليه أخوه ، ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت سلطان المغرب (٢).

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن ألقى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورنده ، أن يتقرب إلى ملك قشتالة فرناندو الرابع ، ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراجون . غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب أيضا لأنه وكذب عليه وعلى ملك أراجون(٣).

وفى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولا احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها . وفى الوقت نفسه (٧٠٩ هـ) حاصر ملك أراجون خايمى الثانى بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحه البدرية ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ . ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٨ .

(٣) راجع (Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, Op. cit p. 301 - 302).

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين الصمود أمام العدوان ولاسيما مدينة المرية التى تعرضت فى هذه الحرب لأشد هجوم عرفته فى تاريخها . ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى والحديثون وكتبوا عنه فى شىء من التفصيل . (١)

ولقد انتهى هذا المشروع الحربى الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة وأراجون صلحا مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة بين هذه الدول الأربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة

---

(١) وصف هذه المعركة بالتفصيل ابن القاضى فى كتابه درة الحجال فى غرة أسماء الرجال (ج ١ ص ٧١ وما بعدها) ولأهمية هذا النص ترجمه هلوش إلى الفرنسية فى (Hespèris 1939 XVI p.122) كما ترجمه إلى الاسبانية سانشث البرنث (Sanchez Albornez : La Espana Musulmana II p. 386) وقد رأينا من المفيد إيراد هذا النص كضميمة فى آخر الكتاب . ومن النصوص العربية الهامة التى تناولت وصف هذه المعركة ، زجل شعبى أندلسى لشاعر يدعى القيسى ، ورد فى مخطوط عنوانه مفتاح الدين فى المجادلة بين النصارى والمسلمين .

وقد نشر ليفى بروفنسال هذا الزجل فى مجلة الأندلس الأساسية بعنوان :

(Levi - Provençal : Un Zagal hispanique sur L'expedition aragonaise de 1309 contre Almeria, al Andalus , Vol. VI , fasc. 2, 1941.)

أما المصادر الأوربية فنذكر منها :

Geronimo Zurita ; Los anales de la Corona de Aragon I p.433 & Gimenez Soler : El sitio de Almeria (1309) p.388-392.

الآن فى أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة .(١)

وفى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) حدث انقلاب داخلى فى مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها أبى الجيوش نصر ونفيه إلى مدينة وادى آش وتولية ابن عمه أبى الوليد اسماعيل الأول (٧١٣ - ٧٢٥ هـ ١٣١٤ - ١٣٢٥ م). وقد حاول السلطان اسماعيل أن يحافظ على العلاقات الودية التى تربط غرناطة بقشتالة وأراجون . غير أن محاولاته باءت بالفشل وخصوصا مع قشتالة التى أظهرت تأييدها للملك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على غرناطة . (٢)

ثم قام الأميران بدور وخوان ، الوصيان على ملك قشتالة الطفل الفونسو الحادى عشر ، بحملة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح فى منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق ، ولكنها انتهت بمقتل الأميرين القشتاليين فى مروج غرناطة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وتذهب الرواية الاسبانية إلى أن الأميرين المذكورين ماتا موتة طبيعية فى هذه المعركة ، الأول (بدور) مات بالسكتة القلبية ، والثانى (خوان) مات

---

(١) جمعت هذه الوثائق فى كتاب .

(Alarco'n y Linares :Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de aragon pp. 14, 20 - 23)

(٢) راجع :

(Angel Canellas Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, Op. cit. p 17).

من الحر والعطش [١] . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله « وتقدم أتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره Pedro » وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة ، وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب . وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته ، واحتيج إلى بناء البرج ، وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ، فألفى قد عفن ، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ، فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ، ألفى بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الوقيعة ، كانت سببا للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وأمرت برده بمكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار إذا مروا به ، وتخليد الفخر للدين ما شاء الله . [٢] »

وسارعت قشتالة بعد هذه الكارثة إلى عقد صلح مع غرناطة

(١) راجع :
(Gimenez Soler. La expedicion á Granada de los infantes don Juan y don Pedro en 1319)

(٢) راجع (ابن الخطيب أعمال الاعلام ، القسم الثاني ، ص ٢٣٤) وكذلك (العمري : مسالك الابصار ص ٤٣ ، نشر حسن حسني عبد الوهاب)

سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) ولكنها نكبت فى العام التالى بوفاة الملكة ماريا دى مولينا Maria de Molina جدة الملك القاصر الفونسو الحادى عشر والوصية عليه بعد وفاة أعمامه . وأدى موتها إلى قيام منازعات داخلية بين أمراء قشتالة حول الوصاية على العرش . وانتهز سلطـــان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة Baza وأشكر Huescar سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ - ١٣٢٥ م) . وتنبغى الإشارة هنا إلى أنه فى احتلال هذه المدينة الأخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة فى الأندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفا هاما لهذا السلاح الجديد وما أحدثه من ذعر فى صفوف الاعداء وهذا الوصف يعتبر فى الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الاسلحة النارية وفيه يقول:

نازل السلطان أشكر ... ونشر الحرب عليها ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع ، فعاثت عيات الصواعق السماوية ونزل أهلها قسرا على حكمه . وفى ذلك يقول شيخنا الحكيم ابو زكريا ابن هذيل :

وظنوا بأن الرعد والصعق فى السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سما هرمس بها مهندمة تأتى الجبــــال فتنهد
ألا انهـا الدنيا تريك عجائبا وما فى القوى منها فلابد أن يبدو (١)

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٧٢ ، ويلاحظ أن كلمة نفط استعملها المسلمون بمعنى النار الاغريقية الحارقة وبمعنى المدفع المدمر الهادم كما هو واضح هنا فى المتن .

ومن الطريف أن المصادر الاسبانية المعاصرة فى وصفها لأحداث هذه الحرب ، أشارت إلى هذا السلاح الرهيب ففى مدونة زوريتا نجد العبارة التاليـة : « وانتشرت الإشاعات فى مدينة لقنت Alicante بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مبيدا »[1] .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية ، هى أن يباشر الملك الفونسو الحادى عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه (١٥ سنة) وقد تم ذلك فعلا فى أغسطس سنة ١٣٢٥ م . وفى السنة التالية هاجم هذا الملك مملكة غرناطة منتهزا فرصة الاضطرابات التى حلت بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (٧٢٥-٧٣٣ هـ = ١٣٢٦ - ١٣٣٣ م) .

وأمام النجاح الذى أحرزه الهجوم القشتالى فى الأراضى الغرناطيـة ، أسرع محمد الرابع إلى سلطان المغرب أبى سعيد عثمان الثانى ، واتفق معه على التعاون عسكريا ضد قشتالة . وقد رد ملك قشتالة على ذلك بأن عقد اتفاقا مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربى ، وهى اتفاقية طركونة

---

(١) راجـع (J.Zurita : Anales , II, p.31 , 89) حيث يرد النص بالاسبانية على الوجه التالى :

" Se extendia el rumor que el rey de Granada estaba en posesion de una nueva arma mortifera ,,

هذا وقد توصل المغاربة الى اختراع المدفع قبل اخوانهم الغرناطيين بنحو خمسين سنة إذ يروى ابن خلدون (العـبر ج ٧ ص ١٨٨) أن السلطان =

Tarragona سنة ١٣٢٨ م.[1]

ثم بدأت الحرب فى صيف ٧٣٠ ﻫ (١٣٣٠ م) ، وكانت شديدة فى الجبهة القشتالية ، ضعيفة فى الجبهة الأراجونية ، ويبدو أن الفونسو الرابع ملك أراجون لم يكن جادا فى هذه الحرب ، إذ لم يهاجم ميناء المرية كما كان متفقا عليه ، واقتصر على إرسال حملة إلى منطقة لورقة Lorca [2] أما قشتالة فقد تحملت عبء القتال وحـــدها ، واستطاع الفونسو الحادى عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية ، ولكن الجيوش الغرناطية بالتعاون مع الأساطيل المغربيـة التى أرسلها السلطان أبو الحسن على المرينى (٧٣١ - ٧٤٩ﻫ - ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) بقيادة ولده أبى مالك تمكنت فى نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنـــة ٧٣٣ ﻫ (١٣٣٣ م) وحاول ملك قشتالة إنقاذ هذه القاعدة الهامة ولكن بعد فوات الأوان [3]

= يعقوب المرينى عندما هاجم مدينة سجلماسه سنة ٦٧٢ ﻫ (١٢٧٢م) نصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة باريها . راجع ما كتبناه فى هذا الموضوع فى (Hespéris , 1959, 3 - 4 Trimestres p. 264) .

(١) راجع (Angel Canelles : Op. cit. p. 25 - 26)

(٢) راجع Gimenez Soler : La Corona de aragon y Granada, Op Cit Num . 27 (1907) p. 163

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٧٦ - ٨٠ ، ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٤ ص ٣٥٦ .

ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع فى طريق عودته إلى عاصمته بعد هذا النصر، إذ به يقع صريعا بيد بعض المتآمرين من جنوده، وخلفه على عرش غرناطة أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥ ﻫ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) . واستطاع أبو الحجاج أن يصل إلى اتفاق مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضا أبو الحسن المرينى سنة ٧٣٤ ﻫ (١٣٣٤ م) وكان من شروط هذه المعاهدة أن يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات، على ألا تمر قوات مغربية إلى الأندلس اللهم إلا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية فى الأندلس. وفى نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون (١)

على أن كل هذه المعاهدات، لم تحل المشكلة القديمة القائمة، وهى مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الأخيرة بعد. وانتهز كلاهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسى للسيطرة البرية بعد ذلك. ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المرينى أن يستعين فى هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنوبيين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس (٢)، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر أن

(١) أنظر (Gimenez Soler : La Corona de Aragon y Granada, OP. Cit . Num 28 (1907) p. 200)

(٢) تزوج أبو الحسن المرينى أحدى بنات السلطان يحي الحفصى سنة ١٣٣٠ م ويروى أن العروس جاءت فى حاشية كبيرة الى ميناء غساسة بالقرب من مليلة، ومنها انتقلت إلى فاس.

يستعين بأساطيل مالك أراجون . وقد أمـــده بالفعل بدور الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة Gilabert de Gruylles (١) ، بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحي الحفصى اسطولا من ست عشرة قطعة إلى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية . ويذكر ابن خلدون أن أساطيل المغرب وتونس التي تجمعت بمرسى سبتة كانت تناهز المائة ، وأن السلطان أبا الحسن المرينى عقد عليها لمحمد بن على العزفى حاكم سبتة (٢) ، بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب بلغت مائتين وخمسين شراعا .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأت المعركة فى ربيع ٧٤٠ ﻫ (١٣٤٠م) عندما حاول القائد الاراجوانى Gilabert de Gruylles عبور المضيق والاتصال بقائد الاسطول القشتالى Alonso Jofre Tenorio فى مياه أشبيلية عندئذ تصدى له الأسطول المغربى ليحول دون هذا الاتصال ، ودارت بينهما معركة عنيفة فى مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الأسطول الأراجونى وقتل قائده ، وانسحاب فلوله إلى برشلونة بقيادة نائب القائد

---

(١) راجع (Gautier) L. Canellas : Op. cit. P. 28 - 32 & Dalache : Quelques aspects de la lutte pour la maitrise du detroit de Gibraltar au XIV siecle, Comite Marocain de ocumentation historique de la Marine, Bulletin ho 7 mars 1958)

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٣ ص ١٣٥

المقتول Pedro de Moncada .

ولاشك أن انسحاب الأسطول الأراجونى من ميدان المعركة ، كان ضربة قاضية للاسطول القشتالى الذى لم يستطع الصمود وحده أمام أسطول المغرب ، فمنى هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده Alonso Jofre Tenorio واستولى المسلمون على بعض قطعه . وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع على مضيق جبل طارق ، وصار من السهل عليه نقل قواته إلى أسبانيا فى فى سهولة ويسر .

واتجهت أنظار هذا المجاهد الكبير إلى مدينة طريف القاعدة الباقية فى أيدى الأسبان من ثغور المضيق . فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده ، كما صار الطريق أمامه مفتوحا إلى قادس وأشبيلية لهذا عول على احتلالها وأجاز إليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب برا وبحرا فى المحرم سنة ٧٤١ ه . واشترك معه فى هذا الحصار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول بجيوشه أيضا .

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر بخطورة الموقف ، فاستنجد بملك أرجوان بدرو الرابع ، كما استنجد بصهره ملك البرتغال الفونسو الرابع ، وهرع الجميع إلى ساحة طريف بغية انقاذها ، وفى ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ ه (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم . وسميت هذه الموقعة فى المصادر العربية باسم موقعة طريف ، أما المصادر الاسبانية فقد سمتها بوقعة نهر سلادو del rio Salado على اسم النهر المجاور لطريف فى جنوب أسبانيا ،

كما سمتها أيضا بوقعة الملوك الأربعة de los cuatro reyes[1] .

ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أورده ابن الخطيب الذى فقد أباه وأخاه[2] فى هذه المعركة . يقول فيه : « ودون الفنش - ملك البرتغال - هو الذى أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بإزائنا أهل الأندلس . وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيشا وراءهم فاصلا عن الملكين ، يمد من ظهر به اختلال وتضعضع ؛ فبادر إلى عدونا فقواه وسبب له الظهور[3] .

ويضيف ابن الخطيب ، فى موضع آخر سببا ثانيا لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم فى القتال ضد المسلمين فيقول . وكان اللقاء بظاهر طريف ، وساء التقدير . واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الحزم ، وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكة ، وضيقت مجال القتال ، وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم ، فوقعت الهزيمة التى حصدت شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكتسحت أموالهم ، وأسلم السلطان مضاربه ، ومن جملة ما بها أزواجه من بنات

---

(١) راجع (Crónica de Alfonso onceno, ed. Rosell, p. 323 & Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho ... pp. 28-32 & Miguel Cuartero: El Salado, revista « Ejercito » num. 13, Febrero de 1941 & Creasy : Las batallas decesivas en la historia del mundo p. 287) .

(٢) حاول الأب انقاذ ولده حين كبا به فرسه ، وقد غشى العدو فكان آخر العهد بهما . راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٦ ص ٣١٥ - ٣١٨) .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٣٧ ويفهم من هذا أن الجيش البرتغالى كان يواجه الجيش الغرناطى بينما كان الجيش القشتالى يواجه الجيش المغربى .

الملوك ، وقعت بين المثلة بعد القتل ، وكان الخطب على الاسلام قل أن يجتمع مثله ، (١) .

وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التى حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة ، وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة يحصب (٢) وباغو Priego ثم حاصر أخيرا مدينة الجزيرة الخضراء Alcala la Real سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) . ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من السنتين ، وذاعت أنباؤه فى أنحاء أوربا ، وسارع إليه عدد كبير من الفرسان الانجليز والألمان والفرنسيين للمشاركة فيه . وسقط بعضهم قتلى بسيوف المسلمين (٣) . كذلك شاركت أراجون فى هذا الحصار بجزء من أسطولها بقيادة الأمير Bernardo de Gabrera (٤) .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة انقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل ، وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء فى ربيع سنة ٧٤٤ هـ (٥)

(١) ابن الخطيب . كتاب رقم الحلل فى نظم الدول ص ٩٣ (تونس ١٣١٦ هـ)

(٢) قلعة يحصب وتسمى كذلك بقلعة بنى سعيد ، أسرة المؤرخ المعروف ابن سعيد المغربى .

(٣) راجع (Gimenez Soler :la Corona de aragon y Granada, Op. cit 1907 num 28 , p. 2(4)

(٤) Zurita : Anales,II p.149 & A. Canellas : Op. cit p.32

(٥) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٦ ص ١٢٠ - ١٢٨ حيث يرد الخطاب الذى وجهه سلطان المغرب إلى سلطان مصر يصف فيه سقوط الجزيرة الخضراء .)

(١٣٤٤ م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات [١] .

وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة ، حاول الملك الفونسو الحادى عشر تحقيق أمنية طالما فكر فى تحقيقها وهى الاستيلاء على جبل طارق . فأناخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون انتشر فى معسكره ، ولم يلبث هو نفسه أن راح ضحية لهـــذا الموت الأسود فى مارس سنة ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته ، أمر جنوده بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها إلى اشبيلية [٢] . وقدر ملك قشتالة الجديد بدور [٣] الأول لسلطان غرناطة وللمسلمين هذا الصنيع ، فعقد معه معاهدة ود وصداقة [٤] . كذلك عقدت أراجون مع

---

(١) هذه المعاهدة نشرها كانيلياس ضمن الوثائق الملحقة ببحثه . راجع (A. Canellas ; Aragon y la empresa del Estrecho, documento num. 17).

(٢) راجـــع (Lopez de Ayala : Gronica de los reyes de Castilla ,I, p.12)

(٣) يلقب بالقاسى el cruel ويلقب أيضا بالعادل el justiciero لأنه قتل زوجاته . ويبدو هذا هو الابن الشرعى الوحيد للملك الفونسو الحادى عشر من زوجته ماريا البرتغالية . راجع : A. Ballesteros : Historia be Espana , III, p . 133)

(٤) راجع (Argote de Mclina :Nobleza de Andalucia,fol 228

ملك غرناطة معاهدة سلمية مماثلة وتبادلت معه خطابات ودية [1] .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيحيين حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبي عنان فارس [2] (٧٤٩ - ٧٥٩ ه = ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) والسبب في هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من إخوة أبي عنان وهما الاميران أبو الفضل وأبو سالم ، خرجا عن طاعة أخيهما السلطان ، وهربا إلى سلطان غرناطة ملتمسين حمايته ، وقبل أبو الحجاج يوسف طلبهما وآواهما في بلاطه . وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل إلى سلطان غرناطة خطابا شديد اللهجة ، مليئا بعبارات الاحتجاج والتهديد،وكان رد السلطان يوسف عليه واضحا،إذ أوعز إلى الامير أبي الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه . ووافق ملك قشتاله على طلب الأمير المغربي أبي الفضل لأنه كان متخوفا من أطماع أبي عنان ، فأمده بالاساطيل والأموال وأنزله بنواحي السوس في جنوب المغرب كي يشعل حربا أهلية ضد أخيه . وثارت ثائرة السلطان أبي عنان لهذا العمل العدائي ، وطلب

---

(١) انظر (Alarcon y Linares ; Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon p, 133)

(٢) هذا السلطان ثار على أبيه أبي الحسن المريني بتلمسان سنة ٧٤٩ه واستولى على المغرب الاقصى واضطر أبو الحسن أن يحتمي بشيوخ هنتاتة بجبال أطلس إلى أن مات في تلك السنة . راجع تفاصيل تلك الثورة وأسبابها في (ابن خلدون : العبر حـ ٧ ص ٢٧٨ - ٢٨٧ ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٣ - ٩٥ ابن الاحمر : روضة النسرين ص٢٣-٢٤)

من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة وقشتالة (١) . غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما مات أخوه أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف أثناء تأديته لصلاة عيد الفطر فى شوال سنة ٧٥٥ هـ (٢) (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) .

وولى عرش غرناطة بعد أبى الحجاج يوسف ولده السلطان محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ – ٧٦٠ ، ٧٦٣ - ٧٩٣ هـ = ١٣٥٤ - ١٣٥٩ ، ١٣٦٢ - ١٣٩١ م) . وحاول هذا السلطان الجديد أن يعيد العلاقات الودية بين غرناطة والمغرب بعد أن تأزمت فى عهد والده ، فأرسل إلى فاس سفارة لهذا الغرض برئاسة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذى يبدو أنه نجح فى سفارته . إذ يروى أنه حينما مثل بين يدى السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنشده قصيدة يقول فى مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر　　علاك مالاح فى الدجى قمر

فاهتز أبو عنان لأبياتها وقال لابن الخطيب : « ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم » وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله . لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا (٣) .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو

---

(١) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر حـ ٧ ص ٢٩٣ - ٢٩٤)

(٢) قتله مخبول فى المسجد الاعظم بقصر الحمراء .

(٣) المقرى : أزهار الرياض حـ ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن الخطيب : الاحاطة حـ ٢ ص ٩ (طبعة القاهرة)

الأندلس ، والسيطرة على المضيق ، خصوصا بعد أن تم له ضم المغرب الأوسط إلى ملكه . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عند قوله : « وكان أبو عنان يؤمل فى ملك الأندلس » . (١) ورأى أبو عنان أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه ما دام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتاله . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلى عن هذا الحلف الذى جعله يدين بالتبعية لملك قشتاله ويدفع له الجزية ، غير أن محمد الخامس رفض هذا العرض لأنه كان يجنح دائما إلى مسالمة قشتاله (٢) ، أو لأنه ، كما يبدو ، كان يشك فى نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو عنان أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أراجون الذى رحب من جانبه بهذا المشروع لأنه كان فعلا فى حرب مع قشتاله ، ووقع الاتفاق بين الملكين بمدينة سرقسطة فى يوليو سنة ١٣٥٧ م (٣) (٧٥٨ هـ) .

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر جـ٧ص٣٠٤

(٢) راجع الرسائل المتبادلة بينهما فى (ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب : وهو مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ ،وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة تحت عنوان :

Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granada y Feez en el siglo XIV p. 253 - 257

(٣) راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٤) وكذلك (: Capmany

Antiguos tratados de paces y alianzas entre alguncs reyes da Aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde e siglo XIII hasta el siglo XV p. 18 & Capmany : Memorias sobre la marina, Comercio y artes de Barcelona, tome III p. 202, tome IV p. 121)

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلا بدليل قول ابن خلدون بأن الأساطيل المغربية والأراجونية قد أخذت تتجمع فى مضيق جبل طارق منتظرة الأمر بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل الى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربونا لصداقته وامتنانه [١].

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث أن توقفت فجأة نتيجة لوفاة أو مقتل السلطان أبى عنان [٢]. فى سنة ٧٥٩ هـ (ديسمبر ١٣٥٨م). اذ انتهز ملك تلمسات المخلوع أبو حمو الثانى هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الأوسط ، بينما سادت المغرب الأقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفى طمعا فى العرش . ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودى أن يستأثر بالنفوذ فى الدولة فدبر من قتل ولى العهد أبا زيان ، واختار طفلا من اخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطانا على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم الى غرناطة وبايعوا الأمير أبا سالم ابراهيم المرينى الذى سبق أن التجأ اليها فرارا من أخيه أبى عنان وظن أبو سالم أن غرناطة سوف

---

(١) راجع وصف هذه الهدية فى عبد الرحمن بن خلدون: العبر حـ ٧ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤ وكذلك فى كتاب أخيه يحيى ابن خلدون . بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد حـ ٢ ص ٣٧ . ويلاحظ أن هذه الهدية لم تصل الى ملك أراجون اذ استولى عليها ملك تلمسان أبو حمو الثانى عندما استرد ملكه عقب وفاة ابى عنان وكانت الهدية لا تزال فى بلاده .

(٢) راجع أخبار وفاته فى (ابن خلدون : العبر حـ ٧ ص ٢٩٩ ، السلاوى

تساعده على تحقيق آماله فى ملك المغرب نظرا للعداء الذى كان بينها وبين حكومة فاس على عهد أخيه ، ولكن سلطان غرناطه فضـــل أن يسلك سياسة محايدة فى تلك الظروف المضطربة ، واضطر أبو سالم الى الفرار الى ملك قشتالة بدور الاول بمدينة اشبيليه طالبا مساعدته فى الوصول الى عرش المغرب . وكان رأى المستشارين فى البلاط القشتالى عـدم المـوافقة على مساعدة الأمير المغربى ، لأن من مصلحة قشتالة أن يكون سلطان المغرب طفلا قاصرا مثل السعيد أبى بكر ، ولكن الملك بدرو لم يستجب لهذا الرأى ، وقرر مساعدة الأمير أبى سالم بعد أن أخذ عليه الضـــمانات والمواثيق بالوقوف الى جانبه ضد أراجون ثم أمده بالأموال وبالأساطيل التى عبرت به الى الساحل المغـربى ، وهناك تمكن أبو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب فى شعبان ٧٦٠ هـ (يوليو سنة ١٣٥٩م)[1] .

وكان من الطبيعى أن تتجه سياسة هذا السلطان الجديد نحو محالفة كل من قشتاله وغرناطة ، والتخلى عن سياسة التحالف مع أراجون التى رسمها

= الاستقصا جـ ٣ ص ٢٠٤) كذلك يرى ابن الخطيب أنه مات قتيلا مثل قوله (رقم الحلل ص ٨٤) :

ومات فيها قيل شر ميتة   بغيلة لنفسه مفيتـه
لم يغن عنه البأس والبسالة   وأصبحت مهجته مُساله

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢١٥ وما بعدها ، ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٢ - ٣٠٦ .

أبو عنان من قبل . وكانت الحرب وقتئذ قد استعرت بين هاتين المملكتين الاسبانيتين قشتالة وأراجون ، وصمم ملك قشتالة على مواجهة خصمه فى مياهه الاقليميه ليثبت له أنه قادر على منازلته فى البحر الذى هو ميدانه . واستعان فى ذلك بحليفه محمد الخامس الذى لم يتردد فى امداده باسطول غرناطى من عشر شوانى حربية بجميع بحارتها وأسلحتها كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطيه ليستعين بها فى تموين أساطيله [1] .

وبينما كان ملك قشتالة منهمكا فى غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة وغيرها من الموانى الأراجونية [2] ، اذا بحليفه محمد الخامس يعانى انقلابا داخليا فى مملكته انتهى بخلعه وتولية أخيه أبى الوليد اسماعيل الثانى مكانه وذلك فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ (أغسطس سنة ١٣٥٩م) [3] . وتمكن السلطان المخلوع من الفرار ليلا على ظهر جواده الى مدينة وادى آش Guadix التى تعهدت بحمايته . ومن هناك بعث محمد الخامس الى حليفه سلطان المغرب يطلب منه قبوله كلاجىء سياسى فى بلاطه وقبل السلطان ابو سالم

(١) راجع Lopez de Ayala . Cronicas de los Reyes de Castilla, I p.286 Zurita : Los anales de la Corona de Aragon II p. 244 & Cascales : Historia de Murcia fol 102)

(٢) راجع التفاصيل فى (Lopez de Ayala : Op.cit.I p. 277-286)

(٣) راجع تفاصيل هذا الانقلاب فى مقالنا (فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد المجلد السابع ١٩٥٩) .

هذا العرض لأنه رأى أن وجوده بجانبه يفيده كسلاح ضد حكومة غرناطة وضد أمراء بنى مرين المقيمين فى كنفها اذا ما فكروا يوما فى غزو المغرب ، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون : « وأراد أن يعده زبونا (أى حربا وقوة) على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحوا الى مالك المغرب »(١).

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولا خاصا من قبله ليصحب محمد الخامس فى رحلته الى المغرب بعد أن أقنع المتغلب على غرناطة بذلك . وفى ذى الحجة سنة ٧٦٠ ﻫ (نوفمبر سنة ١٣٥٩م) خرج محمد الخامس من مدينة وادى آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبد الله ابن زمرك وجماعة من مماليكه وأتباعه متجها الى ميناء مربله Marbella ، ومن هناك أبحر عبر مضيق جبل طارق الى مدينة سبتة ثم سار الى العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبى سالم ورعايته(٢).

ولم يكد يمر عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انقلابا آخر طوح برأس سلطانها أبى الوليد اسماعيل الثانى فى شعبان سنة ٧٦١ﻫ

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٠٧

(٢) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ١٣ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٠٩ ، المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٣ - ٢٥ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧).

(يونيو ١٣٦٠م) . وتولى مكانه قاتله وهو زوج أخته وأحد أبناء[١] عمومته محمد أبو سعيد المعروف فى المصادر الاسبانية باسم البرميخــو El-Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب الى الحمرة ، وهو لون لحيته وشعره[٢]. ورأى هذا السلطان المغتصب أن التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظرا للصداقة التى تربط ملكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بدرو الرابع ملك أراجون ، وانضم إليه فى حروبه ضد قشتاله [٣].

وقدر ملك قشتاله ، بعد انضمام غــرناطة الى أراجون ، صعوبة الحرب فى جبهتين فى آن واحد ، ولذ اضطر الى أن يستجيب لوساطة البابا بعقد صلح مع أراجون فى ١٣ مايو سنة ١٣٦١ ، كى يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة[٤].

ولكى يبرر ملك قشتاله شرعية هذه الحرب ، أعلن نفسه مدافعا عن حقوق السلطان الشرعى المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب أبى سعيد البرميخو[٥]. وعلى هذا الأساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة

---

(١) حفيد عم أبيه. أنظر (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٢ ص ٣٠٤).

(٢) راجع (P. Mariana: Historia general de Espana II, p. 221)

(٣) راجع (Bleda : Cronica de los moros de Espana p.537, Ayala : Op. cit. Ip 326 & Alarcon y Linares : Documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon P.142)

(٤) Ayala ; Op. cit I,326

(٥) Garibay : Op. cit, p. 1103 , Bleda : Op. cit 537, Ayala : Op. cit Ip.331)

المخلوع كى يساعده فى العودة الى عرشه . ولكن السلطـــان أبا سالم تلكأ فى تنفيذ هذا الطلب ، اذ يبدو أنه اتفق مع البرميخو سرا على منع محمد الخامس من العبور الى أسبانيا فى مقابل أن يقوم البرميخو باعتقال جميع أمراء بنى مرين المقيمين عنده بغرناطة(١).

وغضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب ، وهدده بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية فى أسبانيا إن لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان أبو سالم أمام إصرار بدور القاسى وتهديده أن يرضخ لمطالبة ، فأمر أساطيلة بالتجمع فى مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة ، متظاهرا بحرب الأسطول الأراجونى ، بينما كان غرضه الحقيقى هو إجازة السلطان المخلوع إلى الساحل الأندلسى . وفى الوقت نفسه وصلت الأساطيل القشتالية إلى ميناء سبتة للقيام أيضا بمهمة إجازة السلطان محمد الخامس إلى أسبانيا ، وهنا نترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من فاس إلى الأندلس كما شاهده بنفسه ، فيقول (٢) .

وألح سلطان قشتالة فى تسليم السلطان أبى عبد الله إليه ، (٣) ليتولى شد أزره ، ويجتهد فى جبر حالة . وألقيت إليه المعاذير فنبا عنها سمعه ، ورفق عن غرضه فى رفع السلم عند اخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣١٦ .

(٢) راجع ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ١٨٤ - ٢٨٥ ، ٩٨٥ ، نشر أحمد مختار العبادى) .

(٣) أى السلطان محمد الخامس الغنى بالله .

ضروب ملاطفته فترجح الرأى على توجيهه إلى الأندلس . وقد كان الأسطول(١) تألف بفرضة المجاز من نسبة موريا بجهاد من ظهر به من عدو برشلونة . ووصلت أساطيل الروم (٢) المتسخرة فى غرض إجازته ، قد أركبها ملك النصارى (٣) وجوه خدامه : فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب (٤) فى قبة العرض المتخذة بجنة المصارة . ووقع التريح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيح ، واستحضرت البنود والطبول وأوعية المال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ (٥) . واستحضر السلطان (٦) فصعد إلى القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحت ، ونشرت حوله الألوية ، وقرعت الطبول ، وركب السلطان (٧) مشيعا إياه غلوة ثم انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها فى جملة كثيفة . وبلى من رقة الناس وأجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد ، منتزع

---

(١) يقصد الأسطول المغربى .

(٢) أى أساطيل قشتالة .

(٣) بدرو الأول الملقب بالقاسى ملك قشتالة.

(٤) أبو سالم ابراهيم المستعين بالله سلطان المغرب .

(٥) عام ٧٦٢ ﻫ (٣٠ أغسطس ١٣٦١ م) .

(٦) أى سلطان غرناطة المخلوع محمد الخامس .

(٧) أى سلطان المغرب أبو سالم .

الحق ، فتبعته الخواطر وحميت له الأنفاس ... وحث السلطان أبو عبد الله ابن نصر الموجه إلى الأندلس ركابه إلى سبتة ، لا يصدق بالإفلات ، ولا يثق بالنجاة ، فصارت له خيل وقفقت حوله لشدة السير ، واستقر بسبتة ، واستعجل الجواز ، وحل بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الأسطول (١) الرومى ومحاورة ، إذ تورعوا بإجازته، ولم يسمحوا فى خلاف ذلك ليجلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة إليه . فأعملت الحيلة ولفقت الحجة وقطع السلطان ألسنتهم بمال بذله مكارمة لهم ، وأركب أجفانهم طائفة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح ، وطال به مقامه تردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه (٢) فى لمة من مماليكه ووجوه قرابته . وتحفى السلطان ـ بدرو ـ بمقدمه ، وبالغ فى بره ، وأفرط فى التنزل لوجهته ، وأبعد المدا فى خطا تلقيه ، وأرجل الأكابر لأداء حقه ؛ وتوسع فى نزله ، وعم بالملاحظة جميع من فى صحبته ، وأعطاه صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة ، وسافه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته ، وشرط له أن لا يبتزه حصنا ، ولا ينقصه فتحا ، ولا يعلق به طماعية ، وأنه يصل معه السلم مدة حياته ، ويتركه وصية فى عقبه .

---

(١) أى الأسطول القشتالى .

(٢) يشير ابن الخطيب فى كتابه رقم الحلل فى نظم الدول ص ١٢١ إلى أن اللقاء بين محمد الخامس وبدرو الأول كان بمدينة اشبيلية . وهذا يتفق مع ما ورد فى المصادر الاسبانية . راجع (Garibay p. 1103 Bleda p. 537) .

وانصرف مجبورا قرير العين ، منشرح الصدر ، فلحق بسائر الجيش المرينى ومن تخلف عنه من قومه بظاهر رنده (١).

واتخذ محمد الخامس من مدينة رندة (٢) Ronda مقرا له ولحكومته المؤقته ، وكانت فى ذلك الوقت ، تابعة لسلطان بنى مرين . ومن هناك أخذ محمد الخامس يكاتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك طاعة البرميخو والانضمام إليه ، كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان المغتصب ، وقد أمدة سلطان المغرب بست سفن حربية ، كما أمده ملك قشتالة بخمس أخرى ، ووعداه بمزيد من الأساطيل والجيوش لاسترداد ملكه . ويضيف ابن الخطيب أن محمد الخامس أخذ يرصد رجاله لقطع الطريق على رجال البرميخو وسفاراته المتجهة إلى المغرب . ومن الطريف أن من بين الذين وقعوا فى أسره الفقيه محمد بن على بن محمد البلنسى الذى كان مقربا فى قصره أيام سلطنته ، وقد اضطر محمد الخامس إلى العفو عنه حنينا إلى حسن تلاوته (٣).

ولدرأ هذا الخطر ، رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو أن يستنجد بحليفه ملك أراجون ، فكتب له خطابا بتاريخ ٣ من ذى القعدة

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) تمتاز رنده بموقع استراتيجى مرتفع يشرف على حدود غرناطة الغربية Bastion de la Frontera occidental ,

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحه ٩٣ .

سنة ٧٦٢ هـ، (٤ سبتمبر سنة ١٣٦١م) يخبره فيه بأنه تفاديا لشروط المعاهدة المبرمة بين قشتاله وأرجوان ، فانه يرى أن يتكفل الأسطول الاراجونى بمقاومة هجوم سلطان المغرب ، بينما يتكفل الأسطول الغرناطى بمحاربة الأسطول القشتالى(١) .

ولم يكتف البرميخو بهذا التكتيك الحربى بل صمم على إرسال بعض المرشحين لعرش المغرب من أمراء بنى مرين المقيمين عنده الى المغرب لإشعال نار الحرب الأهلية ضد السلطان أبى سالم جزاء مساعدته لمحمد الخامس، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم سلطان المغرب وهما عبدالحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الأميران الإبحار من ثغر المنكب Almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية ، غير أن أسطول المغرب وقشتاله المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ، هاجم هذه السفينة واضطر بحارتها الى غرسها فى الرمال فتعذر سيرها بعد ذلك . على أن ركاب السفينة انتهزوا حلول الليل ، وغياب الأسطول المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء ، وأبحروا تحت جنح الظلام على ظهر سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالمغرب الأوسط(٢). وهناك رحب بهم أبوحمو الثانى ملك تلمسان وآواهم عنده . ثم نادى

(١) راجع نص الرسالة فى Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplomaticos de la corona de Aragon p. 142-143)

(٢) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

بعبد الحليم سلطانا على المغرب الأقصى لأنه أكبر سنا من أخيه عبد المؤمن ، وأمده بالمال والرجال . وكان الملك أبو حمو يهدف من وراء ذلك أن يثير حربا أهلية بين بنى مرين الذين طالما شردوه وشردوا باءه آبنى زيان من قبل ، وضموا تلمسان إلى ملكهم بالمغرب الأقصى(١) .

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان فى بث سمومها فى فاس ، ففى ٢٢ ذى القعدة سنه ٧٦٢ ه (٢٢ سبتمبر سنة ١٣٦١م) اغتيل السلطان أبو سالم المرينى على أثر انقلاب داخلى دبره وزيره عمر بن عبد الله(٢) . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت فى الأحداث السياسية بمنطقة المضيق إذ صدرت الأوامر إلى الأساطيل المغربية المكلفة بحراسة المضيق والاغارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة الى قواعدها فورا .

كذلك صدرت أوامر مماثلة الى الجيوش المغربية المقيمة مع محمد الخامس فى رندة ، تطلب منها التخلى عن مساعدته ولم يلبث الخامس أن وجد نفسه فجأة وحيدا خصوصا بعد أن تخلى عنه أيضا أقرباؤه واتباعه وفروا هاربين إلى غرناطه أو المغرب(٣) واضطر الغنى بالله فى غمرة يأسه أن يترك

---

(١) يحى بن خلدون : بغية الرواد حـ ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، عبد الرحمن بن خلدون : العبر حـ٧ص٣١٦-٣١٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة حـ ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : العبر حـ ٧ ص ٣١٣ .

(٣) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص٣٠١

مدينة رندة التابعة لبنى مرين ، وأن يتجه بمن تبقى معه من رجال الى أشبيلية لكى يتدبر الامر مع صديقه بدرو الاول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت أبى سالم حليفهما الثالث ، وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم امكان مساعدته فى هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على اكرامه وتطييب خاطره ، وأنزله هو وأتباعه فى ضيافته بمدينة استجه Ecija الجميلة المطلة على الثغور الغرناطية[١].

وكان المغرب الأقصى فى خلال ذلك الوقت يعانى فتنة داخلية ، اذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن أبى الحسن (الموسوس) ، الذى خلف أخاه أبا سالم ، اضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عمر بن عبد الله أن يستبدله بابن أخيه أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن المقيم ببلاط ملك قشتالة باشبيلية . واستعان الوزير المذكور فى تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجه كى يتوسط لدى صديقه بدرو الاول فى أن يسمح للامير أبى زيان بالعبور الى فاس وقبل محمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشترط فى مقابل ذلك تسليمه مدينة رنده التى كانت تابعة لبنى مرين ووافق الوزير عمر بن عبد الله على هذا الشرط تحت تأثير صديقة

---

(١) ابن الخطيب المرجع السابق وكذلك (Ayala ; Op.cit I p 24)
وقد اخطأ ابن خلدون (التعريف ص ٨٠) عندما اعتبر استجه ضمن الأرض الاسلامية فى ذلك الوقت .

المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانتهى الأمر بأن نجحت الوساطة وانتقل محمد الخامس إلى رندة كما اعتلى أبو زيان محمد الثانى عرش المغرب فى صفر سنة ٧٦٣ هـ (نوفمبر ١٣٦١ م) . (١)

وفى ربيع تلك السنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) قام ملك قشتالة بغارات متلاحقة على حدود مملكة غرناطة ليشغل جيوشها ، بينما اخترق محمد الخامس الأراضى الغرناطية واستولى على انتقيرة Antequera ولوشه Loja ، وبليش Velez ، وقمارش Comarex ، والحمة al Hama ، ثم استولى على مالقه العاصمة الثانية لمملكة غرناطة . (٢)

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميخو أنه لا فائدة من المقاومة ، صمم على الهرب فجمع ما فى خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلا الى أشبيلية دون اتفاق سابق مع ملكها كما يقضى العرف بذلك (٣) . وكان البرميخو

---

(١) ابن خلدون : العبر حـ ٧ ص ١١٣ ، التعريف ص ٨٠ ، المقرى : نفح الطيب حـ ٧ ص ٢٩ ، حـ ٨ ص ١١٩

(٢) راجع (Bleda : Op, cit. p. 538) Ayala : Op cit. Ip. 340

وكذلك (ابن الخطيب اللمحة البدرية ص ١١٧ ؛ العمرى : مسالك الأبصار ص ٤٦

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٢ ص ٣٥٥ ، الاحاطة ، نسخة الاسكوريال لوحة ٤٢٩ .

راجع كذلك (Gaspar Remiro ; correspondencia diplomàtica entre Granada y Fez p. 345 , 355)

يؤمل أنه بهذا العمل سوف يكتسب رضاء الملك بدرو وعفوه وحمايته غير أن بدرو القاسى أو العادل لم يغفر للبرميخو ما اقترفه من آثام وذنوب فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه فى طلياطة Tablada بضواحى اشبيلية فى رجب سنة ٧٦٣ هـ (ابريل سنة ١٣٦٢ م)[١]

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته إلى عرشه ، على أن يظل حليفا مخلصا لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الاسلامية والمسيحية بهذه الصداقة ، وأشارت الى أن ملك قشتالة بعث الى محمد الخامس برأس البرميخو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على أسوار قصر الحمراء .

وفى الوقت نفسه أعاد محمد الخامس إلى الملك بدرو جميع الأسرى القشتاليين الذين كانوا فى مملكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزا لصداقته وامتنانه .[٢]

أما سلطان فاس أبو زيان محمد ، فانه حاول استرجاع رنده إلى

---

(١) راجع تفاصيل مقتله فى (& Ayala ; Op. cit . I P. 345-349 Joaquin Guichot ; Don pedro de castilla , muerte delrey Bérmejo p. 61 - 80)

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة حـ ٢ ص ٢٣ (طبعة القاهرة) Ayala ; Op Cit. 1 p. 347

(٣) المقرى: نفح الطيب حـ ٩ ص ٤٧ ، حـ٧ ص ٦، ابن الخطيب :الاحاطة حـ ٢ ص ١٥ .

سلطان بنى مرين وطالب السلطان محمد الخامس بردها مهددا بمنع أسرته التى كانت لاتزال بالمغرب ، من العودة إلى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذى كان مقيما هو الآخر بالمغرب ، فى ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسئولين فى المغرب فى هذا الشأن واستطاع حل هذه الأزمة والعودة إلى غرناطة صحبة الأمير يوسف ولى عهد غرناطة وبقية الأسرة الملكية. ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المشكلة ، ولكن من الثابت أن رنده ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل أن الخطابات التى تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة وأراجون كانت تنص صراحة على اسم رندة بين البلاد الخاضعة له (١)

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الحادث لم يؤثر فى العلاقات الودية بين فاس وغرناطة إذ لم ينس أبوزيان محمد المجهودات التى بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الأول فى توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقته بها ، فأوفد اليها فى سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له فى هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون فى مهمته ، قصد أول الأمر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعه قرية البيرة بضواحى غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية اسبانية تدعى هند ، وبعث اليه صديقه الوزير الغرناطى ابن الخطيب برسالة من الأدب المكشوف فى هذا الموضوع نقلها المقرى فى نفحه (٢).

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٤٧ ج ٧ ص ٦ ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ١٥)

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها .

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك الى بلاط اشبيلية حيث حظى بلقاء بدرو الأول. ويقول ابن خلدون ان ملك قشتالة طلب منه البقاء فى اشبيليه ووعده بأن يعيد اليه أملاك أجداده باشبيليه ولكنه اعتذر وعاد الى غرناطة ومنها الى فاس[١] .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بثورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعى هنرى دى تراستمارا Henrique de Trastamara واستطاع هذا الأمير الثائر أن ينال تاييد كل من البابا ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدرو الرابع ، الذين اعترفوا به ملكا على قشتالة فى مارس سنة ١٣٦٦ ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاونته ضد أخيه.

وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الاسلامى الى هذا الحلف ، فأرسل كتبه وسفراءه الى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولا اقناعهما بمهاجمة قشتالة ، مقدما لهما جميع التسهيلات الممكنة من مال وسلاح وأساطيل[١] وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل مملكة قشتالة ، وأحاطتها بشبكة من

---

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة فى (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٨٠ - ٩٣)

(٢) راجع السجل رقم ١٣٨٩ ورقة ٣٨ ، ٤٠ ظهر بأرشيف تاج أراجون ببرشلونة .

الأعداء. غير أن محاولات ملك أراجــون فى هــذا السبيل لم تلبث أن فشلت تماما أمام الصداقة القوية التى كانت تربط كلا من ملك غرناطة وفاس بملك قشــتالة بدرو الأول.

هذا ولم يكتف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع الى امداد صديقه بدرو بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطى أبى الفرج رضوان المعروف فى المصادر الاسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابثانى (١). El-Cabezani ولعل معناها « ذو الرأس الصلبة أو الكبيرة ».

على أن الملك بدرو، رغم ذلك، لم يستطيع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده، واضطر الى ترك البلاد لمنافسه، والالتجاء الى ملك البرتغال ثم ملك انجلترا طلبا للمعونة الحربية.

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفة بعد أن تخلى عنه حليفه، فكتب الى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والأساطيل الاراجونية قد وضعت خطة عدوانية تحت اشراف البابا للقضاء على أملاك المسلمين فى المغرب والأندلس(٢). وكان لهذا النداء صـــدى

---

(١) راجع (Ayala : Op.cit, Ip. 385) ولعله ابن الوزير أبى النعيم رضوان الذى قتل أثناء الانقلاب الذى انتهى بعزل محمد الخامس سنة ٧٦٠ هـ.

(٢) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة حـ٢ ص ٣١ (طبعة القاهرة) ، يحيى بن خلدون : بغية الرواد حـ ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣) راجع كذلك (Gaspar Remrio: Op cit. p 367)

عميق فى نفوس أهل المغرب والجزائر ، اذ سارعت أساطيلهم محملة بالجنود والأقوات والأسلحة الى غرناطة[١] . ثم قامت الجيوش الإسلامية مجتمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القشتالية المهددة لمملكة غرناطة قبل أن يستتب الأمر للملك القشتالى الجديد هنرى دى تراستمارا . واستطاع المسلمون فى شعبان سنة ٧٦٧هـ (ابريل ١٣٦٦م) الاستيلاء على حصنى برغه Burgo ، وباغو Prigo ، اللذين كان القشتاليون يغزون منهما مدينة رندة وأحوازها[٢] وفى الشهر التالى استولوا على حصن آشر Iznajar [٣] . المنيع الذى يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيليه ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دورا بارزا فى احتلال هذا الحصن الأخير[٤] .

أما أراجون ، فإنها انتهزت هذه الفرصة ، وشنت هجوما بحريا على السواحل الغرناطية ، واستطاعت فى ربيع الثانى سنة ٧٦٨ هـ (أواخر سنة ١٣٦٦م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة الى تفرهنين[٥] وعليها هدايا

---

(١) يحى بن خلدون : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) يحى بن خلدون : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن الخطيب الاحاطة جـ ٢ ص ٤٨ - ٥١

(٣) أنظر (Graspar Remiro : Op : cit.p.271)

(٤) يحى بن خلدون : نفس المرجع جـ٢ ص ١٨٠ ، ابن الخطيب : الاحاطة جـ٢ ص ٥١ - ٥٢ .

(٥) كانت هنين تقع على بعد ثلاثين كيلو . مترا شرق نيمو Nemours, فى ولاية تلمسان وقد حلت وهران Oran محلها الآن .

ثمينة أرسلها السلطان محمد الخامس إلى صديقه أبى حمو الثانى ملك تلمسان (١) .

ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ إلى الحلول السياسية لمداراة أعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه إلى ملكى أراجون وقشتالة (٢) ، مبديا لهما استعداده لعقد سلم دائم معهما ان توقفا عن مهاجمته . ونجحت غرناطة فى سياستها إذ فضل كل من بدرو الرابع ملك أراجون وهنرى دى تراستمارا ملك قشتالة قبول هذا العرض مؤقتا حتى يتفرغا لحل مشاكلهما الداخلية . (٣)

وفى خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الأول يسعى لدى ملكى البرتغال وانجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده الى عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينما وافق ملك انجلترا ادوارد الثالث على مساعدته لأن بلاده كانت فى حرب مع فرنسا (حرب المائة عام) فأمده بجيش بقيادة ابنه وولى عهده أمير الغال ادوارد الرابع المعروف

---

(١) راجع (يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤) .

(٢) يرد اسم السفير الغرناطى فى الوثائق الاراجونية على شكل Calib Alcapelli راجع (سجل رقم ١٣٨٩ ورقه ١ فى أرشيف التاج الأراجونى ببرشلونة)

(٣) راجع نصوص هذه الاتفاقيات فى
(Alarcon y Linares : op. cit p.146)

بالأمير الأسود نسبة الى لون درعه . وكان هذا الأمير فى ذلك الوقت مقيما فى مدينة بوردو محاربا للفرنسيين فى بلادهم (١).

واستطاع الجيش الانجليزى أن يحرز نصرا كبيرا على الجيوش الفرنسية والاراجونية المتحالفة فى موقعة ناجره Najera شمال اسبانيا فى شعبان سنة ٧٦٨هـ (ابريل ١٢٦٧م) (٢) وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك فى حالة حرب مع أخيه وحلفائه . ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الأمير الانجليزى بجيشه من اسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته .

واضطر بدرو ان يطلب مساعدة صديقه محمد الخامس بعد أن أصبح وحيدا فى الميدان . ولم يتردد ملك غرناطه فى امداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبى الفرج رضوان وكان غرضه من ذلك أن يزيد الحرب اشتعالا بين الاخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين (٣).

ولم يكتف محمد الخامس بذلك ، بل انتهز فرصة انشغال الأخوين بحروبهما ، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة ٧٧٠هـ (١٣٨٦ م). وقد اشترك معه فى هذا الهجوم جيش من المتطوعين

---

(١) انظر (Merimée Histoire de Don Pedro Iroi de Castille p.444)

(٢) وأورد ابن الخطيب وصفا دقيقا مفصلا لهذه المعركة فى كتابه الاحاطة جـ٢ ص ٢٣ - ٢٧ (طبعة القاهرة)

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٢٧

المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الأمير عبد الرحمن بن على بن أبى يفلوسن . وقد أشادت المدونات القشتالية (١) المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربى Abenfaluz أى ابن يفلوسن . وذكرت أنه إستطاع أن يخترق حصون قرطبة وأنه لولا هطول الأمطار وكثرة الأوحال لتمكن المسلمون من الاستيلاء على عاصمتهم القديمة (٢) .

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التى شنها الغرناطيون على مدينة جيان Jaen سنة ١٣٦٧م ، أن صيحة المسلمين فى هذه الحرب كانت : « والثارات أهل الاسكندرية » (٣) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة الغضب التى أثارتها بالأندلس تلك الغارة الوحشية التى شنها ملك قبرص بطرس لوزجنان Lusignan على مدينــــة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ

---

(١) راجع (Ayala; Op. cit I, p. 525—527)

(٢) راجـــع (Gaspar Remiro : Op. cit. p. 318 حيث ترد الرسالة التى وجهها محمد الخامس الى سلطان تونس يصف فيها أحداث تلك الحملة على قرطبة .

(٣) راجـــع (ابن خلدون . التعريف ص ٢٨٨) وكـذلك Gaspar Remiro : correpondencia p. 288, 321 - 322

(٤) عن هذه الحملة راجع (محمد بن قاسم النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ) وكذلك .

Madelena Saz pomes : Los Aragoneses en la conquista y Saqueo de Alejiandria por pedro I de chipre, Estudio de edad media de la corona de Aragon V p. 361-405, Atiya Suiral The crusade in the later Middle ages p. 345 370)

(١٣٦٥ م) كما أنها تحمل فى طياتها معانى الأخوة والتضامن بين الشعوب الاسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الأمر فان هذه الحروب التى قامت بين بدرو وأخيه هنرى انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة مونتيل Montiel وتولية هنرى عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م . ولما كان هنرى ابنا غير شرعى لألفونسو الحادى عشر ، فقد أثارت توليته معارضة ملوك البرتغال ونافارا وانجلترا ، إذ أن كلا منهم كان يرى نفسه أحق بملك قشتالة من هنرى بسبب أواصر القربى التى تربطهم بالأسرة الملكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات أن تحولت الى حروب بين الملك هنرى ومعارضيه .

ولقد انتهز السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفا مع ملك البرتغال فرناندو الأول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى (٧٦٨ - ٧٧٤ هـ = ١٣٦٦ - ١٣٧٢ م)

على أن يقوم ملك البرتغال بمهاجمة قشتالة من جهة غاليسيا فى الشمال(١) ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء فى أقصى الجنوب يعاونه فى ذلك اسطول سلطان المغرب من جهة البحر (٢) ونجحت هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء فى ايدى المسلمين فى ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ (يوليو ١٣٦٩ م) وان كان السلطان محمد الخامس قد عمد إلى تدمير حصونها وأسوارها خوفا من سقوطها فى يد

---

(١) Garibay Op. cit p. 1111, Ayala Op . cit II, p. 7-10

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة جـ٢ ص ٥٦ - ٥٨

العدو مرة اخرى [١] .

ولقد انتهت هذه الأحداث المتشابكه بعقد صلح دائم بين كل من : قشتاله وأراجون وبين غرناطة والمغرب فى سنة ٧٧١ﻫ (١٣٦٩-١٣٧٠م) وتبودلت السفارات الودية بينها .

على أنه يبدو أن انتهاء المشاكل والأخطار الخارجية بالنسبة لغرناطة ، كاف من العوامل التى شجعت وزيرها وراسم سياستها لسان الدين بن الخطيب على الفرار الى المغرب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بانه لم يغادر غرناطة إلا بعد أن وطد أمورها ، وتأكد السلم بينها وبين جيرانها [٢].

غير أنه يلاحظ أن ابن الخطيب كان فى أواخر حكمه قد ربط سياسة غرناطة بعجلة فاس ، وحرص على تنفيذ أوامر سطان المغرب عبد العزيز المرينى ، وتحقيق رغباته فى كل مايطلبه من غرناطة[٣]. وكان هدف ابن لخيطب من وراء ذلك هو سكنى المغرب [٤] والاستقرار فيه إذا ماعزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد

---

(١) ابن خلدون : العبر حـ٧ ص ٣٢٧-٣٢٨

(٢) راجع الخطاب الذى أرسله ابن الخطيب الى سلطانه محمد الخامس يبرر له فيه أسباب فراره الى المغرب (ابن خلدون : التعريف ص ١٤٧ وما بعدها .)

(٣) راجع أمثله على ذلك فى : نفح الطيب حـ٧ ص٣٠

(٤) المقرى : نفح الطيب حـ٧ ص٣٢

الخامس - الذى كان يخشى من اطماع السلطان المرينى فى بلاده خصوصا بعد أن ضم المغرب الأوسط الى ملكه وأصبح قوة يخشى خطرها. ثم جاءت الاحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، إذ يقول ابن خلدون : « فأجمع - ابن الخطيب - التحول عن الأندلس الى المغرب ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور ، وسار اليها فى لمة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح[1] فرضة المجاز الى العدوة مال اليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز اليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز الى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١ م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا الى صاحب الأندلس فى طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمه ، ثم أكثر المنافسون له فى شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وابداء ما كان كامنا فى نفسه من سقطاته ، واحصاء معايبه . وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت الى قاضى الحضرة أبى الحسن النباهى ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضى أبو الحسن الى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ،

---

(١) كان جبل طارق فى ذلك الوقت تابعا لسلطان بنى مرين فى المغرب

فهم عن ذلك ، وأنف لذمته ان تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ماكان فى جوارى ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس فى جملته (١)....

ويضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان عبد العزيز على ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتوعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب ، ونمى ذلك الى ابن الأحمر (محمد الخامس) فبعث الى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها(٢).

غير أن السلطان عبد العزيز لم يعش بعد ذلك طويلا إذ مات سنة ٧٧٤ ه (١٣٧٢ م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلا فى الرابعة من عمره ، فاستبد بالأمر وزيره أبو بكر بن غازى الذى كان صديقا لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسى الجديد الذى اقتضى إقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الأمراء الطامعين فى الملك ، وكانت النتيجة أن دبت الفوضى والحروب الأهلية فى المغرب ، واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الاوسط ففقدالمغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وابعاد الخطر المرينى عن بلاده . فعمل أولا على تأييد استقلال بنى عبد الواد ـ أعداء بنى مرين ـ بتلمسان ، ثم ألغى من مملكة

(١) و (٢) راجع (المقرى : نفح الطيب ج٧ ص ٣٠ ٣٢)

غرناطة منصب شيخ الغزاة الذى كان يشغله أحد أمراء بنى عبد الحق (أو بنى مرين) وتولى هو وأولاده قيادة الجنود الغزاة أو المتطوعين المغاربة فى غرناطة، ثم أخذ بعد ذلك يتدخل فى شؤون العدوة المغربية فبعث ببعض الأمراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوحا لهم بالعرش المغربى ومقدما لهم جميع المساعدات الممكنة. وواضح أن هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو إثارة الفتن والقلاقل ضد الوزير المستبد بحكم المغرب أبى بكر بن غازى صديق ابن الخطيب.

وأول أمير أرسله سلطان غرناطة الى المغرب، هو الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن المرينى الذى سبق أن سجنه ابن الخطيب فى غرناطة بإيعاز من السلطان عبد العزيز.

ونزل هذا الأمير بساحل غساسه أو بطوية عند مصب وادى ملوية بنواحى مليلة، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب. وفى نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه الى جبل طـــارق الذى كان تابعا لبنى مرين فى ذلك الوقت، فشدد الحصار حوله وحشد جيوشه على السواحل الأندلسية مظهرا العبور الى المغرب (١).

وأمام هذا الخطر المزدوج، رأى الوزير ابن غازى أن يعمل على

---

(١) راجع مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية فى (مجلة البينة العدد الأول الرباط مايو سنة ١٩٦٢.

حماية مدينة سبته ، قفل العدوتين ، من أى هجوم يقع عليها من الأندلس. فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيش كبير لحماية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما فى ذلك جبل طارق، بينما اتجه هو الى محاربة المطالب بعرش المغرب الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس أن يلجـــأ الى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ أغراضه ، فاتصل من جنوب الاندلس بحاكم سبته الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع اقناعه بأن من الخير للمغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلا راشدا بدلا من هذا الطفل الذى لايدرك شيئا ، واتفق معه على اقامة الأمير المرينى أبى العباس احمد بن أبى سالم سلطانا على المغرب ، على أن يكون هو - أى ابن الكاس - وزيره فى المستقبل ، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفى مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

١) جبل طارق .
٢) لسان الدين بن الخطيب.
٣) الأمراء المرينيين .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق الى سلطان غرناطة الذى أرسل بدوره جيشا غرناطيا صحبه الأمـــير أبى العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس[1].

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٣٨٨ ، ٣٤١ وكذلك مقالنا السالف الذكر عن حياة ابن الخطيب لغرسة .

وعلم الوزير أبو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ، فأسرع لملاقاته ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م).

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الأميرين المرشحين لعرش المغرب : أبي العباس احمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من أحفاد السلطان أبي الحسن المريني . وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الأميرين حول أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة الى التدخل بينهما لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لأبي العباس ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب الثانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب يولي ويعزل من يراه من أمراء بني مرين . وكان طبيعيا أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين وقتله وحرقه بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة أمواله وضياعه وذلك سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) (١)

ولم يكد السلطان أبو العباس أحمد تستقر له الأمور في فاس حتى طمع في توحيد ملك بني مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع منافسه عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانتهى الصراع بين هاتين العاصمتين بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)

---

(١) راجع (المقري نفح الطيب جـ٧ ص٢٥) وكذلك مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية في مجلة البينه ، العدد الاول سنة ١٩٦٢ .

ولم يكتف أبو العباس بهذا النصر الذى جعله سلطانا بدون منازع على جميع المغرب الأقصى . بل اتجه ببصره نحو المغرب الأوسط يريد ضمه إلى ملكه كما كان الحال فى عهد آبائه . واستنجد سلطان تلمسان أبو حمو الثانى بسلطان غرناطة محمد الخامس الذى كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الأوسط مستقلا عن نفوذ المرينيين . ولهذا حاول سلطان غرناطة إقناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعية فى المغرب الأوسط ولكن دون جدوى واستولى أبو العباس على تلمسان وفر صاحبها أبو حمو إلى الصحراء . وكان رد سلطان غرناطة على هـــذا العمل ، أن أرسل إلى سبتة أميرا مرينيا من أبناء أبى عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والأموال والأسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساى ، واستطاع موسى أن يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطانا على المغرب سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤م) كما أعلن فى الوقت نفسه أن مدينة سبتة تابعة لسلطان غرناطة . (١) أما أبو العباس فانه لم يلبث أن قبض عليه فى تلمسان ، وأرسله أسيرا إلى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملة كريمة حسنة .

ولم يعش السلطان موسى أكثر من سنتين ، إذ مات سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) ، وحاول سلطان غرناطة أن يقيم مكانه أميرا مرينيا آخر يدعى بالواثق ، ولكن الوزير مسعود بن ماساى ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم إلا بعد تسليم مدينة سبتة . ورد سلطان غرناطة على هذا

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص ٣٥٠

التهديد بأن أرسل إلى المغرب السلطان المخلوع أبا العباس أحمد ليكون سلطانا للمرة الثانية ، وأرسل معه جيشا أندلسيا بقيادة أحد قواده البارزين ، وهو أبو الفرج رضوان الذى سبق له أن اشترك هو وفرسانه فى صفوف ملك قشتالة بدرو الأول ضد أخيه هنرى وحلفائه الأراجونيين والفرنسيين واستطاع أبو العباس بهذه القـــوة الغرناطيـة أن يستولى على فاس ويقتل الوزير إبن ماساى ويعلن نفسه سلطانا على المغرب سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧م) . [١]

ولقد حرص السلطان أبو العباس فى هذه المرة على أن يوطد علاقاته مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من قصيدة للشاعر الغرناطى المعاصر عبد الله بن زمرك (ت ٧٩٦ هـ) ، أن السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة [٢] فى خلال هذه الفترة مما يدل على قوة نفوذه فى منطقة المضيق

ثم توفى محمد الخامس الغنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وخلفه على عرش غرناطه أبنه يوسف الثانى ولاشك أن هذه الوفاة قـد أثارت مطامع أبى العباس القديمة ، فيشير السلاوى إلى أنه استطاع مـد نفوذه إلى تلمسان بالمغرب الأوسط ، وأنه كان يطمع فى مملكة غرناطة نفسها ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٥٤ - ٣٥٧ ، التعريف بابن خلدون ص ٢٧٧

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ ص ٥٦ ، أزهار الرياض جـ ٢ ص ٨١

ولكنه مات قبل أن يدرك غرضه سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) (١)

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بنى مرين ، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولاحذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو . ومن تصاريف القدر العجيبة أنه فى الوقت الذى أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة قد بدأت تتجمع فى كل من أسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ م) مؤسس أسرة أفيس Avis (٢) التى حكمت البرتغال بعده . ولقد أبدى هذا الملك اهتماما خاصا بالبحرية والأساطيل ، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التى تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة فى منطقة المضيق .

وانتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحـــوال فى المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة Ceuta بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله فى أغسطس سنة ١٤١٥ م (٨١٨ هـ) ، وفر

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٤ ص ٧٦ ، ٨٢ .

(٢) كان هذا الملك فى الأصل رئيسا لنظام Avis العسكرى الدينى ثم انتخبه مجلس النبلاء ملكا على البرتغال واستمر الملك فى عقبه فترة من الوقت ثم انهار نفوذ أسرة ملوك Avis مـــنذ عقب كارثه وادى المخازن أو القصر الكبير التى اندحرت فيها الجيوش البرتغالية سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م)

حاكمها المدعو صلاح بن صلاح ، وقام أمكانه حاكما من قبله أسمه بدور منسس Pedro Meneses .

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثاني « قصة في كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة ، تشبه قصة قيصر[1] مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد[2]

وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة ١٤١٩م (٨٢٢هـ)، فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تمكنوا من احباط هذه المحاولة.

وولي بعد خوان الأول ابنه الأكبر ادوارد Duarte سنة ١٤٣٣م الذي حاول احتلال طنجه ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون

---

(١) يقصد الامبراطور الروماني أورليان الذي استولى على مدينة تدمر سنة ٢٧١ م وأسر ملكتها الزباء التي تعرف عند الرومان باسم زنوبيا.

(٢) راجع (السلاوي : الاستقصا ٤ ص ٩٢) وكذلك استقينا معظم المادة التالية من مجموعة الوثائق والمراسلات والمعاهدات المتبادلة بين ملوك المغرب والبرتغال وأسبانيا والتي نشرها دي كاستري بعنوان مصادر لم تنشر في تاريخ المغرب . راجع De Castries: Les sources inédites de l'histoire du Maroc , Portugal , Tome I p. VII (Madrid - Paris 1921) .

فرناندو ، ودون هنرى سنة ١٤٣٧ م (٨٤١ هـ) ونزلت الحملة فى مدينة سبته ثم اتجهت الى طنجه ، وهاجمها هنرى من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر(١) . وخشى المسلمون أن تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب فى ذلك الوقت طفلا صغيرا يدعى عبد الحق بن أبى سعيد المرينى ، ويدير شئون دولته وزيره أبوزكريا يحى الوطاسى المعروف بأبى زكرى . ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجه فى ارسال الامدادات الى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة الى الانسحاب إلى سبته ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الأمير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة فى مقابل أطلاق سراح الأسرى ، أن ينسحب البرتغاليون من سبتة . ورأى ملك البرتغال ان تسليم سبته تضحية كبيرة لاتقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقى أخوه فرناندو فى الأسر الى أن مات بفاس فى ٥ يونيو سنة ١٤٤٣م(٢) .

وفى خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذى سار على سياسة أسلافه الـتى ترمى الى السيطرة عـلى مضيق

---

(١) راجع :

(Colonel H . De Castries : les sources inédites Op. cit. p. 9) .

(٢) راجع :

(De Castries : Op. Cit. Portugal, tomelp. P. 10).

جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه . واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير أو قصر مصمودة الذى يقع بين سبتة وطنجه . وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التمهيد لاحتلال طنجه بالاضافة الى تدعيم النفوذ البرتغالى فى سبته .

وفى اكتوبر سنة ١٤٥٨م خرج الملك الفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ ألف جندى ، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكما يدعى[1]
Duarte de Meneses

ثم رأى الملك البرتغالى أن يحاول من جديد احتلال طنجة ، فوجه اليها ثلاث حملات فيما بين سنتى ١٤٦٣ – ١٤٦٤م قاد بعضها بنفسه ، ولكنها فشلت كلها ولاسيما الحملة الثالثة التى قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجه ، على حد قول دى كاسترى ، مقبرة للنبلاء البرتغاليين[2].

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرينى فى رمضان سنة ٨٦٩هـ (مايو سنة ١٤٦٥م) وبموته انقرضت الدولة المرينية فى المغرب ، وقام نزاع على الملك بين الشريف الأدريسى محمد بن على وبين قائد مدينة أصيلا Arizla محمد بن الشيخ الوطاسى وهو ابن الوزير السابق أبى زكرى .

---

(١) راجع (De Castries ; Op. cit. p. 10)
(٢) راجع (De Castriés ; Op. cit p. 11)

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ الى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه فى فاس .

وانتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة ، وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وذلك فى اغسطس سنة ١٤٧١م وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها من بينهم زوجتين وابن لمحمد الشيخ كانوا معتصمين بقصبتها (٢) .

وعندما علم محمد الشيخ بأنباء هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس ، واتجه نحو أصيلا لنجدتها ، ولكنه ماكاد يصل إلى مدينة القصر الكبير حتى بلغته الانباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته فى أسر البرتغاليين .

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه فى فاس . وعلى الرغم من أن نصوص هذه المهدنة لم تصل إلينا ، إلا أنه يوجد فى المدونة الخاصة بعصر الفونسو الخامس بعض شروطها ، وهى تنص على أن يمتد أمد المهدنة عشرين سنة ، وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش الى جانب أصيلا ، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته (٣) .

على أن ملك البرتغال ، رغم شروط هذه المهدنة ، اتجه بقواده وأساطيله

---

(١) أنظر (Ruy de Pina : Chronica do Senhor Rey D. Alfonso V p. 97, Lisbonne 1901 - 1902)

(٢) راجع (De Gastries: Les Sources inèdites de l'histoire du Maroc, Portugal I,p. 13)

نحو مدينة طنجه التى خاف أهلها أن يكون مصيرهم مثل مصـــير أهل أصيلا ، فأخذوا فى الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالى مهمة احتلالها فى ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١ م أى بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا[١] .

وكان محمـــد الشيخ فى خلال ذلك الوقت منهمكا فى محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير الى تونس بعد أن تخلى عنه اتباعه ، ودخل محمـــد الشيخ العاصمة فاس فى سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك دولة بنى وطاس .

ولقد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجه أثناء الهدنة المبرمة ، غضب السلطان محمد الشيخ . فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكى الذى كان فى حالة حرب مع البرتغال ، على أن يقوم المغاربة بمهاجمة سبته من البر ، بينما يهاجمها الأسبان من البحر . على أن هذا الهجوم المزدوج لم يلبث أن فشل أمام مقاومة حاكم المدينة البرتغالى Rui Mendez Vasconcellos وانتهى الأمر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦م[٢].

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس Alcaçovas فى ٤ سبتمبر سنة ١٤٧٩ ، وطليطـــلة فى ٦ مارس سنة ١٤٨٠ م التى أبرمت بين أسبانيا والبرتغال ، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ ، إذ انهما أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين ، كما أنها نصت على اعتراف اسبانيـــا

---

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal , I, p. 13

(٢) راجع (De Castries : OP. Cit p. 13-14)

بحقوق دولة البرتغال فى المواقع التى احتلتها فى مملكة فاس ، مثل سبته ، وطنجه ، والقصر الصغير ، والعرائش ، وأصيلا .

وهكذا نجـــد أن البرتغال فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى قد احتلت سواحل العدوه المغربية وتحكمت فى منطقة المضيق . ويبدو أن الملك الفونسو الخامس أراد أن يتوج هذه الفتوحات التى حققت آماله ، فاتخذ لقبا جديدا ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب « ملك البرتغال والغربين المصاقبين للبحر ».

(Rei de Portugal e dos algarves d'aquem, e d'alem mar)

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقبا آخر يدل على أعماله التوسعية فى المغرب وهو « الفونسو الإفريقى »[١] .

على أن المغـــاربة ، رغم كل ذلك ، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم فى شمال المغرب ، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل إنها كانت تعيش فى حالة استعداد دائم للحرب. ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلمى عــلى بن راشد الذى أسس مدينة شفشاون سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١م) على ارتفاع ألف مـــتر فى جبال الريف بالقرب من تطوان ، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال البرتغالى . كذلك نذكر القائد المندرى قائد تطوان الذى كان شوكة فى جنب المواقع البرتغالية المجاورة فى سبته وطنجه[٢] .

---

(١) راجع De Castries : Op. cit p. 13-14

(٢) راجع De Castries ; Op. cit. p. 16

اذا انتقلنا الى أسبانيا فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، فنجد أنها عرفت، هى الأخرى نهضة حربية كبيرة ، ووحدة سياسية شاملة ، بدأت طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢ م فى عهد هنرى الرابع ملك قشتالة (١) ، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكيين Los reyes Catolicos فرناندو ملك أراجون وازابيل ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م . وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا فى منازعات وحروب مستمرة. لهذا اثارت هذه الوحدة فى أسبانيا موجة كبيرة من الفرح مازال صداها يتردد فى الأغانى الشعبية مثل قولهم :

Tanto monta, monta tanto , Isabel y Fernando

أى مهما ارتفعنا فسوف نجد فى الذروة دائما ازابيل وفرناندو.

ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه فى الواقع انتهاء مملكة غرناطة العربية ، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا الى حد كبير الى العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا . وبالفعل كان أول شىء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان ، هو تصفية مملكة غرناطة وازالة

---

(١) انظر Jose Carlos de Luna: Historia de Gibraltar p. 178-180

وقد قال فى رثاء جبل طارق الشاعر المعاصر عبدالكريم القيسى آخر شعراء غرناطة :

وقائلة لى مالى أراك مقطبـا ٭ كأنك للتقطيب هددت بالذبح

فقلت دعينى الحزن فرض على الورى ٭ أما قد حوى أعداؤنا جبل الفتح؟

حرام علينا البشر والسمح بعده ٭ وفى القلب من آلامه أعظم الجرح

راجع (محمود مكى : عبد الكريم بن محمد القيسى آخر شعراء الأندلس ، مجلة العربى اكتوبر سنة ١٩٦٧).

الحكم العربي من أسبانيا نهائيا . وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة ، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى .

ولما شعر سلطان غرناطة ابوالحسن على (٨٦٦-٨٩٠هـ=١٤٦١-١٤٨٥م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته ، امتنع عن دفع الإتاوة التي كان يؤديها لملوك أسبانيا في كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو : « قل لمولاك إن سلاطين غرناطة الذين أعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا ، وإن دار الضرب بغرناطة لاتطبع الآن ذهبا أو فضة ، وإنما سيوفا ورماحا ». وقد أثارت هذه الإجابة غضب الملك فرناندو ، فصاح قائلا :

Granada, Granda, le arrancaré los granos uno a uno i

« أي غرناطة غرناطة ، سوف انزع حباتك واحدة واحدة ! »

ويلاحظ أن المعنى هنا مجازى لأن كلمة Granada أي غرناطة معناها بالأسبانية الرمانه ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أي حصونها واحدا بعد الآخر (١).

وبدأت الحرب باستيلاء الغرناطيين على حصن الصخرة Zagra في الأراضي القشتالية سنة ١٤٨١ م . ورد الأسبان باحتلال مدينة الحمـة

---

(١) راجع التفاصيل في (Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada, III, p.357 (Granda1 845) &W. Prescott: History of the reign of Ferdinand and Isabella, p.182 London 1895)

Alhama (١) على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢م وحاول السلطان أبو الحسن استردادن هذا الموقع الهام ولكنه لم يقدر ، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللتهــــا ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم . فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بابنة عمه عائشة وله منها ولدان : ابو عبد الله محمــــد المعروف فى المصادر الاسبانية باسم Boabdil ، ويوسف . ثم اصطفى على زوجته امرأة أسبانية كان قد أسرها فى إحدى غزواته اسمهــــا ازابيل دى سوليس Isabel de Solis ، وكان أبوها ضابطا فى الجيش الأسبانى يدعى سانشو خيمينث دى سوليس Sancho Jimenez de Solis . ثم اعتنقت ازابيل الاسلام واتخذت اسما عربيا وهو ثريـا . وقد أثار حب السلطان لها غيرة زوجته الأولى ، فوقع نزاع بينهما ، واضطرت الأميرة عائشة الى مغادرة قصر الحمراء بولديها والإقامة فى حى البيازين

---

(١) اشتهرت هذه المدينة بمياهها المعدنية وحماماتها التى كانت تدر عليها دخلا كبيرا ، وقد احتلهـا مركيز قادس غيلةوغدرا ولهذا رثاها الكثيرون بمقطوعات شعريةعربية ورومانسية أى أسبانية . وقد أورد المؤرخون الأسبان أمثلةمنهذا الشعر الرومأنسى مثلالمقطوعةالتى قيلت على لسان ملكغرناطة وفيها يقول فى مطلعها: Ay de mi Alhama أى « ويلى على الحمه » .

راجع(Perez de Hita : Guerras civiles de Granada I. p, 252 (Madrid 1913) & Prescott : Op. cit, 186

راجع كذلك (كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمؤلف مجهول ص٦ وما بعدها ، نشر الفريد البستانى وكارلوس كيروس ، العرائش ١٩٤٠)

ثم لم يلبث الولدان بعد ذلك أن فرا الى مدينة وادى آش وأعلنا الثورة على أبيهاوقامت حرب ضروس بين الاب وولديه مات فيها إبنه يوسف ثم انضمت العاصمة غرناطه الى أبنه الآخر أبى عبد الله محمد وكانت عائلة بنى السراج Abencerrajes هى عماد هذه الحركة، فاستدعت الأمير محمد وأقامته سلطانا بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢ م . ولجأ السلطان المخلوع أبو الحسن الى مدينة بسطة Baza حيث انضمت اليه عائلة الثغريين Zegries أعداء بنى السراج (١).

وحدث بعد ذلك أن وقع السلطان أبو عبد الله محمد أسيرا فى يد الاسبان أثناء قيامه بغارة فى أراضيهم سنة ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ). وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين فى الاندلس لا من حيث أسره نفسه ولكن من حيث أن الملكين الكاثوليكيين استطاعا أن يستذلا نفسه ، ويصغرا إليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والأمانى حتى ذل عنقه ، وأصبح آلة فى أيديها ، ثم أطلقا سراحه ، فعاد الى غرناطة ليواصل حرب أبيه الذى اغتصب عرشه . وما لبث أبو الحسن أن مات

---

(١) يلاحظ أن الثغريين وبنى السراج بيوتات عربية أندلسية قديمة ، وقد سبقت الاشارة الى أن بنى سراج كانوا من أصل يمنى وأن الأمويين فى الأندلس قد عهدوا اليهم حراسةالسواحل الشرقية. أما الثغريون فنسبة الى منطقة الثغر الأعلى فى شمال أسبانيا ثم انتقلوا الى غرناطة بعدسقوط بلادهم ويلاحظ أن النهر المعروف الآن بأسم Segre أحد فروع الابرو هو الذى كان يسميه المسلمون وادى ثغر لأنه كان يروى منطقة الثغر الأعلى التى كانت قاعدتها سرقسطه
راجع تفاصيل المنازعات بين بنى السراج والثغريين فى
(Perez de Hita : op. cit. I. p. 41 y Sig)

هما وكمدا بعد أن أصيب بالعمى والصرع ، وخلفه فى الملك أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ)(١).

ولقد استغل الأسبان فرصة إنشغال المسلمين بالحرب التى قامت بين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله ، واستولوا على الأجزاء الغربية من مملكة غرناطة مثل رنـــدة Ronda ولوشة Loja ، ومالقة ، فيما بين سنتى ١٤٨٥ - ١٤٨٧م (٨٩٠ - ٨٩٢ هـ).

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغـــل وابن أخيه اقتسام ما بقى من بلاد خوفا من تمادى العدو فى احتلالها . وتم الاتفاق على أن يستقر الزغل فى مدينة وادى آش Guadix وتتبعه الأجزاء الشرقية من غرناطة ، بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه أبى عبد الله Boabdil.

غير أن الأسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم ، فأرسلوا إلى الزغل من يعرض عليه وعلى قواده مالا كثيرا فى مقابل تسليم الأجزاء الشرقية من غرناطة التى تحت سلطانه . وأثـــر ذلك الإرهاب والترغيب فى نفس الزغل لاسيما بعد أن تخلى عنه قواده ، فآثر التسليم والرحيل الى فاس. ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله وسمل عينيه .

أما أبو عبد الله محمد ، فانه ظن فى بادىء الأمر أن الجو قد صفا له بذهاب عمه ، ولكنه سرعان ما تكشفت له الحقيقة عندما طالبه الملك

---

(١) راجع نبذة العصر فى أخبار بنى نصر ص ١٠ وما بعدها ، عبد الحميد العبادى المجمل فى تاريخ الأندلس ص١٩٢ .

فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة ، عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده في ذلك أهل غرناطة(١) .

ولجأ الملك فرناندو إلى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كى يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعا . فحاصر المدينة سنة ١٤٩١ م (٧٩٦ هـ) ، وأفسد مروجها ، وبنى أمامها مــــدينة أطلق عليها اسم شنتفى Santa Fé أى الايمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية(٢) ويقول السلاوى فى هذا الصدد : « وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين غرناطة والبشرات Alpujarras متصلة بالمرافق ، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير Sierra Nevada إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، فغر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات ثم اشتد الأمر فى شهر صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر ١٤٩١ م) ؛ فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبى عبد الله المواقف شارح « المختصر » وغيره ، وقالوا « أنظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم » . فاحضر السلطان أبو عبد الله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته ، وتكلموا فى هذا الأمر ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم . فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد فى اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ما كان

---

(١) كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ص ٣٧ ،

على مظهر : محاكم التفتيش ص ١٤ - ١٥

فى صلح وادى آش ، منها : أن صاحب رومة (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة ، ويحلف على عادة النصارى فى العهود . وتكلم الناس فى ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك ، امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتاله فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ؛ واستولى النصارى عليها فى ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢ م) ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . (١)

والجدير بالذكر أن غرناطة اتجهت إلى مصر تلتمس معونتها أمام الخطر الواقع بها ، ومثال ذلك السفارة التى أوفدها سلطان غرناطة محمد بن يوسف الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر جقمق سنة ١١٤٠ م (٨٤٤ هـ) كذلك نذكر سفارة الفقيه الأندلسى أبى على بن محمد بن الأزرق الذى حاول أن يستنهض عزائم السلطان الأشرف قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٥ م) لاسترجاع الأندلس . (٢)

والواقع إن مصر لم يكن فى مقدورها القيام بعمل عسكرى فى أسبانيا

---

(١) السلاوى : الاستقصاء جـ ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ وكذلك نبذة العصر ص ٣٩ - ٤١

(٢) عبد العزيز الأهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة المجلد السادس عشر ، مايو سنة ١٩٥٤ .

وعذرها في ذلك واضح كما يقول أحد الكتاب المعاصرين ، « لحيلولة البحر مع بعد المسافة ، والاحتياج لكثرة المراكب . ولم يكن لملوك مصر عناية بأمر الشحنة لأنهم أصحاب خيل ، فقوتهم برية وليست بحرية »(١) ولكن على الرغم من ذلك ، فإن بعض سلاطين مصر حاولوا انقاذ غرناطة عن طريق الضغط الدبلوماسى ، ومثال ذلك تلك السفارة التى أرسلها السلطان قايتباى فى سنة ١٤٨٩ إلى الملكين الكاثوليكيين ، يهدد فيها باضطهاد المسيحين الموجودين فى الشرق إن لم يكفا عن مهاجمة غرناطة . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) ولم يفت الملكان الكاثوليكيان أن يبعثا بسفارة إلى سلطان مصر قنصوه الغورى سنة ١٥٠١ م واستطاع السفير الاسبانى بدرو مارتير Pedro Martir أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسى بين مصر وأسبانيا . (٢)

هذا والجدير بالذكر أن هذه الاحداث المتعلقة بنهاية الحكم العربى فى أسبانيا ، قد اقترنت بحركة الاستكشافات الجغرافية الكبرى . ففى نفس تلك السنة (١٤٩٢ م) التى سقطت فيها غرناطة ، أكتشف كرستوفر كولمبس أمريكا بمساعدة ملكى أسبانيا . ولم تلبث البرتغال بعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م على يد فاسكودى جاما .

---

(١) المرجع السابق

(٢) أنظر (M. Abbady : Algunos aspectos de las relaciones historicas hishpano-Egipcias , Boletin de la embajada de Egipto en Madrid , 23 Julio 1952 - 1953)

وقد استعان كل من الرحالتين بالعرب ليهتدى طريقه فى مجاهل المحيط الأطلنطى والمحيط الهندى . وفى نفس تلك السنه ١٤٩٧ م تظاهر الأسطول الاسبانى بأنه يعد العدة فى جبل طارق لرحلة كرستوف كولمبس الثانية إلى أمريكا ، ثم أبحر سرا إلى القاعدة المغربية مليلة Melilla واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١٤٩٧ م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دى جثمان Don Juan de Guzman (٢)

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه من الشمال أو الجنوب ، بل صار ممرا حيويا بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والعالم الجديد وبهذا يدخل النزاع فى دور جديد

---

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l,histoire du maroc , Espagne Tome I p. 4 - 5 (Madrid - Paris 1921)

ضميمة رقم ١

الخطاب الذى رفعه الفقيه ابن العربى(١) الى الخليفة العباسى المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢ هـ = ١٠١٤ — ١١١٨م)، يلتمس فيه تقليدا خلافيا يخول يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ = ١١٠٦م) حكم بلاد المغرب والأندلس، ورد الخلافة عليه.

الخادم بالأدعية تقبلها الله ابن العربى والأندلسى.

بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلى :

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الأمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أوى المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض بر تشرعها، ومستأنف سعود تحرس جنابها، ولازالت الأيام التى هى لأيامها غرر، وفى اكليل الخلافه درر، للدهر تمائم، وفى المحل غمائم، والحمد لله الذى جعل للمواقف المقدسة النبوية الإمامية

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عمر الأندلسى الاشبيلى ويعرف بابن العربى، وقد صحب معه فى هذه الرحلة الى المشرق ولده المتصوف الكبير أبا بكر بن العربى المعافرى الذى كان فى ذلك الوقت شابا حدثا. وقد توفى ابن العربى الأب بمدينة الاسكندرية سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩م). وهذه الرسالة وغيرها من الرسائل والفتاوى التى ننشرها فى هذه الضمائم أوردها ابن العربى الابن فى كتابه ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة، وقد عثرنا عليها، أى على الرسائل، فى مخطوطة بخزانة الرباط بعنوان كتاب الأنساب (ك ١٢٧٥) سوف ينشر قريبا

المستظهرية شرائط السواد ، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب ، كابرا عن كابر إلى أعلا خندف[1] ، فهى أعلاها عمادا ، وأوراها فى مواقف الفضل زنادا . أرومة الرسالة ، وجرثومة الخلافة ، إليها ينزع هاش ، وعنها أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل ، وعهد بتخليدها مخبرا عن الوحى فى آله وعقبه النبى المرسل . قد أمنت بعصمة الله من الغير ، وتحققت أواخرها على سنن أولها فى هداية البشر بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على ما من به من توفيقنا للتمسك بعراها الوثيقة ، والاهداء بهداها الى واضح الطريقة ، فهم فى الدين أمتنا ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدى الى مرضاته ومرضاتهم ، إنه الموفق الهادى لارب غيره .

وان الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الامام العادل من أركان الديانة ، ومما يتعين تعيين ما يحتمل من رعاية الأمانة هاجر الى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب ، معتقدا أن عمله أفضل القرب والرغائب ، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر ، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ، ولم يثنه بحر يزخر ولا قفر يذعر ، يحتسب فى ذلك أثره ، ويرجو أن يقيل الله يوم الجزاء عثرة ، الى أن انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ، لازالت محروسة

---

(١) خندف هى امرأة الياس بن مضر أحد جدود العرب ، وقد عرف بنوه بها . (القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ٢٤٨) .

من غير الأيام ، عاصمة لمن التجأ اليه من مقتضى الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعيه المتقبلة بحلول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته وسريرته ، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظتها ، والنظر من انقطاعه ، رغبة فى الحظ الجسيم ، الى أن وصل الى المجلس السامى ، وخدم البساط العالى ، زاده الله تشريفا وتعظيما ، وأنهى أغراض وفادته ومقاصد إرادته ، فنفذت الأوامر الشريفة ، أدام الله سموها وتشريفها وأضفى على الجميع ستر سلطانها ، وكنف أحسانها بقبول وسائله ، والحاح مطالبه ، وإفاضة الاحسان عليه.

ولما بسط له فى الأمل ، وكان هو وإبنه فى محل الكرامة والجذل ، بدأ بعرض ماهو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، الأمير ابو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ، المنجهز الى المسلمين باستئصال فئة العناد ، وملة الفساد ، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا الى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم ، ولا من شعبه الطاهر الصميم ، فنبه جميع من كان فى أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاما الى أن صار جميع من فى جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة ، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقه الجماعة ، فيخطب الآن للخلافه ، بسط الله أنوارها ، وأعلا منارها على أكثر من ألفى منبر وخمسمائة منبر ، فان طاعته ، ضاعفها الله، من أول بلاد الله الافرنج ، أستأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم الى آخر بلاد السوس مما يلى بلاد غانة ، وهى بلاد معادن الذهب ،

والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر . وله وقائع فى جميع أصناف الشرك من الافرنج وغيرهم قد فللت غربهم ، وقللت حزبهم ، وألفت جموعه سربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم فى كل أفق وعلى كل الطرق . وقد استرجع كثيرا من المعاقل التى استباحها الروم من أمور المسلمين ، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات فى حكم سلطانه وكانت ثغور المسلين بها مستضامة ، وقد أعادها جده[1]. بحمد الله الى أولها ، واحترمت لحرمة المسلمين والاسلام ، وعز سلطانه ، وهذا دأبه وهجيراه الذى لاعمل له سواه .

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس ، وكان أمله مواصلة الخدمة والتشرف بانهاء اعماله ، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين ، وإقباله على مجاهدة المشركين ، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لاتفاته[2]، ولم يزل محافظا على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة ، والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله. ولقد وصل الى ديار المشرق فى هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ، وذكر من حاله هذا الامير ما يؤكد ما ذكرته ، ويؤيد ما شرحته ، وأشاع القاضى المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها وتعظيمها ، وذكر لى أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم ، وحصاره لهم. وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولى الأمر لاسيما هذا الامير وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وابتداء جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته ، وجميع المسلمين على طاعته ، والارتباط بحمايه ثغور المسلمين ، وهو ، ممن يقسم بالسوية ، ويعدل فى الرعية . ووالله ما فى طاعته مع سعتها

---

(١) الجد بضم الجيم الحظ .

(٢) يقال تأثف الرجل المكان أى لم يبرحه وربما المقصود هنا لكثرة اشغاله .

دان منه ، ولا ناء عنه من البلاد مايجرى فيه على أحد من المسلمين رسم مكس ، وسبل المسلمين آمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب ، مطرزة باسم الخلافة ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها .

هذه حقيقة حاله ، والله يعلم أنى ما أسهبت ولا لغوت ، بل لعلى قد أغفلت أو قصرت : ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، الطول العميم فى الأمر ، تشريفه بقبول تأميله ، وفى الإشارة اليه بما يقوى أمره ، ويشد أزره ، ويؤيد سلطانه ويعلى شأنه ، مجريا له على السنن الكريم ، الطول العميم . فو الله ما فى الأمراء ولا فى شيع النصحاء الأولياء من يجوز فى الولاء وصحة الانتماء سبقه ، ولا يلبس من النصيحة طوقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة المبينة على طرق النبوية مايصل يده ويقوى أيده ويشد عضده بمنه وطوله .

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان باباحة الصدر لهما الى الوطن ، فقد بعدا عنه سبعة أعوام ، وأقاما فى الجناب الخصب الظليل ، والكنف الرحب المأهول مدة عامين ، يستدران النعم الحافلة جملا بعد جمل ، ويكرعان فى المشارب الجمة العذبة عللا بعد نهل ، فلله الهام الشريفة التى مسحت على شكايتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام ، فأزاحت عنها جميع الشكايات والآلام ...... لا أعدم الله مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعال وسعادة تحرز أسنى الآمال ، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليال ، فذلك بيده وغير معجزه ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من طوله مستفاد ، لاشريك له ، ولاتوفيق الا به

والحمد لله حق حمده ، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين ، وعترته المنتخبين الراشدين ، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين الى يوم الدين ، وحسبي الله ونعم الوكيل .

رد الخلافة :

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز عدد أسطــــره سبعة وثلاثون سطرا بخط فسيح كتابي مليح من السطر الأول منه والثاني منــــه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد ممسك[1] « القاهره بالله » :

عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة ، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة ، زاد الله فى جلالها وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولى الذى أضحى بحبل الإخلاص معتصما ولشرطه ملتزما ، والى أداء فروضه مسابقا . وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مساوقا ، لاريبة فى اعتقاده ، ولاشك فى تقلده من الولاء ، طويل نجاده ، إذ كان من غدا بالدين تمسكه ، وفى الزيادة عنه مسلكه ، حقيقا بأن يستتب صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبى فى غده ، وأفضل ما نحاه ، وعليه من الاجتهاد دار رحاه ، جهاد من يليه من الكفار واتيان ما يقضى عليهم بالإجتياح والبوار ، اتباعا لقوله تعالى « قاتــــلوا الذين يلونكم من الكفار[2] » ، فهذا هو الواجب اعتماده ، الذى يقوم به الشرع عماده ، وأن يؤلف شمل من فى جملته من الأجناد على الطاعة الإمامية التى هى العروة الوثقى والذخر الأبقى ، واستقراء قوله تعالى والعمل

---

(١) ممسك بضم الميم الأولى وفتح الثانية وتشديد السين أى المخلوط بالمسك .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٣ .

به ، والبدار الى التشبث بسببه « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم »

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى ، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لوأن بينها وبينه أمدا بعيداً (١) » . وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذى يضفو عليهما برده ، ويصفو لهما ورده ، ليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر ، فليقابل الأمر الأسنى فى ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله .

وكتب فى رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٠ .

ضميمة رقم (٢)

الخطاب الذى وجهه ابن العربى إلى الفيلسوف أبى حامد الغزالى يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية ويطلب منه فتيا فى ذلك [1] ، ورد الغزالى عليه .

وكان أشهر من لقينا من العلماء فى الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق ، لطول باعه فى العلم ورحب ذراعه ، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسى الغزالى ، فاستدعينا منه فتيا وكتاباً ، اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه على معناها وهو :

فى علم الإمام ما ذكر فى وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين ، والذب عن المسلمين ، وهو حميرى النسب وقبيله المرابطون ، قد وقفوا أنفسهم على الجهاد . وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة عدة ثوار تسوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم فى الاستيلاء على صاحبه ، واستنابوا الفساق

---

(١) هذا الاستفتاء ورد فى كتاب الأنساب السالف الذكر ورقة ١٢٧ - ١٢٨ .

من الأرقاء والصنائع الطلقاء فى محاربة بعضهم بعضا واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين ، ثم طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيرا منها من غـــير مؤونة ولا مشقة . ثم لجأ الباقى من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر ، فاستوقف بعض الرؤساء وفاء للشركين ، وحقدا على المسلمين فى استدعائهم له ، ووصل الأمير الى غرب الأندلس فنحه الله النصر ، وألجم الكفار السيف ثم عاود الجواز فى العام الثالث من هذا الفتح ، فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحـــدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء عن البلاد والمعاقل وبقيت طائفه من رؤساء الثغر الشرقى من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلبا . ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول فى بيعة الجمهور ، فقالوا لاجهاد إلا مع إمام من قريش ، ولست به ، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك ، فقال أنا خادم الإمام العباسى ، فقالوا له أظهر لنا تقـــديمه اليك ، فقال أوليست الخطبة فى جميع بلادى له ؟ فقالوا ذلك أحتيال ومردوا على النفاق . فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم فى أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج فى قتالهم ؟ وهل على الإمام العباسى أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فانهم انما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر ، وتضرب السكة

باسمه إلى غير ذلك . ومتى وصف نفسه قال لست مستبدا ، وإنما أنا خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشهر من أن يؤكد بالتحلية ، وأظهر من أن يحدد بالتزكية .

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر ، وأعم الشكر فى الانعام بالمراجعة فى هذا السؤال إن شاء الله .

ضميمة رقم (٣)

فتوى الغزالى فى موقف كل من يوسف بن تاشفين ، وملوك الطوائف ، والخلافة العباسية . (١)

فأجاب الإمام الغزالى رضوان الله عليه .

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذى يستغنى مع شهادته عن غيره ، وعن طبقه من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا الأمير أكثر الله فى الأمراء أمثاله ، ما أوجب الدعاء لأمثاله . ولقد أصاب الحق فى إظهار الشعار الإمامى المستظهرى ، حرس الله على المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للامام الحق ؛ وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخر عنهم ذلك لعائق . وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هى طاعة الإمام ، ومخالفته مخالفة الإمام ، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغى ، وقد قال الله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر

---

(١) وردت هـذه الفتوى فى كتاب الأنساب السالف الذكر فى الورقات ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

الله[1] ، والفيئة إلى أمر الله ، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب الى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق ، فإنه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم ، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله ، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية .

ومهما تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، واذا قاتلوا ، لم يجز أن يتبع مدبرهم ، ولا أن يذفف[2] على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا ، وجب الكف عنهم أعنى عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لايبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين . وأما مايظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على ورثتهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، حكم الباغى على نائب الإمام .

فإنه وان تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال ، اذ يجب على إمام العصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض ، في أن يخطب عليه ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ٩

(٢) ذفف وذفف (بتشديد الفاء) على الجريح ، أجهز عليه

العــدل والنصفة ، ولا ينبغي أن يظن بالامام توقف فى الرضا بذلك والإذن فيه .

وإن توقف فى كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها وايصالها المعاذير . وأما الاذن والرضى بعدما ظهر حال الأمير فى العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلا رخصة فى تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورا لايشك فيه وان لم يكن عن ايصال الكتاب وانشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لاتنطفىء الا بأن يصل اليهم صريح الاذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله فى تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك . فان الامام الحق عاقلة أهل الاسلام ؛ ولا يحل له أن يترك فى أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى فى أطفائها بكل ممكن . قال عمر رضى الله عنه « لوتركت جرباء على ضفة الفرات لم تطل بالهناء (١) ، فأنا المسئول عنها يوم القيامة » . وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقد أحدق به الناس « قد كثر الناس » . فقال عمر بن عبد العزيز : « خصماؤك ياأمير المؤمنين» يعنى أنك مسئول عن كل واحد منهم ان ضيعت حق الله فيهم أو أقمته . فلا رخصة فى التوقف عن أطفاء الفتنةفى قرية تحوى عشرة . فكيف فى أقاليم وأقاليم الا أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع منه مانع ، المواقف القدسية الامامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها . ونحن نعلم أن لانستجيز التوقف على اطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لايعتقدوا فى حضرة الخلافه الا ذلك ، فإن المسافة اذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق ، لم

---

(١) الهناء أى القطران .

يبعد أن يقتضى الرأى الشريف صيانة الاوامر الشريفة عن أن تمتد اليها أعين الدوله فضلا عن أيديهم .

وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته ، وتناطقت الألسن بعدله ، ولم يعرف فى ذلك القطار من يجرى مجراه . ويسد فى هذا الحال مسده ، فهذا اعتقاد فاسد فى حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور ، أو تقتضى فى نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها ، القائمين فى أقطار الأرض بانفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال ، فهذا حكم كل أمير عادل فى أقطار الأرض وحكم من بغى عليه ، والله أعلم .

ضميمة رقم ٤

صورة من كفاح مدينة المرية ضد الهجوم الغـاشم الذى شنه عليها خايمى الثانى ملك أراجون (أرغون) سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) (١)

وفى هذه السنة (٧٠٩ هـ) فى يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول منها بموافقة شهر غشت (أغسطس) من الشهور العجمية فى أول دولة أبى الجيوش نصر، حاصر البرشلونى المرية وكان قائد أبى الجيوش عليها القائد أبومدين شعيب، وعلى البحر القائد أبو الحسن على الرنداحى والبرشلونى المذكور طاغية أرغون خذله الله وصل عشية يوم الاثنين ثانى الشهر المذكور إلى طرف الفنت (Alfunt) من ساحل المرية الشرقى فى ثلاثمائة قطعة بين صغار وكبار حربية وسفرية، فحط هنالك وبات فى أجفانه. فلما كان من الغد يوم الثلاثاء، أنزل الخيل والعدد والازواد

---

(١) ورد هذا النص فى كتاب درة الحجـال فى غرة أسماء الرجال (حـ١ ص٧١ - ٧٩) لشهاب الدين أبى العباس احمد بن محمد بن على بن عبد الرحمن بن أبى العافية المكناسى المعروف بابن القاضى ولد سنة ٩٦٠هـ (١٥٥٢م) وتوفى ودفن بباب الجيسة بفاس سنة ١٠٢٥هـ (١٦١٦م) وصلى عليه المؤرخ المشهور أحمد المقرى صاحب كتابى نفح الطيب وأزهار الرياض (ت١٠٤١هـ). وقد نشر كتاب درة الحجال س. علوش فى جزئين (الرباط ١٩٣٤). ونظرا لندرة هذا الكتاب رأينا نقل هذا النص كضميمة لأهميته، علما بأنه سبق أن ترجم إلى الفرنسية والاسبانية كما هو مذكور فى ص ٤١٠.

بتلك المواضع من طرف الفنت إلى الموضع المعروف ببركة الصفر وانتهى الفرسان والرجال بفحص المرية وخارجها .

وفى الحين أمر القائد أبومدين بهدم ماقارب الأسوار من المبانى بخارج البلد ، فهدمت وسويت بالارض ، وسدت أبواب البلد بالبناء الا مادعت الضرورة لتركه . وهيئت الأسوار للقتال ؛ ولازمها الرماة والرجال .

وفى يوم الاربعاء ثانى يوم نزولهم ، احتفل النصارى فى أحفل زى ، وأتوا يضربون الأبواق والطبول ، حتى انتهوا إلى أسوار البلد مما يلى الرجل ، فقاتلوا البلد قتالا عظيما ، وتكالبوا عليها تكالبا شديدا . وقد كان المسلمون على غير تعبئة لخروجهم من البلد طمعا فى دفاع النصارى عند اقبالهم لعدم الخبرة بحالهم ، ففروا أمامهم إلى البلد ، ولجؤوا إلى الأسوار ودافعوهم بالقتال والسهام عن البلد ، وعصم الله وهو نعم النصير .

وفى يوم الخميس خامس الشهر المذكور ، وصل الشيخان أبو العباس بن أحمد ابن طلحة وأبو عبد الله محمد بن أبى بكر فى نحو مائة وخمسين فارسا ، وكان أولادهم بالمرية ، فلما رآهم النصارى وقد أطلوا خرجوا إليهم فى خيلهم ورجلهم ومعهم الطاغية ملكهم ، فصبر الغزاة القادمون لقتالهم أعظم صبر ، وتجلدوا على جلادهم غاية التجلد ، واقتحموا على رغم أنوفهم حتى دخلوا البلد بعد أن هلك من خيلهم تسعة ومانقص منهم عدد ، فكانت هذه الكائنة مما أكمدت النصارى وأدخلت عليهم حزنا ، وفات المسلمون بأعظم المدد . وفى سائر هذا اليوم وصلت جيوش النصارى على البر بما عم السهل والوعر من الخيل والرجال ، فأحدقوا بالبلد أحداق الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر ، وقد كان لحق

أهل المرية لأول حصارهم دهش فلما ناشوهم القتال ، واستقربهم النزال ورأوا أن الحرب سجال ؛ انبسطت للقتـــال نفوسهم ، وثارت للحرب عزائمهم ، وأفرس رماتهم ، وانتصر حماتهم ، وصاروا يبـادرون الحرب ولايهابون الطعن والضرب ، وأخـــذ النصارى نفوسهم لأول الحصار بالمواظبة على القتال ، والمصابرة بالنزال ، فلما ذهب لهم يوم إلا بقتال جديد ، وجعلوا يرتبون الرجال نطاقـا على البلاد ويضربون الطرق ، ويحافظون على الرتب . ومهما ظهر لهم موضع راحـــة للبلاد أو مسلك دخول أو خروج بادروا اليه ليسدوه ، ونصبوا المجانيق وضيقوا الحصار وفتحوا إلى الحرب الأبواب .

فلما كان يوم الأحد ثامن ربيع الأول المذكور ، احتفل الطاغية فى مواكبه وجنوده وراياته وبنوده ، وأقبل نحو البلد فى عدد كثير حتى وافى باب بجانة ، وهنالك أكثر نزولهم ومعظم قتالهم ، فأفاضوا فى المقاتلة، واستقبلهم المسلمون بأشد المدافعة ، وكذا كانت الحروب بينهم فى عامة الايام .

وفى يوم السبت الرابع عشر من الشهر المذكور ، أقبـــل جيش المسلمين من حضرة غرناطة طامعا فى نصرة البلد ودفاع العدو عنها ، فخرج الطاغية والتقى الجمعان فكانت الكرة على المسلمين وقتل كثير من الرجال والفرسان . وفى خلال ذلك خرج جمـــع من أهل البلد ، فاختلفوا إلى محله النصارى ، فنهبوا منها كل ماقدروا عليه .

وفى يوم السبت الحادى والعشرين ، ضربوا ناقوسهم الكبير وكانوا لايضربونه إلا لركوب طاغيتهم ، ودخلوا فى السلاح بأجمعهم وأقبلوا

محدقين بالبلد من جميع جهاته ، وأعدوا للقتال أبراجا سامية من الخشب تدفع على عجلات ، وشحنوها بالرجال ، وهيؤوا سلاليم عالية على الأسوار ، وأقبلوا يتقدمهم الرجال والرماة ويتلوهم الفرسان ، وفرقوا ذلك على البلد فدافعهم المسلمون وطرحوا عليهم الزفت والقطران ، ورموا بالنيران حتى فر النصارى عنها وتمكن المسلمون من كثير منهم ، وكان هذا اليوم من الأيام العظام .

وفى أول شهر ربيع الاخير ، اقبل جيش من حضرة غرناطة إلى مرشانة (Marchena) ليرتبوا بها ، فضيقوا على النصارى تصرفاتهم .

وكانوا (أى النصارى) يخرجون من محلتهم صبيحة كل يوم فى جمع وافر من الفرسان ينتجعون من الوادى على دوابهم أنواع العصير وضروب الفواكه ، ويجلبون الخشب لابنيتهم ، والحطب لوقودهم . فخرجوا على عادتهم يوم الاربعاء عاشر شهر ربيع الاخير ، فلما بلغوا الوادى خرجت عليهم كمائن المسلمين فانهزموا أمامهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا دوابهم وأسلحتهم ، وكان عليهم فى ذلك بوار وانكسار .

وفى يوم الجمعة الثانى عشر لشهر ربيع الاخير ، أقبل جيش المسلمين وعليهم الشيخ أبو سعيد عثمان ابن أبى العلاء فانبرت اليه جيوش النصارى وتلاقوا بمواضع خارج المدينة فكانت الدائرة على النصارى وقتل جماعة من زعمائهم وقتل الفرس تحت الشيخ أبى سعيد ، لكن نجاه الله تعالى وسلمه . ولما ضاقت صدور النصارى بالحرب وفشى فيهم القتل فى الأيام الفارطة ، عزموا على المكيدة ، فخرجت فرقة من فرسانهم ليلا وأبعدوا عن المحلة . فلما كان من الغد يوم الاحد الرابع عشر من شهر

ربيع الآخير ، أظللوا فى زى جيوش المسلمين ، عليهم البرانس . وعندما تظاهروا للمحلة ، وركب الجيش إليهم على حال استعجال ، وخلفوا اخبيتهم ليس فيها أحد يستدرجون أهل البلد للخروج إليهم وقد رصدوا بها المكامن ، وعملوا عليها الحيل ، ونصبوا إليهم الحبائل . ولما بصر المسلمون بظاهر الحال ، ولم يكن عندهم شعور بالمكيدة ، رفعوا الاعلام فى الأسواق ، وخرج الفرسان وقائد البحر وجماعة من أعيان المرية قاصدين نحو الاخبية لينهبوها ، ثم أن الله سبحانه صرفهم عنها ، فرجعوا إلى جبل المرية ليبتدئوا بما هنالك من الاخبية ، إذ كان أهلها من شرارهم . ولما شاهد أرباب الكمائن ذلك من فعل المسلمين ، حسبوا أنهم فطنوا للمكيدة ، وأن تعريجهم انما كان طلبا لنجاتهم ، فانبروا من مكامنهم وأرادوا قطعهم عن البلد ، فسقط فى أيدى المسلمين واتفق أن فتح فى تلك الجهة باب أصبح ذلك اليوم ، فلجؤوا إليه ، فاقتحموا عليه ، ومن انقطع منهم عاذ بالسور ودوفع عنهم بالنبل ، ودلى لهم الواح وتستروا بها حتى ارتفع القتال ، لحقوا بالبلد وصرف الله مكرهم .

وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر ربيع الاخير ، عملوا الحيلة فى إقامة ألواح عظام عالية بموضع يعرف بالاسبد على قرب من البلد ، ووصلوا بينها بمسامير الحديد ، وجعلوا يبنون خلفها ، فعظم الامر فى ذلك على المسلمين ، وأقبلوا يحاولون تحريقها ، فيسر الله تعالى عليهم ذلك بعد جهد عظيم .

وفى يوم السبت الموفى عشرين للشهر المذكور ، كان القتال فى البر والبحر ، وركب الطاغية فى أسطوله فى البحر ، وفرق جيشه على كل جهة

من جهات البلد فى البحر والبر ، وأقبلوا جميعا على القتال ، وقد أعدوا من الأبراج والسلاليم ما يضيق عنه نطاق الاحتيال ، وصاروا لا يدفعهم قتال وضاق الحال بالمسلمين ، وانسدت باب الحيل ، فصرخ بهم صارخ أن بادروهم بطرح العذرة (١) فهو أعظم نكاية لديهم . فبادر الناس فى الحين لتناول ذلك وحمله ، فوضعوا الشيء فى محله ، وقارنوا الشكل بشكله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فكان الفارس منهم فى أجمل حال فى زيه ، وإذا هو مكسو ثوب العذرة فيصير مسخرة بينهم ، وكان ذلك أدهى عليهم من القتال ، وفرج الله من شدة تلك الحال .

وفى يوم الأربعاء العاشر لجمادى الأولى ، وصل جيش المسلمين من الحضرة فى خيل ورجل كثير ؛ فأقبل الفرسان من جهة المناظر ، وأقبل الرجالة من جهة الجبل وكان التقدم للرجالة ، فرجعت إليهم طائفة من فرسان النصارى ، فلم يستطيعوا صبرا على مقاتلتهم ، فانهزموا أمامهم ، ومضت عليهم سيوفهم .

وكان من لطف الله تعالى أن خرج طائفة من المسلمين من البلد إلى ما يليهم عند زحف النصارى إلى المنهزمين ، فاحرقوا بعض أخبية محلة النصارى وكثيرا من بيوتهم ، فصعد دخانها فى الجو . وعندما شاهد ذلك مقاتلة النصارى ، انصرفوا نحـــوه يظنون أن محلتهم أضرمت فى جميعها النيران ، فكان ذلك للمنهزمين سببا لرفع السيف عنهم . ولما انتهى فرسان المسلمين للحفير الذى احتفره النصارى على محلتهم وعليه طاغيتهم بجنده

---

(١) العذرة : الغائط

توقفوا عن مخالطتهم حتى فرق الليل بين الفريقين من غير قتال .
وصار هذا الجيش من المسلمين بعد ذلك يرتب مرشانه ، فيأتون في أكثر الأيام إلى محلة النصارى يناهشونهم ويضاربونهم . وخف ذلك القتال عن البلد ، فكانوا لايقاتلون أهل البلاد إلا في اليوم الذى لايأتى فيه جيش المسلمين .

وفى صبيحة يوم الجمعة الثالث لجمادى الأخيرة و رام النصارى غدر البلاد من ناحية جبلها ، فأتوا فى عدد موفور بسلاليم عالية ، فرفعوها حتى ألصقوها بالسور ، ووثبوا يصعدون فيها ويرتقون عليها . ولم يكن فى تلك الجهة للاتفاق غير رجل واحد من المسلمين ، فصاح بالناس فسارعوا اليه يتصايحون حتى غطت الأسوار بأناسها ، وضاقت عن أهلها ، فدفعوهم وفتح الباب هنالك ، فخرجت منه طائفة من المسلمين ، فقلبوهم ، وقتلوا رئيسا من زعمائهم فيمن قتل .

وفى عشية يوم الخميس التاسع من الشهر المذكور ، عملوا الحيلة على غدر هذه الجهة من المرقوب مرة ثانية ؛ وظنوا اخلاءها من الناس ، وقد كان ناسها استشعروا الحذر من الغدرة الأولى ، ففطنوا لهم وتصايحوا ، فاجتمع الناس اليهم ، وفتح الباب هنالك فتمكنوا منهم وظفروا بعدد منهم .

وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين لرجب ، سقطت ستارة من السور فانتدب النصارى اليها وتهالكوا عليها وتقاتلوا قتالا مستمرا بطول اليوم ، وهو آخر قتال كان بينهم وبين أهل البلد ، الى أن ارتحلوا .

وإنما أطلت بهذا الحصار ، لما فيه من العبرة لأولى البصائر والأبصار

وكانت عدة فرسانهم ثلاثة آلاف فارس منها ألف مدرعة وأربعمائة مبرقعة ، وأما الرجالة فلا يحصون كثرة ، هلك من جميعهم فى هذا الحصار تسعون الفا قتل منهم أهل المرية بطول الحصار أربعة عشرة الفا من الزعماء ، وسبعمائة من الفرسان ، وعشرين ألفا من الرجالة ، والسائر قتلهم جيش المسلمين وعدة أخبيتهم نحو الثلاثمائة ، وأما القياطين والبيوت مما لا يأخذه حصر ، وعدة المجانيق التى نصبوا للرجم أحد عشر منجنيقا وعادة تدور بالبلد ، وينقل بعضها من دفة لأخرى : منها مايرجم أسوار البلد ، ومنها ما يرجم داخل البلد ، ومنها مايرجم القصبة ومعظم تسلطهم وكلبهم على أسوار العرقوب . وعدة الحجرة التى رمت بها المجانيق بطول الحصار أثنان وعشرون ألفا أنظر لحكمة الله ، كان عدد موتاهم أضعافا للأحجار المرمى بها من حجر يزن ثلاثين إلى حجر يزن خمسة وعشرين (رطلا) .

وكان لأهل البلد منجنيق يرمون بها برا وبحرا بحسب الحاجة . فلما تكسرت لحجر أصابها ، صنعوا ثلاثة مجانيق أخرى .

ومن أسباب عصمة الله تعالى لأهل البلد فى هذه المدة ، ما توفر لمخازن قصبته من الشعير الكثير ، وصاروا يفرمون ذلك بحسب رطل لكل نفس بسوم قيراط واحد للرطل من غير تفرقة بين قوى وضعيف . وأنهى ما بلغ اليه الرطل من القمح ثلاثة دراهم ، والخبز منه إحدى عشرة أوقية بدرهمين ، وعدة من استشهد من أهل البلد لطول الحصار مائة وتسعة وخمسون ، منهم أمرأتان وسائرهم رجال . ثم أرسل الله الريح الغربية مدة شهرين ، فمنعت أجفانهم السير ، وقطعت عنهم المير حتى عمهم الجوع ، فأجابوا إلى الصلح على مال التزم لهم ، فوصل الحمام إلى المرية

مبشرا بذلك ، وذلك يوم الأحد الحادى والعشرين لرجب من السنة (٧٠٩هـ)

وقد أنف من ذلك جيوش قشتالة ، ووثقوا أثقالهم فى المراكب ؟ وما عجزوا عنه أضرموا فيه النيران ، وبقى منهم طائفة بعد ذلك ضاقت عليهم الاجفان فأقاموا تحت الذمة ورحلت المحلة بطاغيتها المخزى فى غضب الله إلى لعنة الله وسوء المصير وذلك يوم الخميس الثانى والعشرين من شعبان منها فكانت مدة الحصار إلى مدة التمام ستة أشهر غير أيام .

وفى شهر رمضان من السنة المذكورة ، حشد أهل بادية المرية لهدم ما بقى بعد الحصار بخارج البلد من الحيطان والأبنية خوفا مما كان يتحدث به من عود الطاغية البرشلونى إليهم . ونزلوا عليها كرة أخرى فامتنعت إلى أن حل قضاء الله وقدره ، وكان أمر الله قدرا مقدورا وإنما ذكرناه للاعتبار فى مقدورات الله .

ثبت بأسماء المراجع

أولا : المصادر العربية القديمة

- أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا التنبكتي. (ت ١٠٣٦ هـ/١٦٢٧م)

- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج.

كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة ١٣٢٩هـ)

- ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)

- التكملة لكتاب الصلة - نشر كوديرا.

الجزءان الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الأندلسية. (مدريد ١٨٨٧)

- ذيل كتاب التكملة - نشر جونثالث بالنثيا. (١٩١٥)

- ذيل كتاب التكملة - نشر محمد بن أبي شنب وألفردبل (الجزائر ١٩١٩م)

- الحلة السيراء : جزءان، نشر حسين مؤنس. (القاهرة ١٩٦٣م)

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري. (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

- الكامل في التاريخ. (القاهرة ١٣٠٣هـ)

- الادريسي : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي. (ت حوالي ٥٤٨هـ/١١٥٤م)

- المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزي ودي خويه. (ليدن ١٨٦٦)

- وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية - عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
نشر هنري بيريس. (الجزائر ١٩٥٧)
- وصف الأندلس - نشره وترجمه إلى الأسبانية كوندى Conde
(مدريد ١٧٧٩) :

- ابن الأحمر : أبو الوليد بن الأحمر . (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م)
- مستودع العلامة ومستبدع العلامة - نشر محمد التركي ومحمد بن تاويت
(تطوان ١٩٦٤)
- روضة النسرين - طبعة القصر الملكي . (الرباط ١٩٦٢)

- ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتريني . (ت ٥٤٣هـ/١١٤٧م)
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . (القاهرة ١٩٤٥)
القسم الأول في جزئين والقسم الرابع الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٩/١٩٤٥)
القسم الثالث مخطوط بالأكاديمية التاريخية بمدريد رقم ١٢.

- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك . (ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م)
- كتاب الصلة في أئمة الأندلس - نشر كوديرا في الجزئين الأول والثاني من
مجموعة المكتبة الأندلسية. (مدريد ١٨٨٣).

- محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - الطبعة الأوربية
نشر وترجمة دفريمرى وسانجونيتي Defremery et Sanguiuetti
(باريس ١٩٢٢).

- البغدادي : صفي الدين . (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

ـ مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٥٤).

ـ البغدادي : أبو منصور عبد القادر بن طاهر. (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)
ـ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (القاهرة ١٩٤٨)

ـ البكرى : عبد الله بن عبد العزيز المرسى. (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
ـ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب . نشر دى سلان . (الجزائر ١٩١١).

ـ البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادى. (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)
ـ فتوح البلدان . (القاهرة ١٩٣٢).

ـ أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق . (ق ٦هـ/١٢م)
ـ أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين .
نشر لفى بروفنسال . (باريس ١٩٢٨)

ـ التجانى : أبو محمد عبد الله بن محمد . (ت حوالى ٧١٧هـ/١٣١٧م)
ـ رحلة التجانى . نشر حسن حسنى عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨).

ـ ابن تومرت : المهدى أبو عبد الله محمد . (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م)
ـ موطأ المهدى . مطبعة فونتانة بالجزائر الشرقية ١٩٠٧ ـ وتوجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمى ٤٨٠ ج ، ١٢٢٢ ج .

ـ الثعالبى : أبو منصور عبد الملك. (ت ٤٢٩هـ/١٠٤٧م)
ـ يتيمة الدهر ـ ٤ أجزاء ـ (القاهرة ١٩٣٧)

- ابن جبير : محمد بن احمد الأندلسي . (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)
- رحلة ابن جبير. (بيروت ١٩٤٩)

- الجزنائي : أبو الحسن علي
- كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس .
نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل Alfred Bel (الجزائر ١٩٢٢)

ابن جعفر : أبو الفرج قدامة . (ت ٦٢٨هـ/٩٤٨م)
- نبـــذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة - نشر دى غوية De Goeje (ليدن ١٨٨٩ م).

- الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١/٩٤٣م)
- كتاب الوزراء والكتاب . (القاهرة ١٩٣٨)
نشر مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي.

-الجوذري : أبو علي منصور منصور العزيزي الجوذري (ق ٤ هـ/١٠ م)
- سيرة الاستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين.
نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة ١٩٥٤).

- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء
(حيدر أباد ١٣٥٠ هـ)
- رفع الاصر عن قضـــاة مصر (في آخر كتاب الكندي ، الولاة والقضـاة) .

ابن حزم : أبو محمد على بن احمد الاندلسى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤ م)

- الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧هـ) فى خمسة أجزاء .
- نقط العروس ، نشر شوقى ضيف (مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٥١)

- الحميرى : عبد المنعم السبتى الحميرى (ت فى أواخر القرن التاسع الهجرى)
  - الروض المعطار فى أخبار الأقطار، نشر وترجمة ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .

- الحميدى : ابو عبد الله محمد بن أبى نصر الازدى (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)
  - جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس (القاهرة ١٩٦٦)

- ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)
  - صورة الأرض (طبعة بيروت)

- ابن حيان : أبو مروان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٩م)
- المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر ، نشر عبد الرحمن حجى (بيروت ١٩٦٥)
- المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، القطعة الخاصة بعصر عبد الرحمن الثانى، نشر محمود مكى (تحت الطبع فى بيروت)

- ابن حيون : أبو حنيفة النعمان بن محمد التيمى المغربى (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م)
  - المجالس والمسايرات ، ثلاثة أجزاء ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة (رقم ٢٦٠٦٠) .

- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الأشبيلى (ت ٥٢٥هـ/١١٣٤م)
  - قلائد العقيان فى محاسن الأعيان (القاهرة ١٣٢٠هـ)

ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيد الله (٣٠٠ ه سنة ٩١٣ م)
ـ المسالك والممالك ، نشر دى خويه (ليدن ١٨٨٩)

الخزرجى : على بن حسن (القرن الثامن الهجرى)
ـ العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان فى
(Gibb , Memorial , vol. III fasc. 4'5)

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ ه ١٣٧٤ م)
ـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
(ا) الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا نشره ايفى بروفنسال (بيروت ١٩٥٦)
(ب) الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشره أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤)

نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، نشر أحمد مختار العبادى (القاهرة ١٩٦٧)
ـ الاحاطة فى أخبار غرناطة .
(ا) نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .
(ب) طبعة القاهرة فى جزأين (القاهرة ١٣١٩ ه)
(ج) نشر عبد الله عنان ، القسم الاول . (طبعة دار المعارف بالقاهرة)
ـ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥)
وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة فى القرن الثامن الهجرى (غرناطة ١٩١٦)
ـ رقم الحلل فى نظم الدول (تونس ١٣١٧ ه)

ـ ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) (ت ٦٨١ه/١٢٨٢ م)
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان نشر محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٠)

- ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - (بولاق ١٢٨٤ هـ)
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا .
نشر محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة ١٩٥١)

- ابن خلدون : (أبو زكريا يحى) (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م)
- بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد - نشره وترجمه إلى الفرنسية الفردبل Alfred Bel - الجزائر ١٩٠٢)

- ابن دراج القسطلى :
. ديوان ابن دراج القسطلى نشر محمود مكى (دمشق ١٩٦١)

- ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى)
- المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ١٢٨٦هـ)

- ابن أبى زرع :
- الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع على الحجر مرارا بفاس أولها سنة ١٨٨٥ م ثم طبعه الهاشمى الفيلالى طبعة غير كاملة (الرباط ١٩٣٦) وقد اهتم المستشرقون بنشره وترجمته فنشره تورنبرغ مع ترجمة لاتينية (ابسالا ١٨٤٢) وترجمه إلى الألمانية دومباى سنة ١٧٩٤ وإلى البرتغالية مورا سنة ١٨٢٨ . وإلى الفرنسية Beaumier سنة ١٩٦٠

الزركشى : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ)

- ابن الزيات : (أبو يعقوب التادلى المعروف بابن الزيات)

- التشوف إلى رجال التصوف .

(نشر أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨)

- ابن أبى زمنين : أبو عبد الله محمد (ت ٣٩٨ ﻫ)

- قدوة الغازى

(مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبه الوطنية بمدريد)

- السبتى : (محمد بن القاسم الانصارى)

- وصف سبته (فى ق ٩ ﻫ - ١٥ م)

نشر ليفى بروفنسال (مجلة هسبيرس ١٩٣١)

- السلاوى : (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) (ت ١٣١٥ ﻫ سنة ١٨٩٧ م)

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ٩ أجزاء .

(الدار البيضاء ١٩٥٤)

- السلاوى : (محمد بن على الدكالى)

- الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز .

(مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٢٢٠ ﻫ)

- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ ﻫ ١٥٠٥ م)

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان (القاهرة ١٣٢٧ ﻫ)

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة

(القاهرة ١٣٥١ ﻫ)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدمشقى (ت ٦٦٥ ﻫ / ١٢٦٨ م)

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان (القاهرة ١٢٨٧ ﻫ)

ـ الذيل على الروضتين ، نشره عـزت العطار الحسينى الدمشقى بعنوان :
« تراجم رجال القرنين السادس والسابع » (القاهرة ١٩٤٧)

ـ ابن الشباط : محمد بن على بن محمد بن الشباط المصرى التوزرى (ت ٦٨١ هـ
سنة ١٢٨٢ م)
ـ صلة السمط وسمعة المرط
نشر القسم الخاص بالاندلس ، أحمد مختار العبادى فى صحيفـة معهد
الدراسات الاسلامية فى مدريد ، (تحت الطبع)

ـ الشهرستانى : ابو الفتح محمد بن أبى القاسم (ت٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م)

ـ الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨)

ـ ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ سنة١١٩٨م)
ـ المن بالامامة على المستضعفين ، نشر عبد الهادى التازى (بيروت١٩٦٤)

ـ الضبى : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبى (ت ٥٩٩ هـ سنة ١٢٠٣)
ـ بغية الملتمس فى تاريخ أهل الاندلس (مدريد ١٨٨٤)

ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ سنة ٩٢٣ م)
ـ تاريخ الامم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

ـ الطرطوشى : أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ سنة ١١٣٥ م)
ـ سراج الملوك (القاهرة ١٣٥٤)

ـ ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن (ت ٢٧٦ هـ سنة ٨٨٩ م)
كتاب فتوح أفريقية والاندلس ، نشر جاتو (الجزائر ١٩٤٨)

ـ ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبى

ـ رسالة فى القضاء والحسبة

نشرهـــا ليفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب (القاهرة ١٩٥٥)

ـ ابن عذارى المراكشى : أبو العباس احمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م)

ـ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب

ا) الجزءان الأول والثانى (طبعة بيروت ١٩٥٠)

ب) قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثى ميراندا فى مجـــلة هسبريس ١٩٦١

جـ) الجزء الرابع الخاص بتاريخ الموحدين وبداية عهـــد بنى مرين نشره ويثى ميراندا ومحمد بن تاويت التطوانى وابراهيم الكتانى (الرباط ١٩٦٣)

ـ العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى (ت ٤٧٨هـ/٩٨٨م)

ـ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك نشر عبد العزيز الأهوانى (مدريد ١٩٦٥)

ـ ابن العربى : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣هـ/١١٤٨م)

ـ العواصم من القواصم ، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٨٧هـ)

ـ ابن عربى : محى الدين (ت بدمشق ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)

ـ الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار الملكية

ـ العمرى : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)

ـ مسالك الإبصار فى مســالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية

والأندلس ، نشر حسن حسني عبد الوهاب بتونس
- التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)

- الغبريني . أبو العباس احمد (ت ٧١٤ هـ/١٣١٥م
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية نشر محمد بن ابى شنب (الجزائر ١٣٢٨هـ)

- الغرناطى . (الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى)
رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (القاهرة ١٣٤٤هـ)

- ابن فرحون . ابراهيم بن على اليعمرى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)
الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب . (القاهرة ١٣٢٩هـ)

- ابن القاضى : (ت ١٢٠٥ هـ/١٦١٦م)
درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، جزءان ، نشر علوش (الرباط ١٩٣٤)

- ابن قتيبة . (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
الامامة والسياسة .

- القرمانى . (احمد بن يوسف)
- أخبار الدول وآثار الدول (طبعة بغداد)

- ابن القطان أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى (ت ٦٢٨هـ - ١٢٣٠م)
نظم الجمان فى أخبار الزمان - نشر محمود مكى (الرباط ١٩٦٤)

- القلقشندى ، أحمد بن على (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م)
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جزء (القاهرة ١٣٣٨ هـ)

- ابن القوطية.
تاريخ افتتاح الأندلس . (بمدريد ١٩٢٦)

- الكتانى . محمد بن جعفر
- سلوة الأنفاس.

- ابن الكردبوس :
- كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء - القسم الخاص بالأندلس نشر احمد مختار العبادى - صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥ .

- الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ - ٩٦١م)
- الولاة والقضاة . طبعة روفن جست (بيروت ١٩٠٨).

الماوردى : أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى (٤٥٠هـ سنة ٩٥٧م)
- الأحكام السلطانية . (القاهرة ١٢٩٨ هـ)

- المالكى : أبو عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ق . الخامس الهجرى)
- كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقيــة وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم، نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٠)

- المالقى : أبو الحسن النباهى (ت فى أواخر القرن الثامن الهجرى)
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشر ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨)
- نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣).

- المراكشى : (عبد الواحد)
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب - نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلمى (القاهرة ١٩٤٩)

ـ المراكشي : ابن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م)
ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة نشر منه احسان عباس السفرين ٤-٥ ويقوم بنشر السفر الأول محمد بن شريفة .

ـ ابن مرزوق : الخطيب ابو عبد الله محمد العجيسي التلمساني (ت٧٨١هـ)
ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ـ نشر ليفي بروفنسال نخبا منه في مجلة هسبريس ١٩٢٥ .

ـ المسعودي : محمد الباجي
ـ الخلاصة النقية في أمراء أفريقية . (تونس ١٣٢٣)

المقري : شهاب الدين أبو العباس احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ١٦٣١م)
ـ أزهار الرياض في أخبـــار عياض نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٤٢)
ـ نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب . عشرة أجزاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٠٢هـ .

ـ المقريزي : تقي الدين أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م)
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : نشر محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٦)

ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠)

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء نشر جمال الدين الشيال . (القاهرة ١٩٤٨) .

- مؤلف مجهول :
- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، نشر وترجمة لافونتى الكنترا (مدريد ١٨٦٧)

- مؤلف مجهول :
- الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (نشر علوش. الرباط سنة ١٩٣٦)

- مؤلف مجهول :
- كتاب فتح الأندلس - نشر المستشرق الأسبانى ، خواكين جونثالث ، الجزائر ١٨٨٩م) .

- مؤلف مجهول :
- نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر - نشر ألفريد البستانى ، كارلوس كيروس العرائش ١٩٤٠ .

- مؤلف مجهول :
- مفاخر البربر نشر ليفى بروفنسال (الرباط ١٩٣٤)

- النويرى : شهاب (ت ٧٣٢هـ سنة ١٣٣٢م) .
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، وقد نشرت دار الكتب منه ١٢ جزءا .

- النويرى : محمد بن القاسم السكندرى المالكى (ألفه سنة ٧٧٥ هـ)
- الإلمام بالإعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها إلى حالتها الأولى المرضية مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ .

ابن هانىء الأندلسى : (ت٣٦٢هـ/٩٧٢م)
ـ ديوان ابن هانىء الأندلسي ـ تحقيق أكرم البستانى (بيروت ١٩٥٢)

ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ ١٢٢٩م) .
ـ معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر فى كل مكان . فى ثمانية أجزاء (القاهرة ١٢٢٣هـ .)

ـ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب (ق ٤هـ)
ـ كتاب البلدان ، نشر دى خوية (ليدن ١٨٦٠م)

ثانياً : مراجع عربية حديثة

- ابراهيم العدوى :
  - الأمويون والبيزنطيون .
- أحمد المكناسى :
  - المدن المندرسة فى شمال المغرب .
- أحمد توفيق المدنى :
  - المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ١٣٦٥هـ)
- احسان عباس :
  - العرب فى صقلية، دراسة فى التاريخ والآداب - دار المعارف بمصر ١٩٥٩م
- أرشيبالد لويس :
  - القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط - ترجمة احمد محمد عيسى
- أشبـــاخ :
  - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبد الله عنان
- أمارى ، ميشيل :
  - المكتبة العربية الصقلية - ليبسك ١٨٧٥
- جمال الدين الشيال :
  - تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى

- جنثالث بالنثيا :
- تاريخ الفكر الاسلامي - ترجمة حسين مؤنس ،
- جورجي زيدان :
- تاريخ التمدن الإسلامي
- حسن أحمد محمود :
- قيام دولة المرابطين - صفحة مجيدة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى
- حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن :
- النظم الاسلامية طبعة ١٩٦٢ .
- حسن ابراهيم حسن و طه شرف :
- المعز لدين الله .
- حسين مؤنس :
- فجر الأندلس .
- غارات النورمانديين على الأندلس - مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الأول ١٩٤٩
- المسلمون في حوض البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .
- خوان برنيت :
- هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية ؟ معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٣ - العدد الأول ، ترجمة : احمد مختار العبادي

- خير الدين الزركلي .

- كتاب الأعلام القاهرة ١٩٥٩م) .

- رشيد رضا .

- الخلافة أو الإمامة العظمى - مطبعة المنار ١٩٢٣ .

- كي حسن .

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .

- زيادة : د. محمد مصطفى

- بعض ملاحظات جديدة تاريخ دولة المماليك في مصر .

- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - المجلد الرابع - الجزء الأول سنه ١٩٣٦

- ابن زيدان . عبد الرحمن بن محمد

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس :

طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ - ١٩٣٣)

- د سعد زغلول .

- تاريخ المغرب العربي .

- العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب (مجلة كلية الاسكندرية ١٩٥٣)

- الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول (نشر جامعة الاسكندريه)

- د. سعيد عاشور .

- أوربا في العصور الوسطى .

- سليمان الباروني النفوسي . (ت عام ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠)

- الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية .

- شكرى فيصل .
- حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول الهجرى .

- شكيب أرسلان . (ت ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦م)
- تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط
- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية .

- العبادى : أحمد مختار العبادى
- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس(صحيفة معهدالدراسات الاسلامية مدريد ١٩٥٧)
- الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣)
- الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين - مجلة كلية آداب الاسكندرية١٩٦٧
- دراسة حول كتاب الحلل الموشية - مجلة تطوان العدد الخامس ١٩٦٠.
- الموحدون والوحدة الاسلامية . مجلة التربية الوطنية بالمملكةالمغربية مارس وابريل سنة ١٩٦٢.
- نظام الخلافة فى المغرب - مجلة نبراس الفكر بتطوان ١٩٦٢ .
- العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس فى القــــرن الثامن لهجرى - الكتاب الذهبي لجامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الألف (فاس ١٩٦٠)
- فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة - صحيفة معهـــد الدراسات الاسلامية - مدريد ١٩٥٩.
- النزعات الاقتصادية فى حياة لسان الدين بن الخطيب - مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٥.
- سياسة ابن الخطيب المغربية - مجلة البينة - الرباط مايو ١٩٦٢ .

. (ـ العبادى عبد الحميد)
ـ المجمل فى تاريخ الأندلس . (القاهرة ١٩٥٨)
ـ صور وبحوث من التاريخ الإسلامى . (الاسكندرية ١٩٤٨)

ـ عبد الحى الكتانى .
ـ التراتيب الادارية فى المدينة المنورة العلية . (الرباط ١٣٤٦هـ)

ـ عبد السلام الهراس ،
ـ ابن الابانة ـ مجلة البحث العلمى بالرباط (مايو ـ أغسطس ١٩٦٤)

ـ عبد السلام الطود .
ـ بنو عباد باشبيلية (تطوان ١٩٤٦)

ـ عبد العزيز سالم .

ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس .

ـ عبد العزيز بن عبد الله .
ـ البحرية المغربية والقرصنة ـ مجله تطوان العددان ٣ ـ ٤
(١٩٥٨ ـ ١٩٥٩)

ـ عبد العزيز الأهوانى .
ـ سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ
مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ـ المجلد السادس عشر ، مايو ١٩٥٤ .

ـ عبد القادر الصحراوى :
ـ جولات فى تاريخ المغرب . (الدار البيضاء ١٩٦١)

عبد الله جنون :

- مدخل إلى تاريخ المغرب .

- النبوغ المغربي في الأدب العربي .

- عبد المنعم ماجد :

- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر .

- عبد الرحمن الجيلالي :

- تاريخ الجزائر العام ١٩٥٥

- عبد الهادي التازي :

- مهدية المولى اسماعيل - مجلة المغرب مايو ١٩٦٣

- ابن العربي : (الصديق)

- دليل المغرب

- لي مظاهر :

- محاكم التفتيش

- عمر كمال توفيق

- تاريخ الامبراطورية البيزنطية

- فتحي عثمان :

- الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

- كليكيا سارلي :

- مجاهد العامري : (القاهرة ١٩٦١)

- لسترنج :
- بلدان الخلافة الشرقية

- لطفي عبد البديع :
- الاسلام في أسبانيا.

- محمد ابراهيم الكتاني :
- شذرات من كتاب السياسة لابن حزم
(مجلة تطوان ١٩٦٠) .

- محمد أحمد أبو زهره :
- المذاهب الاسلامية

- محمد بن تاويت :

- بزوغ الثقافة العربية بالمغرب - مجلة تمودا تطوان ١٩٥٦
- دولة الرستميين : صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٨

- محمد الخضري :
- محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية . (القاهرة ١٩١٦ م)

- محمد رضا الشبيبي :
- أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية.
(مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)

- محمد بن شريفة :
- أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي .
- أسرة بني عشرة ، مجلة تطوان ، العدد العاشر ١٩٦٥ .

- محمد ضياء الدين الريس.
- الخراج فى الدولة الإسلامية .
- محمد عبد الرحيم غنيمة .
- تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى .
- محمد العبدى الكانونى .
- آسفى وما إليه .
- محمد عبد الهادى شعيرة .
- الاسكندرية من العصر الاسلامى الى نهاية العصر الفاطمى (كتاب الغرفة التجارية بمدينة الاسكندرية ١٩٤٩.
- محمد الفاسى :
- نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المرينى الأدبية - مجلة البينة ديسمبر ١٩٦٢ .
- الاعلام الجغرافية ، مجلة البينة (مايو ١٩٦٢) .
- محمد المنونى .
- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .
- نظم الدولة المرينية - مجلة البحث العلمى - مايو سنة ١٩٦٤ الرباط .
- محمد ياسين الحموى ،
- تاريخ الأسطول العربى .
- محمود مكى،
- التشيع فى الأندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤ .

- تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالأندلس - نشر محمود مكى بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧
- عبد الكريم بن محمد القيسى آخر شعراء الاندلس - مجلة العربى و أكتوبر ١٩٦٧
- الميلى (مبارك بن محمد الهلالى) :
- تاريخ الجزائر فى القديم والحديث
- هونيرباخ : (فالهلم)
- البحرية العربية وتطورها فى البحر المتوسط فى عهد معاوية - تطوان ١٩٥٤

ثالثا : مصادر أوربية

Abbady : "A. M." :

Algunos aspectos de las relaciones historicas hispano - egipcias, Boletin de la embajada de Egipto en Madrid 23 Julio, 1952-1953.

Aguado Bleye, "Pedro" :

Manual de la Historia de Espana. 2 tomos.
(Madrid 1944-1954)

Alarcon Y. Linares :

Los Documentos àrabes diplomaticos del Archivo de la corono de Aragon.
(Madrid-Gránada 1940)

Albornoz : "Sanchez" :

La Eapana Musulmana. 2 Tomos.
(Buenos Aires 1946)

Alcover : "B. Miguel" ;

El Islam en Mallorca.
(Palma de Mallorca 1930)

Alfonso el Sabio :

Primera Cronica General de Espana. Publicada por, Ramon Menendez Pidal.
(Madrid 1955).

Alfonso Gamir Sandoval :

Organizacion de la defensa de la Costa del reino de Granada desde su reconquista hasta finales del Siglo XVI.

Alfred Bel :

Les Banou Ghanya.
(Paris 1903)

Ali Fahmy :

Muslim sea power in the Eastern Mediterranean from the seventh to the tenth century. A. D, (1950)

Angel Canellas :

Aragon y la empresa del Estrecho en el Siglo XIV. Estudios de edad media de la corona de aragon. seccion de Zaragoza vol. II (Zaragoza 1946)

Amari M. :

Conforti Folitici, Firenze 1851

Argote de Molina :

Nobleza de Andalucia.
(Sevilla 1588)

Arnold : "Thomas" :-

The Caliphate.
(Oxford 1929)

Asin : "Jaime Oliver" :

Origen Arabe de Rebato.
(Madrid 1928)

Asin : "Palacioo" ;

— Contribucion a la toponimia Arabe de Espana.

(Madrid - Granada 1944)

— El Islam cristianizado "Madrid 193 "

Ballesteros ; "A."

Historia de Espana. Tomo III

(Barcelona - Buenos Aires 1948)

Bargés : "l'Àbbé" :

— Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen

(Paris 1952)

— Complement de l'histoire des Beni Zeiyan Rois de Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd Al Jalil al Tenessi.

(Paris 1887)

Basset et Terrasse :

Tinmel (Hespéris 1924).

Berchem : "Max van" :

Titres Califien d'occident Journal Asiatique. IX 1907.

Bleda "Fray Jaime" :

Cronica de los Moros.

(Valencia 1618)

Brunschvig :

La Berbérie Oriental sous les Hafsidés 2 tomes
(Paris 1940 - 1947)

Bury : "J. B." :

The Naval Policy of The Roman Empire in relation to the western provinces from the 7th to the 9th century. (centenario della nascita di Michele Amari. Palermo, 1910)

Bustamante : "Perez" :

Compendio de la Hist. de Espana.
(Madrid 1928).

Caillé : J

La ville de Rabat. Histoire et archeologie,
3 tomes (Paris 1949)

Campaner A. y Fuertes "Alvaro" :

Bosquejo de la dominacion Islamita en las Islas Baleares.
(Palma de Mallorca 1888)

Capmany : "Antonio" :

— Memorias historicas sobre la marina, Comercio y artes de la Antigua Ciudad de Barcelona. Tomos III y IV
(Madrid 1792)

— Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde el siglo XIII hasta el siglo XV
(Madrid 1786)

Carlos de Luna : "josé"

Historia de Gibraltar

(Madrid 1944)

Cascales ; "Franciseo"

Discursos historicos de la muy noble Ciudad de Murcia.

(Murcia 1621)

Codera "F" :

Mochehid Conquistador de Cerdena, centenario della nascita di Michele Ama

(Palermo 1910)

Concise Encyclopaedia of Arabic civilization.

(Djambatan - Amesterdam 1950)

Creasy : Las batallas decisivas en la historia del mundo

(Espanä 1940)

Cronicas de los reyes de Castilla desde don alfonso el sabio hasta los Reyes Catolicos ed. Rosell.

(Madrid 1876 — 1877)

Cuartero Larrea : "Miguel"

El Salado, Revista "Ejercito" 1941, No 13.

De Castries :

Les sources inedites de l'histoire du Maroc. Portugal I, Espagne I,

(Madrid — Pari s1921)

Derenbourg "Hartwig" :

Omara du Yemen, sa vie et son oeuvre, 2 tomes

(Paris 1909)

Diccionario de historia de Espana 2 tomos.

(Madrid 1952)

Dozy "R." :

— Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne 2 tomes

(Amesterdam 1965) 3 ed.

— Supplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes

(Leiden - Paris 1927)

— Scriptorum arabum loci de Abbadides

(Leyde 1846 - 63)

Eguilaz y Yanguas "Leopoldo" :

Glosario etimologico de las palabras espanolas de origen oriental.

(Granada 1886)

Encyclopaedia of Islam.

Garcia Gomez, "Emilie" :

Cinco poetas musulmanes

(Colleccion Austral n. 513)

Gayangos, "Pascual de Gayangos" :

The history of the Mohammedan dynasties in spain. extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols.

(London 1840 - 1843)

Gaspar Remiro. M. :

— Historia de Murcia Musulmana.

— Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV. Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al Jatib.

(Grenada 1916)

Gimenez Soler "Andres" :

— La Corona de Aragon y Granada, Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona (1905 - 1908)

— Expedicion de Jaime II a la ciudad de Almeria, o el Sitio de Almeria (1309) B.R.A.B.L.B. 1904 no 14

Goldziher : "I." :

Le livre de Mohammed Ibn Tumert, Mahdi des Almohades.

(Alger 1903)

Golvin : "L." :

Le Magreb central a l'epoque des Zirides, Recherches d'archeologie et d'Histoire.

(Paris 1957)

Goitten : "S. D." :

The Origen of the vizirate and its true character. (Islamic Culture, Vol. XVI, 1942)

Hopkins : " J.F."

Medieval muslim government in Barbary until the sixth century of the Hijra.

(London 1958)

Hulci Miranda : "Ambrioso" :

— La Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaca,
(Hespéris 1953)

— Historia politica del Imperio Almohede, 2 tomos
(Tetuan 1956)

Julien, : "André CH." :

Histoire de l'Afrique du Nord de la conquete arabe a 1830.
(Paris 1952)

Laoust : "Henri" :

La Califat dans la Doctrine de Rasid Rida,
(Beyrouth 1938)

Latrie : "Mas" :

Traités de Paix et de commerce et documents divers Concernant les relations des chretiens avec les arabes de l'afrique Septentrionale au moynn age
(Paris 1866)

Lafuente Alcantara : "Miguel"

Historia de Granada, 4 tomos
(Granada 1843 - 1848)

Lafuente Alcantara : "Emilio" :

Inscripciones arabes de Granada
(Madrid 1860)

Leon Africano : Juan (al Hasan ibn Mohammad al Wazzan)

Descripcion de Africa y de las cosas notables que en, ella se encuentran,
(Tetuan 1952)

Lévi-Provençal : " E." :

— Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes.
(Paris 1950)

— La politica africana de Abd al Rahman III, (Al Andalus. vol. XI, fasc. 2, 1946)

— La Peninsule Iberique du Moyen-Age d'apres le Kitab Ar-Rawd al Mitar d'Ibn Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938)

— Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350), Melange offierts a William Marçais,
(Paris 1950)

— Un Zagal hispanique sur l'expedition aragonaise de 1309 contre Almeria (Al Andalus Vol. VI, 1941 fasc. 2)

— Une description de Ceuta musulmane au XV siecle (Hespéris 1931, tome XII)

— L'Espagne musulmane ax Xeme siecle.
(Paris 1932)

Lopez de Ayala, " Pedro "
Cronica de los reyes de Castilla 2 tomos.
(Madrid 1779)

Lopez : " Luciano "
la batalla de Covadonga e Historia del Santuario.
(Oviedo 1950)

Madelena Luz Pomes :

Los aragoneses en la conquista y Saqveos de Alejandria por Pedro I de chipre, Estudio de la edad media de la Carona de Aragon tomo, V

Marçais : " G. " :

L'architecture musulmane d'occident

[Paris 1954]

Mariana " P. " :

Historia General de Espana Tome II

(Madrid 1948)

Melchor Antuna : " Martinez " :

— Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammed II de Granada,

(Religion y Cultura, 1932)

— El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la biblioteca del Escorial

(Imprenta del real Monasterio 1926)

Menéndez y Pelayo : M.

Origenes de la novela.

(Santander 1943

Mercier : "Ernest" :

Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquete francaise (1830) 2 tomos.

(Paris 1888)

Merimee : " Prosper "

Histoire de Don Pedro roi de Castille
[Paris 1865]

Motylinski :

Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert, actes du XIV Congres des Orientalistes 3 parstie 1907.

Millas Valliecrosa " José Maria "

La paesia sagrada hebraico-espanola
[Madrid-Barcelona 1948]

Muir : " William " :

The Caliphate its rise, dechine and fall.
(Edinburgh 1924)

Muller : " Marcus Joseph " :

Beitrage zur Geschichte der westlichen araber .
(Munchen 1866)

Ocana : " Manuel Jimenez "

Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y viceversa.
(Madrid - Granada 1946)

Palencia : " Angel Gonzalez :

— Historia de le Espana musulmana (1945)

— Historia de la literatura arabigo-espanola
(Coleccion Labor III 1945)

Paz y Mella :
Embajada del Emperador de Alemania Oto I al califa de Cordoba Abderrahman III
(Madrid 1872)

Pérès : "Henri."
La poesie andalouse en arabe classique aux XI siécle
(Paris 1953)

Pons Boigues : "Francisco" :
Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles.
(Madrid 1898)

Prieto y Vives : "Antonio"
— Los reyes de Taifas
(Madrid 1926)

— Formacion del reino de Granada.
(Madrid 1927)

Prescott "William H." :
History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.
(London 1895)

Ribera, "Julian" :
Un monasterio musulmane en Denia, en:
(Disertaciones y Opusculos, Madrid 1928)

Roque "Chabas" :

Historia de la ciudad de Denia.

(Denia 1874)

Saavedra : "E." :

Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana .

Seco de Lucena, "Louis" :

— La Alhambra

— Sobre el viaje de Ibn Battuta al reino de Granada

(Al Ándalus, Vol. XVI 1951)

— Los Hammudies senores de Malaga y Algeciras.

(Granada 1953)

Simonet : " Francisco Javier "

— Descripcion del reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas.

(Madrid 1860)

— Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes.

(Madrid 1888)

Seybold : "C. F."

Analecta arabo - italica en (centenario della nascita di Michele Amari, Palermo 1910)

Torres Balbas : "L." :

— Atarazanas hispanomusulmanas.

(Al Andalus, 1946)

— Rabitas hispanomusulmanas.
[Al Andalus 1948]

Vasiliev, " A. " :
History of the Byzantine Empire.
(Madison 1952)

Wiet : " Gaston " :
— Histoire de la nation Egyptienne.
(Paris 1926)

— Précis de l'Histoire d'Egypte.
(Le Caire 1932)

Zurita : " Geronimo " :
Los anales de la Corona de Aragon.
(Zaragoza 1688)

الفهارس

١ - فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

٢ - فهرس البلدان والجبال والأنهار

فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

(ت)

فهرس البلدان والمواقع والجبال والانهار

(ب)

ع

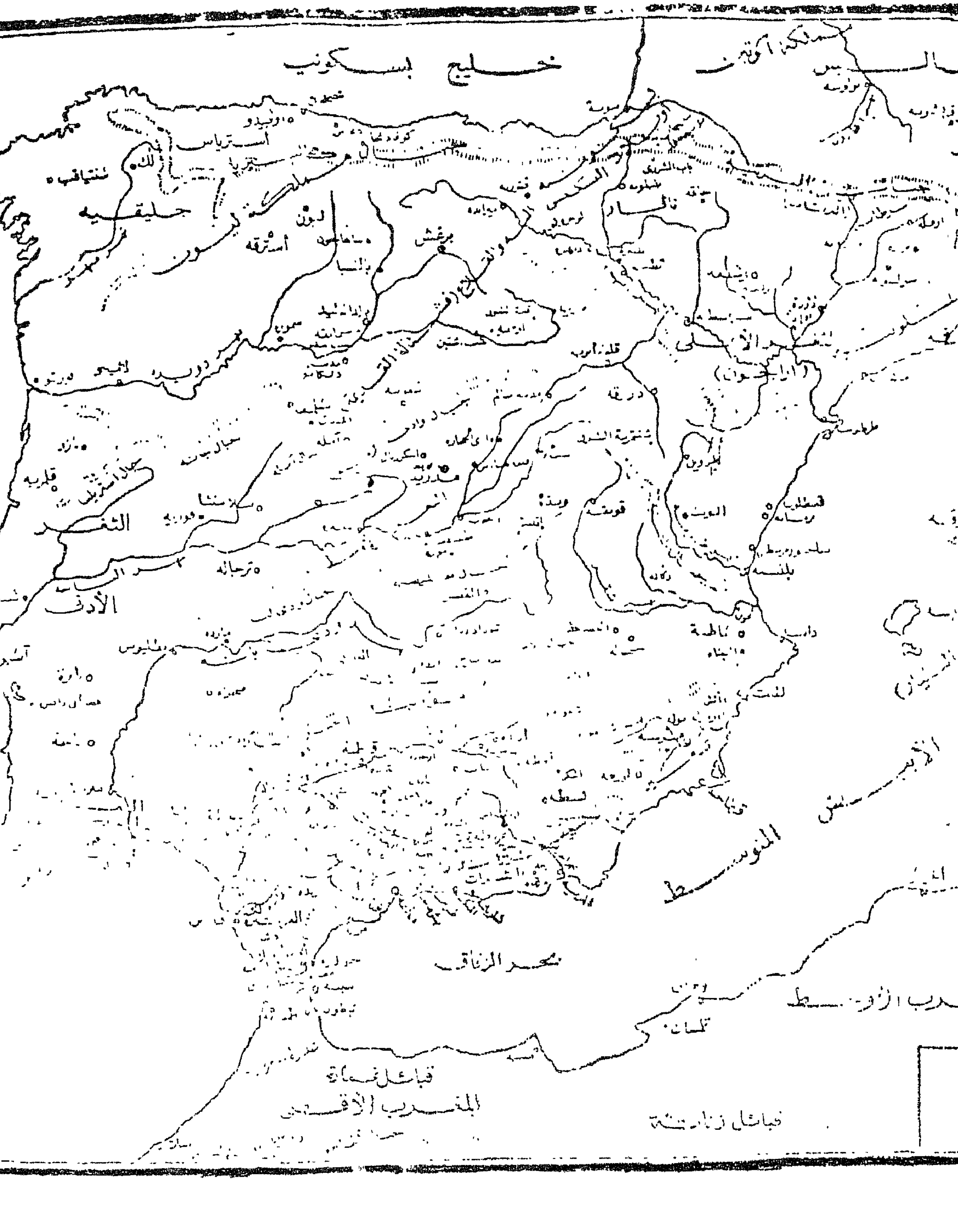
(ك)

الخطأ والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
ابن	ابنه	٦	١
mcihel	Michele	٦	١٧
لأطلس	الأطلسى	١١	١٣
حليفة	حليفه	١٤	١٣
بن الكردموسى	ابن الكردبوس	٢٣	١ حاشية
بمنطقة مزاب وجبل نفوسة فى ليبيا	بمنطقة ميزاب فى الجزائر وبجبل نفوسة فى ليبيا جنوبى طرابلس	٤٩	١
سنة ٣١٧ هـ	سنة ٣١٦ هـ	٧٠	١٣
وقد كان يشير	وقد أشار	٧٣	١٢
ولد أيوب	ولده أيوب	٧٧	٥
سنة ٣٤٤ هـ	سنة ٣٣٤ هـ	٧٧	١٧
منطقة سوسة وطبرقة شرقى بنزوت	منطقةسوسةشرقى بنزوتوطبرقة فى غربها	٨٠	١٤
ابن قرحون	ابن فرحون	٧٩	١ حاشية
الاسلوريال	الاسكوريال	٩١	١٣٢
الراكشى	المراكشى	٩٢	٢١
الأندلس	أندلس	٩٥	٩
be	de	١٣١	٢١
إلمتوفى	المتوفى	١٦٠	١٦
الزراحنه	الوراجنة	١٦٩	حاشية ١

خطأ	صواب	صفحة	سطر
ابن أبى زوع	ابن ابى زرع	١٦٢	حاشية٢
بالنينا	بالنثيا	١٦٩	١٨
زهر	ابن زهر	١٧٠	١٠
إبوسنت	إنوسنت	١٧٦	٦
بنى الواو	بنى عبد الواد	١٩٧	٧
الزيانية	الدولة الزيانية	١٩٨	١
بنى اب حفص	بنى حفص	٢٠٠	٤
المقدالة	المقدمة	٢٠٠	١٨
١٣٦٩م	١٣٨٧م	٢٠٣	١١
زنانة	زناته	٢٠٨	١
ابى عناب	ابى عنان	٢١٧	٣
المزاور	المزوار	٢٢١	٧
ومشرب	وشرب	٢٢٤	٢٠
جهنم	فى جهنم	٢٢٤	٢٢
محمد أبن يوسف	محمد بن يوسف	٢٢٦	١٠
تذكر	نذكر	٢٣٦	٨
الاصاطة	الاحاطة	٢٤٠	حاشية٢
الذينية	الدينية	٢٧٢	١٩
توضيح	ترصيع	٢٧٢	٢١
أنو	أوتو	٢٧٣	٥
أو	أن	٢٧٣	٩

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
الجديد	الجديدة	٢٧٣	١٣
بيرنطه	بيرنطة	٢٧٤	٥
Papis	Paris	٢٩٢	حاشية ١
Cabo be Gata	Cabo de Gata	٢٨٥	٥
ابن شكوال	ابن بشكوال	٣٠٠	حاشية ١
الوبيرية	الزبيرية	٣٢٦	٩
محمد غانية	محمد بن غانية	٣٣١	•
وانقضاء	وابتداء	٣٣٤	١٨
جيل الاجيال	جيل من الأجيال	٣٣٨	٢
Alndré	André	٣٤٧	حاشية ٢
صاحب الصلاة	ابن صاحب الصلاة	٣٥٠	٢
قطعة	قطعه	٣٦٨	٨
يسيمه	يسميه	٣٦٨	حاشيه ٢
Alemunecar	Almunecar	٣٩٤	٩
بنا	بنات	٤١٦	حاشية ٢



خليج بسكوني
جليقية
الثغر
بحر الزقاق
قبائل غمارة
المغرب الأقصى
قبائل زناتة
تلمسان

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس

الأستاذ الدكتور
أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
بجامعة الكويت والإسكندرية سابقاً

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٣ - الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

هذه مجموعة من الابحاث فى تاريخ الغرب الإسلامى من خلال خططه أو نظمه الإدارية والعسكرية . ولعل القارىء يستطيع أن يلاحظ أن هذه الوظائف الكبرى التى تناولتها هـذه الدراسات ، لم تكن مقصودة لذاتها بقدر ما كانت محورا لدراسة شاملة للعصور التاريخية التى عاشت فيها . وقـد ساعدتنا هذه الطريقة على دراسة تاريخ المغرب والاندلس من زوايا متعددة وابعاد مختلفة .

وقد بدأنا هذا الكتاب بدراسة عن أحداث الفتح العربى لاسبانيا على ضوء ما استجد من نصوص ، وعنّ لنا من آراء وملاحظات ثم تناولنا فى البحث الثانى خطة الخلافة على اعتبار أنها الوظيفة الكبرى فى الدولة الاسلامية ، فشرحنا دورها السياسى والدينى فى المغرب والاندلس والظروف التاريخية التى أحاطت بها .

أما البحث الثالث ، فقد تناول خطة الوزارة باعتبارها القاعدة الثانية فى الدولة . وحاولت أن أبرز فيه شخصية الوزير المغربى أو الاندلسى من حيث المظهر والاختصاص والإسم . وهذه الاختصاصات الوزارية كانت مهمة وخطيرة لأنها تشمل سلطات السيف والقلم والمال ، وتتطلب كفاءات ومواهب لا تتوفر إلا فى بيوتات معينة اختصت بهذه

النواحى المختلفة . وعلى هذا الأساس غلب على الوزارة الأندلسية والمغربية فى معظم الأحيان صفة التعدد فى الوزارات والوزراء .

أما البحث الرابع ، فتناول تاريخ البحرية المغربية والأندلسية ، وقد عالجنا فيه ناحيتين أساسيتين وهما : دور الأسطول فى الذود عن أرضه وجهاد أعدائه ، ثم وسائل الدفاع الساحلى ضد الغارات البحرية.

ولقد سيطر المغاربة والأندلسيون فى بداية الأمر على غربى حوض البحر المتوسط وتحكموا فى ممراته الهامة ولا سيما مضيق جبل طارق الذى ظل ممرا اسلاميا بدون منازع حتى القرن السابع الهجرى (١٣ م) حينما أخذت القوى المسيحية بعد ذلك تعمل على منافسة المسلمين فى السيطرة على هذا الممر الحيوى باعتباره همزة الوصل بين عدوتى المغرب والاندلس . ومن هنا نشأ صراع طويل بين القوى المطلة عليه أو القريبة منه مثل قشتالة ، وأراجون ، والبرتغال ، وغرناطة ، والمغرب .

ونظرا لتشعب تاريخ هذه الفترة الأخيرة وتشابك أحداثها ، فقد اضطررنا إلى إفراد بحث خامس تضمن تاريخا لهذا الصراع أو بعبارة أخرى تاريخا لعـــدوتى المغرب والأندلس فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى (١٤ م) :

هذا ، ويلاحظ أننا حرصنا على الاستشهاد بأكبر قدر ممكن من النصوص التاريخية ، لتدعيم هذه الدراسات من جهة ، ولوضع القارىء فى الصورة المعاصرة لها من جهة أخرى .

وإنى آمل أن أتابع هذه الدراسات بجزء ثان عن قريب ، يتناول

بنفس المنهج ، خطط الجيش والقضاء وإدارة المدن والولايات ، إن شاء الله .

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أوجه شكرى إلى السادة الأفاضل عمر عبد الهادى غنيم وفتحى عبد العزيز أبو راضى ، وأحمد الطوخى ومحمد على زيدان ، لمعاونتهم الصادقة المخلصة فى رسم الخرائط وعمل الفهارس .

والله أسأل السداد والتوفيق فى الفكر والقول والعمل ، إنه نعم الموفق ، ونعم النصير .

فهرس الموضوعات

صفحة

— ٣ —

الوزارة والحجابة فى المغرب والأندلس

— ٤ —

تاريخ البحرية العربية في المغرب والاندلس

— ٥ —

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

في القرنين الثامن والتاسع الهجرى (١٤ ، ١٥م)

الضمائم

صفحة